المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
بمكة المكرمة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة
الدراسات العليا

الطالب أجرى التعديلات المطلوبة
د/أحمد محمد بنان

لقد أجرى الطالب التعديلات المطلوبة د/محمد الحبيب

د/عبد الشكور العروسي

القادرية في موريتانيا

عرض ونقد

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

<u>إعداد الطالب</u>

محمد الداه أحمد

<u>إشراف الدكتور</u>

عبد الشكور محمد أمان العروسي

الجزء الأول

عام ١٤١٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

القادرية في موريتانيا عرض ونقد

(ملخص البحث)

الحمد لله المنعم المتفضل وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد ، فقد بني هذا البحث على أربعة أعمدة ثلاثة أبواب وفصل ختامي بالاضافة الى مقدمة وتمهيد في البداية وخاتمة في النهاية . أما المقدمة فتناولت أهمية الموضوع وأسباب اختياره وجمع مادته ومنهج دراسته وما بذل فيه ومحتوياته بعد بحثه اعتماداً على خطته.وأما التمهيد فقد تناول نشأة التصوف ونسبته وحده وأقسام الصوفية والطرق الأولى .

أما الباب الأول : فعن نشأة القادرية حيث خصص الفصل الأول لنشأتها في بغداد مع ترجمة وافية للشيخ عبد القادر الجيلي الذي تنسب إليه ثم ما ينسب إليه من عقيدة وسلوك وسلاسل صوفية طرقية.ثم اتصل الكلام بالفصل الثاني عن نشأة القادرية في موريتانيا حيث مهد له بمدخل عام تضمن أربعة مقاصد في التعريف بموريتانيا - ميدان البحث - ودخول الاسلام إليها والعقيدة فيها أيام دولة المرابطين والنزاع العقدي بينهم وبين المهدي بن تومرت شيخ الموحدين ثم العقيدة بعد ذلك في موريتانيا قبل دخول القادرية وبعد دخولها وتتبع البحث دخول القادرية الى موريتانيا محاولاً بيان مراكزها الأولى وانطلاقاتها وفروعها مستعرضاً أهم الطرق الصوفية الأخرى في البلاد مثل الشاذلية بفرعيها : المتالية والأغظفية.والتيجانية التي أصلها الحافظية والحموية . ثم ترجم البحث لأحد عشر علماً من أعلام القادرية بموريتانيا مفصلاً القول في حياة العلمين المنسوبة لهما الطرق الرئيسة - البكائية - الفاضلية - دارساً وناقداً سلاسلهما في الصوفية .

الباب الثاني : عقائدهم : حيث بين هذا الباب بالعرض والنقد منهج القادرية الفكري وموقفها من التأويل والعلم والعقل والجهاد وعقيدتها في الحلول والاتحاد ووحدة الوجود والقضاء والقدر والملائكة والنبوات والولاية وختمها وما يندرج تحت الولاية عند الصوفية من علم الغيب والعصمة والتصرف في الكون والحيل وعلوم السر والتوسل والاستغاثة والتبرك .

الباب الثالث : السلوكيات والعبادات عندهم : على ضوء الكتاب والسنة والمأثور عن سلف الأمة.فدرس فيه مكانة الشيخ في الطريقة وما ينسب إليه وما يجب له ولذويه وما يجب عليه للمريدين وما يجب عليهم فيما بينهم إلى أن اتصل البحث بالعبادات عندهم فدرس الخلوة وآدابها والعبادات الخاصة بهم وما أحدثوه من صلاة وذكر ودعاء وهيئات ثم تتبع البحث أهم أورادهم ومقاصدها نعرضها على الكتاب والسنة والمأثور عن السلف الصالح إلى أن خلص الى الأحوال الصوفية عندهم وموقفهم منها وعباداتهم في أثناء طرق الأحوال لهم وربط ذلك بالمقامات عندهم عموما وخصوصاً مقام الجذب والفناء والتوكل ، حتى دخل البحث الى آخر أعمدته التي بني عليها وهو :

الفصل الختامي : الصحوة السلفية في الطريقة القادرية حيث درس فيه بعد تمهيد يوضح عنوانه والمراد منه منطلقات هذه الصحوة ومظاهرها في العقيدة والسلوك وسبل تدعيمها ذاكراً نماذج من الشيوخ والمدارس يرى أنها أحق وأولى بالدعم من غيرها .

ثم ختم البحث بخاتمة تستخلص نتائجه وآماله وتقترح وسائل لقطف ثماره على ضوء الكتاب والسنة وعمل سلف الأمة .

أهم نتائج البحث :

أولاً : أن الطرق الصوفية حادثة في الملة الاسلامية بعد القرون المفضلة ولا يصح شيء من سلاسلهم الطرقية الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسانيدهم إلى الشيخ عبد القادر الجيلي موضوعة أصلاً .

ثانياً: أن القادرية في موريتانيا نشأت في القرن العاشر الهجري .

ثالثاً: عندهم انحرافات كبيرة في العقائد .

رابعاً: عندهم غلو عظيم في شيوخهم .

خامساً: عندهم أذكار وأوراد وعبادات مبتدعة أصلاً .

سادساً: عندهم أغلاط علمية وتاريخية بسبب البعد عن الكتاب والسنة وتصديق الخرافات والمنامات والإلهامات .

سابعاً: لهم مشاركات في نشر الاسلام الطرقي الصوفي ولهم جهود في نشر العلم وإقامة مراكز اقتصادية يأوي إليها العالم والمتعلم على نهجهم في ذلك .

ثامناً: تاب على أيدي بعضهم كثير من قطاع الطرق وأهل السلب والنهب .

تاسعاً: شارك بعضهم في مقاومة الاستعمار .

عاشراً: رجع أفراد منهم إلى الكتاب والسنة ودعوا إلى محاربة البدعة .

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

الطالب	المشرف	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
محمد الداه أحمد	د/ عبد الشكور العروسي	د/ علي بن نفيع العلياني
	١٤١٢/٩/١١هـ	

شكر ودعاء

الحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات والصلاة والسلام على من ختمت به النبوات محمد وآله وصحبه السادات .

وبعد فإنه قد تضافرت جهود كثير من الخيرين في هذا البحث وكان لبعضهم مساهمات أساسية وللبعض الآخر مشاركات لها أثرها .

وانطلاقاً من قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يشكر الله من لا يشكر الناس)* وقوله صلى الله عليه وسلم : (من صنع إليه معروف فقال لفاعله . جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء)** فإني أشكر وأدعو لكل من سعى معي في هذا البحث ابتداء وانتهاء .

فأشكر حكومة خادم الحرمين الشريفين والشعب السعودي المضياف ، وأشكر أهل العلم والطلاب الذين سعوا معي في البحث عن المراجع في كل من جامعة أم القرى والجامعة الإسلامية بالمدينة المنوره والمغرب وموريتانيا وفي مقدمة أهل العلم الذين استوجبوا مني الشكر والدعاء أستاذي الفاضل الدكتور / عبد الشكور محمد أمان العروسي الذي صحبته موجها ثم مشرفا فكان لي نعم الموجه الموفق والمشرف الناصح الأمين فله مني على كل ذلك الشكر الجزيل والدعاء الخالص ما حييت .

وأشكر وأدعو من أعماق قلبي لأولئك الذين سعوا معي في تذليل الصعاب التي عرضت لي من الناحية النظامية أو النواحي المالية في جامعة أم القرى والرابطة وأخص بالذكر الأستاذ مراد سليمان عرقسوس ومن معه من الخيرين في شئون التعليم بالرابطة .

وإني أخص بالشكر والدعاء هؤلاء العبادلة والصالحين والمحمدين أما العبادلة فهم : معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف .

ومعالي الدكتور عبد الله بن عبد الله الزائد .

ومعالي الشيخ عبد الله بن بيه ..

وفضيلة الشيخ عبد الله بن محمد الخليفي .

وأما الصالحون فهم : معالي الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد .

وفضيلة الشيخ صالح بن محمد المقوشي .

وفضيلة الدكتور صالح بن عبد الله العبود .

وأما المحمدون فهم : الأستاذ محمد المصطفى بن الندى .

والأستاذ محمد الحسن بن اددو - والأستاذ سيدي محمد بن أحمدو .

والأستاذ محمد الحافظ - والاستاذ الشيخ محمد عبد الله بن الشيخ محمد حامد .

هذا وأقول للجميع شكر الله لكم وجزاكم الله خيراً .

الباحث

---

* ابو داود والترمذي .

** الترمذي . وكلاهما حسن صحيح .

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد ...

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة . (*)

قال تعالى : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ (**)

قصة الاختيار وأهمية الموضوع :

هذا وإنه لما من الله تعالى علي بالرحلة في طلب العلم إلى هذه البلاد المقدسة كنت حريصا على مقارنة ما نتعلم ونسمع هنا بما كنت تعلمت في بلادي وسمعت من أهلي ومشايخي وخصوصا في أصول الدين إذ بصحة العقيدة وسلامة المنهج تكون قوة الايمان واليقين وصحة العمل وقبوله إن شاء الله تعالى وبفساد العقيدة يفسد الجميع والعياذ بالله .

وإني وجدت في المناهج الدراسية والدروس العامة في الحرمين الشريفين والمحيط العلمي العام تضليلا وتبديعا للصوفية واتهاما بالغلو المفضي إلى الشرك .

فقارنته بما كنت أسمع من والدي ووالدتي ثم شيوخي بعد ذلك حيث إني كنت أسمع منهم تأسفا على من دخل من إخوانهم في الطرق الصوفية ويقولون : أعوذ بالله أصبح من أهل الأوراد أهل الرقص والازدراد .

(*) صحيح مسلم من خطبته صلى الله عليه وسلم .

(**) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

وإذا رأوا من يرتكب أمراً غريبا في الدين نسبوه إلي بدع الطرقين وشطحاتهم وغلوهم في الدين .

ولكن هذا الموقف وتلك العبارات والأحكام لا تعطي علما حقيقيا وتوضيحا كاملاً للعقائد المنحرفة أو الغلو المذكور والبدع المنفرة ، وإذا سمعنا عن أحد من العلماء المحلين أنه يكفرأحد الشيوخ المتبوعين واستشكلنا ذلك قيل لنا : إنما فعل ذلك سداً للذريعة وحماية لجانب التوحيد ودفاعا عن الشريعة فهو أثابه الله من أهل الأتباع .

ومن هنا قلت : لعل هذا الذي نتلقاه ونسمعه هنا من هذا الباب أو من التشددات الشخصية . ولكن هذا الاحتمال تبدد عندما التحقت بجماعة العقيدة والفكر الإسلامي ضمن النشاطات الطلابية بكلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة حيث اشتركت في ندوات علمية عن البدع ومضارها ومظاهرها في البلاد الإسلامية وكانت بدع المتصوفة لها نصيب وافر من المناقشات والردود فاستفدت كثيراً عن الصوفية تاريخا وعقيدة وسلوكا حتى شعرت من نفسي باهتمام خاص بهم تمثل في القراءة عنهم وتفهم لما يكتب عنهم حتى اشتركت في الدورة التدريبية على الدعوة والخطابة الخاصة بالمتخرجين حيث تمكنت من قراءة عدد من كتب الصوفية وكتب خصومهم لنتمكن من إعداد ندوات وإدارة حوارات في نفس المجالات ، فوفقت بحمد الله في ذلك ولكني فزعت جداً وتأسفت كثيراً على ما وجدت من انحرافات وبدع وخرافات تقول بها الصوفية أو تعتقدها وتدافع عنها ، وقلت في نفسي عسى أن تكون صوفية موريتانيا سالمة من هذه العقائد المخرجة من الملة والبدع المكفرة ثم نويت أن أبحث عن كتبهم وأن أسأل عن أحوالهم وعقائدهم فإن وجدت عنهم ما يحتاج إلى الرد عليه حاولت رده وبينت لهم حسب طاقتي ما فيه نصحاً لهم وشفقة عليهم ولكن لم يكن ذلك بالأمر الذي يجعلني أختاره موضوعا لرسالة علمية تحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل ، وإنما كان مجرد نية يمكن أن تحقق متى ما أذن الله وتهيأت الأسباب بتحصيل بعض مؤلفاتهم ومحاورة بعض المنتسبين للعلم من شيوخهم حتى تكون نصيحة عن وعي وتثبت أورد مؤيد بالدليل والبرهان يقيم الحجة

ويبرىء الذمة ويعطي ثمرة ومردودا حسب الجهد الذي بذل فيه بعيدا عن الجامعات وأقسام الدراسات العليا والرسائل العلمية وما يطلب فيها من موضوعية ومنهجية وقيود زمنية وآداب علمية . لذا فإنه مع وجود ذلك الإهتمام والخلفية العلمية والنية الجازمة لم نفكرفي طرح هذا الموضوع ولو ضمن موضوعات أخرى عرضت لي أثناء السنة المنهجية كاحتمال وارد وإنما أخذت بعد الانتهاء من السنة المنهجية في اقتراح عناوين لموضوعات في الأديان أو التيارات الوافدة على البلاد الإسلامية حيث عرضت على الموجه بعضا منها ووافق لي على خطة عن البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم في الكتب المنزلة وتقدمت بها إلى مجلس القسم وتوقعت الموافقة وانتظرت شهراً تقريبا وكانت النتيجة أن القسم يطلب كشرط للموافقة على تسجيل الموضوع مقارنة خطته بخطة رسالة أعدت في الموضوع ثم إبداء الفروق بينهما . وهذه الرسالة أعدت في بلد آخر ولم تنشر بعد ولا علم لي بها ، فضقت لضيق الوقت عن ذلك ولما ضاع من وقتي وجهدي ثم تواصلت لقاءاتي مع الموجه دون أن نتفق على موضوع نهائي إذ كانت الموضوعات التي أعددتها في المجالات المذكورة إما أن نتركها من نفسي بعد أن نبحث فيها ويتبين لي عدم جدواها وإما أن يعترض عليها الموجه اعتراضا وجيها فأتوقف عنها .

وفي أحد اللقاءات تحدثنا عن الدعوة الإسلامية وما يعترضها من عقبات فكانت فرصة لي أن أتحدث عن موريتانيا وما يمكن أن يكتب عنها فأخذ الموجه يستمع إلي حتى نثرت له كنانتي عن الموضوعات والمجالات الدعوية في موريتانيا فعجمها عوداً عودا حتى توقف عند الطرق الصوفية في موريتانيا فحدثته عنها فوجد أن هذا الموضوع هو أصلبها عوداً وأمرها مذاقاً فقال لي لماذا لا تكتب في هذا ؟

فتعللت بأنه موضوع شائك والكتابة فيه شاقة وأن الماجستير إنما هي مقدمة للدكتوراه فلا تتكلف كثيراً في المقدمة دون الهدف ، ولكن ودعته بعد الاتفاق على أنه موضوع يستحق الأهتمام والمشورة فيه .

فأخذت في مقابلة بعض الأساتذة والشيوخ والزوار استشيرهم في الكتابة في هذا الموضوع وأطلب منهم المعونة وأجمع منهم المعلومات ولكن كان بعضهم يحذرني منه لأنه حسب مفهومه سيتناول الأولياء والصالحين والعلماء العاملين إلى غير ذلك من العبارات

التي تخوف من الإقدام وتدعو إلى الاحجام . والبعض الآخر يشير علي بالكتابة فيه لأنه موضوع حيوي ومهم ولكن كيف ؟ وأين المصادر ؟ لا تجد جوابا واضحاً مساعداً وفهمت من ذلك كله أنه موضوع ذو مجاهل ومشاق وأن أهل التصوف لا يعرفون إلا القليل عن تصوفهم وما هم عليه ، والأساتذة لا يعرفون عن تاريخ بلادهم وما فيها من العقائد إلا النزر اليسير وغالبه من السماعات والحكايات ، وأما المكتوب فيسمعون فقط أن فلانا له تآليف وأنه من أهل العلم .

عند ذلك استخرت الله تعالى في العمل على كشف ذلك المجهول وتوضيح ذلك الغموض فانشرح صدري لذلك ورغبت فيه فأخذت في جمع شتات المعلومات التي جمعتها في أثناء تلك المقابلات والمشورات لنسبك منها خطة معقولة ومقبولة . ولكي نبني خطتي على أساس متين وعلى نماذج سابقة ناجحة أخذت في قراءة بعض الرسائل العلمية التي أعدت عن الصوفية والكتابات الجادة الأخرى فخرجت من قراءتي بتصور واضح لعناوين الأبواب الرئيسية وبالاقتصار أيضاً على الطريقة القادرية بدلا من عنوان: الطرق الصوفية وذلك أن المصادر أجمعت لي على أنها أقدم طريقة صوفية في الإسلام منظمة وأن هذا السيل الذي نراه من الطرق الصوفية إنما هو فروع لها أو كالمتفرع عنها ففضلت أن يكون جهدي في الأصول إذ بصلاحها تصلح الفروع وبفسادها يكون فساد الفروع وعلى ذلك تمت صياغة الخطة ومناقشتها مع الموجه حيث وافق عليها وقدمتها للقسم للموافقة عليها .

ولكني كنت متخوفا من أمرين :

أحدهما : رد الموضوع علي .

وثانيهما : صعوبته إذا ما ووفق عليه .

أما خوفي من رده علي فلأن من عادة الجامعات وأقسام الدراسات العليا عدم الموافقة للطلاب على تسجيل موضوع يخشى أن يكون الطالب المتقدم يتعصب له أو يتعصب عليه . وهذا أمر قائم بالنسبة لي مع هذا الموضوع حيث إنه يخشى علي من التعصب له لأنه موضوع في العقيدة وهي أخطر ما يكتب فيه لأن غيرها يقال فيه

أصبت أو أخطأت وفيها يقال آمنت أو كفرت أو ابتدعت وانحرفت . وهذا عن الأهل والإخوان والجيران من الصعوبة بمكان .

ويخشى علي من التعصب عليه لأنه يظن بي . وأرجوا أن يكون ظن يقين . أنني من طلبة العلم السلفيين الداعين إن شاء الله إلى التزام الكتاب والسنة وما كان عليه الصالحون من السلف . والمعروف عن السلف بغض البدع ومحاربتها والتشهير بأهلها والتنفير من مصاحبتهم أو مجالستهم أو حتى مكالمتهم أو مصافحتهم ومعلوم أن الصوفية قد ولدت على البدع وتربت عليها ولم تفطم عنها حتى يومنا هذا وقد رد عليها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره وتكلم فيها أئمة كبار كمالك ، والشافعي ، وغيرهما من أهل العلم والتحقيق ، سواء أدخلنا عملهم ذلك في الجرح والتعديل أو في محاربة أهل البدع والأهواء فهم استجازوا ذلك ورأوه من القرب إلى الله تعالى .

وقد خففت من تخوفي من رد الموضوع بدعوى التعصب له أو عليه بدوام الاستخارة والتوجه إلى الله في حسن الاختيار وشرب زمزم ثم بقناعتي أن السلفي لا يخشى عليه من التعصب للباطل ولو كان عليه أبوه وأمه ، كما أنه لا يظن به أن يتعصب على أبيه وأمه ولكن يمحض لهم النصح ويوضح لهم السبيل ويبين لهم وجه الصواب ويقيم الحجة بالتي هي أحسن فذلك هو أدب القرآن والسنة ودأب الأنبياء والسلف ولكن : ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ (*)

وقد ظهر لي أن تخوفي كان في محله حيث إن مجلس القسم وافق على الموضوع مبدئيا ولكن تباينت الآراء في خطته فرأي يريد أن تقتصر الخطة على العقائد والسلوكيات التي تختص بها الصوفية فقط وآخر يريد أن تتناول الخطة العقائد الموجودة في البيئة المدروسة على العموم لذا أعيدت لي الخطة لصياغتها من جديد على ضوء معطيات تلك الآراء وما يمكن أن يحقق في ميدان البحث فقمت بصياغتها

(*) سورة التوبة الآية ١١٤ .

حسب المطلوب والإمكان وعرضت ثانية ووفق عليها ولله الحمد في شكلها الآتي إن شاء الله .

وأما خوفي من صعوبته فلأنه عن عالم لا يكاد يعرف عنه شيىء ، ولأن المكتوب عنه من علماء البلاد ما زال مخطوطاً وفي أحضان المكتبات الخاصة في غالبه ، وأهل المكتبات الخاصة في موريتانيا يعدونه من نفائس مدخراتهم لذا فلا يعيرونه إلا نادراً ولأهل الثقة والخاصة ، وإن أعاروه فالتصوير مفقود أو ضعيف في المدن أحرى البوادي والأرياف .

ثم إنه لابد في تحصيل هذه الكتب والمراجع من مقابلة أهلها إذ لا تفيد المراسلة في ذلك . ولابد كذلك من محاورة الشيوخ الموجودين لأخذ دراسة ميدانية تربط بين ما في الكتب وبين ما في العقول والافكار والواقع المعيش وهذا كله يكلف مجهودابدنيا وجهودا مادية ولكن العلم لا ينال براحة البدن ، وأما المال فهذا أبرك أوجه إنفاقه .

فالمهم حصول القناعة بأهمية الموضوع وقيمته العلمية والعقدية ثم الموافقة عليه رسمياً وقد تحققت هذه الأساسيات ولله الحمد .

وبعد ما تقدم من شرح لقصة الأختيار ، فهذه هي محصورة في نقاط باختصار :

أولاً : أن اختياري للألتحاق بقسم العقيدة نابع من إحساسي بحاجة بلادي موريتانيا إلى مراجعة وغربلة للمناهج العقدية والاتجاهات السلوكية والفكرية لما في هذه المجالات من خلط ظاهر، وموريتانيا غنية في المجالات العلمية الأخرى لذا اخترت هذا المجال الذي تحتاجه بلادي وكنت بذلك أول طالب من موريتانيا يلتحق في الدراسات العليا بقسم العقيدة . هذا حسب علمي واطلاعي . وهذا الأختيار قائد إلى الأختيار الآتي :

ثانياً : أخترت الكتابة عن الصوفية لأنها طائفة من المسلمين يلتبس أمرها على الكثيرين فينضم إليها طالب الآخرة لمايرى عندهم من زهد وإقبال على العبادات والأذكار وينضم إليها طالب الدنيا لما فيها أيضا من مكاسب مادية ولهو ومجون ودعة وراحة .

ثالثاً : اخترت الكتابة عن القادرية لأنها أم الطرق الصوفية ولأنها تنسب إلى إمام وفقيه زاهد هو الشيخ عبد القادر الجيلي . وبانتسابهم إليه نسبوا إليه من الطامات والبدع والخرافات ما شكك في أمره حتى اتخذ دليلاً على غيره ثم هي طريقة واسعة الأنتشار في العالم كله وحية غير منقرضة .

رابعاً : اقتصرت في العنوان على : القادرية في موريتانيا : عرض ونقد . لأنه ولقرون عديدة ماضية ارتبطت بها الحياة العلمية في البلاد الموريتانية والبلاد الإفريقية المجاورة ذلك أنها كانت طريقة لها نشاط في العلم والدعوة وكل شيخ يطبع محيطه وعصره بطابعه سلباً أو إيجاباً وهذه أمور تحتاج إلى إيضاح حيث إن الحركة العلمية والعقدية كانت تدور عليهم في الغالب ولهم مؤلفات في تلك المجالات أكثر من غيرهم وما كان من تأليف في الرد عليهم فمرتبط بهم وما كان من تأليف في الدفاع عنهم فإنه يعد من نتاجهم .

خامساً : أن بعض شيوخي في العلم في موريتانيا وزملائي من طلاب العلم الدعاة إلى الله تعالى ينتفعون إن شاء الله بهذا البحث لما فيه من توضيح لمسير الدعوة إلى الله في السابق وتعريف ببعض العلماء المجاهدين ونتاجهم وخبراتهم ، ثم أيضا لما سيشتمل عليه البحث إن شاء الله من تشخيص للداء ووصف للدواء الأمر الذي يوفر جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً وهذا أقل ما يمكن أن أساعدهم به بعد غياب طويل في هذه الرحلة العلمية .

سادساً : أن بعض الطرق الصوفية قد بدأ أتباعها في إنشاء الزوايا والرباطات لينطلق منها داعيا إلى ما عنده وأخذ بعضهم في طبع بعض مؤلفات شيوخهم ونشرها على الناس بدون تحقيق ولا تعليق فخشيت من عاقبة ذلك فأردت أن يكون هذا البحث بمثابة التعليق عليها قبل نشرها وتداولها .

المحتويات

ولهذه الأهمية وتلك المزايا كان اختياري لهذا الموضوع . وهذه خطته التي انتهى إليها بحثه علما أنه حوفظ على خطة البحث وعناوينها الرئيسية وزيد عليها فصل الولاية حيث كان إدخاله ضرورياً للبحث وكذلك تقسيم الفصول إلى مباحث والمباحث إلى مطالب .

الخطة ومحتويات الرسالة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الباب الثاني

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

المادة والمنهج

جمع المادة :

إنه من اليوم الذي فكرت في الكتابة في هذا الموضوع وأنا أعتبر نفسي في رحلة علمية شاقة تحتاج جهداً فوق الطاقة . وفتحت لهذه الرحلة العلمية سجلاً خاصا بها وعلى مدى عام كامل تقريباً وأنا لم أترك يوماً أو ليلة إلا وأنا في مقابلة مع أحد العلماء أو الشيوخ أو طلبة العلم النابهين بحثاً عن مصادر هذا البحث أو مظان وجودها أو الوسائل التي يمكن تحصيلها بها ، وكنت أثناء ذلك أكتب عنهم من محفوظاتهم وأدون رواياتهم وأسجل مشاهداتهم التي يمكن أن تفيد البحث من قريب أو بعيد حتى تكون عندي مجلد من ذلك استخرجت منه ما يزيد على الخمسين من عناوين الكتب في العقيدة والتصوف منسوبة نسبة صحيحة إلى مؤلفيها مع توضيحات كاملة لأقوى مظان وجودها . ولو وجدت في هذه الفترة كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور أو كتاب كنتة الشرقيون للفرنسي بول مارتي أو كتاب بلاد شنقيط المنارة والرباط لكفتني كثيراً من العناء والبحث والسؤال ، ولكن ما وجدتها إلا بعد حصول ذلك وقد أفدت منها مع ذلك كما هو واضح في أثناء الرسالة .

ولما عرفت عناوين ذلك العدد المذكور من المصادر بدأت في البحث عنه في المكتبات العامة والخاصة في الحرمين الشريفين ووجدت بضعة كتب منها عند بعض إخواني من أحفاد الشيخ سيدي المختار الكنتي والشيخ محمد فاضل فأعارونيها وأذنوا لي في تصويرها أحسن الله إليهم وأثابهم على حسن تعاونهم كما وجدت بضعة رسائل وأنظام وقصائد مفيدة في الموضوع عند أفراد من أهل العلم والطلاب فأعارونيها وأذنوا لي أيضا بتصويرها أثاب الله الجميع على تشجيعهم لي ومسعاهم معي .

الرحلة إلى المغرب وموريتانيا :

ومع تلك النتائج المفيدة فإنه لابد من طلب المصادر من مصدرها لذا عقدت العزم على الرحلة إلى المغرب وموريتانيا فوفقت لها والحمد لله . وفتحت أيضا سجلاً خاصاً بها دونت فيه الكثير مما كان له أثر كبير في إثراء البحث .

وصلت إلى الرباط وسكنت قريبا من الخزانة العامة للكتب والوثائق حيث قضيت أسبوعين في قسم المخطوطات بها نرد مع الموظفين فيه في الصباح والمساء ونصدر معهم إذا صدروا .

وقد وجدت في هذا القسم كتب البكائية والفاضلية وغير ذلك فصورت ما سمح لي بتصويره وقرأت واقتبست ما وجدت أنه ضروري لنقله بنصه مما لم يؤذن لي باصطحابه . فجزى الله القائمين على تلك الخزانة على حسن تعاملهم وسرعة خدمتهم . وتجولت في المكتبات وأشتريت منها بعض المصادر العامة في التصوف وما وجدته من مطبوعات موريتانية خصوصا كتب الشيخ ماء العينيين الذي وجدت أحد أحفاده في إحدى هذه المكتبات في زيارة خاصة للمغرب . وهو الاستاذ الطالب اخيار بن مامين . فعرفته بثوبه الموريتاني ولم أكن أعرف شخصه من قبل . فتقدمت إليه وسلمت عليه مصافحة وتبادلنا الترحيب وسألته عن ضالتي فقال لم هذه الكتب خاصة ؟ فقلت : أكتب بحثا له صلة بها . فغضب الرجل فجأة . وقال كلمة لا عيب فيها ولا تعيير ولكنه قصد ذلك وكنت هادئا لأن الرجل لا يعرفني ولا أعرفه ولم أقل له بعدما يغضبه فلعل هدوىء وما أظهرته من استغراب هدأه ثم تعارفنا . وذكر هو رحما بيننا وأنا مسرور بها . ثم حكى لي أنه قدم إلى المغرب لطباعة كتاب ألفه بعنوان : عقيدة أهل الإيمان والدفاع عن بعض الأعيان . ففهمت من ذلك سبب غضبه المفاجىء ، ثم وعدني بالمقابلة والإفادة في أنواكشوط فزرته في بيته في انواكشوط ثلاث مرات ولم تتمكن مع الأسف من الاستفادة منه حتى سافرت من موريتانيا وكان هو أول من رأيت وآخر

العلمية وما عنده من الكتب التي لها صلة بالموضوع فنسيتها عنده ولم نتذكرها حتى قابلته في مطار انواكشوط يودع مسافرا في نفس الرحلة التي غادرت انواكشوط فيها .

وإن كنت لم استفد من هذا الأستاذ المذكور فإنني ولله الحمد استفدت في انواكشوط من غيره وقام معي في مهمتي أساتذة فضلاء وطلاب علم نبلاء في دار الثقافة والمعهد العالي ومعهد ابن عباس علاوة على المدارس الأهلية والمكتبات الخاصة حيث قرأت واقتبست وصورت وأعرت حتى خرجت من انواكشوط بمكتبة من المخطوطات التي تعد أهم مصادر هذه الرسالة .

هذا بالاضافة إلى المقابلات العديدة الحافة بالترحيب والمعلومات المفيدة التي سيرد في أثناء الرسالة ما له صلة بها إن شاء الله تعالى بارك في جميع أولئك العلماء والشيوخ والأساتذة والطلاب الذين اعتبروا من واجبهم التعاون معي والنيابة عني في التصوير والإعارة .

ها نحن جمعنا مصادر الرسالة من المؤلفات الثابتة النسبة إلى مؤلفيها من شيوخ القادرية وغيرها من علماء موريتانيا وغيرهم وبأقلام علماء أجلاء أو نساخين مشهورين قد أثبتوا على حواشيها التصويبات والتصحيحات وأثبتوا كذلك في ذيولها أيضا أسانيدهم فيها إلي نسخة المؤلف نفسه ولكن أين ضالتنا في هذه المصادر المخطوطة التي يصل بعضها إلى خمسمائة صفحة وتنزل إلى صفحة واحدة محشوة من طرفيها بعد امتلاء وجهيها ، لا فهارس ، وأحيانا لا أبواب ولا فصول إنما هي كتابة متواصلة من بداية الصفحات إلى نهايتها ؟

إن استخراج معلومة ولو قليلة القيمة يحتاج إلى قراءة الكتاب من أوله إلى آخره أو العثور عليها في الطريق لذا فقد جلست ولله الحمد طويلا لقراءة هذه المصادر وفهرستها حتى يسهل الأخذ منها أو يقل العناء في مصاحبتها فكم فركت عيني وحككت رأسي ومسكت لحيتي لطول السهر والقراءة واختلاف الخطوط وتقارب السطور . ولكن الله تعالى أعان ولطف وأذهب آثار العناء وخفف فله الحمد والمنة فلا رب سواه ولا معين إلا إياه .

ما هو المنهج :

لقد جمعت المصادر والمراجع وقرئت وفهرست وجمعت المادة العلمية وانتخبت فما هو المنهج العلمي الذي اتبع في تأليفها ؟

إنه منهج العرض والنقد والتحليل والتدليل ذلك هو مقتضى العنوان وهو الذي تدل عليه الفاظه والمطلوب من وضعه هكذا ، فالعرض يدل على الإظهار والاختبار شيئاً فشيئاً وواحداً واحداً والنقد يدل على التدقيق والمقارنة بل والمحاكمة والمخاصمة . فهذه العبارات وما بين من دلالتها كانت هي المنهج المتبع في هذا البحث حيث تعرض النصوص عرضا متتابعا بما لها وماعليها ثم تنقد العقيدة أو الفكرة الأساسية التي عرضت من أجلها بعد أن يقدم لها بما يدل على المراد منها أو يوضح ما فيها من إجمال أو غموض ويخرج ما اشتملت عليه من آية أو حديث أو أثر أو نص منقول كل ذلك حسب الإمكان ثم يحال إلى مظان مناقشة أو نقد العقائد والأفكار الأخرى التي قد يتضمنها نص من النصوص المعروضة فهذا هو المنهج الغالب ولكن هنا تنبيهات لابد منها :

<u>التنبيه الأول</u> : أن العنوان : القادرية في موريتانيا عرض ونقد . مشتمل على أربع كلمات ولكل كلمة مكانتها ومنزلتها وحقها بجوار الكلمات الأخرى من بيان وتوضيح وعرض ونقد . يضاف إلى هذا الحق الثابت لها بوضعها في العنوان أن تاريخ القادرية الأولى ابتداء بالشيخ عبد القادر وأنتهاء بإمام القادرية الأولى في موريتانيا يكاد يكون مجهولا للموريتانين وغيرهم نظرا لتفرقة في الكتب وطول العهد به وهو تاريخ تتوقف على معرفته أمور كثيرة وحقائق علمية كبيرة فكان لابد من عرض تاريخي لتلك الحقب والترجمة لأبرز أعلامها وهذا يقتضي استخدام المهنج التاريخي السردي التحليلي ولكن أريد أن أنبه إلى أن هذا المنهج قد ألبس ثوباً نقديا يميزه عن التاريخ فقط هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن موريتانيا نفسها تكاد تكون منسية تاريخيا أو على الأقل لقرون عديدة حتى إن الموريتانين لا يعرفون عن تاريخهم الذاتي على وجه التحقيق إلا نتف متفرقة وفي حقب متباعدة فكان

لابد من تناول (موريتانيا) تاريخيا والتعريف بها تدريجيا ويترجم لرواد العلم والعقيدة والتصوف فيها حتى تخرج من غابر المجهول إلى الواقع المعلوم وهنا استخدم أيضا المنهج التاريخي ولكن لهذا الغرض المهم في حد ذاته للبحث بما ينبني عليه من توضيح أرضية صالحة للبحث والعرض والنقد يضاف إلى ذلك أن شيوخ القادرية الموجودين لا يعرف أكثرهم بعد شيخه المباشر شيئا له قيمة علمية أو تاريخيه عن شيوخ سلسلتهم فكان تعريفهم وتعريف غيرهم بأبرز شيوخهم من الأمور المساعدة على تفهم البحث وإثرائه أكثر ٠ علما أن المنهج التاريخي هنا إنما هو قالب مسخر للمنهج الأساسي لذا فلا لوم على البحث فيما سيلاحظ من الإطالة بعض الشيىء في الباب الأول قبل الوصول للهدف الأساسي الذي هو العقيدة ٠

التنبية الثاني : أنني في باب العقيدة لم أدخر جهدا في عرض أكبر عدد من النصوص القادرية حتى تتضح الفكرة الأساسية أو العقيدة المقصودة من خلال نصوصهم فقط وقد سلكت في ذلك أيضا تسلسلا تاريخيا حيث أعرض النص الأول من أول كتبهم وهكذا تصاعديا حتى آخر كتبهم عن آخر مؤلفيهم ولا أحيد عن هذا المنهج إلا نادرا ولأن النص في غير ذلك الكتاب لغير ذلك الشيخ الأول أوضح دلالة وأقرب عبارة فلذلك أقدمه ٠ وإذا لم يتضح المطلوب تماما من نصوصهم المعروضة لاجمال فيها أولإيهام أو غموض في عبارتها حاولت توضيح المراد منها قبل نقدها حسب جهدي ومراسي ٠

التنبيه الثالث : أن كلمة نقد في هذه الرسالة ليس المراد منها ما يفهمه كثير من الناس من أن المراد بها العيب والتعيير فهذا المعنى وإن كان من معاني الكلمة فإنها ليست قاصرة عليه لذا فإن كلامي كان مع الكلام والبادىء أظلم ٠

التنبيه الرابع : أنني أعتنيت عناية خاصة ببابي العقيدة والسلوكيات وبفصلي الولاية والعبادات فيهما لما وجدت من ارتباط العقائد الفاسدة أو البدع بهما ولذا كانت لي فيهما أحكام واضحة إن شاء الله وصائبة وما لم نجزم بحكم فيه

فإنه يظهر من الأدلة والنصوص التي أورد وأناقش بها ترجيحي لحكم معين ويرجع عدم التصريح بالحكم إلى احتمالات في النصوص المنقودة ولأن الحكم الجازم فيها يقتضي معرفة نية أصحابها أو القول بلازم المذهب وهذه أمور منها ما لا سبيل إليه ومنها ما هو مخالف لمنهج السلف وجمهور الخلف لذا اكتفيت بما قلت ولكني ربما استخرج لهم ولغيرهم الدليل وربما أستدل بدليل أقوى من المستدل به ٠

التنبيه الخامس : أنني بذلت جهدي في ترقيم الآيات الواردة في النصوص المعروضة أو التي أستدل بها وخرجت الأحاديث والآثار وجلبت أقوال العلماء في الحكم عليها بالصحة أو الضعف أو الوضع ٠

وما كان من حديث في الصحيحين والسنن ذكرت الكتاب والباب ورقمه حسب نسختي التي أعتمدها هذا مع الإضاحات والتعليقات والتراجم باختصار للأعلام الورادة في النصوص أو التعريف بالشعوب والقبائل والفرق والطوائف والأماكن كل ذلك حسب الجهد والمطلوب وأعددت فهرسا بالمراجع والمصادر والموضوعات ٠

وصدق الله العظيم : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ (*)

أي تناقضا وتفاوتا إذ ما (من متكلم يتكلم كثيراً إلا وجد في كلامه اختلاف كثير إما في الوصف واللفظ وإما في جودة المعنى وإما في التناقض وإما في الكذب) ** .

وإذا كان الإمام الشافعي . لله أبوه . ورحمة الله عليه : استشهد بذلك على نفسه وما عساه أن يكون منه في (رسالته) فماذا أقول أنا ؟

(*) سورة النساء الآية ٨٢ ٠

(**) القرطبي ، جـ ٥ ص ٢٩٠ ٠

إنما أقول : أستغفروا الله العظيم وأتوب إليه ، من الدخول فيما لم أصل بعلمي وعقلي إليه .

وأسأله جل وعلا أن يجعل هذا الجهد مقبولا عنده وخالصا لوجهه الكريم ونافعا لكاتبه وقارئه ومن ألف فيه . إنه ولي ذلك والقادر عليه . والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

وكتبه الفقير إلى ربه وأسير ذنبه / محمد الداه أحمد . ليلة العيد السعيد من عام ١٤١٢ هـ .

التمهيد : وفيه مطالب

الأول : التعريف بالتصوف .

الثاني : حد التصوف .

الثالث : ظهور هذه النسبة .

الرابع : أقسام الصوفية .

الخامس : نشأة الطرق الصوفية الأولى .

(٢)

المطلب الاول

فى اشتقاق التصوف

إن أول مسألة تواجه الباحث في التصوف هذه اللفظة ماهو الأصل الذى اشتقت منه ، وهل لها اشتقاق قياسى فى اللغة العربية أو لا ؟ وكيف صارت علما على هؤلاء . وما هو السبب في ذلك ؟

هذه احتمالات واردة فى بيان هذا الإسم وأول من اعتنى ببيانه هم الصوفية أنفسهم ونبدأ أولا بعرض آراء بعض أئمتهم فى أول مؤلفاتهم في الصوفية .

يقول صاحب اللمع ، أبو نصر الطوسي (١) تحت عنوان : (باب الكشف عن اسم الصوفية ولم سموا بهذا الإسم ولم نسبوا إلى هذه اللفظة : إن سأل سائل فقال قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث ونسبت الفقهاء إلى الفقه ، فلم قلت : الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم ، ولم أضفت الزهد إلى الزهاد والتوكل إلى المتوكلين والصبر إلى الصابرين ؟

فيقال له : لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم ...

فلذا لم يكونوا مستحقين اسما دون اسم ...

وإن أضفتهم إلى الأغلب من الأحوال عليهم لكان يلزم أن أسميهم ، فى كل وقت بإسم آخر على حسب مايغلب عليهم من الأحوال ...

فلما لم يكن ذلك ، نسبتهم إلى ظاهر اللبسة (لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام ، وشعار الأولياء والأصفياء ، فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسما مجملا عاما ..) (٢) قلت : ليس هذا على اطلاقه وإن كانت ورد آثار واخبار عن بعض زهاد السلف في تفضيل لبس الصوف للمتواضعين في اللباس (٣)

---

(١) هو ابو نصر ، عبد الله بن علي الطوسي ، الملقب : بطاوس الفقراء ، قال الذهبى عنه : كان المنظور إليه فى ناحيته ، فى الفتوة ولسان القوم ، مع الاستظهار بعلوم الشريعة وقال عنه السخاوي : كان على طريقة أهل السنة .

واعتبره الدكتور عبد الحليم محمود فى مقدمة تحقيقه لكتابه «اللمع» صاحب ثانى مدرسة اعتنت بنشر التصوف عن طريق التأليف ، حيث تأثر بالطوسى الهجويري وعبد الرحمن السلمي والقشيري - المقدمة : - ص ٧ و ١٢ط ١٣٨٠ هـ .

(٢) اللمع ، تحقيق عبد الحليم محمود وزميله ، نشر لجنة التراث الصوفي ، دار الكتب الحديثه - مصر ، ط ١٣٨٠ هـ .

(٣) انظر شعب الايمان للإمام البيهقي ، فصل فيمن اختار التواضع في اللباس جـ٥ ص٥٠ أو ما بعدها

قلت : ويتلخص رأي السراج فى محاولته للكشف عن اسم الصوفية فيما يأتى : -

١ - إن الصوفية لم ينسبوا إلى حال معينة ، أو علم معين ٠

٢ - إن إسم الصوفية مشتق من لبس الصوف ، بوصفه اللبسة الغالبة عليهم ٠ وإنما قلت : الغالبة - لأن السراج نفسه لا يحكم بأنهم اختصوا بهذه اللبسة لما يرونه حكاية عن يحيي بن معاذ الرازي المتوفى سنة ٢٥٨ هـ أنه كان يلبس الصوف والخلقان في ابتداء أمره ، ثم كان فى آخرعمره يلبس الخز واللين ٠ (١)

ويعقد أبو بكر محمد الكلاباذى المتوفي سنه ٣٨٠ هـ الباب الأول من كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف لبيان هذه التسمية يقوله : (قولهم بالصوفية لم سميت الصوفية صوفية : -

قالت طائفة : ـ إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها ، وقال قوم : - إنما سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله جل وعز ٠ وقال قوم إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة ، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قوم : إنما سموا صوفية للبسهم الصوف) ٠ (٢)

وقال مبينا لهذه الأقوال : (وأما من نسبهم إلى الصفة والصوف فإنه عبر عن ظاهر أحوالهم ٠ ومن نسبهم إلى الصفاء والصف الأول فإنه عبر عن أسرار هم وبواطنهم) ٠

قال :(وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة بالظاهر ، فإن المعانى متفقة ، لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية ٠

وإن أضيفت الى الصف أو الصفة كانت صفية أو صفية ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء فى لفظ الصوفية ، وزيادتها فى لفظ الصفية والصفية إنما كانت من تداول الألسن ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٩ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ٠ تحقيق : عبدالحليم محمود ، وطه عبد الباقي ، ط، القاهرة ، ١٩٦٠ م ٠

وإن جعــل مأخـذه من الصوف : استقام اللفظ ، وصحت العبارة من حيث اللغة) .(١)

قلت : خلاصة رأى الكلاباذي أن مأخذ الصوفية من الصفاء أو الصف أو الصفة يستقيم عنده معنى لا لغة • وإن مأخذه من الصوف مستقيم لغة •

وقد جاء بعد هذين - السراج والكلاباذى - صاحب الرسالة القشيرية عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفي سنة ٤٦٥ هـ (٢) قال فى رسالتة (هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال (رجل صوفي) وللجماعة (المتصوفة) •

وليس يشهد لهذا الإسم من حيث العربية قياس ولا اشقاق ، والأظهـر فيه : أنه كاللقب فأما قول من قال : إنه من الصوف ، ولهذا يقال تصوف إذا لبـس الصوف كما يقال: تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس: الصوف.

ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنسبة إلى الصفة لاتجيء على نحو الصوفي •

ومن قال : إنه مشتق من الصفاء ، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة • ومـن قال إنة مشتــق من الصف فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم ، فالمعنى

صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف) (٣)

قلت : وخلاصة رأى القشيرى أنه اسم بالغلبة على هذه الطائفة - وهو أشبه باللقب وأن الذى تشهد له اللغة هو القول بأنه مشتق من لبس الصوف ، مع أنهـم لم يختصوا بلبسه ، ويفهم من سياق كلامه أنه يفضل أن يكون مأخذ اسم الصوفية من الصفاء ، حيث انه يدأ كلامه هكذا : (الصفاء محمود بكل لسان ، وضده : الكدورة وهى مذمومة •) (٤)

---

(١) المرجع السابق •

(٢) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيرى النيسابورى ، ولد فى بلدة (استوا) فى شهر ربيع الأول سنة ٣٧٦ هـ وتوفى في نيسابور في ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هـ (مقدمة الرسالة تحقيق د • عبد الحليم محمود وزميله مطبعة حسان • جـ ١ ص ١٤) •

(٣) نفسه جـ ٢ ص ٥٥٠ - ص ٥٥١ .

(٤) نفسه جـ ٢ ص ٥٥٠ .

وأما صاحب عوارف المعارف فإنه عقد الباب السادس فى ذكر تسميتهم بهذا الإسم فأورد فيه خبرا عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف) (١) قال : (فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة) (٢) وبعد أن قرأ هذا القول قال : (وقيل : سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل ... وقيل : كان هذا الإسم فى الأصل صفوى ، فاستثقل ذلك وجعل صوفيا . وقيل : سموا صوفية نسبة إلى الصفة .) (٣)

قلت : إيراد السهروردى للخبر المتقدم ، يدل على ترجيحه للقول الأول ، مع موافقته للقياس اللغوي .

ويرى ابن الجوزى أنهم رأوا أول من انفرد بالعبادة والتنسك وخدمة الحجاج والقيام بخدمة الكعبة رجلا يقال له صوف واسمه الغوث بن مر ، فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه فى الإنقطاع إلى الله سبحانه وتعالى فسموا صوفية .

وحكى الروايات الأخرى فى نسبة الصوفية الى أهل الصفة أو الصوفانة البقلة الرعناء لإجتزائهم بها أو بنبات الصحراء ، وبين أن ذلك كله غلط .

وقال : (وقيل : هم منسوبون إلى صوفة القفا أو الصوف ، وهذا يحتمل والصحيح الأول) (٤)

---

(١) عوارف المعارف ص ٥٩ تأليف أبوي النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهرودى ط ٢ ١٤٠٣ هـ دار الكتاب العربى بيروت . وانظر فى الحديث المذكور : شعب الايمان للإمام البيهقي فصل : فيمن اختار التواضع فى اللباس . فأنه أورده عن أبي موسى وقال : (وهو بهذا الاسناد غير محفوظ) . شعب الايمان ، تحقيق ، أبي هاجر محمد السعيد . ط ١ دار الكتب العلمية سنة ١٤١٠ هـ جـ ٥ ص ١٥١ وما بعدها .

(٢) عوارف المعارف ص ٦١ .

(٣) نفسه .

(٤) تلبيس إبليس لابى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى البغدادى ، تحقيق السيد الجميلى دار الكتاب العربى - بيروت ط ١ ١٤٠٥ هـ ص ١٩٩ - ٢٠١ .

قلت : وقد استوعب شيخ الإسلام ابن تيمية ما يصح من هذه الأقوال وما لا يصح في مقتضى اللغة ، فقال : (وتنازعوا في المعنى الذى أضيف إليه الصوفي فإنه من أسماء النسب : كالقرشي ، والمدني وأمثال ذلك • وقيل إنه نسبة إلى أهل الصفة وقيل : إنه نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله وقيل : إنه نسبة إلى الصفوة من خلق الله ، وقيل إنه نسبة إلى صوفة ابن بشر ابن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم •••)

قلت : وهذه النسب لا يوافق شيخ الإسلام ابن تيميه على شيء منها ويوضح ذلك بقوله : (إنه لو كانت النسبة لأهل الصفة لقيل صفي •••• ولذا فالنسبة إليهم غلط • ولو كانت النسبة إلى الصف لقيل : صفى ••••• ولو كانت النسبه إلى الصفوة لقيل : صفوي) •

وأما النسبة إلى القبيلة العربية التى كانت ينسب إليها النساك فهى ضعيفة وإن كانت موافقة من جهة اللفظ وذلك لأمور : منها : - أنهم غير معروفين ولا مشهورين عند أكثر النساك ، ولو كان نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب فى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ولأن غالب من تكلم باسم الصوفى لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة في الجاهلية لاوجود لها في الإســلام والمعروف أنة نسبة إلى لبس الصوف) • (١)

قلت : الذى يترجح عندى من كلام هؤلاء العلماء أن الصوفية مشتقة من لبس الصوف حتى صار لباس شهرة لهم يعرفون به وإن لم يخصوا به فهو لقب بالغلبة • (٢)

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام - أحمد ا بن تيمية ، - جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاســم بمساعدة ابنه محمد ، مكتبة المعارف - الرباط - المغرب • جـ ١١ ص٥ -٦ بتصرف •

(٢) أنظر مقدمة ابن خلدون دار الكتاب اللبنانى - بيروت ط ١٩٨٢ ص ٨٦٣ .

المطلب الثاني : حد التصوف

عند الرجوع إلى كتب الصوفية للبحث عن تعريف جامع للتصوف يجد الباحث عبارات كثيرة مختلفة الألفاظ والمعاني ، فالقشيري والسهروردي يقولان : إن كل من تكلم في حد التصوف إنما يعبر على حسب ماوقع له ، وإن أقوال المشايخ تتنوع معانيها ، فالتصوف عند معروف الكرخي هو : (الاخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدى الخلائق . وعند الهجويري هو : (الدخول في كل خلق سني ، والجروج عن كل خلق دنى) (١) .

ويلخص السهروردي عباراتهم في حد التصوف فيقول : (التصوف اسم جامع لمعاني الفقر ، ومعانى الزهد ، مع مزيد أوصاف وإضافات لايكون بدونها الرجل صوفيا و إن كان زاهدا وفقيرا) . (٢) وقد عرفه بعض أصحاب المعاجم في هذا العصر بأنة : (طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل ، لتزكو النفس وتسمو الروح ، وأن علم التصوف : مجموعة المبادىء التي يعتقدها المتصوفة والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم) (٣)

قلت : ومن المعلوم أن الكتاب والسنة كفيلان لمن التزم واتبع نهجهما أن تزكو نفسه وتسمو روحه بدون إضافة من أحد ، أو استنباطات بعيدة لايدرك الناس مأخذها . وننتهي إلى النتيجة التي انتهى إليها كثير من الباحثين وهي أن تعريف التصوف بتعريف جامع مانع أمر عسير إن لم يكن مستحيلا . ذلك أن التصوف طريقة أو مذهب متغير - كانت بدايتة عند المسلمين الورع والزهد ، ثم تطور بمرور الزمن حتى دخلته عقائد الحلول والاتحاد ووحدة الوجود . وقال أهله (الطرق إلى الله بعدد انفاس الخلائق) وهكذا بقي التصوف بلا تعريف . (٤)

---

(١) الرسالة القصيرية ص ٥٥١ .

(٢) عوارف المعارف ص ٥٤ ويقارن بما في تلبيس إبليس ص ١٩٩ - ٢٠٢ .

(٣) المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية ط قطر جـ الأول ص ٥٢٩ .

(٤) تلبيس إبليس ص ١٩٩ - ص ٢٠٣ ، وقواعد التصوف لزروق ص ٣٥ ، وتاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم ص ٢٦٩ وما بعدها .

المطلب الثالث : ظهور هذه النسبة

قال : صاحب اللمع : (باب الرد على من قال : لم نسمع بذكر الصوفية فى القديم وهو اسم محدث ... وأما قول القائل : إنة اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال ، لأن فى وقت الحسن البصرى رحمه الله كان يعرف هذا الاسم وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضي الله عنهم ، وقد روي عنه أنه قال : رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال : معي أربعة دوانيق يكفينى ما معي . وروى عن سفيان الثوري أنة قال لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء ، وقد ذكر فى الكتاب الذى جمع فيه أخبار مكة عن محمد بن إسحاق بن يسار ، وعن غيره يذكر فيه حديثا : أنة قبل الإسلام قد خلت مكة فى وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفى فيطوف بالبيت وينصرف ، فان صح ذلك يدل على أنة قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم وكان ينسب إلية أهل الفضل والصلاح .) (١) قلت هذا جواب الطوسى لمن ادعى أن إسم الصوفية محدث وحاصل جوابه إن هذا الإسم كان معروفا فى عهد التابعين وأنه إن صحت رواية محمد بن اسحاق بن يسار فإنها تدل على أنة قبل الإسلام كان يعرف هذا الإسم . ويرى القشيرى أن هذا الإسم أشتهر قبل المائتين من الهجرة (٢) كما يرى ابن الجوزي أنه ظهر لهم هذا الإسم قبل سنة مائتين من الهجرة . (٣)

أما ابن تيمية فيرى أن هذا الإسم : الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة الأولى وأما التكلم به فإنه منقول عن غير واحد من الأئمة والشيوخ ، وذكر ممن نقل عنهم ذلك : الإمام أحمد وأبو سليمان الداراني وسفيان الثورى ، والحسن البصري (٤) .

---

(١) اللمع ص٤٢ ويقارن بما فى تلبس إبليس ص ٢٠٠ ونشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام للنشار دار المعارف ط ٧ ١٩٧٨ م جـ ٣ ص ٤٠ وما بعدهما .

(٢) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٢٧٩ .

(٣) تلبس إبليس ص ٢٠١ .

(٤) مجموع الفتاوى : جـ ١١ ص ٥ .

قلت : ويؤيد ماذهب إليه ابن تيمية رحمه الله تعالى من أن اسم الصوفية فى

القرون الثلاثة الأولى مذكور وليس بمشهور مافى ترتيب المدارك للقاضي عياض ، من أن مالكا رحمه الله تعالى سئل عن قوم يقال لهم : الصوفية يأكلون كثيرا ثم يأخذون فى القصائد ثم يقومون فيرقصون • فقال مالك : أصبيان هم ؟ قال السائل : لا ، قال : أمجانين ؟ قال : لا ، قوم مشايخ وغير ذلك عقلاء • قال مالك : (ماسمعت أن أحد ا من أهل الإسلام يفعل هذا) • (١)

قلت : وهذا يدل على أنه لا يعرفهم • ويقول القشيرى فى الرسالة : (وأشتهر هذا الإسم لهؤلاء الا كاير قبل المائتين من الهجرة) • (٢) بينما نجد الكلاباذى يعد على بن الحسين زين العابدين أول من نطق بعلوم الصوفية وأظهر ماواجيدهم بعد على ، والحسن والحسين ، وذكر الحسن البصرى ومن جاء بعدة من الزهاد والعباد بالقرن الأول والثانى من الهجرة ضمن الصوفية • (٣)

وهذا ما نقد يه ابن الجوزى كثيرا من أوائل مؤلفي الصوفية • (٤)

قلت : والذى يعرف أن هؤلاء الأوائل من العباد والزهاد لم يطلق عليهم أحد من المؤلفين الأقدمين إسم الصوفية ، وإنما كان هذا الاسم ينسب إليه أفراد قلائل ، زادوا على أهل الزهد بأقوال وسمات معينة كما ذكر ذلك السهروردى (٥) وابن الجوزى (٦) وغيرهما •

ويفرق ابن الجوزى بين الزهد والتصوف فيقول :(فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد وقد ذموا التصوف) (٧)

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الامام مالك تحقيق عبد القادر الصحراوى ط ١٤٠٣٢ هـ جـ ٢ ص٥٣ - ٥٤ •

(٢) القشيرية جـ ١ ص ٥٣ • (٣) التعرف ص ٢٧ وما بعدها •

(٤) تلبيس إبليس ص ٢٠٤ - ٢٠٥ وما بعدها •(٥) عوارف المعارف ص ٦٥ وما بعدها •

(٦) تلبيس إبليس ص ٢٠٤ •

(٧) نفسه •

قلت : صحيح أن الصوفية كانوا يحسبون من جملة الزهاد والنساك ولذا من أراد من المؤلفين - بعد إشتهار هذا الإسم لهم - إفرادهم بشيء إختصوا به قال : ومن جملة الزهاد الصوفية . وظل الأمر هكذا حتى ألف الصوفية أنفسهم كتبا ذكروا فيها أسماء رجالهم وأحوالهم وسماتهم التى تميزوا بها عن غيرهم من المسلمين . وأول مؤلف يذكرهم - حسب علمى - فى كتاب ويسمى بعض رجالهم الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٠ هـ . قال فى كتابه البيان والتبيين : (وأسماء الصوفية من النساك ممن كان يجيد الكلام كلاب ، وكليب ، وهاشم الأوقصى وأبو هاشم الصوفى ، وصالح بن عبد الجليل .) (١)

قلت : وورد لفظ الصوفية لقبا مفردا لأول مرة فى التاريخ فى النصف الأول من القرن الثاني الهجري ، إذ نعت به جابر بن حيان صاحب الكيمياء الشيعى وهو من أهل الكوفة وله فى الزهد مذهب خاص . وابو هاشم الكوفى الصوفى المشهور الذى تقدم ذكره (٢) أما لفظ (الصوفية) التى تقدم أنها ظهرت فى ءآخر القرن الثانى الهجرى تقريبا ، فإنه جاء فى خبر فتنة قامت بالإسكندرية ما يدل على أن التصوف الإسلامى يكاد يكون رؤساؤه من قادة الشيعة فى الكوفة وكان عبدك الصوفى من آخر أئمة هؤلاء وهو من القائلين بأن الإمامة بالتعيين ، وكان لا يأكل اللحم ، وقد توفى ببغداد سنة ٢١٠ هـ (٣) .

قلت : ويظهر أن بغداد أصبحت فيما بعد مركزا لشيوخ التصوف على مختلف مشاربهم .

حيث ظهـر منهم من يجلس فى المساجد ويلقى الدرس فى التصوف ومعارف الصوفية علنا بعد أن كان ذلك سرا (ولم يعرف على وجه التحديد أول من ألقى الدرس فى التصوف علنا فى المساجد . (٤)

---

(١) البيان والتبين للجاحظ دار الفكر للجميع ١٩٦٨ م جـ ٢ ص ٩ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ط - العربية مجلد الخامس .. ص ٦٥ ٢ - ٦٦٢ .

(٣) المرجع السابق ، ونشأة الفكر الفلسفى الإسلامى جـ ٣ ص ٢٦٥ وما بعدها .

(٤) انظر دائره المعارف الإسلامية جـ ٥ ص ٢٥٨ .

المطلب الرابع : أقسام الصوفية

كان التصوف فى بداياتة الأولى على شكل فردى ، وكان المجتهدون في العبادة ، يعرفون بالقراء أو النساك أو الزهاد ، ولذا لم نجد من عدهم صوفية ولا من عد الصوفية فرقة مستقلة ، والذين ذكروهم من كتاب الفرق الأولين إنما يذكرونهم فى جملة أصحاب الروحانيات كما فعل الملطى (١) أو فى جملة النساك كما فعل ابو الحسن الأشعرى (٢) وتقدم ذلك عن الجاحظ وابن الجوزى (٣) أو فى جملة المجتهدين فى الطاعة كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية (٤) إلا أن كلا من هؤلاء وغيرهم ممن ذكر الصوفية فيما بعد يدأوا يذكرون انفراد الصوفية بصفات إتصفوا بها وسمات إمتازوا بها عن غيرهم وأحوال وأقوال ذكروها عنهم لم تكن معروفة عن القراء والنساك والعباد ٠

وهذه الأمور فيها مايدل على أنهم أقسام وطوائف متعددة المشارب والأذواق مختلفة المقاصد والإتجاهات ولذلك إختلف الناس فيهم إختلافا كثيرا ، فمن رافض لهم ، ومن داخل معهم ومسلم لهم ومفضل لهم على جميع الناس حتى الصحابة رضوان الله عليهم ٠ (٥)

وبناءا على هذا الإختلاف ينبغى أن نذكر من عدهم فرقة من فرق المسلمين :
- أولا : ثم نورد تقسيم بعض المؤلفين لهم ، لنرى هذه الأقسام هل يمكن أن تجتمع تحت ظل فرقة واحدة ومبادىء متفقة أم لا ؟

إننا نجد الرازى بعدهم فرقة من فرق المسلمين ويعيب على كتاب الفرق

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع تأليف محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى الشافعي المتوفى ٣٧٧ هـ قدم له وعلق عليه محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ط بغداد ١٣٨٨ هـ ص ٩٣ - ٩٥ ٠

(٢) مقالات الإسلاميين وإختلاف المصلين ط ١٤٠٠ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ٠

(٣) أنظر ص ١٠ - ١١ من هذا البحث ٠

(٤) الفتاوى مجلد ١١ ص ١٤ ٠

(٥) تلبيس إبليس ص ٢٠٢ - ٢٠٥ ومجموع الفتاوى ج ٣ ص ١٧ وما بعدها ٠

الإسلامية قبله عدم إفرادهم الصوفية فرقة مستقلة ، ويرى أن حاصل قول الصوفية هو : أن الطريق إلى معرفة الله تعالى هى : التصفية والتجرد من العلائق البدنية ، وأن هذا طريق حسن (١) .

ويرى الغزالى أن الصوفية من الأصناف الأربعة الطالبة للحق ويقول عنهم (وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة) (٢)

ويرى ابن السبكى فى شرحه لعقيدة ابن الحاجب أن الصوفية طائفة من أهل السنة وذلك عند عرضه لطوائف أهل السنة - قال والثالثة : (أهل الوجدان والكشف ، وهم الصوفية ، ومبادئ أهل النظر والحديث فى البداية ، والكشف والإلهام فى النهاية) . (٣)

ونجد من الكتاب المتأخرين المهتمين بتاريخ الفرق الإسلامية من لا يوافق على أن الصوفية فرقة مستقلة ، ولذا يقول أحمد أمين فى كتابه ظهر الإسلام فى مجال بيانه لنشأة التصوف : (التصوف نزعة من النزعات لا فرقة مستقلة كالمعتزلة ، والشيعة ، وأهل السنة ، ولذلك يمكن أن يكون الرجل معتزليا وصوفيا ، أو شيعيا وصوفيا ، أو سنيا وصوفيا ، بل قد يكون نصرانيا أو يهوديا أو بوذيا وهو متصوف) . (٤)

قلت : وقد علق الكاتب فى الهامش أنه وجدت فى العصر الحديث جمعية صوفية برئاسة عناية الله خان تجمع بين أديان مختلفة وتصدر مجلة صوفية كل ثلاثة شهور . (٥)

قلت : فالتصوف إذا ميدان واسع ينسب إليه المسلمون وغيرهم وأهل الحق

---

(١) اعتقادة فرق المسلمين والمشركين للإمام الرازى - ط للكليات الأزهرية ص ١١٥ .

(٢) المنقذ من الضلال للغزالى ، - تحقيق عبد الحليم محمود - دار الكتب الحديثة ط ٨ ١٣٩٤ هـ ص ٩٣ .

(٣) نقلا عن ظهر الإسلام لأحمد أمين دار الكتاب العربى - بيروت جـ ٤ ص ١٤٩ .

(٤) ظهر الإسلام جـ ٤ ص ١٤٩ .

(٥) نفسه .

والباطل ، وعليه فلا يتعين على كتاب الفرق الإسلامية إفراد المنتسبين له كفرقة مستقلة وبالتالى فلا يتوجه عندى نقد الرازى لمن سبقه لعدم ابراز هم الصوفية كفرقة مستقلة ، وإن كان بين أن الصوفية الذين يقصدهم ، هم القائلون بأن التجرد والتصفية للنفس من العلائق هى الطريق لمعرفة الله ، وليس هذا مذهب كل الصوفية كما يتبين إن شاء الله من ذكر أقسامهم ، وأوصافهم ٠

أول من ذكر أقوال الصوفية وأحوالهم - حسب علمى - ولم يسمهم الصوفية هو الملطى ، إذ يقول : فى معرض رده على أصحاب البدع ٠ (ومنهم الروحانية وهم أصناف فمنهم الفكرية القائلون بأن الفكر هو منتهى لذتهم وغاية عبادتهم ، وأنهم ينظرون بفكرهم وأرواحهم فى ملكوت الله تعالى وينعمون بالجنان ، ويتلذذون لمخاطبة الله لهم ومصافحته إياهم ٠

ومنهم أصحاب المحبة القائلون بالخلة من الله تعالى وذلك أنهم زعموا أن حب الله يغلب عليهم ، وعند ذلك يجعل الله لهم السرقة ونحوها من فعل الفواحش والكبائر لأجل خلته لهم لا على سبيل الاباحة ، وانما على سبيل أن الخليل يباح له الاكل والأخذ من مال خليله ، ومنهم رباح وكليب ٠

ومنهم المضمرية ومعناها عندهم أن يحمل الواحد منهم على نفسه بالمجاهدات والجوع حتى يستوى عنده الخل والعسل والصبر والخميص فعند ذلك حل له كل شىء ، وأتبع نفسه ما أشتهت ، ومنهم ابن حيان ٠

ومنهم القائلون أن الزهد فى الحرام فقط ، وللمرء أن يتمتع بماشاء من الدنيا وفضلوا الأغنياء على الفقراء ٠) (١)

قلت : ويؤكد أبو الحسن الاشعرى فى مقالات الإسلاميين وجود هذه الأوصاف فى النساك من الصوفية فيقول : (وفى النساك من الصوفية من يقول بالحلول واطراح الشرائع) ٠

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص ٩٣ - ٩٥ بتصرف ٠

وأن الانسان ليس عليه فرض ولا تلزمه عبادة ، إذا وصل إلى معبوده وأتى بمجمل ماوصفهم به الملطى قبله • (١)

ويرى ابن الجوزى أنه بفعل زيادات المشايخ وبمرور الزمن ظهرت إنحرافات شديدة فى حياه الصوفية ، وعقائدهم حيث ظهرت فيهم طوائف تقول بعشق الحق والهيمان فى الله وطوائف تقول بالحلول والاتحاد ، ويرجع ذلك الى كثرة الجوع والمجاهدات الشاقة التى أخذ بها المشايخ مريديهم مع البعد عن العلم • (٢)

ويرى الهجويرى أن الصوفية ثلاثة أقسام : هى : -

القسم الأول : الصوفى: وهو الفانى عن نفسه ، والباقى بالحق ، قد تحرر من قبضه الطبائع •

القسم الثانى : المتصوف : وهو من يطلب درجة الصوفى بالمجاهدات ويقوم نفسه فى طلب المعاملات •

القسم الثالث : المستوصف وهو من تشبه بالصوفية من أجل المنال والجاه ، وحظ الدنيا ، ••• إلى حد أن قيل فى المستصوف : أنه عند الصوفيـة كالذباب ، وعند غيرهم كالذئاب ، إلى أن قال : فالصوفى هـو صاحب الوصول والمتصوف صاحب الأصول ، والمستصوف هـو صاحب الفضول) •(٣)

ويتفق شيخ الإسلام ابن تيمية مع الهجويرى على هذا التقسيم ويشرحه قائلا : (إن الصنف الأول : هـم أصحاب الحقائق وأن أهم صفاتهم التفرغ للعبادة ،

---

(١) مقالات الإسلاميين ص ٢٨٨ بإختصار•

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٠٢ - ٢٠٣ •

(٣) كشف المحجوب للهجويرى - على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى ابي الحسين المتوفى سنة ٤٥٦ هـ تقريبا ، ترجمة الدكتوره : إسعاد عبد الهادى قنديل ، مراجعة : أمين عبد المجيد بدوى ، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلاميه بمصر سنة ١٣٩٤ هـ جـ ١ ص ٢٣١ بتصرف •)

والذكر مع الزهد فى الدنيا وأن الصنف الثانى عنده هم صوفية الأرزاق الملازمون للخانقات ٠ والاربطة ، وأن الصنف الثالث : هم صوفية الرسم الذين يظنهم الجاهل أنهم منهم ، وهم ليسوا منهم فى الحقيقة ، لإقتصارهم على المظاهر على الزى كاللباس والوقار ، ولا نصيب لهم فى العمل ٠) (١)

ويوسع الرازى هذا التقسيم ويزيد فيه وشرحه قائلا : (إن طوائف المتسببين إلى الصوفية سته هم : -

أولا : أصحاب العادات : وهم قوم منتهى أمرهم وغايته تزيين الظاهر كلبس الخرقة (٢) وتسوية السجادة ٠

ثانيا : أصحاب العبادات : وهم قوم يشتغلون بالزهد والعبادة مع ترك سائر الأشغال ٠

ثالثا : أصحاب الحقائق : وهم الذين يشتغلون بالفكر وتجريد النفس عن العلائق بعد أدائهم للفرائض ٠٠٠ قال : وهم خير فرق الآدميين ٠) (٣)

قلت والله ولى التوفيق وإلى هنا يكون الهجويرى والرازى وابن تيمية رحمهم الله متفقين على وجود هذه الأقسام الثلاثة ضمن الطائفة الصوفية ، وزاد الرازى عليها الحلولية ، والمباحية ، والنورية ٠

وقد صرح الهجويرى وابن تيمية أن المحققين من أهل الصوفية يخرجونهم من زمرتهم ولا يرضون بنسبتهم إليهم (٤) والـرازى ايضا لايعدهم من جملة المقبولين فى الصوفية ، وإنما يذكرهم بانتسابهم إليهم ، فيقول بعد الاقسام السابقة :

---

(١) الفتاوى جـ ١١ ص ١٩ و ص ٢٠ ٠

(٢) (هى خرقة التصوف التى يلبسها المريد من يد شيخة الذى يدخل فى إرادتة ويتوب على يده ٠٠) إصطلاحات الصوفية ، لكمال الدين عبد الرزاق القاشانى تحقيق محمد كمال ابراهيم جعفر ط مصر ١٩٨١ م ص ١٥٩ - ١٦٠ ٠

(٣) إعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١١٥ ٠

(٤) كشف المحجوب جـ ٢ ص ٥٠١ والفتاوى جـ ١١ ص ١٨ ٠

رابعا : الحلولية : وهم طائفه من هؤلاء القوم الذين ذكرناهم يرون فى أنفسهم أحوالا عجيبة ، وليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر ، فيتوهمون أنّه قد حصل لهم ، الحلول أو الاتحاد فيدعون دعاوى عظيمة ، وأول من أظهر هذه المقالة فى الإسلام الروافض ، فإنهم إدعوا الحلول فى أئمتهم .

خامسا : المباحية : وهم قوم يحفظون طامات لا أصل لها ، وتلبيسات فى الحقيقه وهم يدعون محبة الله تعالى ، وليس لهم نصيب من شيء من الحقائق بل يخالفون الشريعة ، ويقولون : إن الحبيب رفع عنهم التكليف وهم الأشر من الطوائف ، وهم على الحقيقة على دين مزدك . (١)

سادسا : النورية : وهم طائفة يقولون : إن الحجاب حجابان نورى ، ونارى ، أما النورى فالإشتغال بإكتساب الصفات المحموده كالتوكل والشوق والمراقبة والأنس والوحدة والحالة .

وأما النارى فالإشتغال بالشهوة ، والغضب والحرص ، والأمل لأن هذه الصفات صفات نارية كما أن إبليس لما كان ناريا ، فلا جرم وقع فى الحسد . (٢)

قلت : وفى وصف الرازى لهذه الطوائف الثلاثة الأخيرة مايتفق مع ماقدمناه عن الملطى فى أصحاب أهل الخلة والمحبة ، والفكرية والمضمرية من القول بالحلول والاتحاد وإطراح الشرائع ، وأتباع النفس ماتشتهى من الملذات .

فهذه أقسام الصوفية عند هؤلاء العلماء ، وقد إخترناهم من بين المؤلفين فى هذا الميدان لما عرف عنهم من شدة العناية بأمر العقائد مع الانصاف والدقة .

وهناك تقسيمات للصوفية ذكرها زروق فى قواعد التصوف - تدخل ضمن هذا التقسيم . (٣) .

---

(١) هو مزدك الحزمي المانوي . انظر أخباره وعقائده فى : الملل والنحل للشهرستاني ، ٢٥٠ -٢٥١ وقارن بما فى نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور سامي النشار ، ط ٧ دار المعارف سنة ١٩٧٧ م ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) إعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٥٥ إلى ص ١١٧ مع شيء من التحوير .

(٣) قواعد التصوف ص ٣٤ و ص ٣٥ .

المطلب الخامس : نشأة الطرق الصوفية الأولى

بحثنا فيما سبق عن إشتقاق كلمة الصوفية وعن نشأة الصوفية ، وذكرنا شيئا من تعريفات الصوفية للتصوف ، وبينا أقسام الصوفية ، ونود أن نبحث تحت هذا العنوان مرحله مهمة من مراحل التصوف وهى مرحلة تكوين الطرق الصوفية وذلك أننا عرفنا ، أن التصوف أشتهر بهذا الإسم وأصبحت له مدارس معلنة تلقى فيها الدروس وتؤلف لها المؤلفات ، ويأخذ فيها المريد زاده الروحى ونمط حياتة المتميز بشكل يكاد يكون منظما فى أواخر القرن الثالث الهجرى .

وإننا نجد فى كتب الطبقات والتراجم أسماء شيوخ أشتهروا بالتفرغ لتربية المريدين ، وأخذ الطلاب بسلوك معين من المجاهدات والرياضات والاوراد والمعارف الخاصة ومن هؤلاء الشيوخ من عاش مابين القرنين الثانى والثالث من الهجره فمن دونهم ، وكثير منهم جاء بآراء جديدة فى الطريق والمعاملات قد تتوافق وقد تختلف (١) .

ومن هنا نشأت طرق صوفية يجتمع مريدوها حول هذا الشيخ أو ذاك ، لما أشتهر به عندهم من العلم او الزهد او الكرامات والمكاشفات ، وأحدث ذلك للطرق شكلا جماعيا بعد أن كانت مقصوره على أفراد لا يجمعهم تنظيم ولا تعاليم مقدسة يتعصبون لها .

ونظرا لكثرة المشايخ والمربين فإننا نكتفى ببعض من أشتهر منهم بالأمامة فى الطريق فى تلك المرحلة وبقى له أتباع حتى اليوم سواء كان من أهل الحق أم من أهل الانحراف عن الطريق المستقيم كما نكتفى بتعريف موجز عن شيخ الطريق وأهم ميزات طريقته ، وفقرة مما ينسب إليه ليتبين بذلك حاله .

---

(١) أحمد زروق والزروقية ، دار مكتبة الفكر طرابلس - ليبيا ط ١ سنة ١٣٩٥ هـ تأليف : الدكتور على فهمى حسين ، ص ١٤٠ ص ١٤١ .

كثرة الطرق وتعددها

(الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلق) (١) • هذه كلمة يعتذر بها الصوفية عن ذلك التباين والاختلاف الكبير بين طريق وطريق وشيخ وشيخ حتى قالوا : لكل شيخ طريق ، وسواء كان هذا الإعتذار مقبولا أو غير مقبول فإن الطرق الصوفية كثيرة جـدا ، وما زالت تولد مع كل مصدر جديد طريقه تنسب إليه أو إلى أهله أو بلدته •

ولعل من المناسب أن نشير إلى أن بعض المصنفين من الصوفية يذكرون طرقا لاوجود لها حقيقة أصلا وذلك مثل :

* الطريقة المحمدية :

ويزعمـون أن الخضر عليه السـلام أخذها عن النبى صلى الله عليه وسلـم (٢) وليس للنبى صلى الله عليه وسلم طريقة غير الكتاب والسنة ، وهما وحى لم يخص بهما أحد دون آخر من الناس لا الخضر ولا غيره •

* والصديقية :

وهى نسبة إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنة •

* والاويسية :

وهى نسبة إلى أويس ابن عامر بن جرير بن مالك القرنى الذى ورد أنه خير التابعين بإحسـان فقالوا : بأنه أخذها عن روحانية النبـى صـلى اللـه عليـه وسلـم •(٣)

وإنما نبهت عليها قبل البدء فى ذكر بعض أمهات الطرق الصوفية ليعلم أننى لاأرى أنها طرق صوفية لها وجود ، وإن كانت عند من ذكرها سابقة فى الزمن على ماسنذكره إن شاء الله •

---

(١) دائرة معارف المعلم بطرس البستانى ، دار المعرفة ، لبنان جـ ١١ ص ٢٩٧ •

(٢) المنهل الروى الرائق فى أسانيد العلوم وأصول الطرايق ، ط ١ ليبيا ص ٤٩ و ٥١ •

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى ، ط ٢ الركن الهند ، ١٣٨٧٩ هـ ، جـ٣ ، ص ٢٨ - ٢٩ •

١ - الجنيدية

وتنسب الى إبى القاسم الخزار القواريرى ، الجنيد ين محمد بن الجنيد .

أصله من نهاوند (١) إلا أن مولده ومنشأه يبغداد ، ومبنى طريقتة كمال المتابعه للسنة المحمدية ، ويلقب بطاوس العلماء ، ومذهبة أكثر المذاهب الصوفية معرفة وشهرة ، وكان سيد الطائفة الصوفية ، وإمام أئمتهم .(٢) ويفضل الصحو(٣) على السكر ، لقى خلقا من العلماء ودرس الفقه على أبى ثور ، وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة .

وأشتهر بصحبة خاله السرى (٤) والحارث المحاسبى (٥) ومحمد بن على أبو جعفر القصاب الصوفى البغدادى (٦) قال الجنيد : (الناس ينسبوننى إلى السرى ، وكان أستاذى محمد القصاب) (٧)

وساق ابن الجوزى بسنده حديثا إلى الجنيد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا فراسة المؤمن فإنة ينظر

---

(١) نهاوند - مثلثة النون ، مع فتح الهاء والواو ، بينهما الف ، وإسكان النون الثانية - بلدة من يلاد الجبل قديمة - فتحت فى خلافه عمر بن الخطاب رضى الله عنه - معجم البلدان ط...ج ٨ ص ٣٢٩ - ٣٣٢ .

(٢) طبقات الصوفية ، لأبى عبد الرحمن السلمى ، تحقيق نور الدين شريبة ، ط الخانجى بالقاهرة ط ٣ سنة ١٤٠٦ هـ ص ١٥٥ وصفه الصفوة مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣٥ وكشف المحجوب مصدر سابق جـ ٢ ص ٤١٩ وتاريخ التصوف فى الإسلام ٤٣٣.

(٣) الصحو : (هو رجوع العارف إلى الاحساس بعد غيبتة وزوال إحساسة) التعريفات للجرجانى ط ١ الكتب العلمية ١٤٠٣ هـ ١٣٢ .

(٤) هو السـرى السقطى ابن الغلس ، كنيتة أبو الحسـن توفى سنة ٢٥١ هـ طبقات الصوفية ص ٤٨ .

(٥) تأتى ترجمته ان شاء الله بعد هذا .

(٦) والقصاب مات سنة ٢٧٥ هـ طبقات الصوفية ١٥٥ .

(٧) تاريخ بغداد جـ٣ ، ص ٦٢ .

بنور الله - ثم قرأ (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) (١) ثم قال : قال أبو بكر الخطيب : لا يعرف للجنيد غير هذا الحديث • (٢)

وقد وضع الجنيد لطريقته ثمانية شروط هى : دوام الوضوء ، ودوام الخلوة، ودوام الذكر ، ودوام الصوم ، ودوام السكوت إلا عن الذكر ، ودوام نفى الخواطر خيرا كانت أو شرا ، دوام ربط القلب بالشيخ ، وترك الإعتراض على الله تعالى ثم على الشيخ •

وغالب الطرق راجعه إليه ومن كلامه سئل كيف الطريق إلى الله ؟

فقال : (توبة تحل الإصرار ، وخوف يزيل الغرة ، ورجاء مزعج إلى طريق الخيرات ومراقبة الله فى خواطر القلوب •) (٣)

توفى رحمه الله تعالى يوم السبت فى شوال سنه ٢٩٨ هـ قيل ٢٩٧ هـ (٤)

٢ - المحاسبيه :

نسبه إلى أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى رحمه الله ، وكنيتة أبو عبد الله قال فيه السلمى : (من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر ، وعلوم المعاملات والإشارات) (٥) •

ويقول الهجويرى عنه : (ويجرى كلامه فى تجريد التوحيد بصحة المعاملة الظاهرة والباطنة ويذهب إلى أن الرضا من جملة الأحوال ، وقال بقول أهل خراسان ، وخالف بذلك أهل العراق الذين يرونه من جملة المقامات ، وأنه نهاية التوكل ، وظل الخلاف بين أهل الإقليمين باقيا ، ويتفق معهم فى المعاملات •

---

(١) الآيه من سوره الحجر ٧٥ •

(٢) والحديث مختلف فيه بين الوضع والضعف تخريج الاربعين السلمية فى التصوف للحافظ السخاوى ، تحقيق على حسن على عبد الحميد • المكتب الإسلامى ط ١ ١٤٠٨ هـ ص ١٣٣ - ١٣٥ والطبقات ص ١٥٦ •

(٣) المنهل الروي الرائق ص ٦٢ - ٦٣ •

(٤) طبقات الصوفية ص ١٥٦ •

(٥) نفسه ص ٥٦ •

وكان يزجر المريدين عن العبارات التى يتوهم فيها الخطأ مهما كان أصلها صحيحا) ٠ (١) وهو أستاذ أكثر البغداديين ، وأصله من البصرة ٠ وعنده أن الرضا نوعان : -

١ - رضا الله عن العبد ، وحقيقتة عنده إرادة التواب والنعمة للعبد ٠

وفى هذا دلالة واضحة على الأخذ بالتأويل فى الأسماء والصفات ٠

٢ - رضا العبد عن الله ، وحقيقته عنده إستواء المنع والعطاء عنده ٠ (٢)

ونقل الجنيد عنه قوله : (ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الخلق مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة) (٣) توفى رحمه الله تعالى سنة ٢٤٣ هـ ٠ (٤)

٢ - الحكيمية :

وهى طريقة تنسب إلى أبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى وصفة الهجويرى فقال : كان واحدا من أئمة وقته فى جميع علوم الظاهر والباطن ، وكانت قاعدة كلامه وطريقه على الولاية ، وهى كما كشفها : أن لله عز وجل أولياء قد خصهم بمحبته وولايتة ، وهم ولاة ملكه الذين إصطفاهم ، وجعلهم آية إظهار فعله ، وخصهم بأنواع الكرامات) (٥) ٠

ولعله هو أول من أدخل فى الصوفية فكرة الولاية والأقطاب والابدال والنقباء(٦) ٠

---

(١) كشف المحجوب جـ ٢ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ ٠

(٢) صفة الصفوة جـ ٢ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ٠

(٣) نفسه ٠

(٤) طبقات الصوفية ص ٥٦ ٠

(٥) كشف المحجوب جـ ٢ ، ص ٤٤٢ ٠

(٦) كتاب الصفدية : تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ط ٢ ١٤٠٦ هـ ص ٢٤٨ ٠

ومن كلامه : (من جهل أوصاف العبودية فهو ينعت الربوبية أجهل) ٠ (١)

توفى الحكيم الترمذى رحمه الله سنة ٢٥٥ هـ (٢) ٠

٤ - الحلولية (أو الحلاجية)

وتنسب إلى أبى مغيث الحسين بن منصور الحلاج المقتول بباب الطاق ببغداد يوم الثلاثاء لست بقين من ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ ٠

قال السلمى : (والمشايخ في أمره مختلفون ، رده أكثر المشايخ ، ونفوه ، وأبوا أن يكون له قدم فى التصوف ٠٠٠) (٣)

قال الهجويرى : وتنسب أيضا الحلولية إلى ابى حلمان الدمشقى ، وأصلة من فارس ، وعاش فى حلب وأظهر دعوته فى دمشق ، وكان كفره من وجهين ٠

أحدهما : القول بالحلول - أى بحلول الإله فى الأشخاص الحسنة ٠

ثانيا : قوله بالإباحة ، وأن من عرف الإله على الوصف الذى يعتقده هو زال عنة الحظر والتحريم ٠ (٤) قال الهجويرى : (وأنا على بن عثمان الجلابى أقول : إنى لاأعرف من كان فارس هذا وابو حلمان ، وماذا قالا ، ولكنى أقول : إن كل قائل مقالة تخالف التوحيد والتحقيق ليس له من الدين نصيب ، وحين يكون أصل الدين ، غير مستحكم ، فالأولى أن يكون التصوف - وهو نتيجة وفرع - مختلا) (٥) ٠

---

(١) صفة الصفوة جـ ٤ ، ص ١٤٠ ٠

(٢) طبقات الصوفية جـ ٢١٧ ، ص ٢٢٠ ٠

(٣) نفسه ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ٠

(٤) كشف المحجوب جـ٢ص ٥٠١ والفرق بين الفرق ، لعبد القاهربن طاهر البغدادى ص٢٤٥

(٥) كشف المحجوب جـ ٢ ، ص ٥٠١ ٠

٥ - الخفيفيه :

وتنسب هذه الطريقة إلى أبي عبد الله محمد ابن خفيف بن أسفكشاذ الضبى. وكان من كبراء سادات هذه الطائفة كما يقول السلمي (١) ٠

وطراز مذهبه في التصوف هو الغيبة والحضور ، وتعرف الغيبة بأنها غيبة القلب عما دون الحق إلى حد أن يغيب حتى عن نفسه (٢) ٠

ويعرف الحضور بأنه حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصير الحكم الغيبى مثل الحكم العينى وهو ممن يقدم الغيبة على الحضور ، ولذا كان يقول : (الحسين بن منصور عالم ربانى) يقصد الحلاج مما يدل على موافقته له (٣) وتوفى سنة ٣٧١ هـ (٤) ٠

٦ - الخرازية :

وتنسب إلى أبى سعيد الخراز ، وإسمه أحمد بن عيسى من أهل بغداد ، صاحب بشر بن الحارث الحافى ، وسري السقطى ، وذى النون ٠٠٠ (٥) ومن كلامه (العافية تأتى القلوب من جهتين : من جهة عين الجود ، ومن بذل المجهود) (٦) وقيل بأنه كان من أول المعبرين عن حال الفناء والبقاء (٧) وتوفى سنة ٢٧٩ هـ(٨) ٠

---

(١) طبقات الصوفية ص ٤٦٢ ٠

(٢) كشف المحجوب جـ ٢ ص ٤٨٨ - ٤٩٠ ٠

(٣) طبقات الصوفية ص ٣٠٨ ٠

(٤) نفسه ص ٤٦٢ ٠

(٥) نفسه ص ٢٢٨ ٠

(٦) تاريخ التصوف في الإسلام ص ٦٤٠ وكشف المحجوب جـ ٢ ص ٤٨٠ ٠

(٧) طبقات الصوفية ص ٢٢٨ ٠

(٨) وفى الرسالة القشيرية أنة مات سنه ٢٧٧ هـ ، جـ ١ ، ص ١٤٠ ٠

٧ - السهلية :

وتنسب الى سهل بن عبد الله بن يونس التسترى ويكنى أبا محمد (١) قال الهجويرى عنه : (كان من محتشمى أهل التصوف وكبارهم) (٢) ووصفه السلمي فقال : (أحد أئمة القوم وعلمائهم ، والمتكلمين فى علوم الرياضات ، والإخلاص ، وعيوب الافعال) (٣) .

وطريقته الإجتهاد ، ومجاهدة النفس والرياضة ، (وكان يوصل المريدين بالمجاهدة إلى درجات الكمال) (٤) قلت : هذا التعبير واسع ولعله يريد ما في مقدور البشر .

ومن كلامه : (ليس كل من عمل بطاعة الله صار حبيب الله ، ولكن من أجتنب مانهى الله عنه صار حبيب الله ، ولا يجتنب الآثام إلا صديق مقرب ، وأما أعمال البر فيفعلها البر والفاجر) (٥) وتوفى رحمه الله سنة ٢٨٣ هـ وقيل ٢٩٣ والاول يظن السلمى أنه الأصح (٦) .

٨ - السيارية :

وتنسب إلى أبى العباس القاسم بن القاسم بن مهدى بن بنت أحمد بن سيار . (كان أمام أهل مرو في كل العلوم) (٧) قال الهجويرى : (ولم يبق أى مذهب من مذاهب أهل التصوف على حاله إلا مذهبة ... وكان أحسن المشايخ لسانا فى وقته يتكلم في علوم التوحيد على لسان الجبر) (٨) وتوفى أبو العباس السيارى سنة ٣٤٢ هـ (٩) .

---

(١) طبقا ت الصوفية ص ٢٠٦ وكشف المحجوب جـ ٢ ص ٤٢٦ .

(٢) كشف المحجوب جـ ٢ ص ٤٢٦ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٢٠٦ .

(٤) كشف المحجوب جـ٢ ص ٤٢٦ .

(٥) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٤٥ - ٤٦ .

(٦) طبقات الصوفية ص ٢٠٦

(٧) نفسه ص٤٤٠ .

(٨) كشف المحجوب جـ ٢ ص ٤٩٣

(٩) طبقات الصوفية ص ٤٤٠ .

٩ - الطيفورية

وتنسب إلى ابى يزيد طيفور بن عيسى إبن سروشان البسطامي (وكان من رؤساء المتصوفة) (١) وطريقته الغلبة والسكر عكس الجنيد (٢) وتوفى سنه ٢٦١هـ وقيل ٢٣٤ هـ (٣) .

١٠ - القصارية (الحمدونية - الملامتية)

وتنسب إلى أبى صالح حمدون بن عمارة القصار النيسابورى - شيخ الملامتية بنيسابور ، ومنه أنتشر مذهبها (٤) قال الهجويرى : (وكان من العلماء الكبار وسادات هذه الطريقة) وتوفى سنة ٢٧١ هـ (٥) .

١١ - النورية

وتنسب إلى أبى الحسين - وقيل الحسن - وهو : أحمد بن محمد وقيل محمد بن محمد وأحمد . النورى البغدادى المولد والمنشأ الخراسانى الاصل (٦)

قال ابن الجوزى :(وقد سئل أبو الحسين عن الرضى ، فقال : عن وجدى تسألون او عن وجد الخلق ؟ فقيل عن وجدك ، فقال : لو كنت فى الدرك الأسفل من النار لكنت أرضى ممن هو فى الفردوس) (٧) وتوفى النورى قبل الجنيد سنة ٢٩٥ هـ .

فهؤلاء من مشاهير طبقات الصوفية الخمس التى ذكرها السلمى فى طبقاته عرفنا بهم كنماذج أولية لتكوين الطرق الصوفية حيث أنة صدر عن كل واحد من هؤلاء ، وأمثالهم طوائف من الشيوخ الذين أخذوا بمسلكه ومعتقده، ونظموا الطرق الصوفية فى شكلها المتوارث ، ومن أبرز الشيوخ المتأخرين الشيخ عبد القادر الجيلى الذى تنسب إليه القادرية باسمها وتتفرع عنه طرق أخرى كثيرة تصل إلى الخمسين أو أكثر (٨) . وفيما يلى ترجمة الشيخ عبد القادر .

---

(١) كشف المحجوب جـ ٢ ص ٤١٣ وما بعدها .

(٢) نفسه . قال الجرجانى : (السكر عند أهل الحق : هو غيبة بوارد قوى وهو يعطي الطرب والألتذاذ وهو أقوى من الغيبة وأتم منها) التعريفات ص ١٢٠ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٦٧ .

(٤) طبقات الصوفية ١٢٣ ومذهب الملامية أو الملامتية مختلف فى حال أهله فالجرجانى يقول عنهم (هم الذين لم يظهروا مما فى بواطنهم على ظواهرهم ، وهم يجتهدون فى تحقيق كمال الاخلاص ...) التعريفات للجرجانى ص ٢٣٠ ويمتدحهم صاحب عوارف المعارف بمثل هذا ص ٧١ وما بعدها .

(٥) كشف المحجوب جـ٢ ص ٤١٢ .

(٦) طبقات الصوفية ص ١٦٤ .

(٧) صفة الصفوة جـ ٢ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٨) دائرة المعارف الإسلامية ط العربية جـ ١٥ - ص ١٧٦ - ١٨٥ ودائرة معارف المعلم بطرس البستاني جـ ١١ ص ٢٩٧ .

الباب الأول

نشأة القادرية

تمهيد : في عصر الشيخ عبد القادر الجيلي .

وفيه : - الأحوال السياسية .

- الأحوال العلمية .

- الأحوال الإجتماعية .

الاحوال السياسية عند ظهور الشيخ عبد القادر الجيلي في بغداد

دخل الشيخ عبد القادر بغداد بعد إنتهاء دولة بنى بويه الشيعية ، ووصول سلاطين السلاجقة إلى الحكم فى بغداد ، وقيام دولتهم السنية ٠

وكانت الاوضاع السياسية متأزمة إلى حد كبير بين الخلافة العباسية ، والحكام الجدد من جهة ، وبين السلاجقة فيما بينهم من جهة أخرى ٠

فقد عاش الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى فى بغداد من عام ٤٨٨ هـ إلى عام ٥٦١ هـ وعاصر خمسة خلفاء من بنى العباس هم المستظهر بالله - وهو أبو العباس أحمد بن عبد الله المقتدى - ينتهى نسبه إلى هارون الرشيد ولد عام ٤٧٠ هـ وبويع له بالخلافة عام ٤٨٧ هـ ومات عام ٥١٢ هـ وكانت مدة خلافته ٢٤ عاما ٠

والمستظهر هذا جاء بعده إبنه : المسترشد بالله وهو : أبو منصور الفضل بن أحمد بن عبد الله المقتدى ٠ بويع له بالخلافة عام ٥١٢ هـ وكانت خلافته خلافة سنة حيث قام ضد الباطنية ، والمفسدين وإعداء الدين ، حتى قتلته الباطنية عام ٥٢٩هـ وهو آخر خليفة رئى خطيبا وكانت مدة خلافته ١٧ عاما رحمه الله

ثم جاء بعده إبنه الراشد بالله وهو : أبو جعفر منصور بن الفضل المسترشد بالله ، بويع له بالخلافة بعد وصول نعي أبيه عام ٥٢٩ هـ

وأنفذ خادما وحاجبا لكل مسجد ، وخطب له بالخلافة فى جميع جوامع مدينة السلام وبعد عام من توليته الخلافة خلعة السلطان السلجوقى مسعود بن محمد ابن ملكشاه ، وكان خارجا عن بغداد فى زيارة للموصل ، وظل متمسكا بالخلافة حتى قتله جماعة من الباطنية سنة ٥٣٢ هـ ٠

ثم جاء بعده ابن أخيه المقتفيى لأمر الله ، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدى ، بويع له بالخلافة بعد خلع عمه الراشد بالله عام ٥٣٠ هـ وكان عابدا قبل الخلافة وأستمر على ذلك ، وكانت له مبرات ورأفة بالرعية ، ورغب الناس فى عهده بالأشتغال بالعلم ، وقد أخذ

الحديث وحدث ، وتوفي عام ٥٥٥ هـ وكانت مدة خلافته ٢٤ عاما (١) .

ثم جاء بعده إبنه المستنجد بالله ، وهو أبو المظفر يوسف بن محمد المقتفى بن أحمد المستظهر بويع له بالخلافة بعد موت أبيه بعهده إليه سنة ٥٥٥ هـ وكانت مدة خلافته ١١ عاما حيث إنه توفى سنة ٥٦٦ هـ (٢) .

فهؤلاء الخلفاء الذين عاصرهم الشيخ عبد القادر ، وكانت البلاد فى عهدهم تعيش فى قلق سياسى بسبب كثرة الحروب والمنازعات والخصام على السلطة .

فعندما توفى السلطان محمود السلجوقى فى شوال سنة ٥٢٥ هـ ظهر نزاع شديد بين إبنه داوود وعمه مسعود ، وتم الصلح بينهما بعد حرب شديدة عام ٥٢٦ هـ وفى نفس العام تدخل السلطان سنجر السلجوقى وحارب مسعود ا و هزمه وطرده وعين مكانه على سلاجقة العراق السلطان طغر بن محمد ولكن مسعود ظل يقاتل حتى إستعاد عرش سلاجقة العراق ، ولم يكد يصفو له الجو سياسيا حتى نشأ خلاف بينه وبين الخليفة فدارت بينهما الحرب عام ٥٢٩ هـ ،فهزم الخليفة وأخذ أسيرا وسجن مع أعيان رجاله ، ولما قتله الباطنية فى سجنه وعين الراشد بالله خليفة بعده دارت حرب بينة وبين مسعود عام ٥٣٠ هـ فحوصرت بغداد نيفا وخمسين يوما ففر الخليفة الى الموصل فعزله مسعود وعين مكانه ابن أخيه المقتفيى لأمر الله (٣) .

ونتجت عن هذه الأوضاع السياسية السيئة المتردية ءاثار كبيرة في أحوال الناس العلمية والدينية والاجتماعية .

---

(١) مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بنى العباس ، تأليف الشيخ ظهر الدين على بن محمد البغدادى المعروف بإبن الكازروني المتوفى سنة ٦٩٧ هـ ط ١ وزاره الاعلام بالعراق ، بغداد ، تحقيق مصطفى جواد سنة ١٣٩٠ هـ ص ٢١٥ -٢٣٦ .

(٢) نفسة ص ٢٣٦ .

(٣) دولة السلاجقة ، تأليف عبد المنعم محمد حسنين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط عام ١٩٧٥م ص ١٠٦ - ١٠٩ .

الأحوال العلمية

وهكذا أثرت هذه الأوضاع السياسية فى الحياة العلمية فأثرتها وأثرت فيها فأهتزت الثقة وراج التعصب الدينى والمذهبى والعقدى والفكرى ، وأنتشرت الخرافات وأزداد ميل الناس إلى العزلة والانزواد والإعتكاف للعبادة ، وصاحب ذلك كثرة الطوائف والفرق .

فأنشأت المدارس ، وألفت الكتب وعقدت المجالس لترويج المذاهب وكسب النـاس ضد الخصوم ونتجت عن هذه الاحوال أمور كانت خطيرة على الأمة منها : -

(١) عداوة بعض أهل العلم لبعض .

(٢) إستخدام العلم والفلسفة أداة للمجادلات المذهبية .

(٣) غلبة الجفاف والجفاء على المباحث العلمية والفلسفية (١) .

الأحوال الإجتماعيه

تأثرت الأوضاع الاجتماعية بهذه الاحوال السياسية والعلمية فأشاعت فى الناس روح الفوضى والإضطراب الفكري والنفسي ، والقلق السياسي ، والخوف على الحياة والمستقبل من القتل أو الأسرأو الإهانة أو الجوع .

فمال الناس نتيجة لذلك إلى الوعـاظ وشيوخ الصوفية رغبة فى تهدئة النفوس ، وهروبا من معترك الحياة المضطربة ، فازداد بذلك نسبـة الوعـاظ والمزهدين ورجال الصوفية الذين أخذوا من مراكز تجمع الناس منابر لهم ، كالمساجد ، والأسواق ، والمقابر ، أو المناسبات العامة .

وهكذا وجد الناس فى خطب الوعاظ والمتصوفة تسلية روحية وراحة فكرية وبدنية ، وازداد إقبال المريدين على المساجد والأربطة التى قامت الخلافة بإنشائها وتشجيع الناس على تعمير ها حيث أصبح الوعاظ وشيوخ الصوفيـــة

---

(١) نفسه ص ١٥٥ - ١٥٧ وما بعد ذلك .

يرتبون من قبل الخلافة ، ويكونون تحت إشرافها ومراقبتها (١) .

فازدادت بذلك مكانة الصوفية عند الناس وقويت الثقة فى شيوخها فى الجهة الرسمية والشعبية ، فأنتشرت الأربطة ، وكثر المعتكفون فأجريت عليهم النفقات والإعطيات من الخلافة والأغنياء (٢) .

والناس كما قال ابن الجوزى : إما طالب دين أو طالب دنيا . فطلاب الدين مالوا إلى الصوفية لما يظهرونه من التزهد ، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرونه عندهم من الراحة واللعب حيث إنهم ترخصوا فى السماع والرقص (٣) .

وهكذا شملت هذه الأوضاع الخلفاء والوزراء والسلاطين والأغنياء والتجار والعسكر وعوام الناس وكان تأثير الصوفية طاغيا فى هذة الأيام على الناس جميعا فازداد تقديس الناس لهم وتفضيلهم على العلماء .

فنشروا أخبارهم فى مجالسهم الخاصة ومناماتهم وكراماتهم وأحوالهم فى سياحتهم وتطوافهم فى البلاد الإسلامية شرقا وغربا (٤) .

وكان لظهور ثلاثة أقطاب من الصوفية - كما وصفوهم - فى زمن متقارب فى العراق أثر بالغ على الناس فى حياتهم الإجتماعية ، وإعتقاداتهم الدينية .

وذلك بسبب دروسهم ومؤلفاتهم التى تركوها لأتباعهم كبرامج للمريدين من بعدهم وهم : الشيخ عبد القادر الجيلى الذى ستأتى إن شاء الله ترجمتة مفضلة فى الفصل الأول من هذا الباب .

والثانى : الشيخ أحمد الرفاعى - وهو محيي الدين أبو العباس أحمد بن على الرفاعى من سواد العراق من واسط .

---

(١) تاريخ العراق الأخير ، بدرى محمد فهد (بدون) ص ٣٩٣ و ٤١٩ .

(٢) دولة السلاجقة ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٣) تلبس إبليس ص ١٩٩ .

(٤) تاريخ العراق الأخير ص ٤٩٤.

وكان كما قيل رجلا صالحـا فقيها شافعى المذهب علوي النسب ، أعتقد الناس فيه لزهـده ووعظـه ونسبوا لـه أشياء كبيرة على أنها كرامات ٠ توفي سنة ٥٧٨ هـ (١) ٠

الثالث : الشيخ عمر السهروردى وهو : أبو حفص عمر بن محمد السهروردى الملقب بشهاب الدين ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه ٠ أخذ العلم عن علماء بغداد وسلك فى التصوف على خاله أبى النجيب السهروردي والشيخ عبد القادر الجيلي ، ولد السهروردي سنة ٥٣٩ هـ وتوفي سنة ٦٣٢ هـ ٠

---

(١) نفسه ص ٤٩٤ وما بعدها ٠

الفصل الأول

الفصل الأول

ترجمة الشيخ عبد القادر

وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : في نسبه ·

المبحث الثاني : في مولده واسرته ونشأته ·

المبحث الثالث : في رحلته العلمية وشيوخه وتلاميذه

المبحث الرابع : أقوال العلماء فيه - مكانته العلمية والإجتماعية ·

المبحث الخامس : آثاره ومؤلفاته ·

المبحث السادس : عقيدته وسلوكه ·

المبحث الأول : نسبه

* **تقديم :**

إن المترجم لأي شخص عليه أن يبحث اولا هل ترجم ذلك الشخص لنفسه ، وأثبت نسبه بنفسه أولا ؟ أو ترجم له أحد المقربين منه كأولاده المباشرين وتلاميذه المعروفين أولا ؟ .

وعند البحث فى هذه الخطوه الأولى نجد أن الشيخ عبد القادر لم يكتب ترجمه لنفسه ، ولا كتبها له أحد من أبنائه أو تلاميذه المعروفين بصحبته وملازمته ، ولكن نجد بعض المعاصرين له أو القريبين من عصره ترجموا له تراجم متفاوته فى الدقه والقصـر والطول ، وهى مع ذلك خاليه من ذكر نسبه الذى هو المقصود فى هذا المبحث .

وقد ذكر محمد بن عزوز المكى فى كتابه : السيف الربانى فى عنق المعترض على الغوث الجيلانى أن مفتى العراق أبا بكر عبد الله بن نصر بن حمزه اليكرى البغدادى من أصحاب الشيخ عبد القادر نفسه ألف فى مناقب الشيخ عبد القادر كتابا سماه : أنوار الناظر .

وأن أبا محمد عبد اللطيف بن هبة الله الهاشمى البغدادى ألف فى مناقبه أيضا كتابا سماه : نزهه الناظر (١) وقد اطلعت على أحد هذين الكتابين المذكورين فلم أجد فيه أيضا عمود نسب للشيخ عبد القادر (٢) .

ويظهر أن أول من ساق عمود نسبه بسنده هو الشيخ على بن يوسف الشطنوفى فى كتاب بهجه الأسرار . وعنه أخذ من ساق عمود النسب من المؤلفين بعده في

---

(١) رسائل بن عزوز المكى ، تحقيق / على الرضا التونسى ، ط ١ سنة ١٤٠٤ هـ ص ١٤٢ .

(٢) قلت : والذى وقفت عليه فى الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (٨٩٩) : بهجة الناظر فى فضائل الشيخ عبد القادر ، بدون ذكر أسم مؤلفها . إلا أن الشطنوفى صاحبه بهجة الأسرارالآتى ذكره إن شاء الله : نسبها الى الهاشمى المذكور وهو شيخه وقال بأن مفتى العراق المذكور قبله ألف : أنوار الناظر فى أخبار الشيخ عبد القادر انظر بهجة الأسرار ومعدن الأنوا ، بتحقيق : محمد محرم العمروسى ط١ البابي الحلبي سنة ١٣٠٤ هـ ص ١٠٩.

التاريخ والتراجم ممن ترجم للشيخ عبد القادر إلا أن معظم المؤلفين يقتصر على القول بأنه حسنى من ذريه الحسن بن على رضى الله عنهما وذكر بن عزوز أثنين وستين مؤلفا نص مؤلفوها بالجزم على صحـه نسبته للحسن بن على رضى الله عنهما • وقال : (أما البعض من تلك الكتب فقد صرحت بأتصاله بالحسن السبط من غير تعيين لسلسلته المباركه وأما ما ينيف على الثلاثين مؤلفا منها فهى التى عينت أسماء أجداده إلى الحسن) (١)

قلت : وواضح بالنظر إلى التاريخ أن بعض هؤلاء أخذ عن بعض، ولم يكن هدفهم النقد والتمحيص • (٢)

عمود نسبه كما في بهجه الأسرار :

قال الشطنوفي : (أخبرنا الفقيه العالم أبو المعالى أحمد بن الشيخ المحقق أبي الحسن على ابن أحمد ابن عبد الرزاق عيسى الهلالي البغدادي ، قال : أخبرنا قاضي القضاه أبو صالح نصر قال : أخبرنا والدي عبد الرزاق قال : سألت والدى الشيخ محي الدين عن نسبه قال :

عبد القادر بن أبى صالح موسى جنكى دوست بن أبي عبد الله بن يحي الزاهد بن محمد بن داوود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض ويلقب أيضا بالمجل بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم) • (٣)

وقد تبع الشطنوفي ونقل عنه هذا النسب اليافعي (٤) والتادفي(٥) والحافظ ابن حجـرالعسقلاني (٦) قال الحافظ ابن حجر بعد ذكره لروايه الشطنوي لعمود هذا النسب :

---

(١) رسائل ابن عزوز ص ١٥٦ •

(٢) نفسه ص ١٤٧ - ١٥٤ •

(٣) بهجه الأسرار ص ٨٨ •

(٤) مرآه الجنان وعبره اليقظان فى معرفة مايعتبر من حوادث الزمان لأبي محمد عبد الله بن سعدبن على اليافعى اليمني، ط الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ط٢سنة ١٣٩٠هـ جـ٣ ص٣٥٠

(٥)قلائد الجواهر فى مناقب الشيخ عبد القادر، تأليف : محمد بن يحى التادفى(بدون) ص٣

(٦) غبطه الناظر فى ترجمه مولاي الشخ عبد القادر ، تأليف : أحمد بن على العسقلانى ، مخطوط بالخزانه العامة بالرباط (د / ١٦١٧) ص ٢ •

(عبد الرزاق ولد الشيخ من الثقات وولده أبو صالح نصر من الثقات المسندين ، وقد وقعت لنا الروايه عنه بعلو) • (١)

فلو أن روايه الشطنوفى لعمود هذا النسب سلمت من الطعن لكان لنا أن نجزم بأن الشيخ عبد القادر شريف النسب من ذريه الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، ولكن هذه الروايه قد طعن فيها قديما وحديثا ، فتحتاج إلى مناقشه حتى يتبين وجه الحق فيها ، إن شاء الله - وسيكون ذلك بعد عرض آراء الطاعنين في نسب هذا الشيخ •

* الاختلاف في نسب الشيخ عبد القادر الجيلي

يتفاوت نقد النسابين والمؤرخين لعمود نسب الشيخ عبد القادر ، فمنهم من يأتي بعبارة داله على عدم جزمه بصحته (٢) ومنهم من جزم بنفى صحه نسبه إلى آل البيت ، ويستدل على ذلك بأدلة نعرضها فيما يلى بإيجاز :

١ - أن سلسله النسب التى تصله بأمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن طريق عبد الله بن محمد بن يحي بن محمد بن الرومية ، وعبد الله المذكور رجل حجازي لم يخرج من الحجاز •

٢ - وأن الشيخ عبد القادر لم يدع هذا النسب ولا أحد من أولاده، وإنما ابتدأ هذه الدعوى ولد ولده القاضي أبو صالح نصربن عبد الرزاق •

---

(١) نفسه •

(٢) مثل صاحب الذيل على طبقات الحنابلة فإنه قال فى ترجمته للشيخ عبد القادر : (وبعض الناس يذكر نسبه إلى علي رضى الله عنه) وساق النسب وهو فيه : (عبد القادر ابن أبي صالح بن عبد الله ••) المصدر المذكور ، دار المعرفـه جـ ١ ، ص ٢٩٠ •

ومثله فى ذلك الذهبي فإنه قال في تاريخ الإسلام عند ترجمته له : (وزاد بعض الناس فى نسبه إلى أن أوصله بالحسن رضي الله عنه) مخطوط (مكروفيلم) بمركز البحث العلمي بجامعه أم القرى رقم جـ١٢ / ٢٩١٧ •

٣ - وأن هذا الإسم أعنى (جنكى دوست) أعجمي . (١)

٤ - وأن النسابه بن ميمون عندما طلب منه القاضى نصر إدخاله فى مشجره بين آل الحسن السبط رضي الله عنهم أجابه بأن يتقي الله ويترك الهاشمية لأهلها ، وأن جده عبد القادر بشتيري ينتهى نسبه الى بشتير بطن من الهرامزة بفارس . (٢)

٥ - ومن أكبر المطاعن فى هذا النسب الطعن فى (بهجه الأسرار) التى ذكر فيها هذا النسب بالسند إلى الشيخ عبد القادر .

فصاحب الذيل على طبقات الحنابله ينقل عن الكمال جعفر الأدفوي أن الشطنوفى نفسه كان متهما فيما يحكيه فى هذا الكتاب ثم قال : (ولا يطيب على قلبى أن أعتمد على شيء مما فيه) . (٣)

قلت : ولعل الأدفوي قال هذا الكلام فى الشطنوفى فى كتابه : (البدر السافر فى تحفه المسافر) وهو كتاب فى التاريخ والتراجم وما زال مخطوطا بدار الكتب المصريه . (٤)

والشطنوفي هو : على بن يوسف بن حريز (أو ابن حرز) اللخمى الشطنوفى المقرىء النحوى قال فيه الذهبى : (هو الأمام الأوحد نور الدين شيخ الإقراء بالديار المصرية ، أبو الحسن .. وكان ذا غرام بالشيخ عبد القادر الجيلى ، جمع أخباره ومناقبه فى نحو ثلاث مجلدات ، وكتب فيها عمن أقبل وأدبر ، فراج عليه فيها حكايات

---

(١) عمدة الطالب في أنساب آل أبى طالب ، لأحمد بن على الحسنى المعروف بأبن عنبة المتوفى سنة ٨٢٨ هـ ضمن مجموعه رسائل الكمالية فى الأنساب ، دار الشعب بالقاهره (بدون) ص ٢٢٩ .

(٢) رسائل ابن عزوز ص ١٦١ .

(٣) الذيل جـ ١ ، ص ٢٩٣ .

(٤) ومنه نسخه فى مكتبه الفاتح بأسطنبول رقم ٤٢٠١ - الموفى بمعرفه التصوف والصوفى ، تحقيق / محمد عيسى صالحية ، ط١ الكويت سنة ١٤٠٨ هـ ص ٢٦ - ٢٧ .

كثيرة مكذوبة) (١) ٠

ويوافق الحافظ بن حجر الذهبى على القول بأن الشطنوفى راجت عليه فى كتابه (بهجة الأسرار) روايات وحكايات إلا أنه يقول عنه : (وكان عالما تقيا مشكور السيرة) (٢) ٠

وقد ختم ابن عنبة المتقدم ذكره (٣) طعنة في نسب الشيخ عبد القادر الجيلي بقوله :

(ومع ذلك كله فلا طريق إلى أثبات هذا النسب إلا بالبينه الصريحه العادلة ، وقد أعجزت القاضي أبا صالح ، وأقترن بها عدم موافقة جده عبد القادر وأولاده له) (٤) ٠

وتبع ابن عنبة ي الطعن فى نسب الشيخ عبد القادرالجيلي ، ابن حماد الموصلى عند ترجمته لعبد الله بن محمد بن يحي الحسني الذي نسبوا إليه الشيخ عبد القادر(٥) وتبعه على ذلك علي بن محمد الفرماني الحنفي في رسالته : (الحق الظاهر فى شرح حال الشيخ عبد القادر) (٦) ٠

قلت : وقد أثار صاحب الرساله المذكوره قضايا كثيره يؤيد بها طعنه منها : إثارته لاختلاف المؤرخين فى اسم والد الشيخ عبد القادر ، ومنها ماذكرناه عن ابن عنبة ، وغيره (٧) ٠

---

(١) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، للذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الحافظ ، تحقيق : بشار عواد معروف ، وشعيب الأرناؤط ، مؤسسه الرسالة ط ١ سنة ١٤٠٤ هـ ص ٧٤٢ - ٧٤٣ ٠

(٢) الدرر الكامنه في أعيان المائه الثامنة ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق دار الكتب الحديثه، جـ ٣ ، ص ٢١٦ ٠

(٣) أنظر هامش ص ٣٦ ٠

(٤) عمده الطالب ص ٢٢٩ ٠

(٥) رسائل بن عزوز ص ١٤٥ -١٥٥ ٠

(٦) رسائل بن عزوز ص ١٣٨ ٠

(٧) نفسه ص ١٦٥ ٠

وقد حوكم في العراق الأستاذ : محمد بهجت الأثرى لنفيه النسب الحسنى عن الأسره القادريه ، كما نوقشت فى المغرب مسألة نسبة الأسر القادرية الى النسب الحسني .

يقول الأستاذ هاشم العلوى : (إن عمود نسب عبد القادر الجيلى لم يسلم من الأنتقاد والطعن فيه ، بحيث أعتبر الجيلى فى بعض الدراسات شخصيه فارسيه انتحلت (١) النسب الحسنى العلوى (٢) وقد أكد هذا الكلام الدكتور كامل الشيبى فى كتابة: الصلة بين التصوف والتشيع. (٣) ولننظر فى أدلة الطاعنين هذه لنرى هل الصواب مع من أثبت أو مع من نفى وطعن ؟

---

(١) قلت : و نسبة الأنتحال للشيخ عبد القادر ليست عندى من الصواب لعدم ثبوت شىء من ذلك عنه ، ولما عرف عنه من التواضع ونكران الذات . والله أعلم .

(٢) أنظر هامش : التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائه الحادية والثانيه عشر ، لمحمد بن الطيب القادرى المتوفى سنه ١١٨٧ هـ تحقيق هاشم العلوى ، منشورات دار الأوقاف الجديدة ، بيروت (بدون) ص ٤٨٣ .

(٣) المصدر المذكور ط٢ دار المعارف بمصر ص ٤٤٧ .

المناقشة والترجيح

يمكن أن يكون لهذه المطاعن التى ذكرها المعترضون أو الناقون لنسب الشيخ عبد القادر إلى آل البيت وجاهه ، حيث إنه عاش فتره طويله من الزمن فى بغداد وخلف بعده أولاده وتلاميذه ، ولم ينسبوه إلى الحسنيه حتى عهد حفيده القاضى أبى صالح نصر ٠

ولكن إذا أخذنا فى الأعتبار أن الشيخ عبد القادر وفد إلى بغداد من بلاد العجم يطلب العلم ، ويصحب المشايخ ويميل إلى الزهد والخمول ٠ نجد أنه لو ذكر نسبه وأنه حسني لكان في ذلك بعض المنافاة مع ماهو قائم عليه حيث كان يقول عندما يعرف نفسه : (متفقه من جيلان) (١) ٠

ثم أنه لما أصبح شيخا مشهورا أغنته شهرته عن ذكر نسبه الحسنى ، وكذا سار على نهجه في الزهد والبعد عن دواعى الظهور أولاده حتى أظهر نسبه حفيده القاضى أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي ، الذي أتفق العلماء على عدالته وتوثيقه ، ذكر ذلك عنهم الذهبي وابن حجر وابن الفوطي وغيرهم (٢) ٠

قال الذهبي عنه : (جمع الأربعين حديثا لنفسه وألف في التصوف ٠٠ وروى الكثير وكان ثقه متحريا) (٣) ٠

وتقدم توثيق ابن حجر له وتنويهه بوقوع الروايةْ له عنه بعلو (٤) ٠

وللأحفاد الحق فى إظهار نسب أبيهم وإثباته ، وعلى هذا فيمكن

---

(١) سير أعلام النبلاء تأليف : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى المتوفى سنه ٧٤٨ هـ ط١ ١٤٠٥ هـ مؤسسه الرسالة ، جـ٢٠ ص ٤٤٤ وما بعدها ٠

(٢) تاريخ الإسلام للذهبى خ جـ ١٧ ص ٢٩١٧ مصدر سابق ٠ والمختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثى ، للذهبى المجمع العلمى العراقي بتحقيق : مصطفى جواد وناجي معروف ط ١٣٩٧ هـ ، جـ ٣ ، ص ٢١١ - ٢١٢ وتلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب لابن الفوطى ، تحقيق مصطفى جواد ، وزاره الثقافة و الارشاد ، و إحياء التراث القديم جـ٤ القسم الثانى جـ ١ ص ٨٧٣ - ٨٧٤ ٠ وغبطه الناظر لابن حجر مصدر سابق ص ٢ ٠

(٣) سير اعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٣٩٨ ٠

(٤) انظر ص ٣٦ من هذا البحث ٠

مناقشة حجج النافين أو الطاعنين في نسب الشيخ عبد القادر فى نقاط محصورة ٠ وهي :

أولا : أن سلسلة نسب الشيخ عبد القادر ليس فيها من إسمه : عبد الله بن محمد بن يحى الذى قيل بأنه رجل حجازي ، على ماجاء فى نسبه عند بن عنبة في (عمدة الطالب) عندما أراد نفي الحسنية عنه حيث قال :

(وقد نسبوا إلى عبد الله بن محمد بن يحى بن محمد بن الرومية : الشيخ الجليل الباز الأشهب محى الدين عبد القادر الكيلانى ، فقالوا : هو عبد القادر بن محمد جنكى دوست بن عبد الله المذكور) (١) ٠

وليس فى عمود نسبه المذكور سابقا هذا النسب المذكور هنا ٠

ثانيا : أن الشطنوفي وغيره قد نقلوا عن الشيخ عبد القادر قوله : إن كل ولي على قدم نبي وإنه هو على قدم جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ (٢)

ثالثا : وأما كون الشيخ عبد القادر لقب (بالأعجمى) أو أن أباه كان يلقب (بجنكى دوست) فهذا لايؤخذ منه دليل لنفى نسبه الى آل البيت ٠

إذ أن كل من سكن بلدا ول للتجاره صح أن ينسب إليه ، والشيخ عبد القادر سبقه فى سكنى جيلان من بلاد العجم جدان أو أكثر ٠ (٣)

وقد جاء فى دليل خارطة بغداد المفصل : أن فى بغداد برجا يسمى برج (العجمى) كان الشيخ عبد القادر يختلف اليه ، ويأوى إليه لفقره واشتغاله بالمجاهدات والرياضات الصوفية ، وأن أهل بغداد كانوا يسمونه قبل نبوغه وإشتهاره (بالعجمى) ٠ (٤)

---

(١) عمدة الطالب ص ٢٢٩ ٠

(٢) السيف الربانى ص ٢٤٦ قلت : إن اريد بهذه العباره المتابعه للنبى صلى الله عليه وسلم فنعم ولاولاية بدون ذلك ، وان أريد بها أمر آخر من دعاوى الصوفية فلا وسيأتى بيان ذلك فى فصل الولاية ٠

(٣) السيف الربانى ص ١٦٠ ٠

(٤) دليل خارطة بغداد المفصل ، مصطفى جواد ، وأحمد شوشه ، نشر المجمع العلمى العراقى سنة ١٣٧٥ هـ ص ١٦٢ ٠

فهو حمل هذا اللقب (العجمي) في بلاد العرب وبقى هذا الإسم على البرج وأزيل عن الشيخ عبد القادر كما هو واضح من الفقرة السابقة ٠

ثم إن ابن عنبه نفسه ذكر أسماء عجمية ونسبها للنسب الحسني وهي من بلاد جيلان التى منها الشيخ عبد القادر فقال بأن من أبناء على بن أبى طالب من ولد له بجيلان ٠ (١)

رابعا : وعلى القول بأن القاضى أبا صالح نصر بن عبد الرزاق هو أول من أدعى هذا النسب الحسنى من ذرية الشيخ عبد القادر وهو ثقة عدل (٢) مقابل النافى أو الطاعن فيكون عدلا مقابل عدل على تقدير عدالة النافي (٣) ، فيقدم المثبت على النافى حيث إن النظر إلى أدله كل منهما لا يترجح به بعضها على بعض ألا بذلك ، وقد عرضنا إدلة النافي وناقشناها بما يناسبها ٠

خامسا : وأما الطعن فى (بهجة الأسرار) فإنه منصب فى الغالب على الروايات الغريبة فيها أو المستحيلة ، فيرد منها ماكان مستحيلا في العقل أو مخالفا للشرع ، ولا يعمم الطعن فيها بما فيها ٠

ومفهوم من كلام الذهبى فى وصفه للشطنوفى بأنه كان ذا غرام بالشيخ عبد القادر أنه لاحظ عليه قبول الغرائب والتحديث عمن أقبل وأدبر في كتابه وأن الغرام هو الذى جره الى هذا الصنيع ٠ (٤) ولكن لم ينص أحد ممن وقفت على كلامه من الأئمة المعروفين بالإنصاف على طعن صريح فى عدالة الشطنوفي في نفسه أو غرابة واضحة فى عمود النسب الذى خرجه ، وأما طعن الأدفوى فيه أو في بهجته فيقلل من وجاهته ماعرف عنه من التشدد على صوفية زمانه الذين كان من أئمتهم الشطنوفي وذلك واضح فى كتابه (الموفى بمعرفة التصوف والصوفي) (٥) هذا بالإضافه إلى المعاصرة ٠

---

(١) عمده الطالب، تحقيق نزار رضا ، نشر مكتبة الحياة - بيروت (بدون) ص٧١ -٧٥ ٠

(٢) انظر ص ٤٠ من هذا البحث ٠

(٣) لم نجدذكرا في كتب المجروحين وهومؤرخ نسابة ٠ توفي ببلدة (كرمان) بالعراق سنة٨٢٨هـ

(٤) انظر ص ٣٨ من هذا البحث ٠

(٥) تقدم ذكره فى ص ٤٨ من هذا البحث في الهامش (٣) ٠

التي هي من موانع المناصرة حيث إن الشطنـوفى كانت وفاته فى ذي الحجةً سنـة ٧١٣هـ (١) والأدفوى توفي بعده سنة ٧٤٨ هـ (٢) ٠

وعندى أنه لوكان الشطنوفي نفسه متهما في عدالته ، أو أن كتابه غير معتبر على العموم لما عدله الحافظان الذهبي وابن حجر (٣) ولما أعتمد الحافظ بن حجر على بهجه الأسرار فى تأليفه لكتابه غبطة الناظر حتى كأنه أحتصار لها وقد قال فى مقدمتها أعني الغبطة : -

(أما بعد فهذا تعليق موجز في ترجمة شيخ مشايخ الزمان أبى محمد مولانا عبد القادر بن موسى الحسنى الجيلي) وواضح أنه جزم بنسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وساق النسب المذكور في البهجة نقلا عنها (٤) ٠

الترجيح

إنطلاقا من المناقشة السابقة لأدلة وحجج الطاعنين أو النافين لنسبة الشيخ عبد القادر إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، فإنه يمكن ترجيح صحة نسبته إليه وخصوصا إذا أخذنا فى الأعتبار المسوغات الآتيـة بالإضافة إلى ماتقدم في المناقشة ٠

أولا :أنه لايصح أعتبارما أحتجوا به أدلة كافية لنفي أي نسب عن أحد من الناس ٠

ثانيا : أنه في العهد المكتوب لنقيب العلوين في ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ في حياة القاضـي نصر بن عبد الرزاق الذى قيل بأنه هو أول من أظهر أو أدعى نسبة أبيـه إلى الحسـن بن على رضى الله عنهما أن من مهام النقيب صيانه هذا النسب الكريم ، وأن من أنتحله من الأدعياء عليه أن يتأكد من نسبه ببرهان ، ويتثبت من ذلك بإستشارة

---

(١) معرفه القراء الكبار مصدر سابق ص ٧٤٣ ٠

(٢) الموفى بمعرفة التصوف والصوفى المذكور سابقا ص ١ ٠

(٣-٤) غبطه الناظر مصدر سابق ص ١ - ٢ ٠

الشيوخ ، فإن وجده ماكرا وجب تأديبه وردعه) (١) .

والشاهد فيه أن نصر بن عبد الرزاق لم ينقل رغم كثرة تراجمه في كتب الحوادث والتاريخ أنه أصابه أذى فى إدعائه هذا النسب .

وقد تتبع ابن الفوطى حياته ومناصبه فى الدولة ، وفى ماذكره أنه ظل فى علو مستمر حتى توفى فى سادس عشر شوال سنة ٦٣٣ هـ .

وقد نقل مصطفى جواد عن ابن الفوطى أنه نسب له هذه الابيات التى يبين فيها نسب جده ويوضح سبب كتمانه لنسبه الحسنى وهى : ((من بحر الرمل))

(نحن من أولاد خير الحسنين ... من به أصلح بين الفئتين

يشبه المختار فى أعـــلاه إن ... كان أدناه شبيها بالحسين

سركتمان أبينا أصــــله ... أنه قال بأن الفقر زين) .(٢)

وقد ذكر الأستاذ مصطفى جواد رحمه الله أن ابن الفوطي ذكر عند ترجمته للشيخ عبد القادر نسبه وأنه من بنى الحسن فى الجزء الخامس من هذا الكتاب - كتاب حرف الميم - فى لقب : (محيي الدين) . (٣)

ثالثا : أن النافين قلة والمثبتون كثير وبعض الطاعنين أو النافين يلبس نفسه ماجرد منه الشيخ عبد القادر من النسب الحسني وهذا فيه تهمة طاعنة في دعـواه . (٤)

---

(١) تاريخ العراق الأخير - تأليف : بدرى محمد فهد ، مطبعه الرشاد ، بيغداد سنه ١٩٧٣ م ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) تلخيص معجم الآداب لابن الفوطى مصدر سابق القسم الرابع هامش ص ٨٧٤ - ٨٧٥ .

(٣) نفسه ص ٣٨٢ . قلت : وهذا الجزء المذكور غير موجود (فى المكتبات العامه التى وقفت عليها في مكة المكرمة والمدينة المنورة .

(٤) عمده الطالب ٢٢٩ وروضـات الجنات فى أحوال العلماء والسادات ، لميرزا محمد بن باقر الموسوى ، الخوانسارى ، الأصبهاني ، مكتبة اسماعيليان (طهران - قم) ط ١٣٩٢هـ ، جـ ٥ ص ٨٥ - ٨٩ والسـيف الربانـي ص ١٤٧ - ١٥٤ .

رابعا : أنه فى عام ٩٤١ هـ عين السلطان سليمان خان (١) نقيبا للعلويين من ذرية الشيخ عبد القادر وهو زين الدين بن الشيخ محمد شرف الدين ، وكان أول نقيب للأشراف في عهد الدولة العثمانية فى العراق • (٢)

ولم نجد من طعن في تعيينه نقيبا بكونه غيرحسنى أو غير ذلك وقيام ذرية الشيخ عبد القادر فى وجه الطاعنين في نسبه دال على شدة ثقتهم وتمسكهم بهذا النسب الشريف •

وقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم من الطعن فى الأنساب وأعتبره من الكفر فى هذه الأمه ، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أثنتان فى الناس هما بهم كفر : الطعن فى النسب والنياحه على الميت)•(٣)

قال النووي : في بيان الحديث : -

(واختلف فيه على أقوال : أصحها أن معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية ••• وفيه تغليظ تحريم الطعن في النسب •) (٤)

وأتفق العلماء على أن النسب يثبت بأضعف الأدله إذا أختفت بالقرائن المصدقة لها وهى الدعوى والحيازة • (٥)

وقد رأينا قوة مرجحات ثبوت نسب الشيخ عبد القادر الى الحسن بن على رضى الله عنهما •

والله أعلم ،،،

---

(١) هو : سليمان القانونى أحد عظماء سلاطين العثمانيين •

(٢) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر الكيلانى ومدرسته العلمية تأليف الشيخ هاشم الأعظم بغداد ط١ سنة ١٣٩١ هـ ص ١٠٠ •

(٢) •• صحيح مسلم، كتاب الإيمان ن باب إخلاق اسم الكفر على الطعن فى النسب والنياحة.

(٣) شرح النووى ، على صحيح مسلم ، دار الفكر ، المجلد الأول حـ٢ ص ٥٧ •

(٤) ثبوت النسب (دراسه مقارنة) تأليف ياسين بن ناصر بن محمود الخطيب ، دار البيان العربى ، جده ط ١ سنة ١٤٠٧ هـ ص ١٥٠ – ١٥٦ •

المبحث الثاني : مولده وأسرته ونشاته

تقديم :

لم يعتن المؤرخون كثيرا بحياة الشيخ عبد القادر قبل وصوله إلى بغداد ، ولذا نجد أن المعلومات الحقيقية عن أسرته ومولده ونشأته قليلة جدا ، ويرجع ذلك الى أن الشيخ عبد القادر ولد في جيلان من بلاد الديلم (١) ، وهي عبارة عن قرى متفرقة لاتوجد فيها مدينة كبيرة تكون حاضرة للعلم وطلابه حتى يعرف الناشىء النابغ أو الذكي ، فتحفظ نشأته العلمية وتسجل مواهبه ، فيعرف بذلك ويعرف به أهله إذا كانوا من الأسر الخاملة الذكر قبله ٠

ومع ذلك فإننا نجد متفرقات في بعض المراجع عن مولده وأسرته ونشأته ٠

وهذه المراجع متفقة على أنه ولد في جيلان (٢) ولكن فيها خلاف في المكان الذي ولد فيه من تلك البلاد ٠

وجيلان ينسب إليها بجيلاني ، وجيلي وكيلي وكيلاني ، والخلاف في النسبة إليها على أنها بلد أو اسم رجل واقع ٠

يقول ياقوت الحموي : (وينسب الجيلي إليها جيلاني أيضا على غير هذا اللفظ لأنهم يقولون لهذه الناحية جيلان) ٠(٣)

ويقول السمعاني : (الجيلي بكسر الجيم وسكون الياء المنقوطة باثنتين من تحتها : هذه النسبة إلى بلاد متفرقة وراء طبرستان ، ويقال لها كيل وكيلان معرب ونسب إليها وقيل : - جيلي وجيلاني ، والمنتسبون إليها كثيرمنهم : أبو محمد عبد القادر ٠) (٤)

---

(١) المشترك وضعا والمفترق صقعا ، تأليف : أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦) هـ مكتبه المتنبي ببغداد ، ص ١١٧ ٠

(٢) الأنساب للسمعاني ، أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢) هـ ط١ الركن جـ ٣ ص ٤٦٤ ٠

(٣) المشترك وضعا والمفترق صقعا ، ص ١١٧ ٠

(٤) الأنساب للسمعاني جـ ٣ ص ٤٦٤ ٠

وبعد هذا بياض في الأصل المخطوط والمطبوع ويقول ابن الأثير : (الجيلاني نسبة إلى بلاد ورجل محمد الجيلاني الفارسي) .(١)

وقد نسب الشيخ عبد القادر إلى (بشتير) وإلى (نيف) وكلاهما من بلاد الديلم ، فياقوت الحموي في معجم البلدان ينسبه إلى (بشتير) بالضم والتاء المثناة المكسورة وياء ساكنة (٢) وذكر الشطنوفي في بهجة الأسرار أنه ولد في نيف قصبة من بلاد جيلان . (٣)

ويجمع رشيد رضا بين هذين الرأيين أو هاتين النسبتين ، بأنه يجوز أنه ولد في مكان وتربى في غيره . (٤)

وقد تابع ياقوتا الحموي على هذه النسبة محمد مرتضى الزبيدي ، في تاج العروس من جواهر القاموس ، ناقلا هذه النسبة عن خط الذهبي - وأنه قال - أعني الذهبي :

(هكذا نسبه حفيده الإمام المحدث عماد الدين القاضى أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي ..) وقال الزبيدي بعد هذا النقل : قلت : (ولم يذكر أن المنسوب إليه قرية أو موضع والذي يظهر لي أنه تصحيف عن النشتبري نسبة إلى نشبتيري بألف القصر قرية قرب شهر بان من نواحي بغداد .) (٥)

وقد استغرب رشيد رضا هذا الاستدراك من الزبيدي قائلا :

(ومن الغريب أن شارح القاموس زعم أن لفظ بشتير ربما كان محرفا عن لفظ (نشتبرى) وهي كما في مراصد الاطلاع قرية كبيرة ذات نخل وبساتين تختلط ببساتين شهرابان من طريق خراسان في نواحي بغداد وصاحب الترجمة جيلاني الأصل بالإجماع ، ولو نسب إلى غير بلاده الأصلية لكان أولى البلاد به

---

(١) اللباب في تهذيب الأنساب ، لعز الدين ابن الأثير الجزري ، دار صادر جـ ١ ص ٣٢٤ .

(٢) معجم البلدان ، دار صادر - بيروت ، ط ١٣٨٨هـ المجلد الأول ص ٤٢٦ .

(٣) بهجة الأسرار ص ٨٨ .

(٤) دائرة معارف المعلم بطرس البستاني جـ ١١ ص ٦٢١ .

(٥) تاج العروس ، مكتبة الحياة ، جـ ٣ ص ٤٤ .

بغداد موضع هجرته وضريحه (١) واستغرابه في محله و ابن عزوز يرفض نهائيا أن يكون الشيخ عبد القادر منسوبا إلى بشتير ، ويجزم بأن البشتيري شيخ للجيلي (٢) ولكن تقدم لنا أن النسابة ابن ميمون نسب الشيخ عبد القادر إلى بطن من الهرامزة بفارس يسمي بشتير وينسب إليه بالبشتيري (٣) فإذا صح كلام ابن عزوز في أن هذا البشتيري هو شيخ لعبد القادر فإننا نستفيد الأمور التالية : -

١ - أن الشيخ عبد القادر درس في بشتير في بلاده قبل هجرته إلى بغداد ٠

٢ - وأن نسبته إليها لأنه سكنها لا أن له فيها نسبا ٠

٣ - وأن بشتير سميت بأسم البطن الذِي يسكنها من الهرامزة الفرس ٠

٤ - وبالتالي يصح جمع رشيد رضا من كونه ولد في بلدة وتربى في أخرى ٠

مولده :

اختلف في تاريخ مولد الشيخ عبد القادر على روايتين متقاربتين ٠

الأولى : أنه ولد سنة سبعين وأربعمائة من الهجرة النبوية ٠

وأخذت هذه الرواية من قوله لما سئل عن مولده : (لاأعلمه حقيقة لكني قدمت بغداد في السنة التي مات فيها التميمي وعمري أذ ذاك ثماني عشرة سنة) ٠(٤) والتميمي هو : أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحرث بن أسد وتوفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ٠ (٥)

الثانية : أنه ولد سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ٠ (٦)

---

(١) دائرة معارف بطرس جـ ١١ ص ٦٢١ ٠
(٢) السيف الرباني ص ١٦٢ ٠
(٣) انظر ص ٣٤ من هذا البحث ٠
(٤) بهجة الأسرار ص ٨٨ ٠
(٥) نفسه ص ٨٨ ٠
(٦) سيرأعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٣٩ ورواية فى بهجة الأسرارص ٨٨ وتاج العروس جـ٣ ص ٤٤

أســـــرتـه

الذي يذكره المؤرخون وكتب المناقب عن أسرة الشيخ عبد القادر في جيلان يدل على أنها أسرة تتكون من أفراد قلائل ، وأنها أسرة تتصف بالزهد والصلاح وأن ذلك من الأمور المعروفة عنها في محيطها الاجتماعى ٠

والـده :

يذكر بعض المؤرخين والنسابين من باب الطعن في نسبة الشيخ عبد القادر إلى الحسنيـة أن والده مختلف فيه ، هل اسمه أبو صالح أو عبد الله أو يحي أو جنكي دوست ؟ ٠

والواقع أن الإختلاف فى اسم شخص أو والده على التعيين يجعل الشك يتطرق إلى صحة نسبه حيث إنه جهلت عينه وبالتالي جهل حاله على التحقيـق ٠

ولكن تقدم في عمود نسب الشيخ عبد القادر (١) أن أباه يسمى موسى ويكنى بأبي صالح ، ويلقب بجنكي دوست أي عظيم القدر ٠ (٢)

ولم نقف على أكثر من هذا من المعلومات عن والده ، ويفهم من لقبه جنكي دوست أنه ولد في بلاد العجم بجيلان ، وانه كان ذا مكانة وقدر عظيم كما فسربه هذا اللقب ٠ ولا تسعف المراجع بشيء من تفاصيل حياته ولا أثره في ولده ، ويظهر أن والدته كان لها أثر كبير في حياته ٠

---

(١) أنظر ص ٣٢ و ٣٨ من هذا المبحث ٠

(٢) السيف الريانى ١٦٥ والإعلام ، لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ط٢ سنة ١٩٨٩ م المجلد الرابع ص ٤٧ هامش ٠

والدته

اسمها فاطمة بنت أبي عبد الله الصومعي وكنيتها أم الخير ، وتلقب بأمة الجبار ۰ (١)

قال الشطنوفي : (كان لها خط وافر من الخير والصلاح) (٢) وينتهى نسبها إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما ۰(٣) وحملت بالشيخ عبد القادر وهي بنت ستين سنة ، ويقال : (لاتحمل لستين سنة إلا قرشية ، ولا لخمسين إلا عربية) ۰ (٤)

ويحكي الشطنوفي في رواياته عنها : (أنها أخبرت أن الشيخ عبد القادر كان لايرضع ثديها اذا دخل شهر رمضان في النهار ۰) (٥)

ويفهم من رواية عند الذهبي زيادة على ماذكر من صلاحها أنها كانت سندا لأبنها الشيخ عبد القادر في طلب العلم ، حيث أورد أنها تبعث له النقود من جيلان ليستعين بها على طلب العلم وهو في بغداد (٦) وهذا بلا شك من عمل الأمهات الصالحات الرفيعات ، وواضح من رواية حملها به وعمرها ستون سنة أنها عمرت كثيرا ، ذلك أن الشيخ عبد القادر رحل إلى بغداد وعمره كما تقدم ثماني عشرة سنة فتكون بهذا قد قاربت الثمانين سنة أو أكثر وقد حملت بأخيه عبد الله بعده على ماسيأتى إن شاء الله ولم نجد من ذكر تاريخ وفاتها ۰

قلت : وواضح في كثير من روايات الشطنوفي عنها المبالغات التي قد تنسب بها إذا صحت عنها إلى الخرافات ۰

ومن ذلك حكاية أن الشيخ عبد القادر كان يمسك وهو طفل رضيع عن

---

(١) بهجة الأسرار ص ٨٩ ۰

(٢) نفسه ص ٨٩ ۰

(٣) فتوح الغيب للشيخ عبد القادر ، طبعه ووثقه محمد سالم البواب ، ط دار الألباب ص١٢٤

(٤) بهجة الأسرار ص ٨٩ ۰

(٥) نفسه ص ٨٩ ۰

(٦) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٤ - ٤٤٥ ۰

رضاعة ثديها إذا دخل رمضان وأنهم بذلك يعرفون دخول الشهر وهذا لايثبت به شهر رمضان ولا يؤخذ منه صلاح للطفل الرضيع في المستقبل لأنه غير مكلف ولا متعبد بالصيام ولا غيره حتى يمسك عن الرضاعة • والله أعلم •

* **بقية أسرته :**

جده من أمه :

جده أبو عبد الله الصومعى الزاهد ابن أبي جمال الدين محمد ••• ينتهى نسبه . حسب مافي فتوح الغيب وبهجة الأسرار ـ إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما من طريق الأئمة السبعة عند الشيعة • (١)

قال الشطنوفي : (أبو عبد الله الصومعي من جملة مشايخ جيلان ورؤساء زهادهم له الأحوال السنية والكرامات الجلية ، لقي جماعة من عظماء مشايخ العجم (وكان الشيخ عبد القادر يعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد حيث كان بجيلان) (٢)

وذكر ابن عزوز أن الشطنوفي قال : (أبو عبد الله الصومعي من جلة مشايخ جيلان) (٣)

قلت : والذي في المطبوعة من بهجة الأسرار هو ما أثبتناه ، وهو كاف في الدلالة على أنه كانت له بين مشايخ جيلان مكانة عظيمة إلا أن الصومعي ليست من أوصاف العباد في الإسلام كما هو معروف •

أخوه :

وهو : (أبو أحمد عبد الله ، وسنه دون سنه ، نشأ نشأة صالحة في العلم والخير ومات بجيلان شابا) (٤) فإذا كانت سن عبد الله هذا دون سن أخيه الشيخ

---

(١) فتوح الغيب ص ١٢٤ وبهجة الأسرار ص ٨٨ •

(٢) بهجة الأسرار ص ٨٨ وانظرسير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٤•

(٣) السيف الربانى ص ١٤١ •

(٤) بهجة الأسرار ص ٨٩ •

عبد القادر على ما قال الشطنوفي فمعنى ذلك أن أمه حملت به وهي في أوائل السبعين تقريبا وهو أمر نادر إن لم يكن مستحيلا عادة .

عمته :

قال الشطنوفي : (وعمته المرأه الصالحة أم محمد عائشة بنت عبد الله ، ذات الكرامات الظاهرة ، وكان أهل جيلان يستسقون بها فيسقون .) (١) فإن قصد بدعائها في حال حياتها فلا مانع ، وإن قصد غير ذلك من ادعاء بعض المتصوفة أن القبور تنفع أو تضر فلا كما سيأتي بيانه فى فصل الولاية .

فهذا ما أمكننا معرفته عن أفراد أسرة الشيخ عبد القادر بجيلان ، وفي هذا المحيط الأسري الصالح نشأ الشيخ عبد القادر .

* **نشأته :**

في هذه البيئة الصالحة نشأ الشيخ عبد القادر ، وأخذ في طلب العلم منذ الصغر كما يدل عليه الجو الأسري ، الذي عاش فيه ، إذ ان وصف عائلته بالزهد والعلم ، وشهرة ذلك عند الناس عنها دال على أن أولادها نشأوا على طلب العلم والتحلي بالأخلاق الفاضلة الحميدة . (٢)

وأول العلوم التى تغرس في الناشيء المسلم هي القرآن الكريم وعلومه وآدابه ، والتوجه بالطفل وجهة علمية ، وهذه أمور نلمسها من استقراء حياة الشيخ عبد القادر، حيث إننا نجده توجه إلى عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد ، وهي حاضرة العلم والعلماء في ذلك الوقت ، وقصد إلى جلة العلماء بها . (٣) فلم يقنع بطلب العلم بما دونها من الحواضر الزاخرة بالعلماء ، ولم يقنع بالتلمذة لأحد من المتعلمين وأنصافهم ، بل تتلمذ لرؤساء العلماء في بغداد ، وذلك فور وصوله إليها ، مما يدلنا على أنه أخذ قسطا كبيرا من العلم قبل رحلته إلى بغداد .

---

(١) نفسه ص ٨٩ .

(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) فوات الوفيات ، تأليف : محمد شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ) ط دار صادر ، بتحقيق إحسان عباس ص ٣٧٦ .

فعن نشأته العلمية نجد ابن العماد الحنبلي يقول : (ولما ترعرع وعلم أن طلب العلم فريضة شمر عن ساق الاجتهاد في تحصيله ، وسارع في تحقيق فروعه وأصوله بعد أن اشتغل بالقرآن حتى أتقنه ثم تفقه في مذهب الإمام أحمد) (١) ٠

وهذا مايؤكده صاحب بهجة الأسرار إذ يقول : (فاشتغل بالقرآن العظيم حتى أتقنه ، وعم بدرايته سره وعلنه ٠) (٢)

وفيها روايات دالة على أنه كان من المتقنين للقرآن الكريم سيأتي ذكر بعضها إن شاء الله في وصف مكانته العلمية وآثاره ٠

والغالب أن الاتقان في القرآن الكريم لايتم إلا لمن اشتغل به من الصغر كما دلت عليه نصوص كثير من العلماء ٠ (٣) والله أعلم ،،،

---

(١) شذرات الذهب ، تأليف : عبد الحي بن العماد الحنبلي ت (١٠٨٩هـ) مكتبة القدس القاهرة جـ ٣ ص ١٩٩ ٠

(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٦ ٠

(٣) جامع بيان العلم وفضله ، تأليف : أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ، دار الكتب العلميه جـ ١ ص ٨١ وما بعدها ٠
وكتاب الفقيه والمتفقه ، تأليف : ابي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية جـ ٢ ص٨٩ وما بعدها ٠

المبحث الثالث

رحلته العلمية ، وشيوخه ، وتلاميذه

* رحلته العلمية :

يورد الذين كتبوا في مناقب الشيخ عبد القادر روايات عديدة لاتخلو من الغرابة أو الخرافة في الأسباب التي دفعت به إلى التوجه إلى بغداد والرحله في طلب العلم .

ومن هذه الروايات : أنه حصلت له أحوال صار يشاهد معها الأماكن البعيدة حتى أنه رأى أهل الموقف في عرفة .

وخاطبته بقرة من أبقار الحرث بأنه لم يخلق لمثل ماكان يشتغل به في ذلك الوقت من العمل في الزراعة وتتبع المحراث . (١)

والذي يهمنا أن الشيخ عبد القادر وجد نفسه متشوقة ومتعطشة إلى طلب العلم ورأى فيها أهلية للتحصيل ، وكانت بغداد في ذلك الوقت هي أعظم مراكز العلم .

والرحله في طلب العلم سنة متبعة وفائدتها أشهر من أن تذكر (٢) ولا يحتاج طالب العلم إلى حصول أحوال وغرائب لتدفعه إلى الرحلة في طلب العلم أو يرتب عليها رحلته أو يبنى عليها ابتداء أمره .

ولئن كان بعض هؤلاء المؤلفين ذكروا لايتداء أمر الشيخ عبد القادر هذه الأمور فإن بعضهم ذكر له أمورا حسنة دالة على صدق التوجه المؤذن بنجاح الطلب إذا افتتح الطالب بها والتزمها ومما ذكروه : أنه استأذن والدته في الرحلة ، فأذنت لـه قائلة : (اذهب فقد خرجت عنا لله عـز وجل ، وزودته بأربعين دينارا هي نصف المبلغ الـذي ورثة هو وأخوه من أبيهما ، وودعته وعاهـدتـه على الصـدق في كل الأحـوال

---

(١) الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد ، تأليف الشيخ سيدي محمد الكنتي المتوفى سنة ١٢٤٦ هـ مخطوط بدار الثقافة بانو أكشوط تحت رقم ٣٥١ ص١٤٨ - ١٤٩

(٢) أنظرجامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ٩٢ وما بعدها .

وقالوا : إنه التزم بعهدها ابتداء من رحلته وحتى وفاته (١) .

شيوخه في بغداد

دخل الشيخ عبد القادر بغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وهو شاب في الثامنة عشر من عمره متعطشا إلى العلم ومصادره باحثا عن أهل النباهة والإتقان فيه .

فجلس إلى جلة علماء بغداد ، وأهل الرئاسة فيها ينهل من علومهم ومعارفهم قرابة ثلاثين سنة . (٢) حتى عقد أول مجلس له سنة إحدى وعشرين وخمسمائة . (٣)

ويتفاوت المؤرخون في ذكر شيوخه عند ترجمتهم له ، فمنهم من يقتصر على ذكر الذين لزمهم كثيرا ، وكان لهم الأثر الكبير في تكوين شخصيته العلمية والدينية والأدبية والسلوكية كابن الجوزى (٤) فإنه ذكر له أربعة شيوخ في العلم وهم : -

١ - أبو بكر أحمد بن المظفر بن سوسن التمار المتوفى سنة ٥٠٣ هـ قال فيه الكتبى: (هو الشيخ المعمر قال الأنماطي : شيخ مقارب ، مات وله اثنتان وتسعون سنه .) (٥) .

٢- وأبو القاسم علي بن أحمد بن محمد بن بيان الرزاز البغدادي راوي جزء ابن عرفة ، قال الذهبي : (الشيخ الصدوق المسند ، رحلة الآفاق ، توفي سنة ٥١٠ هـ) (٦) .

---

(١) الطرائف والتلائد ص ١٤٩ .

(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٥ .

(٣) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم تأليف : ابن الجوزي ، ط١ دائرة المعارف العثمانية ، جبر اباد الركن سنة ١٣٥٨ هـ ، جـ ١٠ ص ٢١٩ .

(٤) نفسه .

(٥) فوات الوفيات ص ٣٧٤ وذيل طبقات الحنابلة ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٦) سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٢٤٩ ٠

٣ - وأبو طالب اليوسفي عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف البغدادى ، قال السمعاني : (شيخ صالح ثقة دين ، متحر في الرواية كثير السمـاع) (١) وقال الذهبي (الشيخ الأمين ، الثقة العالم المسند توفـي ٥١٦ هـ ٠) (٢) ٠

٤- المبارك بن علي بن الحسين بن بندار البغدادي المخرمي ، أبو سعد قاضي الأزج ، كان حسن السيرة جميل الطريقة سديد الأقضية ، أفتى ودرس وناظر وجمع كتبا كثيرة لم يسبق إلى جمع مثلها وخلفه عبد القادر في مدرسته ، وللمخرمي ذرية فيهم شيوخ تصوف ٠(٣)

وزاد الذهبي في سير أعلام النبلاء ، وتاريخ الإسلام جماعة آخرين نقلا عن ابن النجار وابن السمعاني الذين فقدت ترجمة الشيخ عبد القادر فى كتابيهما ٠(٤)

وقد أوصل الشطنوفي شيوخ الشيخ عبد القادر في بغداد إلى ثلاثة وعشرين (٥) منهم من تفقه به ، ومنهم من سمع منه الحديث ، ومنهم من قرأ عليه اللغة والأدب، ومنهم من صحبه للوعظ والزهد وأخذ السلوك ٠

ولمعرفة جوانب حياة الشيخ عبد القادر كاملة نضيف أربعة من أعلام شيوخه إلى ماذكره ابن الجوزي سابقا وترجمنا لهم باختصار ٠

٥ - أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي ، الظفري المقرىء الفقيه ، الأصولي الواعظ المتكلم أحد الأئمة الأعلام ، وشيخ الإسلام٠

---

(١) نفسه جـ ١٩ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ٠

(٢) نفسه جـ ١٩ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ ٠

(٣) نفسه جـ ١٩ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ ٠

(٤) نفسه ص ٢٤١-٢٤٢ والأنساب للسمعاني جـ٣ ص٤٦٤وذيل تاريخ بغدادللحافظ محب الدين ابي عبد الله محمد بن محمود بن الحسن المعروف بابن النجار البغدادي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ط١ دائرة المعارف العثمانية ، الركن الهندسنة ١٣٩٨ هـ جـ١ ترجمه رقم ٢١٤ ص ٣٤٧ ٠

(٥) بهجة الأسرار ص ١٠٦ ٠

ولد سنة ٤٣١ هـ وكان يعتقد أن الحلاج من أهل الدين والزهد والكرامات وألف فيه جزءا ، وتاب منه ٠

وكان جريئا مقداما يواجه الأكابر بالانكار ، بلفظه وخطه (١) هدد حمادا الدباس بضرب عنقه إذا عاد الى شيء بلغه عنه ٠ (وهو أنه كان يعطي من يشكو إليه الحمى لوزة وزبيبة ليأكلها فيبرأ) ٠(٢)

٦ - أبو غالب محمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن الباقلاني توفي سنة (٥٠٠) هـ عن ثمانين سنة ٠

قال الذهبي : (الشيخ الصالح المحدث ، كان كثير البكاء من خشية الله تعالى) ٠ (٣)

وقال عنه ابن الجوزي : (وكان شيخنا صالحا كثير البكاء من خشية الله تعالى صبورا على أسماع الحديث) ٠ (٤)

٧ - أبو زكريا يحي بن علي التبريزي ، إمام اللغة ، ولي تدريس الأدب بالنظامية وخزانة الكتب ، وكان ثقة في علمه ، مخلطا فى دينه ، ولعبة بلسانه ، وقيل إنه تاب ، توفي سنة ٥٠٢ هـ ٠(٥)

٨ - أبو الخير حماد بن مسلم الدباس الرحبي - ابو عبد الله ، قال عنه الذهبي :

(نشأ ببغداد ، وكان من أولياء الله تعالى أولى الكرامات ، انتفع بصحبته خلق وكان يتكلم على الأحوال ، وكان قليل العلم أميا) ٠ (٦)

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ص ١٤٢ - ١٤٧ ٠

(٢) المنتظم جـ ٩ ص ١٥٤ ٠

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ٠

(٤) المنتظم جـ ١٠ ص ٢٢ ٠

(٥) سير اعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ ٠

(٦) سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٥٩٤ ٠

وقال ابن الجوزي عنه : (كان عاريا عن علم الشرع ، سمع الحديث من ابن الفضل وغيره إلا أنه كان على طريقة التصوف يدعى المعرفة والمكاشفة ، وعلوم الباطن، وكان يقبل النذر ثم تركه وصار يأكل بالمنامات وينفق على الجهال) .(١)
قلت : في هذين النصين مبالغة في نفي العلم عن حماد الدباس وأنه أمي أو عربي من العلم مع أنه سمع الحديث :

إلا أن سبط ابن الجوزي يعظم حمادا ويقول : (لو لم يكن لحماد من الفضائل التى اتصف بها من زهادته وطريقته ومكاشفته إلا أن الشيخ عبد القادر أحد تلاميذه (٢) قلت : وهنا نقص جواب الشرط من النص في المطبوعة - ولعله - لكفاه ذلك) .

تخرج الشيخ عبد القادر في حلق هؤلاء العلماء ومدارسهم ، وقد استوعب ما أخذه عنهم من علم وتطبيق وسلوك ، والتحق بمدرسة شيخه المخرمي يدرس فيها ويعيد للطلاب حتى ورثها بعد وفاة شيخه ، حيث وسعها وعمرها وتكاتف الناس معه على ذلك ، فمنهم من يمده بالمال ، ومنهم من يعمل معه بيده حتى اكتملت المدرسة بعد أن كانت مدرسة لطيفة ضاقت على حلقته حتى كان يجلس عند سور بغداد في الهواء .

قال ابن الجوزي في وصفه لحاله بعد جلوسه للتدريس والوعظ : (وأقام في مدرسته يدرس ويعظ إلى أن توفي ليلة السبت ثامن ربيع الآخر ودفن في الليل بمدرسته وقد بلغ تسعين سنة) (٣)

وقال الكتبي : (جلس للتدريس والفتوى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة) (٤) فرحمه الله تعالى .

ولنصل الحديث عنه بالكلام على تلاميذه بعد أن صار شيخا له مدرسة خاصة به بعدما تحدثنا عن أكابر شيوخه في العلم والعمل لنرى أثرهم فيه وأثره هو في تلاميذه .

---

(١) المنتظم جـ ١٠ ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) مرآه الزمان المجلد الأول والثانى . القسم الأول من الجزء الثامن ص ١٣٩ .

(٣) المنتظم جـ ١٠ ص ٢١٩ .

(٤) فوات الوفيات ص ٣٧٤ .

* **تلاميذه :**

الذي يظهر من المراجع التي ذكرت بعض أسماء تلاميذ الشيخ عبد القادر أنهم كثيرون جدا ، وذلك أن الشيخ عبد القادر جلس في مدرسته لا يخرج منها إلا يوم الجمعة (١) وهذا الاستقرار يمكن العالم المربي من أن يخرج أفواجا متتابعه في ميادين العلوم والمعارف المتعددة والمتنوعة .

وهذا ماحصل للشيخ عبد القادر ، فإنه أجاز في الحديث ، والفقه والتصوف ودرس القرآن بالقراءات (٢) .

وقد اكتفى ابن الجوزي في ترجمته للشيخ عبد القادر بذكر كثرة إقبال الناس عليه والتائبين على يديه مع طول مكثه مدرسا وواعظا حتى مات ، ولم يذكر من تلاميذه أحدا . (٣)

ولكن ذكر الشطنوفي مائة وسبعة عشر اسما ممن تتلمذوا له بعد أن قال : (وانتمى إليه جمع عظيم من العلماء ، وتتلمذ له خلق كثير من الفقهاء ... ولو شرعنا نذكر كل الأعيان ممن انتمى إليه وأخذ عنه العلم أو سمع منه ومن ذريته وغيرهم لكثر العدد) .(٤)

وأورد الذهبي في كتابيه تاريخ الإسلام (٥) وسير أعلام النبلاء (٦) وغيرهما عددا كبيرا ممن تتلمذ للشيخ عبد القادر ، وأجاز له ، حتى ذكر آخر من حدث عنه بالإجازة والسماع كالرشيد بن مسلمة وأبي العباس أحمد بن المفرج بن علي الدمشقي ناظر الأيتام المولود سنة ٥٥٥ هـ والمتوفي سنة ٦٥٠ هـ .(٧)

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ٤٢٦ .

(٢) بهجة الأسرار ص ١١٨ .

(٣) المنتظم جـ ١٠ ص ٢١٩ .

(٤) بهجة الأسرار ص ١٠٦ و ١٧٧ .

(٥) تاريخ الإسلام ، مخطوط بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ص ٢٧٦ .

(٦) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٠ .

(٧) العبر في خبر من غبر ، للحافظ الذهبي ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، مطبعة حكومة الكويت ، سنة ١٣٨٦هـ جـ ٥ ص ٢٠٥ .

ونقتصر على ترجمة لبعض من صارت لهم الإمامة في العلم والطريقة القادرية بعد الشيخ عبد القادر لنعرف مدى انتشار أثره العلمي وطريقته وسلوكه في أنحاء الأقطار الإسلامية .

١ - الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي (١) وكان عالما فاضلا ، وتخرج على يد الشيخ عبد القادر (٢) ، وتوفي في بغداد سنة ٦٣٢ هـ وتقدمت ترجمته باختصار، وسيأتي مزيد بيان لطريقته السهروردية عند الكلام على سند القادرية المذكور هو فيه إن شاء الله .

٢ - الشيخ قضيب البان : لازم الشيخ عبد القادر عشرين سنة ، وأجاز له بالطريقه القادرية ، وألبسه الخرقة بيده ، وكان يصلي إماما بالشيخ عبد القادر وزوجه ابنته ، وأوصى أن يتولى غسله وأن يصلي عليه ، توفي سنة ٥٧٠ هـ .(٣)

٣ - الشيخ أحمد بن أبي بكر بن المبارك أبو السعود بن الشبل العطار الزاهد .

قال عنه ابن الفوطي : (كان شيخا مشهورا بالصلاح والمعرفة ، وله حسنة، صحب الشيخ عبد القادر الجيلي ، وكان طريقه الفناء (٤) لايأكل حتى يطعم ولا يشرب حتى يسقى ولايلبس ثوبا حتى يحصل على بدنه ، وغلب عليه الرفق وحسن الخلق والانبساط ، سمع شيئا من الحديث وحدث باليسير .

توفى سنة ٥٨٢ هـ ودفن بباب حرب وبنوا عليه قبة عالية .) (٥)

٤ - الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم بن الحداد اليمني ، أستاذ مشايخ اليمن .(٦)

---

(١) الاستقامه لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، مؤسسة قرطبة ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ جـ ١ ص ٨٦ - ٨٧ وسير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٣ .

(٢) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر ومدرسته العلميه ص ٥٤ وبهجة الأسرار ص ١١٧ .

(٣) بهجة الأسرار ص ١١٧ .

(٤) الفناء هو : الإستغراق فى عظمة الباري . وسيأتي إن شاء الله في باب السلوكيات عند القادرية الحديث عنه أنظر ص . كتاب التعريفات للشريف الجرجاني دار الكتب العلمية ، ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ ص ١٦٩ .

(٥) تلخيص مجمع الآداب جـ ٤ ص ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٦) بهجة الأسرار ص ١٠٩ .

الخرقة والعلم وألبس مشايخ الشام لــه • أى للشيــخ عبد القادر بالنيابه عنــه • (١)

٦ - أولاد الشيخ عبد القادر :

(قال عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر : ولد لأبي تسعة وأربعون ولدا ، سبعة وعشرون ذكرا والباقي إناث) (وكان الشيخ عبد القادر يقول : إذا ولد لي ولد أخذته على يدي وأقول : هذا ميت ، فأخرجه من قلبي ، فإذا مات لم يؤثر عندي موته شيئا) •(٢)

وقد عاش الكثير منهم وأخذوا عن والدهم العلم والسلوك ، وتفرقوا في البلاد وطافوا بالمدارس والنوادي ، ودعوا إلى طريقة والدهم ونشروا أسانيده •

فمن المتجولين في البلاد من أبناء الشيخ عبد القادر : عيسى فإنه رحل إلى مصر والشام ودرس فيها ووعظ وأفتى وصنف الكتاب المسمى (بجواهر الأسرار ولطائف الأنوار في علوم الصوفية) • (٣)

وتوفي بمصر سنة ٥٧٣ هـ (٤) •

وكذلك رحل إلى مصر يحي وهو أصغر أولاد الشيخ عبد القادر حيث إنه ولد سنة : ٥٥٠هـ وتوفي في بغداد سنة ٦٠٠ هـ •

ومنهم : كذلك عبد العزيز الذي رحل إلى الجبال وتوفي سنة ٦٠٢ هـ •

ومنهم كــذلك : عبد الجبار الموصوف بحسن الخط والاشتغال بالتصوف توفي سنـــة ٥٧٥ هـ •

---

(١) نفسه ص ١٠٩ •

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٧ •

(٣) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر ص ٥٨ وقلائد الجواهر للتادفى ص ٦٣ •

(٤) نفسه •

ومنهم : إبراهيم الذي رحل إلى واسط وتوفي بها سنة ٥٩٢ هـ ٠ (١)

ومن أهم أولاد الشيخ عبد القادر أثرا في العلم والطريقة اثنان هما :

٧ - الشيخ عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر ، قرأ على والده حتى برع ، ورحل إلى بلاد العجم في طلب العلم ، وناب عن والده في التدريس بمدرسته وهو حي ، ودرس بعده فيها ، وتولى مسئولية المظالم للإمام الناصر لدين الله (٢) وقد أثنى عليه ابن النجار في تاريخه ثناء حسنا حتى اعتبره أميز أولاد الشيخ عبد القادر علما وذكاء ، وسخاء ومروءة ٠ (٣)

قال عنه مؤلف تاريخ جامع الشيخ عبد القادر : إنه بدر الطريقة القادرية ، تولى مشيخة مدرسة والده بعد وفاته ٠

وتوفي ببغداد سنة ٥٩٣ هـ وورث مكانته ابنه : الركن عبد السلام (٤) وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان لحالهما ٠

٨ - الشيخ عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي ، وثقه علماء الجرح والتعديل (٥) ووصف بأنه حافظ ثقة عابد زاهد فقيه عالم ٠ (٦)

قال الحافظ الضياء : (لم أر في بغداد في تفطنه وتحريه مثله) (٧) وقال عنه

---

(١) قلائد الجواهر ص ٥٥ ٠

(٢) هو الناصر لدين الله ابو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد يوسف المقتفي الهاشمي العباسي ٠

(٣) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ط ١ سنة ١٣٩٨ هـ ص ٣٤٧ ٠

(٤) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر ومدرسته العلمية ص ٥٨ وما بعدها ٠

(٥) المختصر المحتاج إليه جـ ٣ ص ٦٢ وابن حجر في غبطه الناظر ص٢ وتقدم في ص ٣٢ من هذا البحث ٠

(٦) ذيل الروضتين في تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، لشهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي المتوفى سنة ٦٦٥ هـ ص ٥٨٠

(٧) نفسه ص ٥٨ حوادث سنة ٦٠٠ ستمائة ٠

أبو شامة المقدسي : (وكان صالحا ثقة لم يدخل فيما دخل فيه غيره من إخوانه) (١) وتوفي سنة ٦٠٣ هـ ٠

وقد وردت هذه الصفات الحميدة لولده القاضي أبي صالح نصر بن عبد الرزاق الذي تقدمت ترجمته (٢) ٠

وذكر الشطنوفي أن أبا مدين شعيبا الملقب الغوث (٣) لقي الشيخ عبد القادر الجيلي بعرفات في الحج ولبس منه الخرقة ، وسمع منه جزءا من مروياته ٠ (٤)

فعلى هذا تكون القادرية دخلت بلاد المغرب في حياة الشيخ عبد القادر ٠

ولعل خرقة الصوفية غير مخيطة حتى يمكن المحرم الواقف بعرفة لبسها إذا لم يصح اجتماع آخر بينهما ٠ (٥)

---

(١) نفسه ص ٥٨ والمختصر المحتاج إليه جـ٣ ص ٢١١ - ٢١٢ ٠

(٢) في هذا البحث ص ٣٣ و ٣٧ ٠

(٣) هو : أبو مدين شعيب ابن حسين الأنصاري المتوفي سنة ٥٩٤ هـ ٠ انظر : التشوف إلى رجال التصوف ص ٣١٩ ٠

(٤) بهجة الأسرار ص ١٠٦ - ١٠٧ ٠

(٥) انظر : شجرة النور الزكية ص ١٦٤ ٠

المبحث الرابع : أقوال العلماء فيه

فيما مضى رأينا الشيخ عبد القادر طالبا ثم شيخا له تلاميذه ومدرسته التي عرفت به وعرف بها وإذا اشتهر الانسان في هذه الحياة ، فإن الناس يتحدثون عنه سلبا أو إيجابا على حسب اجتهاداتهم واتجاهاتهم في الحياة (ولابد من مثن عليك وقادح) .(١)

وهذا ماوقع للشيخ عبد القادر ، فإن الذين كتبوا عنه كثيرون جدا ومختلفون فيه جدا ، فمنهم من يخصص له كتابا كاملا في الثناء عليه ، ومنهم من يترجمه في أسطر قليلة ويتنقصه فيها ومنهم من يؤلف في الثناء عليه والطعن في الطريقة المنسوبة إليه أو إلى أحفاده .

ومقصودنا هنا أن ننتقي من أقوال العلماء فيه ثم نحكم على ضوء ذلك ، وأول ما نجد من ذلك أوصاف عامة لجسمه وهيئاته .

قال ابن العماد الحنبلي (كان شيخ الشيوخ عبد القادر : نحيف الجسم عريض الصدر عريض اللحية ، أسمر مدور الحاجبين ، ذا صوت جهوري وسمت بـه) . (٢)

وهذه أوصاف لاكسب للمرء فيها وإن كانت تدل على الرجولة والذكاء والسكينة الدالة على العلم والعقل .

وقال صاحب القلائد ناقلا عن إبراهيم بن سعد الداري : (كان شيخنا عبد القادر رضي الله عنه يلبس لباس العلماء ويتطيلس ، ويركب البغلة وترفع الغاشية (٣) بين يديه ويتكلم على كرسي عال ، وكان في كلامه سرعة وجهر ، وله كلمة مسموعة اذا أنصت له ، وإذا أمر ابتدر لأمره ، وإذا رءآه القلب القاسي خشع .) (٤)

---

(١) هذا شطربيت ((من الطويل)) جار مجرى المثل .

(٢) شذرات الذهب جـ ٣ ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٣) الغاشية : مظلة ترفع فوق الرأس تظلله .

(٤) القلائد ص ٢ وما بعدها .

وتحسين الهيئه دون أبهة زائدة من الأمور المرغب فيها شرعا وأدبا وخصوصا لأهل العلم والفضل الذين يؤخذ عنهم الخير من كتاب وسنة وعبادة وفقه وأمر بمعروف و نهي عن منكر ٠

وأما خشوع القلب القاسي عند رؤيته فهذا من علامة إخلاصه واستقامة سريرته، والتزامه لما أمر به شرعا ، وإلا فإن أهل البدع مهما تزهدوا لاهيبة لهم في القلوب إلا بسلطان الدجل والشعوذة وقد اشتهر عن الشيخ عبد القادر من الزهــد والتواضع ، ماهو معروف ٠ ولكن ألفت في مناقبه كتب كثيرة (١) ونسبت إليه أمورا لاتنطبق على ماعرف من سيرته ، ولذا فإن النقاد لايحفلون كثيرا بأسانيد معظم الروايات الواقعة في هذه الكتب التي ذكرها جامع تاريخ جامع الشيخ عبد القــادر(٢) ٠

وقد أثبت الحفاظ له من الثناء الحسن والمقبول مايكفى عن التلفيق له ومن ذلك اتفاق كثيرين منهم على تحلية ترجمته بشيخ الإسلام وقدوة مشايخ الزمان بلا مدافعة ٠

قال الذهبي : (الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوه ، شيخ الإسلام علم الأولياء محي الدين أبو محمد عبد القادر) ٠ (٣)

وكل لقب في هذا النص له دلالة تحتاج إلى تحليل حسب مقتضاه بنصوص العلماء وقد قام العلماء بذلك رحمهم الله في مؤلفاتهم الكثيرة ٠ (٤)

يقول الشيخ رشيد رضا : (وقد ألف في مناقبه - يعني الشيخ عبد القادر - كتب كثيرة أعرف منها نحوا من عشرين مصنفا لم يطبع منها إلا القليل) ٠(٥)

والمقصود هنا في ترجمته هو بيان مكانته العلمية والاجتماعية بين العلماء وما يتصل بذلك من احترام الناس له ٠

---

(١) دائرة معارف البستاني جـ ١١ ص ٦٢٤ ٠

(٢) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر ص ٥١ - ٥٢ ٠

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٣٩ ٠

(٤) فوات الوفيات ص ٣٧٤ والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٧١ ٠

(٥) دائرة معارف البستاني جـ ١١ ص ٦٢٤ ٠

مكانته العلمية :

إنه مع كثرة العلماء في بغداد أيام الشيخ عبد القادر ، فإننا نجد كثيرا ممن كتبوا عنه يحكمون له بالإمامة في علوم شتى وبالانتهاء في الفقه وصواب الفتوى إلى الغاية القصوى . قال الذهبي عنه : (إنه طلب العلم حتى أحكم الأصول والفروع والخلاف ، وسمع الحديث وقرأ الأدب واشتغل بالوعظ إلى أن برز فيه) .(١)

ويراد من اشتغاله بالوعظ الجمع بينه وبين التدريس على ما قاله ابن الجوزي وغيره (وأقام في مدرسته يدرس ويعظ إلى أن توفي ..) (٢) (وكان يتكلم في ثلاثة عشر علما وكان يذكر في مدرسته درسا من التفسير ، ودرسا من الحديث ، ودرسا من المذهب ، ودرسا من الخلاف ، وكان يقرأ عليه طرفي النهار التفسير وعلوم الحديث والمذهب والخلاف والأصول والنحو ، وكان يقرئي القرآن بالقراءآن بعد الظهر) .(٣)

فهذه فنون كثيرة لايسع الوقت تدريسها كلها إلا بالتفرغ التام لها مع البركة في الوقت ، ولذا فإن الشيخ عبد القادر كان لايخرج من مدرسته إلا يوم الجمعة أو إلى الرباط الداخل فيها .(٤)

ويبدو أنه ظل على هذه الحالة حتى مات كما يفهم من كلام ابن الجوزي السابق ، ووصف ابن قدامة المقدسي له في آخر حياته حيث إنه تتلمذ عليه وكان يقرأ عليه غدوة من حفظه من كتاب الخرقي .(٥)

فيقول : (دخلنا بغداد سنة احدى وستين وخمسمائة فإذا الشيخ الإمام محي الدين عبد القادر رضي الله عنه :

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ٢٠ ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٢) المنتظم جـ ١٠ ص ٢١٩ .

(٣) بهجة الأسرار ص ١١٨ .

(٤) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٩ .

(٥) هو أبو القاسم عمر بن حسين بن عبد الله بن أحمد الخرقي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ طبقات الحنابلة جـ ٢ ص ٧٥ .

ممن انتهت إليه الرئاسة بها علما وعملا وحالا وإفتاء ، وكان يكفي طالب العلم عن قصد غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم ، والصبر على المشتغلين وسعة الصدر ، وكـان ملء العين ، وجمع الله فيه أوصافا جميلة وأحوالا عزيزة وما رأيت بعده مثله) • (١)

وفي هذا النص مايكفي في بيان حال الشيخ عبد القادر إلا أننا نورد مثالا واحدا لندلل به على انتهاء الفتوى إليه في بغداد حيث مجمع الفقهاء والقضاة آن ذلك ، ومنه تعرف أنه ما كان زاهدا فقط أو متصوفا واعظا فقط روي من طريق نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر عن أبيه قال : (جاءت فتيا من العجم الى بغداد ، بعد أن عرضت على علماء العراقين ، فلم يتضح لأحد فيها جواب شاف •

وصورتها : مايقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث : أنه لابد أن يعبد الله عز وجل عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها ، فما يفعل من العبادات ؟ قال : فأتي بها إلى والدي ، فكتب عليها على الفور يأتي مكة ، ويخلى له المطاف ، ويطوف اسبوعا وحده وتنحل يمينه •

قال : فما بات المستفتي ببغداد •) (٢)

---

(١) نقل هذا عن صاحب بهجة الأسرار ص ١٨٨ وتبعه على نقله ابن رجب الحنبلي في ذيل طبقات الحنابله جـ ١ ص ٢٩٤ •

(٢) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٤ •

مكانته الاجتماعية واحترام الناس له :

إذا تصدى العالم للوعظ والإرشاد ، وكان مقداما جريئا لاتأخذه في الله لومة لائم ، وجه الناس إليه سهام النقد وحملوه أمورا قد لايكون مسؤلا عنها أو متصفا بها كلها ٠ فإذا انضاف إلى الوعظ والإرشاد والجرأة في الحق الانتصاب لمهمة التعليم والتربية كان ذلك عبئا زائدا على كاهل ذلك الشيخ ٠

ولكن في هذه المجالات نجد أن الراضين عن الشيخ عبد القادر فيها أكثر من الناقمين عليه فيها ٠

فإن السمعاني مثلا يصفه بأوصاف حميدة تدل على علو مكانته عنده وإجلاله له، ولكنه يذيلها بما يدل على عدم رضاه بما هو عليه كاملا إذ يقول : (كان عبد القادر من أهل جيلان إمام الحنابلة وشيخهم في عصره ، فقيه صالح دين خير ، كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة ٠٠٠ مضينا لزيارته ، فخرج وقعد بين أصحابه ، وختموا القرآن ، فألقى درسا مافهمت منه شيئا ، وأعجب من ذا أن أصحابه قاموا وأعادوا الدرس ، فلعلهم فهموا لإ لفهم بكلامه وعباراته) ٠ (١)

ويسند الذهبى أنه كان يقرأ بحضرة الشيخ عبد القادر القرآن الكريم بالألحان (٢) ولم ينكر ذلك بل انه رد جوابا على خاطر من استشكل من الحاضرين لماذا الشيخ لم ينكر هذا ؟ رد عليه قائلا :(يجيء واحدقد قرأ أبوابا من الفقه ينكر) ٠ (٣)

ويقول ابن الجوزي إن ابن السمعانى ربما طعن فى بعض أصحاب الامام أحمد بما لايوجب الطعن مثل أن قال : (إن عبد القادر كان يلقي الدرس المشستكه) ٠ (٤)

---

(١) نقل هذا عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤١ ٠

(٢) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩١ وسير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤١ ٠

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٢ ٠

(٤) كذا في مطبوعة المنتظم ولعل الكلمة في الأصل : (المستشكلة) أو : (المشتبكة) يؤيد ذلك أن صاحب النص ناقل عن ابن السمعان الذي قال بأن الشيخ عبدالقادر القى درسا بحضوره وأنه لم يفهم منه شيئا أو تكون عبارة عن هيئة تعرف عند أهل بغداد آن ذاك كما يفهم من اعتذار ابن الجوزي الآتي ٠

واعتذر ابن الجوزي عن الشيخ عبد القادر بأنه كان مريض العين ٠) (١) ومع اعتذار ابن الجوزي هذا فإنه هو نفسه اعتبره بعض المؤلفين كالذهبي وابن رجب والقرمانى غير راض عن الشيخ عبد القادر ٠

فالذهبى قال فى تاريخ الإسلام بعد نقله لترجمة ابن الجوزي للشيخ عبد القادر : (لم تسع مرارة ابن الجوزي بأن يترجمه بأكثر من هذا لما في قلبه له من البغض) ٠ (٢)

وأما ابن رجب والقرمانى فإنهما ذكرا أن ابن الجوزي ألف كتابا ينقم فيه على الشيخ عبد القادر أشياء كثيرة (٣) وهذا الكتاب المذكور معارض بكتاب آخر منسوب لابن الجوزى اسمه : درر الجواهر من كلام الشيخ عبد القادر جمعه من كلامه ومناقبه، وقد ذكر سبط ابن الجوزي في محنة جده بيتين منسوبين لجده وهما :

(يابيت عبد القادر	كنتم نتيجى فى القضا
مامثلهم يحسدنـــى	ولاهـــم أمثالى ٠) (٤)

وظاهر في هذين البيتين التعبير عن حصول المنافسة والحسد ، وإذا دخل الحسد والمنافسة بين الناس فإنه لا يصدق منهم أحد على أحد ٠ والله يغفر للجميع ٠

والواقع أن ابن الجوزي كما يقول ابن رجب : حاول أن يزن شيوخ عصره بما كان عليه السلف الصالح ، فلم يجد فيهم من يلتزم التزاما كليا بما كانوا عليه ولذا أزدراهـــم ٠ (٥)

---

(١) المنتظم جـ ١٠ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ٠

(٢) تاريخ الإسلام - مخطوط ـ مصدر سابق ص ٢٧٦ ٠

(٣) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٥ والسيف الرباني ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ٠

(٤) مرآه الزمان جـ ٨ ص ٤٤٠ ٠ ولا يخفى عدم استقامة البيتين وزنا وقافية ومعنى مما يشكك في نسبتهما لابن الجوزي ٠

(٥) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٥ ٠

والأولى كما قال ابن رجب : تنزيل الناس منازلهم ، وتوفيتهم حقوقهم ، ومعرفة مقاديرهم واقامة معاذيرهم • (١)

وهذا مارأيناه عند الشيخ ابن تيمية في عموم الناس وخصوصا المشايخ فإنه يزن كل واحد منهم بما يناسبه علما وعملا وحالا • (٢)

ومن هنا فإننا نجده كثيرالثناء على الشيخ عبد القادر ويوجه كلامه إذا كان فيه غموض ، ويصفه بالإمامه ورسوخ القدم ، وأن له لسان صدق في الأمة • (٣)

وقال ابن رجب في وصفه لمكانة الشيخ عبد القادر العلمية وقبوله لدى الناس وجرء ته في قول الحق :(ظهر الشيخ عبد القادر للناس وجلس للوعظ ، وحصل له القبول التام من الناس واعتقدوا ديانته وصلاحه ، وانتفعوا به وبكلامه ووعظه ، وكان في عصره معظما ، يعظمه أكثر مشايخ الوقت من العلماء والزهاد وله مناقب وكرامات كثيرة •) (٤)

وقال ابن قدامة : (ولا رأيت أحدا يعظم من أجل الدين أكثر منه) (٥) (وكان يصدع بالحق على المنبر•) (٦) (وربما عرض بالخليفة أو صرح •) (٧) والفحولة في الحق من شيم السلف الصالح رضوان الله عليهم •

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٥ •

(٢) مجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٥٥ وما بعدها •

(٣) نفسه جـ ١٠ ص ٥٢٠ •

(٤) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ •

(٥) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٩ •

(٦ -٧) الذيل جـ ١ ص ٢٩٢ •

المبحث الخامس : آثاره

إن الشيخ عبد القادر اشتغل بالتدريس والوعظ والإرشاد عن التأليف لولا ذلك لترك ثروة كبيرة من المؤلفات النافعة في العلوم التي مر بنا أنه كان من أهل الاتقان فيها ، مع أن المؤلفات ليست هي المقصودة دائما بالآثار ، فقد يترك العالم آثارا نافعة ، ويغرس غرسا مستمرا يكون أفضل من مجرد المؤلفات ، وهذا ماحصل للشيخ عبد القادر •

فإنه بجانب ما سنذكره له من المؤلفات ترك مدرسة كبيره ببغداد عامره ورباطا للاعتكاف والتربية الروحية ، وظل هذا المركز العلمي مستمر العطاء حتى يومنا هذا • (١)

ومما ساعد هذه المدرسة وذلك الرباط على الاستمرار في العطاء أن الشيخ عبد القادر ترك من ذريته وتلاميذه علماء نشطين في نشر العلم والتربية والسلوك ظهرت لهم بعده مشاركات فى الدولة (٢) ساعدتهم على التوسع فى انشاء المدارس والأربطة الجديدة • رغم التطورات التي قد لايتماشى كثير منها مع أصل الطريقة •

هذا بالإضافة الى منْ ذكر أنهم انتشروا في البلاد وأنشأوا المعاهد والأربطة وقاموا على تنظيمها قياما حسنا كفل لها البقاء والاستمرار حتى يومنا هذا • (٣)

فهذا جانب من آثار الشيخ عبد القادر والجانب الآخر هو المؤلفات التي تلي إن شاء الله حسب الجهد والميسور :

مؤلفاتـــه :

عند الرجوع إلى الكتب والمعاجم التى اهتمت بذكر أسامي الكتب المؤلفة

---

(١) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ومدرسته العلمية ص ٥١ - ٥٢ •

(٢) تلخيص معجم الآداب لابن الفوطي ج ٤ ص ٨٧٣ - ٨٧٤ •

(٣) الدعوة الى الإسلام ، تأليف : السير توماسي وأرنولد ، ترجمة الدكتور / حسن إبراهيم وزملائه ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ م ص ٣٠٤ وما بعدها •

ككشف الظنون (١) وهدية العارفين (٢) ومعجم المؤلفين (٣) والأعلام (٤) نجدها تذكرمؤلفات الشيخ عبد القادر ونجدها كذلك متفاوته في حصرها ومختلفه في عناوين البعض منها ، وبعضها متردد في نسبة بعض منها إليه (٥) .

ومع كثرة المطبوعات واهتمام أتباع الشيخ عبد القادر بكتبه وآثاره فإننا نجد المطبوع له من الكتب لايتجاوز أربعة كتب أو خمسة ، ولكن عدم طباعتها لايمنعنا من ذكرها معزوة الى من ذكرها من المصنفين ، مع بيان حالها حسب ما أتيح لنا من المعلومات عنها فمنها :

(١) تحفة المتقين وسبيل العارفين . (٦)

(٢) حزب الرجاء والانتهاء . (٧)

(٣) الفيوضات الربانية في الأوراد القادرية (٨) وهو كتاب مطبوع بجمع وترتيب الحاج إسماعيل ابن السيد محمد القادري ، جمع فيه الأحزاب والأوراد والقصائد المنسوبة للشيخ عبد القادر (٩) .

(٤) الرسالة الغوثية .(١٠)

---

(١) ذيل كشف الظنون ص٦٦٢ .

(٢) هدية العارفين إلى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين : تأليف إسماعيل باشا البغدادي ط وكالة العارف باستانبول ١٩٥١ م المجلد الأول جـ ٥ص ٥٩٦ .

(٣) معجم المؤلفين تأليف : عمر رضاكمالة بيروت جـ ٥ ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٤) الأعلام للزركلي جـ ٤ ص ٤٧ .

(٥) دائرة معارف بطرس جـ ١١ ص ٦٢٢ .

(٦) هدية العارفين جـ ١ ص ٥٩٦ .

(٧) نفسه وذيل كشف الظنون ص ٦٦٢ .

(٨) هدية العارفين جـ ١ ص ٥٩٦ .

(٩) ط بيروت ١٤٠٨ هـ .

(١٠) وهي مذكورة في المرجع قبله . قصيدة . وهدية العارفين جـ ١ ص٥٩٦ .

(٥) السفينة القادرية (١) : وهي كتاب مجلد طبع بالمطبعة الرسمية في ليبيا سنة ١٣٠٤ هـ ويشتمل على أحزاب وقصائد منها ماهو منسوب للشيخ عبد القادر ومنها ماهو منسوب إلى غيره ·

(٦) وقد ذكر له البغدادي في هدية العارفين : الكبريت في الصلاه على النبي صلى الله عليه وسلم ومعراج لطيف المعاني ، ومراتب الوجود ، ويواقيت الحكم · (٢)

(٧) جلاء الخاطر في الباطن والظاهر ·

(٨) وسر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار ·

(٩) وآداب السلوك والتوصل إلى منازل الملوك · (٣)

قال رشيد رضا : (وينسب إليه - يعني الشيخ عبد القادر - من الأوراد والأحزاب مالايصح نسبته كله إلى مثله)· (٤)

(١٠) وكتاب في التفسير يقال . كما قال رشيد رضا . : (إنه نفيس جدا ·) ويوجد في مكتبة مفتي طرابلس بالشام ، لبنان · (٥)

(١١) فتوح الغيب (٦) وهو كتاب مطبوع ولشيخ الإسلام رسالة في توجيه وتوضيح بعض جمله ومعانيه ·(٧)

وقد نسبه له ابن رجب (٨) ويرى رشيد رضا أنه والذي يذكر بعده من جمع بعض تلاميذه من المواعظ التي كان يمليها في مدرسته ورباطه · (٩)

---

(١) انظر ص ٩٦ - ١٦٢ منه ·

(٢) هدية العارفين جـ ١ ص ٥٩٦ ·

(٣) معجم المؤلفين جـ ٥ ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ·

(٤) دائرة معارف جـ ١١ ص ٦٢٢ ·

(٥) نفسه ·

(٦) هدية العارفين ص ٥٩٦ وذيل كشف الظنون ص ١٢٤٠ ·

(٧) مجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٥٥ وما بعدها ·

(٨) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٦ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ ص ٢٥٢ ·

(٩) دائرة المعارف للبستاني جـ ١١ ص ٦٢٢ ·

وهذا واضح من سياقهما ، حيث إن المقالات في كل منهما تبدأ هكـذا (قال رضي الله عنه بتاريخ كذا في المدرسه أوفي الرباط) ٠ (١)

(١٢) الفتـح الرباني (٢) وهـو كتاب مطبوع يشتمل على توجيهـات ومواعـظ حسنـة ٠ (٣) وقد أنكر نسبة هذا الكتاب والذي قبله للشيخ عبد القادر علي بن محمد القرماني الحنفي وقال : بأنهما من تأليف العفيف على لسان الشيخ عبد القادر ، وإن مافيهما أشبه بأساطير الأولين ولقالق المتخيلين ، وحاشا للشيخ عبد القادر وأمثاله من القول بمثل مافيهما) (٤)

قلت : ولعل العفيف المذكور هو : أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله الكوفي العفيف التلمساني ٠ قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية : (وقد نسب هذا الرجل إلى العظائم في الأقوال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض٠ عمل أربعين خلوة كل خلوة أربعين يوما ٠) (٥) توفي سنة ٦٩٠ هـ٠(٦)

(١٣) الغنية لطالب طريق الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية ٠ وهو كتاب مطبوع عدة طبعات في جزئين في مجلد واحد ، وثابت النسبة إلى مؤلفه ومشهور عنه في حياته ٠ قال ابن رجب : (وله كتاب الغنية وهو معروف) ٠(٧)

وقال ابن كثير : (وقد صنف كتاب الغنية وفتوح الغيب وفيهما أشياء حسنة ، وذكر فيهما أحاديث ضعيفة وموضوعة) (٨) ٠

---

(١) المراجع المذكورة ٠

(٢) معجم المؤلفين جـ ٥ ص ٣٠٧ والأعلام جـ ٤ ص ٤٧ ٠

(٣) دار الكتب العلمية ط ١٤٠٣ هـ وكان المجلس الأول منه في الرباط ثالث شوال سنة ٥٤٥ هـ والمجلس الثاني والستون منه كان بكرة الجمعة في المدرسة سلخ شهر رجب سنة ٥٤٦ هـ ص ٣ و ٢٢٧ ٠

(٤) السيف الرباني ص ١٤٣ و ١٧٢ و ١٧٨ و ١٧٩ ٠

(٥-٦) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ ص ٣٢٦ ٠

(٧) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٦ ٠

(٨) البدلية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٥٢ ٠

وتقدم لنا أن الشيخ عبد القادر سمع الحديث وأنه كانت له إجازة عالية في الحديث وهو أول ما ذكر ابن كثير نفسه أنه اشتغل به ، وهذا ماتؤيده نسبة الكتاب الآتي إليه .

(١٤) الجزء القادري في الحديث ينتهي إسناده إلى الشيخ عبد القادر .

وبه نختم الحديث عن آثاره لنصلها بالحديث عن عقيدته وسلوكه .

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٥٢ .

المبحث السادس : عقيدته وسلوكه

جاء الشيخ عبد القادر إلى بغداد إثر أفول نجم المعتزلة وإدبار دولة بني بويه الشيعية ، وكانت بغداد ميدانا للصراعات العقائدية بأنواعها ، الموغلة منها في الانحراف والفساد والمتوسطة فيه . ولا شك أنه أخذ عن علماء المذاهب والفرق كلها ، أثناء طلبه للعلم (١) وله في بعض أساتذته أسوة حيث أخذوا العلم عن كل من عنده علم دون نظر إلى انتمائه العقدي (٢) ومن هنا نجد أن الشيخ عبد القادر قد نسب إلى طوائف متعددة في معتقده ومذهبه الفقهي(٣) ولا عجب في هذا فكثير من أمثاله من العلماء وقع له مثل ذلك ولكن بالبحث العلمي والنظر في مؤلفاته يتبين حاله ومعتقده ، وتتضح الدعاوي التي لابينة عليها ، فترد على أصحابها بالدليل والبرهان.

فقد قيل : إنه كان شافعي المذهب فرأى في النوم الإمام أحمد يقول له : أدرك المذهب ياعبد القادر .(٤)

وهذه الرؤيا لايصدقها الواقع فإن المذهب الحنبلي كان قويا في ذلك الوقت ، ويشهد لذلك أن شيوخ الشيخ عبد القادر نفسه جلهم من الحنابلة ، ثم إن المذهب الحنبلي كان بجيلان التي جاء منها الشيخ عبد القادر .

ذكر ابن عنبة أن الحنابلة كانوا بالديلم نحو خمسين ألفايعرفون بأصحاب أبي جعفر الثري الحنبلي . (٥)

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٣٠ وما بعدها وذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٠ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة جـ١ ص ١٤٣ .

(٣) دائرة المعارف البستاني جـ ١١ ص ٦٢٢ .

(٤) دائرة المعارف للبستاني جـ ١١ ص ٦٢٢ .

(٥) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ص ٦٩ - ٧٠ .

وقال الخوانساري : (إنه كان في الفروع على مذهب المالكية) (١)

وهذه دعوى لانجد لها مستندا ، والاتفاق بين المؤلفين أنه شيخ الحنابلة في زمنه قال ابن رجب والذهبي : إنه برع في المذهب والخلاف بعد أن أحكم الأصول والفروع (٢) ولا عبرة بمجرد الفتوى على مذهب لأن العالم يفتي كل مستفت متمذهب على مقتضى مذهبه هذا عن مذهبه الفقهى .

وأما عن مذهبه العقدي فإننا نبدأ أولا بعرض آراء من نسبه لغير مذهب السلف في الاعتقاد ، ثم نثني بالقائلين بأنه سلفي المعتقد ، ونسوق من كتبه مايناسب ذلك.

إننا نجد في بعض المراجع أن الشيخ عبد القادر كان أشعري المعتقد أو أنه كان على مذهب السلف في عدم القول بالتأويل ، وأن العز بن عبد السلام يأخذ عليه عدم القول بمذهب الخلف في تأويل بعض الصفات مثل الاستواء وذلك أن العز بن عبد السلام أثنى على الشيخ عبد القادر بتواتر كراماته فقيل له : هذا مع أعتقاده كيف هذا ؟ فقال لازم المذهب ليس بمذهب . قال الذهبي : (قلت : يشير إلى إثبات صفة العلو ونحو ذلك ، ومذهب الحنابلة فى ذلك معلوم يمشـــون خلف ماثبت عن إمامهم رحمه الله إلا من شذ منهم ، وتوسع في العبارة) (٣) وقال الخوانساري : (إنه كان له في الأصول مشرب الأشعرية) (٤) وذكر اليافعي بسنده أن الشيخ عبد القادر رجع آخرا عما كان يعتقده في مسألة الجهة ، لما بلغه تعجب ابن دقيق العيد من عدم موافقته للجمهور في تأويلها .) (٥) .

ووجه ابن عزوز كلام اليافعي هذا بأن هذا يعتبر من الشيخ عبد القادر رجوعا

---

(١) روضات الجنات جـ ٥ ص ٨٥ - ٨٩ .

(٢) طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٠ وسير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٣ إلى ٤٤٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٣ .

(٤) روضات الجنات جـ ٥ ص ٨٥ .

(٥) مرآة الجنان ص ٣٦٢ .

عن مذهب التفويض الذى هو مذهب السلف (١) إلى التأويل الذي هو مذهب الأشاعرة . قال : (ولعله ظهر له رجحان ذلك لظهور فتن أهل الأهواء ، ثم نقل عن الشعراني (٢) قوله : (ولعل كلام الغنية مدسوس على الشيخ رأسا) (٣) ، وجاء هذا التوجيه من ابن عزوز المكى في معرض رده على علي بن محمد القرماني الحنفي الذي قال في رسالته : الحق الظاهر في شرح حال الشيخ عبد القادر : (وما بقي تحت رين الشبهة ، إلا ماجاء في الغنية عن الشيخ عبد القادر أنه يقول بالجهة .) (٤) وذكر ابن عزوز أن محمد المسناوي المغربي ألف رسالة بها نحو تسعين صفحة سماها : جهد المقل القاصر ، في نصرة الشيخ عبد القادر ينفي عنه فيها ماذكره هو في كتابه الغنية من القول بإثبات جهة العلو لله تعالى . (٥) هذا مجمل أقوال القائلين بخلفية الشيخ عبد القادر أو أشعريته ، وليس فيها مايحتاج إلى دراسة كبيرة ، إذ إنه لامستند فيها يمكن الاعتماد عليه في الحكم ، على أن الشيخ عبد القادر كان أوصار الى ماذكروه عنه من المعتقد المخالف لمذهب السلف . فابن دقيق العيد والعز بن عبد السلام لم ينقل عنهما أنه رجع عن معتقده الذي كان عليه ، وانتقادهما عليه عدم موافقته جمهور الخلف في التأويل دال على بقائه على عقيدة السلف، ولو صح فرضا أن أحدا من علماء عصره انتقده وبلغه نقده له ، فإن ذلك لايرد عالما مثله عما كان يعتقده .

وأما الخوانساري فإنه في أغلب ظني ترجم للشيخ عبد القادر دون الاعتماد على مرجع يعتمد عليه ، هذا مع العداوة الظاهرة في أسلوبه نحوه ، ويعلم ذلك من طعنه في نسبه وطريقته ومقارنته بابن عربي الحاتمي الطائي ، (٦) ونسبته جزما إلى

---

(١) وسيأتي إن شاء الله الكلام عن التفويض والمرادبه .

(٢) هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني أبو محمد من العلماء المتصوفين توفي سنة ٩٧٣ هـ .

(٣) السيف الرباني ص ١٤٠ - ٢٣٩ وما بعدها .

(٤) السيف الرباني ص ٢٣٩ .

(٥) نفسه ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٦) ستأتي ترجمته في سلاسل القادرية في موريتانيا .

الاعتقاد الأشعري والمذهب المالكي (١) وهذه أمور لم نجدها في غيره مع كثرة الذين كتبوا عن الشيخ عبد القادر ٠

وأما من جاء بعد هؤلاء فنقلهم عن الغنية قول الشيخ عبد القادر فيها بإثبات جهة العلو لله تعالى ، وردهم له بعد النقل له ، من أظهر دلائل التعصب المبطل لحجة صاحبه ٠

وعقيدة المرء المسلم لايجوز التحكم فيها بمثل هذه النقول ، والالتماسات البعيدة وإنما تؤخذ من أقواله عن نفسه ومؤلفاته وتلامذته أو من نقل أهل الثقة والإنصاف ٠

ولذا فسنعرض بعض نقول أهل العلم عنه في الاعتقاد ، ثم نأخذ من كتبه مايدل على صحة تلك النقول عنه ٠ وأول ذلك موقفه من علم الكلام ، فإنه كان يحذر منه جدا ، نقل ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية (٢) والذهبي (٣) وابن رجب الحنبلي (٤) قال ابن تيمية : (من نظر في عقائد المشهورين مثل الشيخ عبد القادر وجد في كثير منها النهي عن اعتقاد المتكلمين من الأشعرية والكلابية) (٥) وقد نقلوا خبر مكاشفته لمن قرأ شيئا من أصول الدين على طريقة المتكلمين فأوقع عنده شكا ، وقال له الشيخ عبد القادر جوابا على خاطره : (اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة) وكذلك مكاشفته لشهاب الديـن عمر السهروردي عن نيته الاشتغال بعلم الكلام ، وأنه قال له : قبل أن ينطق ليستشيره في قراءته : (ياعمر ماهو من عدة القبر ياعمر ، ماهو من عدة القبر) ٠(٦)

---

(١) روضات الجنات جـ ٥ ص ٨٥ - ٨٩ ٠

(٢) الاستقامة جـ ١ ص ٨٨ ٠

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ٠

(٤) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ٠

(٥) الاستقامة جـ ١ ص ٨٨ ٠

(٦) الاستقامة ج ١ ص ٨٦ - ٨٧ وسير أعلام النبلاء ص ٢٠ جـ ٤٤٣ وذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ٠

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن معتقد المتأخرين من الأشاعرة ، ينقص معتقده عن كمال الولاية ، وهو أمر يجل عنه الشيخ عبد القادر إذ يقول : (إن الشيخ عبد القادر من المشايخ الذين لهم لسان صدق في الأمة وأنه من المعتمدين منهم) ·(١)

وبين شيخ الإسلام في رده ، على القشيري في قوله : إن مشايخ الصوفية كانوا يوافقون اعتقاد كثيرمن المتكلمين الأشعرية (٢) قال : (والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ماكان عليه السلف وهذا هو الذي كان يجب أن يذكر) ·(٣)

ولما سئل الشيخ عبد القادر هل كان لله ولي على غيراعتقاد الإمام أحمد ابن حنبل ؟ قال : ماكان ولايكون · (٤) ·

وكان يرى أن المشتغل بعلم الكلام لايفلح (٥) ومن هنا قال ابن رجب : (وانتصر أهل السنة بظهوره) (٦) وأنه له (كلام حسن في التوحيد ، والصفات والقدر ، وفي علوم المعرفة موافق للسنة) (٧) (وكان متمسكا في مسائل الصفات ، والقدر ونحوهما بالسنة بالغا في الرد على من خالفها) (٨) وهذه هي الأمور التي عظمه من أجلها الشيخ ابن تيمية حيث يقول : (ماعظمت الشيخ عبد القادر إلا

---

(١) الاستقامة جـ ١ ص ٨٥ - ١٤٢ ·

(٢) الرسالة القشيرية ، للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري ، تحقيق عبد الحليم محمود بن الشريف · دار الكتب الحديثة جـ١ ص ٢٧ - ٥١ ·

(٣) الاستقامة جـ١ ص ٨٢ ·

(٤) الاستقامة جـ ١ ص ٨٦ ·

(٥) ذيل طبقات الحنابلة جـ١ ص ٢٩٧ ·

(٦) نفسه جـ ١ ص ٢٩٢ ·

(٧) نفسه جـ ١ ص ٢٩٦ ·

(٨) نفسه جـ ١ ص ٢٩٦ ·

بكلامه في القدر وحكايته مع الشيطان) ٠ (١)

ونجد كلام شيخ الإسلام في توضيح وتوجيه كلام الشيخ عبد القادر في فتوح الغيب لاينقد عليه فيه شيئا من المسائل العقدية أو السلوكية بل يوجه مشكلاته ويوضح غوامضه ٠ (٢)

وتوجد في آخر كتاب فتوح الغيب عقيدة مختصرة فيها ردود على بعض الفرق المخالفه في العقيدة من أهل الملة وغيرها من أصحاب الملل والنحل الأخرى ٠ (٣)

وفي آخر هذه العقيدة (هذه عقيدة سنية ، على أصول مذاهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية) ٠ (٤)

ويبعد عندي أن تكون هذه العبارة صادرة من الشيخ عبد القادر لأن العقيدة لاتخرج على أصول المذاهب الفقهية كالمسائل والنوازل ٠

وعلى كل حال فهذه العقيدة المذكورة فيها كثير من تنويع العبارة في طلب التنزيه والنفي المفصل وهو أمر لم يعهد عن السلف الجري وراءه لما فيه من التكلف وطلب مالا يعرف ٠

وفي كتاب (الفتح الرباني والفيض الرحماني) كلام مبثوث في المجالس التي يتضمنها الكتاب ، وقد خصص المجلس الثاني والستون وما بعده للكلام على التوحيد وحقيقته ، وبيان مايناقضه ٠(٥)

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٢ص ١٧٢ والتصوف في تراث ابن تيمية الطبلاوى محمود سعد الهيئة المصرية العامه للكتاب ط ١٩٨٤ م ص ١٦٢ ٠

(٢) مجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٥٥ وما بعدها ٠

(٣) فتوح الغيب ص ١٢٦ - ١٢٩ ٠

(٤) نفسه ص ١٢٩ ٠

(٥) الفتح الرباني ص ٢٢٧ وما بعدها ٠

وليست العمده في الحكم على عقيدة الشيخ عبد القادر على هذين الكتابين وإنما العمدة على ماكتبه بنفسه في كتابه (الغنية) التي أشتهرت في حياته (١) وكتبها لتكون مرجعا لتلاميذه وطلب من بعض مريديه • (٢)

وقد بدأ رحمه الله الغنية بقوله : (الذي يجب على من يريد الدخول في ديننا :

أولا : أن يتلفظ بالشهادتين : لاإله إلا الله محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويتبرأ من كل دين غير دين الإسلام ، ويعتقد بقلبه وحدانـية الله) • (٣)

فلم يبدأ كما يبدأ المتكلمون بالقول بالشك أو بالنظر أو القصد إلى النظر ، وهذا نموذج لاتباعه لمنهج السلف • وقد أخر شرح مايتعلق بهذا النطق المصحوب بالاعتقاد حتى يبين باقي أركان الإسلام من صلاه وزكاه وصوم وحج وما يتعلق بذلك كله من آداب •

ثم قال : (ويبقى عليه - يعني الداخل في دين الإسلام - حقيقة معرفة الصانع وهي من أعمال القلب فأخرناها ليسهل عليه الدخول في ديننا ، فإذا تقمص بنور الإسلام ظاهرا قلنا له تقمص بنور الإيمان باطنا) • (٤)

ثم بدأ في شرح العقائد على وجه الاختصار كما قال ويرد على الفرق الضالة التي جانبت الحق • (٥)

ولنقتصر هنا على ما يعرف به أنه على عقيدة السلف في الصفات المتنازع فيها غالبا مع الأشعرية المعتزلة ، وإن كان ربما زاد بعض العبارات التي لم تكن معروفة عن السلف لقصد توضيح وجه الرد على المخالف أو الدخول فيما يعرف في

---

(١) الغنية جـ ١ص ١١ والمنتخب المختار تأليف التقي الفارسي ص ٢٠٥ - ٢٠٧ - ٢٢٢ •

(٢) الغنية جـ ١ص ٣ •

(٣) نفسه جـ ١ ص ٢ •

(٤) نفسه جـ ١ص ٥٤ ويقارن بما في مقدمات ابن رشد دار صادر جـ ١ ص ٣٧ وما بعدها •

(٥) نفسه جـ ١ ص ٥٤ . ٩٤ •

زمنه من علم الكلام الذي يمكن أن يربط بالأدلة الشرعية وهذه نبذ من كلامه في الأسماء والصفات ٠

قال : (قال أحمد ابن حنبل رحمه الله قبل موته بقريب : أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل) ٠ (١)

ثم قال في صفة الاستواء : (وهو بجهة العلو مستو على عرشه ، محتو على الملك محيط علمه بالأشياء وكونه عز وجل على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف ٠٠٠ وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش لاعلى معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية ، ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت : الأشعرية ، ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزله) ٠ (٢)

فهذا النص يوضح أن الشيخ عبد القادر يذهب مذهب الإمام أحمد في أخبار الصفات من إجرائها على ظواهرها بلا تشبيه ولا تعطيل ويوضح كذلك أن استواء الله تعالى على العرش ثابت في كتب الله تعالى جميعا ، ويرجح أن الاستواء من صفات الذات التي ينبغي إطلاقها والإمساك عن تأويلها على ماتأولها عليه المجسمة والكرامية والأشعرية والمعتزلة ٠

فالشيخ عبد القادر يوافق السلف في أثبات هذه الصفات إلا أنه في رده على تأويل المتأولين لها يمكن أن يقال بأنه دخل فيما لم يكن من منهج السلف الذين نقل عنهم بالتواتر أن قرائتها هي تفسيرها وإمرارها هو عدم طلب الكيف فيها فلم يكن السلف يخوضون في شيء من بيان معنى الاستواء فلا يقولــون (مستو على العرش بذاته) مثلا ولا أن استواءه على الحقيقة أوعلى معنى كذا على أنه من الصواب نقل الاجماع في الايمان بها على الحقيقة نفيا للمجاز أو التأويل (٣) ومن أدى به الرد ٠

---

(١) الغنية جـ ١ص ٥٤ - ٥٧ ٠

(٢) نفسه ويقارن بما في مقدمات ابن رشد جـ ١ ص ١٠ ٠

(٣) كتاب الصفات وكتاب النزول كلاهما تأليف : علي بن عمر الدارقطنى - أبي الحسن الإمام الحافظ ٠ سلسلة عقائد السلف (٢ - ٣) تحقيق الدكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ ص ٢٦ وما بعدها وص ٦٨ - ٧٦ ٠

على أهل الزندقة والالحاد من الجهمية والمعتزلة الى تنويع العبارة وتقريب المراد فإنه يلاحظ في كلامه التخرج والتحفظ في الألفاظ وتقديم الألفاظ الواردة في الوحي فـرار من الوقوع فيما وقعوا فيه أو النعت بما نعتوا به من إحداث ألفاظ مجملة أو موهمة ٠ (١)

فهذا منهج السلف ، وتلك مذاهب أهل التأويل وفي بيان الشيخ عبد القادر لمذهبه في الاعتقاد في الأسماء والصفات أن أدلة الكتاب والسنة هي التى جعلتة يقول بهذا القول ويتبع هذا المذهب فيقول في رده على المتأويلين السابقين لصفـة الاستواء : (لأن الشرع لم يرد بذلك ، ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ذلك ، بل المنقول عنهم حمله على الإطـلاق) ٠(٢)

ثم ينقل عن أم سلمة رضى الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن الإمام أحمد وغيره مايشهد لما ذكر من أنه ينبغي إطلاق هذه الصفات الواردة في الأخبار والنصوص القرآنية (٣) وأخذ يناقش عبارات أهل التأويل ويردها ثم قال :

(فالاستواء من صفات الذات بعدما أخبرنا الله به ونص عليه وأكده في سبع آيات من كتابه والسنة المأثورة به وهو صفة لازمة له ولائقة به ، كاليد والوجه والعين والسمع والبصر والحياة والقدرة) ٠(٤)

وفي كون الاستواء من صفات الذات أو الأفعال حلاف قال ابن رشد :

---

(١) الرد على الجهيمة والزنادقة للامام أحمدا بن حنبل ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة ط ٢ دار اللواء ، ١٤٠٢ هـ ص ١٣٥ وما بعدها والتحفة المهدية ، شرح الرسالة التدمرية تأليف: فالح بن مهدي آل مهدي، ط٢ الجامعة الإسلاميه ١٤٠٦ هـ جـ١ ص١٣٦ وما بعدها٠

(٢) الغنية جـ ١ص ٥٦ ٠

(٣) نفسه جـ ١ص ٥٦ - ٥٧ ويقارن بما في الرساله التدمرية مع شرحها : التحفة المهدية جـ ١ ص ٨٨ وما بعدها ٠

(٤) الغنية جـ ١ ص ٥٧ ٠

(ولا يمتنــع أن يكون صفة ذات وإن لم يصح وصفه تعالى بها إلا بعد وجود العــرش ٠٠) (١) ٠

فهذا مجمل الكلام في الصفات المختلف فيها بين السلف والخلف أو بعض الخلف حيث إن السلف ذهبـوا إلى إثباتها وإمرارها كما جاءت على ماتقدم وذهب الخلف أو بعضهم إلى تأويلهـا أو تفويض معناها على خلاف بينهم في المراد بالتفويض والتأويل (٢)

والشيخ عبد القـادر يجملها ويثبتها ولا يفـرق بينها كما يفعل الكثيـر من الخلــف (٣) ويضيف لما سبق صفة نزول الرب جل وعلا فيقول : (وإنه تعالى ينزل في كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء وكما شاء لابمعنى نزول الرحمة وثوابه على ماادعته المعتزلة والأشعرية) ٠ (٤)

ويسوق حديث النزول برواياته مدللا على إثبات هذه الصفة لله تعالى ناقلا عن سفيان بن عيينة وإسحاق بن راهويه ، ويحيي بن معين والفضيل بن عياض وشريك ابن عبد الله منهج السلف في مثل هذه الصفات والأحاديث الواردة بها رادا على من أنكرها أوتأولها قائلا : (ولا نخرج من الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيها ، ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل) (٥) فعلى هذا يمكن الجزم بأن الشيخ عبد القادر سلفي العقيدة في باب الأسماء والصفات متبع للإمام أحمد في ذلك كله فعلى من يدعي الانتساب إليه أن يكون على عقيدته ويتبعه في سلفيته ٠

والله أعلم ٠

---

(١) مقدمات ابن رشد جـ ١ ص ١٠ ٠

(٢) التحفة المهدية جـ ١ ص ٩٣ - ٩٤ ٠

(٣) نفسه جـ ١ص ٩٥ - وما بعدها ٠

(٤) الغنية جـ ١ ص ٥٧ - ٥٨ ٠

(٥) نفسه ويقارن بما في كتاب النزول : ص ٨٩ وما بعدها ٠

سلوكه وطريقته

رأينا فيما مضى أن الشيخ عبد القادر صحب جلة من العلماء والمشايخ والعباد والزهاد واستفاد منهم العلم والعمل معا ٠

ورأينا أن من بين هؤلاء شيخين جليلين كان لهما أثر بارز في حياته العلمية والعملية وهذان الشيخان : الدباس ، والمخرمي ٠

ومع أن الدباس لم يكن معدودا في أهل العلم فإنه كان له أصحاب ومريدون يتأدبون بأدبه ، ويلازمونه في رباطه ، وينفق عليهم مما يجتمع له من النذور والمنامات فصار بذلك شيخا كبيرا معظما في بغداد لدى الفقراء والعامة (١) ٠

وكانت أول صلة الشيخ عبد القادر به بعد أن طلب العلم وتفقه ، ولازم الخلوة والمجاهـــدة والسياحة ، والمقام في الخراب والصحـــراء (٢) أن طرقته الأحوال كما يقـــول (٣) : وأنه تمنى من يكشفها له ، وإذا برجل فتح عليه الباب وهو سائر في الطريق ، وقال له : (يا عبد القادر ويش طلبت البارحة) (٤) ٠

وكان ذلك الرجل هو حماد الدباس ، فتعرف إليه فيما بعد وصحبه ، وحدث الشيخ عبد القادر نفسه عن موقف شيخه الدباس وأصحابه منه حيث إنهم كانوا ينظرون إليه أنه شخص غريب بينهم ، فإذا غاب لطلب العلم وجاءهم قال له حماد : (أيش جاء بك إلينا أنت فقيه ، مر إلى الفقهاء ، وأنه كان يؤذيه ويضربه ، وكان هذا حال أصحابه معه فإنهم يقولون له : (أنت فقيه أيش تعمل معنا) (٥) حتى انتصر له حماد مرة لما رآهم أكثروا عليه فنهرهم عنه ، وأثنى عليه لثباته ونجاحه في امتحانه له (٦) ٠

---

(١) تقدمت ترجمته - وانظر الذيل على طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٤٧ ٠

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٤ ٠

(٣) نفسه جـ ٢٠ص ٤٤٦ ٠

(٤) نفسه جـ ٢٠ ص ٤٤٦ ٠

(٥) نفسه ٠

(٦) نفسه ٠

وهذا بلا شك مما شجع الشيخ عبد القادر في الاستمرار في هذا الطريق ٠ وقد ذكر الذهبي وابن رجب في نقولهما عن ابن السمعاني وابن النجار مالا قاه الشيخ عبد القادر من الجهد والعناء وطرق الأحوال له حتى يظن أنه مات أو لحقه الجنون والإغماء ، والخروج في البراري والصياح إلى غير ذلك من الأشياء المنافية لاعتدال العقل ولزوم الشرع ، كما نقلوا عنه أنه كان يقول :-

(بأنه يؤمر وينهى في النوم واليقظة ، وأنه كان يغلبه الكلام ، ويزدحم على قلبه حتى يكاد يخنقه ، ولا يقدر على السكوت (١) ٠

ولعل هذه الأحوال التي كانت تطرقه ازدادت بعد صحبته لحماد الدباس ٠

وعلى كل فالميزان فيها ما كتبه الشيخ عبد القادر نفسه مما يوافق الكتاب والسنة ٠

أما الشيخ الثاني فهو المخرمي الذي تفقه عليه وأضافه إلى مدرسته حتى خلفه عليها ، وقال بعضهم إنه لبس منه خرقة الصوفية (٢) ٠ ولكن سلوك الشيخ عبد القادر وطريقته في التصوف لا ينبغي نقلها أو التعبير عنها إلا بما كتبه هو في كتبه ، وأصدق كتاب له في هذا الموضوع هو كتاب : (الغنية لطالبي طريق الحق) وهو الذي سنعتمد عليه إن شاء الله كأساس لبيان ما انتهى إليه سلوكه وطريقته بعدما عرضنا مراحل حياته وذكرنا أهم من صحبهم وأبرز من صحبوه ٠

وإذا نقلنا عن بعض العلماء أهل الإنصاف كلاما في حاله عموما وطريقته خصوصا فإنما المراد منه توضيح الصورة أكثر وحتى يكون حاله إن كان صالحا ميزان يوزن به من بعده من الشيوخ الذين ينتسبون إليه ، ويدعون التزام طريقته وسلوكه ٠

إننا نجد في الغنية فصولا عن أنواع القرب التي حث عليها الكتاب والسنة في أسلوب فقهي مقرون بالدليل غالبا ، كما نجد فيها أوراد الليل والنهار من صلاة وذكر ، وما يتخلل ذلك من أقوال وأدعية وهيئات ٠

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٧ - ٢٩٩ ٠

(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٦ ٠

وقد لا يجد الباحث في ذلك كله ما يستحق النقد لوضوح دليله في الكتاب والسنة ، وإن وجد فيه ما يستحق النقد فإنه في الغالب يكون بسبب الاعتماد فيه على دليل من النقل تختلف أحكام النقاد فيه بين القول بوضعه أو ضعفه إن كان حديثا أو عدم دلالته على المطلوب إن كان آية أو مسألة فقهية مأخوذة منهما ٠ ويحكم بما في الغنية من الأوراد والأحزاب على ما جاء منسوبا للشيخ عبد القادر في كتب أخرى سواء كانت ثابتة النسبة له أو غير ثابتة النسبة أو غير منسوبة له أصلا ٠

وبما أن الغنية لطالبي طريق الحق ألفت لتكون عمدة لسالكي طريق الصوفية أساساً فإنه من الواضح أنها ستخاطبهم بآداب اختصوا بها ، وتعرفهم بأمور يسلكون عليها ، وتصف لهم معارف يتشوقون لحصولها ٠

وهذا هو المجال الذي ينبغي أن نستقي منه معلوماتناعن طريقة الشيخ عبد القادر وسلوكه الصوفي ٠ فلنستعرض بعض هذه الأمور في الغنية ٠

قال الشيخ عبد القادر : (كتاب آداب المريدين) (١) ٠

‹ فصل : في الإرادة والمريد والمراد ٠٠٠٠٠٠ › (٢) قال : (أما الإرادة : فترك ما جرت عليه العادة) وشرح ذلك ، وأورد الآيات الآتية : قال الله تعالى لنبيه ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدواة والعشي يريدون وجهه ﴾ (٣) ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ (٤) ثم قال : (وصفهم بأنهم يريدون وجهه فبان بذلك أن حقيقة الإرادة إرادة وجه الله فحسب ، ذلك زينة الحياة الدنيا والأخرى) (٥) ٠

---

(١) الغنية جـ ٢ ص ١٥٨ ٠

(٢) نفسه ٠

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٥٢ قلت لا يفيد هذا التعريف معنى الإرادة لغة أو شرعا ٠ وأنظر مجموعة الرسائل الكبرى مراتب الإرادة جـ ٢ ص ٧٦ وما بعدها وانظر من هذا البحث ص ٤٠٩ و ص ٧٦١ ٠

(٤) سورة الكهف ، الآية ٢٨ ٠

(٥) الغنية جـ ٢ ص ١٥٨ ٠

وبين المراد من المريد والمراد : قال : (فالمريد من كانت فيه هذه الجملة واتصف بهذه الصفة من الإقبال على الله وطاعته والعمل بالكتاب والسنة والإعراض عما سوى ذلك) (١) وهنا يقول بأن على المريد القناعة بالخمول والاختفاء مع الاشتغال بمحاب الله عز وجل (٢) . وأنه بذلك يصير مرادا وتحط عنه أثقال سالكي طريق الله ، ويشرح هذه العبارة بإيراد الحديث القدسي : « لا يزال عبدي المؤمن يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ... » (٣) وهنا يأتي الشيخ عبد القادر بعبارات مجملة تحتاج إلى بيان المراد منها إلا أن عبارته السابقة والتي شرح مراده منها بإيراد الحديث القدسي بعدها لا يريد منها القول بسقوط التكاليف عن السالك إذا وصل إلى درجة اليقين كما يقول بعض الصوفية على ما سيأتي إن شاء الله تعالى إلا أن هذا لا يرفع الإبهام عن نفس العبارة (٤) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (والشيخ عبد القادر : ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمرا بالتزام الشرع ، والأمر والنهي ، وتقديمه على الذوق والقدر ...) (٥).

وتحدث عن المتصوف والصوفي ، فقال : (أما المتصوف : فهو الذي يتكلف أن يكون صوفيا ، وهو المتبدئ ، والصوفي المنتهي ، الذي قطع الطريق ووصل إلى من إليه القطع والوصل) (٦) .

وهنا نصل إلى صلب الموضوع وهو : ما يجب على المبتدئ في الطريقة من الاعتقاد والآداب ، وما يجب على الشيخ في تأديب المريد فيقول :

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ١٥٩ والحديث في الصحيحين وسيأتي تخريجه ان شاء الله تعالى .

(٤) الغنية جـ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٥) مجموع الفتاوي جـ ١٠ ص ٤٤٨ وما بعدها .

(٦) الغنية جـ٢ ص ١٦٠ .

(فأول ما يجب على المبتديء في هذه الطريقة الاعتقاد الصحيح الذي هو الأساس ، فيكون على عقيدة السلف الصالح أهل السنة القديمة ، سنة الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين والأولياء والصديقيين) (١) • ثم أخذ في الحث على التمسك بالكتاب والسنة ، والعمل بهما أمرا ونهيا ، أصلا وفرعا فقال : (فبالاعتقاد يحصل له علم الحقيقة ، وبالاجتهاد - يعني في العمل - يتفق له سلوك الحقيقة) (وأما آداب المريد مع الشيخ ، فالواجب عليه ترك مخالفة الشيخ في الظاهر ، وترك الاعتراض عليه في الباطن (٢) •

إلى أن قال : (وإذا ظهر له من الشيخ ما يكره في الشرع استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة) (٣) ويؤكد في شرحه لهذه الفقرة على مكانة الشيخ ، ويطالب بعذره ، وعند عدم وجود عذر له في الشرع أن يتأول له ، ويستغفر له ، ويدعو له ، وأن لا يعتقد فيه العصمة •

وأنه لابد لكل مريد لله عز وجل من شيخ إلا على الندور والشذوذ إذ المشايخ هم الطريق إلى الله عز وجل ، وأنه على المريد أن يلتزم الصمت والوقار في مجالسهم ، وأن يعتقد أنه ليس أحد أولى من شيخه الذي يريد التأدب عليه منه بمنصب الشيوخة (٤) •

ويتحدث الشيخ عبد القادر عما يجب على الشيخ في تأديب المريد من الرفق والنصح وكتمان السر من الطرفين (٥) •

والسر هنا يحتمل أن يكون عاما وخاصا وإلا فإن حفظ السر من الواجب بين المسلمين عموما ويتأكد في حق الأستاذ والشيخ ليلا يتكدر خاطره وتسوء العلاقة بينه وبين الطالب فيكون ذلك من أسباب قطع الفائدة •

ويخصص الشيخ عبد القادر بابا من الغنية لآداب صحبة الأخوان يعني المريدين

---

(١) نفسه جـ ٢ ص ١٦٠ •

(٢) نفسه جـ٢ ص ١٦٣ •

(٣) نفسه جـ ٢ ص ١٥٦ - ١٦٨ إنه لابد من إنكار المنكر وإن اختلفت الأساليب في ذلك لحديث : (من رأى منكم منكرا فاليغيره •••)

(٤) نفسه جـ٢ ص ١٦٧ •

(٥) نفسه جـ ٢ ص ١٦٨ •

فيما بينهم ، وصحبة الأجانب ، والأغنياء والفقراء · وعن العادة في السماع وإن كان يكرهه ، وعن الخرقة وإن كانت عنده أيضا بالعادة ولا أصل لما يقع فيها (لا في العلم والشريعة (١) ·

ويقول إنه ترك أشياء وضعوها وسموها فيما بينهم ·

وشرح في ختام الكتاب سبعة أصول قال إنها هي أساس الطريقة وهي :

١- المجاهدة ·

٢- التوكل ·

٣- حسن الخلق ·

٤- الشكر ·

٥- الصدق ·

٦- الرضا ·

٧- الصبر (٢) فهذه هي في الواقع أسس طريقة الشيخ عبد القادر كما قال هو نفسه بأنها أصول الطريقة ، واعتنى بها وشرح المقصود منها ، فمن ذكر له أصولا غيرها كانت مردودة عليه ·

ونستخلص من هذا العرض الأمور الآتية :

١- أن الشيخ عبد القادر لم يذكر لنا وردا خاصا به يلتزمه أتباعه ، في أوقات معينة ، يؤدونه على هيئات خاصة سوى ما ورد به الكتاب والسنة ·

٢- أنه لم يحكم على ورد مما ذكر على أن المواظب عليه يموت على حسن الخاتمة أو على أحسن حال ولابد ·

٣- ولم نجد له حكما على أن من اتبعه واستعمل أوراده يكون ناجيا من كل سوء في الدنيا والأخرى ·

---

(١) نفسه جـ ٢ ص ١٨٠ - ١٨١ وسيأتي بيان مراد الصوفية في العلم والشريعة ·

(٢) نفسه جـ ٢ ص ١٨٢- ٢٠٠ ·

٤- ولم يحدد لنا شيخا معينا تلقى عنه الورد أو لبس منه خرقة التصوف ، بل إن غالب إسناده فيما ذكر من أوراد نبوية هي عن طريق شيخه في الحديث : أبي نصر السراج عن والده (١) لا عن الدباس الذي صحبه من أجل الرياضات والمجاهدات ، ولا المخرمي الذي تفقه عليه وقيل إنه أخذ منه خرقة الصوفية • والله أعلم •

وما دام الناس قد نسبوا إليه هذه الأمور وأكثر منها (٢) فإن من شأن البحث العلمي تتبع هذه المنسوبات حسب الوسع لإعطاء الرأي الصحيح فيها •

ولكي يكون في ذلك التتبع شيء من التسلسل والوضوح ينبغي أن يعرض ما نسب إلى طريقته من المباني والآداب بإيجاز ، ثم عرض رجال سند الخرقة المنسوبة إليه والتي يدعى أنها سلسلة متصلة السند بالنبي صلى الله عليه وسلم •

قال الشطنوفي : (ذكر طريقه : سئل سيدي الشيخ أبو الحسن علي بن الهيتي رضي الله عنه وأنا أسمع عن طريق الشيخ محي الدين عبد القادر رضي الله عنه فقال: كان طريقه التفويض والموافقة مع التبري من الحول والقوة وتجريد التوحيد وتوحيد التفريد مع الحضور في موقف العبودية بسر قائم في مقام العبودية لا بشيء ولا لشيء ، وكانت عبوديته صحيحة مستمدة من لحظ كمال الربوبية ، فهو عبد سما عن مصاحبة التفرقة إلى مطالعة الجمع مع لزوم أحكام الشريعة ••) (٣) •

---

(١) قلت لعله : جعفر بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن جعفر السراج ، المقرئ المحدث الأديب أبي محمد المتوفي سنة (٥٠٠) هـ في بغداد • ذيل طبقات الحنابلة جـ١ ص ١٠٠ وما بعدها • وسير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٠ ، ولكن الشيخ عبد القادر أحيانا يقول : حدثنا أبو نصر بن البناء عن والده ولم نعرف من هو • الغنية جـ ٢ ص ١٤٧ •

(٢) فاتق الرتق على راتق الفتق ، تأليف : محمد المصطفى بن محمد فاضل (ماء العينين) ط • دار الفكر بهامش نعت البدايات وتوصيف النهايات لنفس المؤلف ص ١٥٨ • والفتح الباطني والظاهري في نثر ونظم الورد القادري ، تأليف : محمد حبيب الله بن مايأبى ، مطبعة العلوم المصرية ، بمصر ١٣٤٥هـ ص ٩ - ٩٦ •

(٣) بهجة الأسرار ص ٨٤ وراجع الكلام في التفرقة والجمع في الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٩٧ •

فهذا النص مشتمل على بيان أن طريقة الشيخ عبد القادر مبنية على تجريد التوحيد والتفويض لله تعالى في الأمر والنهي والقضاء والقدر. وهذا موافق لما في الغنية ولما في فتوح الغيب حيث يقول الشيخ عبد القادر نفسه : (لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء : أمر يمتثله ، ونهي يجتنبه ، وقدر يرضى به) (١) . وقد شرح شيخ الإسلام كلام الشيخ عبد القادر هذا مستحسنا له (٢) .

وقد لخص السنوسي مباني الطريقة القادرية فيما بعد حسب استقرائه الخاص فيما نجمله في المسائل الآتية إن شاء الله تعالى :-

قال : (قال أتباعه إن مبنى طريقته على الأمور الآتية :-

١- الذكر الجهري في حلقة الاجتماع .

٢- الرياضة الشاقة في العكفة (٣) .

٣- التدرج في تقليل الأكل .

٤- الفرار من الخلق .

٥- استحضار جلال الله تعالى وعظمته في البداية (فبذلك تنقمع النفس وتتهذب لأن التربية بالجلال أسرع للتخلص من الرعونات) .

٦- وأن يجلس الذاكر لله تعالى متربعا ماسكا بإبهام الرجل اليمنى .

٧- وأن يضع يديه على ركبته فاتحا أصابعها بنفس لفظ الجلالة (الله) .

٨- ثم يشتغل بذكر (أورد برداي) أي ذكر الفناء والبقاء المنسوب للشيخ عبد القادر وهو : أن يجلس كما مر ويدير وجهه جانب الكتف الأيمن قائلا (ها) ويدير وجهه إلى الجانب الأيسر قائلا (هو) ، ويخفض رأسه ضاربا في نفسه بقوله (حي) ويعود إلى العمل هكذا بلا توان) (٤) .

---

(١) فتوح الغيب ص ٩ .

(٢) مجموع الفتاوي ١٠-٤٥٥ وما بعدها ٤٩٦ - ٤٩٧ .

(٣) لعل المراد بالعكفة مكان الخلوة أو الاعتكاف .

(٤) السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين ، تأليف : محمد بن علي السنوسي الخطابي ط . ١٣٨٨هـ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

هذه الأمور منهاما يصح أن ينسب للشيخ عبد القادر لوجوده في كتبه ولنقل الثقات عنه له مثل الاجتماع للذكر والفرار من الخلق وأنواع المجاهدات والرياضات الأخرى • ومنها ما لا يصح أن ينسب إليه ، ولا يمكن العثور عليه بسند مقبول إليه حسب علمي وتتبعي - ومن ذلك هذا الورد المسمى بورد الفناء والبقاء بهيئاته وألفاظه ، فهو غير مشتمل على ذكر مشروع ، وهيئاته وحركاته منكرة وغير وارد منها شيء في الشرع ، ولم نجد للشيخ عبد القادر في كتبه ولا من جهة يمكن قبولها هذا الورد أو ما يماثله ، ومجرد وضعه عليه لاتثبت به نسبته إليه ، ولذا فإن الرأي الصحيح هو ما ذهب إليه الذهبي (١) وابن كثير (٢) والقرماني (٣) ورشيد رضا (٤) من القول بأن هذه الأوراد وهيئاتها وما في معناها لا تقبل نسبته للشيخ عبد القادر ولايمكن إثباتها •

وفي غالب ظن القرماني أن هذه الأمور من وضع أحفاده وأتباعه فقد قال :-

(أجمع أهل الصدق من أصحاب الخرقة ورجال الطريقة على أن الشيخ عبد القادر رحمه الله من كمل صوفية عصره ومن أهل المجاهدات ، إلا أنه ابتلى بجماعة من أحفاده وأتباعه فكدروا مشرب طريقته ، ودسوا عليه ، ونقلوا عنه مالا ينقل من الكلمات المكفرة ، وكل الظن أنه بريء الساحة منها ، لما شاع عنه من صلاح الحال وصحة المقال) (٥) •

وهذا ما ترجح عندي لما ظهر من الإنحراف على بعض الوارثين لطريقة الشيخ عبد القادر من أحفاده وأتباعه وغيرهم من تلامذته ، كما هو واضح في ترجمته بعض من ذكرناهم ، ولعله لم يقع منهم في حياته ما يستوجب النكير من الشيخ عبد القادر حتى ينقل عنه فيما أحدثوه إنكار أو موقف يوضح الأمر أكثر • علما بأن الشيـــخ

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٠٥ - ٤٥١ •

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ ص ٢٥٢ •

(٣) السيف الرباني ص ١٨٧ •

(٤) دائرة معارف البستاني جـ ١١ ص ٦٢٢ •

(٥) السيف الرباني ص ١٨٧ •

عبد القادر نقل عنه بعض المؤلفين شيئا من التساهل في القراءة بالألحان (١) وأنشأ هو نفسه أدعية في الغنية فيها كلمات مجملة (٢) .

وقد مر أن عبد الوهاب من أبناء الشيخ عبد القادر كان الوارث الأول لطريقة والده ، وأنه رحل إلى بلاد العجم لطلب العلم ، ويدخل في ذلك علوم الأفلاك والنجوم والطبيعة وغير ذلك مما قد يدخل في علوم السحر والدجل من وجه فمن هنا يمكن أن يقال إنه أضاف إلى مشرب والده مشارب أخرى عكر بها مشرب والده كما قال القرماني .

ومما يؤكد هذا الاحتمال أن الركن عبد السلام بن عبد الوهاب المذكور كانت عنده كتب والده وقد درسها وبرع فيها كما يقول عنه القفطى : (فدرس علوم الفلاسفة وأهل الملل الكافرة والمعتقدات الفاسدة في الكواكب والنجوم حتى برع فيها وأجادها واقتنى كثيراً من كتب هذا النوع ، واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة حتى اتهم باعتقاد ما في كتبه) (٣) .

هذا مع ما ذكر من عدم استقامته ، فأحرقت كتبه بمحضر الجمع الجم من الناس وحكم بتفسيقه (٤) .. إلا أن ابن القفطي يرى أن الركن عبد السلام (٥) كان له تقدم في الإمامية الناصرية .

ولذا حسد واتهم بهذه التهمة ، يؤيد ذلك أنه لما سئل عن أمور فيها التوسل بالكواكب وتسخيرها كتبها بخطه قال : (إنما كتبتها تعجبا لا اعتقادا ، وكتبتها لأرد عليها) .

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٢ .

(٢) الغنية جـ ٢ ص ٩٣ وما بعدها .

(٣) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، للوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفي سنة ٦٤٦هـ ، مطبعة السعادة ط ١ سنة ١٣٦٢هـ ص ١٥٤ وقد توفي الركن عبد السلام سنة ٦١١هـ نفس المرجع .

(٤) ذيل الروضتين ص ٨٨ .

(٥) نفسه .

ومهما يكن فإن هذه أمور دالة على أن الطريقة دخلتها أمور مشبوهة من علوم أهل الكفر والزندقة ومعتقدات فاسدة لا يسوغ إطلاق نسبتها للشيخ عبد القادر ولا لطريقته التي كان عليها ، ولئن كان الركن عبد السلام عرف بما ذكر وحكم عليه بإحراق كتبه والتشهير به وتفسيقه فإن لطريقة الشيخ عبد القادر وارثين آخرين عرفوا بالعلم ورواية الحديث والعدالة ، منهم عبد الرزاق وابنه نصر اللذان تقدمت ترجمتهما . فأما عبد الرزاق فإنه ظل مدرسا في مدرسة والده ، ولم يشتهر عنه ما يذكر من أحوال الصوفية .

وأما ابنه نصرا فإنه رتب مع تدريسه في مدرسة جده والمدرسة الشاطئية شيخا للصوفية في الرباط المجاور لدير الروم (١) ، وكانت له أشعار في الزهد(٢) وله كلام حسن كما يقول الذهبي في إشارات الصوفية ، وصنف في التصوف وتكلم في الوعظ على ما تقدم (٣) .

ونجد ذكره في بعض سلاسل الطرق الصوفية كالزروقية مثلا (٤) .

وهذا الترتيب في الأربطة الصوفية والانتساب للعلوية وادعاء السلاسل الصوفية على طريقة الشيعة في تسلسل الأئمة أخذ منه بعض الباحثين المعاصرين منطلقا للمقارنة بين عقيدة الوراثة عند الشيعة في الإمامة والطرق الصوفية في وراثة المشيخة فقارن بين الطائفتين في الوراثة والألقاب والأنظمة فخرج بأن الصلة بين التصوف والتشيع كبيرة ووطيدة للغاية .

---

(١) تلخيص مجمع الآداب جـ٤ ص ٨٧٤ .

(٢) نفسه .

(٣) المختصر المحتاج إليه جـ ٣ ص ٢١١-٢١٢ وتاريخ الإسلام للذهبي مخطوط جـ ١٧ رقم ٢٩١٧ ص ٨١ مصدر سابق .

(٤) زورق والزروقية ص ١٠ .

وعندي أن هذا أظهر من إجراء المقارنات إذ سبق أن أوضحه العلماء كابن خلدون في المقدمه (١) وشيخ الاسلام ابن تيمية في الصفدية (٢) وغيرهما إلا أن منطلقات مقارنات الدكتور كامل الشيبي بين التصوف والتشيع مقبولة إلى حد كبير ولكن الحكم بها على شخص معين بالجزم فيه نظر ٠ وهذه هي منطلقاته التي اعتمد عليها في المقارنة :

١- أن صاحب الطريقة لابد أن يكون علويا ٠

٢- أو مهديا يدعى العصمة كالامام عند الشيعة ٠

٣- أو يجعل طريقته وراثية على نسق الإمامة عند الشيعة (٣) ٠

قال : (وعند التطبيق تجد أن عبد القادر ينتظم في النسب العلوي وكذلك الطريقة القادرية يتوارثها خلف مؤسسها) (٤) ويجزم بأن الشيخ عبد القادر هو الذي ابتدأ هذا النظام فيقول :

(لقد جعل عبد القادر الجيلي المشيخة وراثة كالإمامة ، فورث شأنه وطريقته أبناءه عبد الوهاب وعبد العزيز وعبد الجبار) (٥) وهو بهذا صدر عن الإمامة الشيعية وراثتها الروحية بأجلى مظاهرها (٦) ٠

---

(١) المقدمة ص ٨٧٥ ٠

(٢) الصفدية جـ ١ ص ٢٢٨ - ٢٦٢ وما بعدها ٠

(٣) الصلة بين التصوف والتشيع ، تأليف : كامل مصطفى الشيبي ، مكتبة النهضة ببغداد ، ١٣٨٦هـ ص ٤٢٦ - ٤٢٧ ٠

(٤) نفسه ص ٤٢٧ ٠

(٥) الصلة ين التصوف والتشيع ص ٨٠ ٠

(٦) نفسه ص ٣٩٤ ٠

وأنه من القائلين بالتقية حيث يقول في معرض ذكره للحلاج :-

(ترنم بلحن غير معهود من البشر ، صفر في روضة الوجود صفيرا لا يليق بني آدم ، لحن بصوته لحناً عرضه لحتفه) (١) ، ويعقب كامل الشيبي على هذا الاتصال بين التشيع والتصوف في هذه المجالات قائلا :-

(ومن المعروف أن التصوف والوراثة الدموية أمران متناقضان ، لأن المشيخة محصول المجاهدة والسلوك ، فلا يعقل أن يكون ولد الشيخ ولي عهد الطريقة) (٢) ٠

ولعل لهذه المقارنة شيئا من القبول والوجاهة خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار قوة تأثير الشيعة على الساحة الإسلامية أيام وجود الشيخ عبد القادر وبعده ، ولكن هذا التشابه لا يجعل الباحث المتحري يجزم بأن هذه مظاهر صلة حقيقية وتصدير لأنظمة شيعية متعمدة من الشيخ عبد القادر وأمثاله ممن لهم مكانة في العلم واتباع السلف الصالح في العقيدة والسلوك ، خصوصا أن المعلومات الموجودة عن الشيخ عبد القادر لاتعطى أنه عهد إلى أبنائه بوراثته شأنا وطريقة أو التوارث المنظم للطريقة ٠

فلذا لا نحمله تبعة هذا التنظيم المعمول به عند الشيوخ المنتسبين لطريقته ، ونكتفي بالقول بأنه ورث أبناءه مدرسته التي ورثها من شيخه المخرمي بعدما تلقوا على يديه العلم والعمل والآداب التي تخولهم تناوب المشيخة العلمية والصوفية فيما بعد ، على أن العيب يوجه بعد ذلك على من نهج هذا التنظيم حتى يورث ابنه الجاهل أو الفاسق مشيخة الطريقة أو الحضرة (٣) وراثة دموية لا تتخلف ٠

---

(١) نفسه ٤٠٦ ٠

(٢) نفسه ٤٢٦ ٠

(٣) الحضرة مصطلح صوفي شائع في المغرب يطلق على مقر الشيخ ومكان تجمع مريديه ٠

ويضاف إلى هذا أن الشيخ عبد القادر تصدر عنه في الطريقة كثيرون غير أبنائه، ولهؤلاء المصدرين قسط كبير من تبعة ما يمكن أن يكون حصل في الطريقة من تقارب أو صلة بالشيعة إذ إن الشيخ عبد القادر عد الشيعة في الفرق الضالة في كتابه الغنية وفصل القول فيهم وذكر أماكن تجمعهم في الغالب وما فيهم من غلو مذموم عقيدة وشرعا (١) .

فلا يعقل أنه يتعمد التشبه أو الاستفادة من منهج قوم بهذه الصورة التي ذكرها عنهم ، أضف إلى ذلك أن النصيرية مازالوا يسبون الشيخ عبد القادر في بعض أعيادهم من عهد الدولة الصفوية كما ذكر كامل الشيبي نفسه (٢) ولم يوضح السبب في ذلك ولعلهم وجدوا في كتابه الغنية حكمه على الغالبية منهم بالكفر وأدخل في الغالبية منهم طوائف كثيرة ممن يقول بإلهية علي رضي الله عنه أو ببقائه أو برجعته أو أن جبريل عليه السلام غلط في الرسالة فإنه بعد ما حكى أقوالهم هذه قال : (عليهم لعنة الله وملائكته وسائر خلقه إلى يوم الدين ، وقلع آثارهم وأباد خضراءهم ، ولا جعل منهم في الأرض ديارا لأنهم بالغوا في غلوهم ومردوا على الكفر ، وتركوا الإسلام وفارقوا الإيمان، وجحدوا الإله والرسل والتنزيل ، فنعوذ بالله ممن ذهب إلى هذه المقالة)، وأضـاف بعد سرد بعض طوائفهم وهذا (هو الكفر الذي لا يشوبه شيء ..... تباً لهم) (٣) .

فهذه مرجحات دالة على أن الشيخ عبد القادر لا صلة له بالشيعة وأنه لم يتعمد تصدير منهجهم في الإمامه .

---

(١) الغنية جـ١ ص ٨٦ وما بعدها .

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع ص ٤١٥ هـ .

(٣) الغنية جـ١ ص ٨٨ .

دراسة سند الخرقة الصوفية المنسوبة للشيخ عبد القادر

وما دمنا عرضنا بعض الكلام في معرض صلة التصوف بالتشيع أو العلوية ، فإنه من المناسب أيضا أن نعرض سلسلة رجال الخرقة المنسوبة للشيخ عبد القادر ، وندرسها حسب الإمكان لنرى مدى صحة نسبتها إلى علي رضي الله عنه ، ثم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولنرى كذلك مدى صحة الصحبة بين رجال هذه السلسة ٠

فمن المعلوم مما تقدم من ترجمة الشيخ عبد القادر أنه صحب الدباس وتفقه على المخرمي ، ولكن تقدم أيضا أنه كان صحب بجيلان أبا عبد الله الصومعي الزاهد ، وأنه كان يعرف في بلاده جيلان بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد ، فهلا كان أخذ عنه الخرقة الصوفية والطريقة ؟ ٠

إنه احتمال وارد خصوصا إذا علمنا ما كان عليه الصومعي من الزهد والأحوال الصوفية مع الانتساب أيضا للعلوية (١) ٠

ولكن الذين ذكروا سلسلة رجال سنده في الطريقة لم يذكروه ضمنهم ، وقد ذكر بعضهم أنه أخذ التصوف عن الشيخ أبي يعقوب : يوسف بن أيوب بن الحسين بن وهرة الهمذاني الزاهد (٢) ٠

ونقل الذهبي صلة الشيخ عبد القادر بالهمذاني هذا قائلا على لسان الشيخ عبد القادر بعد ذكره لصحبته لحماد الدباس : (ثم بعد مدة قدم رجل من همذان يقال له: يوسف الهمذاني ، وكان يقال : إنه القطب ، ونزل في رباط ، فمشيت إليه ، فلم أره ، وقيل لي : هو في السرداب ، فنزلت إليه ، فلما رآني قام وأجلسني ، ففرشني ، وذكر لي جميع أحوالي ، وحل لي المشكل علي ، ثم قال لي : تكلم على الناس : فقلت : يا سيدي ، أنا رجل أعجمي قح أخرس ، أتكلم على فصحاء بغداد ؟ فقال لي : أنت

---

(١) بهجة الأسرار ص ٨٨ - ٨٩ ٠

(٢) شيخ الإسلام سيدنا عبد القادر الكيلاني وأولاده ، تأليف : إبراهيم عبد الغني الدروبي ٠ ط ٠ كراجي - نقلا عن مجالس بغداد ص ١٩ - ٢٠ ٠

حفظت الفقه وأصوله ، والخلاف والنحو واللغة وتفسير القرآن لا يصلح لك أن تتكلم ؟ اصعد على الكرسي ، فإني أرى فيك عذقا سيصير نخلة) (١) ٠

فالشيخ عبد القادر هنا أراد أن يقول إن تتويجه واعظا وخطيبا وشيخا لأهل بغداد كان على يد رجل كبير وشيخ عظيم هو (القطب) وموقف هذا الشيخ معه يعتبر مشجعا له وحافزا كبيرا على التصدر ، وإن لم يعتبر شيخا له بمعنى الشيوخة ٠ لا في العلم ولا في غيره ، ولذا لم يعتبره المترجمون له من شيوخه بل لا يوجد في سلسلة رجال الطريق بعده من شيوخه إلا المخرمي الذي قيل إنه لبس منه الخرقة ٠ فهل الخرقة أعظم أثرا من الفقه والعلم والخلافة على المدرسة ؟ وكل ذلك ناله من المحرمي ٠ أو من الصحبة التي حظي بها من حماد الدباس ؟ أو من حل الإشكالات والتشجيع والتصدير الذي حظي به من الهمذاني ؟ ٠

السلسلة

هذه سلسلة سند الشيخ عبد القادر الجيلي في الطريقة فقد أخذها . كما قالوا . عن :

١- الشيخ أبي سعد المبارك بن علي بن الحسين بن بندار البغدادي المخرمي ٠ عن :

٢- الشيخ أبي الحسن علي بن أحمد بن يوسف الهكاري القرشي ٠ عن :

٣- الشيخ أبي الفرج محمد بن عبد الله الطرطوشي ٠ عن :

٤- الشيخ أبي الفضل عبد الواحد بن أحمد بن عبد العزيز بن الحارث التميمي عن:

٥- والده عبد العزيز بن الحارث التميمي (٢) ٠ عن :

٦- الأستاذ أبي بكر محمد بن دلف بن خلف بن محمد بن جحدر الشبلي : المتوفى ٣٣٤ هـ (٣) عن :

٧- سيد الطائفة أبي القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريري المتوفى سنة ٢٩٧هـ (٤) عن ٠

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٦ - ٤٤٧ ٠

(٢) تقدمت ترجمته ٠

(٣) الطبقات ص ٢٣٧ ٠

(٤) نفسه ص ١٥٥ - ١٦٣ ٠

٨- خاله أبي الحسن السري بن المغلس السقطي ٠ المتوفى سنة ٢٥١ هـ (١) عن :

٩- الشيخ أبي محفوظ معروف بن فيروز الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠ وقيل ٢٠١هـ (٢) عن :

١٠- سيدنا علي الرضا بن موسى الكاظم المتوفى سنة ٢٠٣هـ عن :

١١- أبيه سيدنا موسى الكاظم ٠ المتوفى سنة ١٣٣ هـ ٠ عن :

١٢- أبيه سيدنا جعفر الصادق ٠ المتوفى سنة ١٤٨ هـ عن :

١٣- أبيه سيدنا محمد الباقر المتوفى سنة ١١٧ هـ عن :

١٤- أبيه سيدنا زين العابدين علي بن الحسين المتوفى سنة ٩٤ هـ عن :

١٥- أبيه سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما المتوفى سنة ٦١ عن:

١٦- أبيه سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه المتوفى سنة ٤٠ هـ (٣) عن :

١٧- سيدنا سيد الأولين والآخرين محمد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ٠

هذا سند من الأئمة المعروفين على الترتيب عند الشيعة الإمامية (من ١٠ إلى ١٦) وهناك سند آخر ذكره محمد بن علي السنوسي للطريقة القادرية وهو يختلف مع هذا من :

معروف الكرخي المتقدم الذكر فيأتي بسلسلة الأئمة المتقدمة وهو كما يقول السنوسي : (ولمعروف الكرخي نسبة أخرى وهي أنه أخذ الطريقة عن :

١٠- الشيخ سليمان بن داوود بن تصير الطائي الكوفي المتوفى سنة ١٦٥ هـ (٤) عن:

١١- أبي محمد حبيب بن محمد العجمي الفارسي (٥) عن :

---

(١) نفسه ص ٤٤٨ ٠

(٢) القشرية جـ ١ ص ٦٥ - ٦٨ ٠

(٣) تراجع تراجمهم في الملل والنحل للشهرستاني ، دار الفكر ص ١٦٢ وما بعدها٠

(٤) راجع الطبقات ص ٨٥ والرسالة القسيرية جـ ١ ص ٨١ - ٨٤ ٠

(٥) حلية الأولياء دار الفكر جـ ٦ ص ١٤٩ - ١٥٥ ٠

١٢- سيد التابعين الحسن ابن أبي الحسن يسار البصري المتوفي سنة ١١٠ هـ (١) عن:

١٣- أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي عنه عن :

١٤- النبي صلى الله عليه وسلم) ثم قال السنوسي : (وهاتان الطريقتان هما المشهورتان عند أهل الطريقة القادرية المتداولتان فيما بينهم) (٢) .

وهذا الاسناد الأخير هو أعلا الإسنادين وقيل إنه هو المتصل ، وأن الآخر لا يثبت متصلا (٣) .

وهذا الذي قيل إنه متصل الإسناد حكم الحفاظ بانقطاعه في ثلاثة مواضع ، وذلك أنه يدور على معروف الكرخي ، على أنه صحب داوود الطائي - وقد قال الحفاظ إن هذا لا أصل له .

وفيه أيضا أن داوود الطائي صحب حبيبا العجمي ، وهذا أيضا قالوا : لم تعرف له حقيقة ، وفيه أن الحسن صحب عليا رضي الله عنه ، وهذا أيضا : باطل باتفاق أهل المعرفة ، فإنهم متفقون على أن الحسن البصري لم يجتمع بعلي رضي الله عنه ، وإنما أخذ عن أصحاب علي رضي الله عنه .

وما دام الحفاظ وأئمة الحديث لم يثبتوا للحسن سماعا من علي رضي الله عنه فإنه من الكذب المفترى قول من قال : إن عليا ألبس الحسن خرقة الصوفية المتعارف عليها عندهم .

قال هذا شيخ الإسلام ابن تيمية (٤) ، والذهبي ، وابن حجر ، والسخاوي ،

---

(١) راجع ترجمته في حملية الأولياء جـ ٢ ص ١٣١ وميزان الاعتدال جـ ١ ص ٢٥٤.

(٢) المنهل الروي الرايق في أسانيد العلوم وأصول الطرايق ص ٦٥ - ٧٧ .

(٣) الضياء المستبين مخطوطة خاصة تأليف الشيخ محمد فاضل بن الحبيب ص١٩٠ والفتح الباطني والظاهري في نثر ونظم الورد القادري ، تأليف الشيخ محمد حبيب الله بن مايأبى ، ط مطبعة العلوم العصرية بخان جعفر سيدنا الحسين ، بمصر سنة ١٣٤٥هـ ص ١٥٥ . والصلة بين التصوف والتشيع ص ٤٢٦ وما بعدها .

(٤) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، ط جامعة الإمام جـ ٨ ص ٤٤ - ٤٥ .

وغيرهم . فقد نقل علي بن سلطان القارى (عن ابن دحية وابن الصلاح وابن حجر والسخاوي أنه لم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أن النبي صلى الله عليه وسلم ألبس الخرقة المتعارف عليها بين الصوفية لأحد من أصحابه ولا أمر أحدا من أصحابه بفعل ذلك ، وكل ما يروى صريحا فباطل) (١) .

وقال السخاوي مؤكدا كلام ابن حجر ومن معه في نفي ثبوت شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخرقة : (ولم ينفرد بذلك شيخنا بل سبقه إليه جماعة حتى ممن لبسها وألبسها كالدمياطي والذهبي وابن حيان والعلائي والعراقي وابن الملقن والبرهان المحلي وغيرهم ، وإنما ليسوها لثبوت الصحبة المتصلة إلى كميل بن زياد وهو صحب عليا كرم الله وجهه بالاتفاق) (٢) .

وقال علي القارى : (وكذا نسبة المصافحة المتصلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليس له أصل عند العلماء الأعلام) (٣) .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وقد كتبت أسانيد الخرقة ، لأنه كان لنا فيها أسانيد ، فبينتها ليعرف الحق من الباطل) (٤) .

ومادام الأمر مرجعه والمعول عليه فيه هو الصحبة ، فإن الصحابة والتابعين كما قال شيخ الإسلام : (لم يكن أحد منهم يجعل شيخه ربا يستغيث به ، كالإله الذي يسأله ويرغب إليه ، ويعبده ويتوكل عليه ، ويستغيث به حيا وميتا ، ولا كالنبي الذي تجب طاعته في كل ما أمر ، فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه ، فإن هذا ونحوه دين النصارى الذين قال الله فيهم : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (٥) .

---

(١) الموضوعات ، تأليف : علي بن سلطان القارى ، ط القسطنطينية ١٣٤٩هـ ص ٦٢ .

(٢) نفسه ، وكتاب الحسين عليه السلام ، تأليف : علي جلال الحسيني ، المطبعة السلفية بالقاهرة ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٣) نفسه ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٤) منهاج السنة جـ ٨ ص ٤٧ .

(٥) سورة التوبة ، الآية ٣١ .

وقد ذكر شيخ الإسلام الخرقة تحت هذا العنوان : (قال الرافضي : وأما علم الطريقة فإليه منسوب ، فإن الصوفية كلهم يسندون الخرقة إليه) فبين أن الخرقة لا تدل على الحقائق الايمانية ثم ذكر أن الخرق متعددة وأشهرها خرقتان : خرقة إلى عمر وخرقة إلى علي ثم قال : (وأما الخرقة المنسوبة إلى علي فإسنادها إلى الحسن البصري، والمتأخرون يصلونها بمعروف الكرخي ، فإن الجنيد صحب السري السقطي والسري صحب معروفا الكرخي بلا ريب) (١) ثم أخذ في بيان ما في هذا الاسناد من الانقطاع المتفق عليه بين أهل المعرفة بعلم الرواية إلا أنه قال : (وفيها أن حبيبا صحب الحسن البصري ، وهذا صحيح) (٢) ٠

وفي هذا إثبات الصحبة ، وقد أثبتها أبو نعيم في الحلية بين حبيب العجمي والحسن البصري (٣) ولكنه نفى الإسناد فقال : (قيل إنه أسند عن الحسن ، وابن سيرين وهو وهم من قائله فإن حبيبا الذي أسند عن الحسن وابن سيرين حبيب المعلم) (٤) ٠ وقد رجح السيوطي والغماري سماع الحسن البصري من علي رضي الله عنه ، وأدلتهم في ذلك ليست قاطعة حتى يحكم بها ٠ ولكنها تعطي احتمالا قويا - في تطري - لو سلمت من معارضتها لكلام الحفاظ الأقدمين ٠ وما عرف عن الحسن رحمه الله من التدليس يضعف هذا الاحتمال (٥) ٠

وحيث تبين أن هذين الإسنادين لا يثبت بهما شيء من اتصال الطريقة ولا من لبس الخرقة فإنه ينبغي لنا أن نختم هذا الفصل بما يتضح به أن الشيخ عبد القادر ، وإن كان شيخ صوفية ورباط ومدرسة فإنه كان شيخ علم وأثر وسلوك مرضي عند المحققين ٠

---

(١) منهاج السنة جـ ٨ ص ٤٤ - ٤٥ ٠

(٢) نفسه جـ ٨ ص ٤٣ وما بعدها ٠

(٣) حلية الأولياء جـ ٦ ص ١٤٩ - ١٥٥ ٠

(٤) نفسه جـ ٦ ص ١٥٤ - ١٥٥ ٠

(٥) الحاوي للفتاوي ، دار الكتب العلمية ط ١٤٠٣هـ جـ ٢ ص ٢ وما بعدها ٠ والبرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي تأليف : أحمد بن محمد الصديق الغماري الحسيني ، ط السعادة ، سنة ١٣٨٩هـ ص ١٧٥ وما بعدها ، وطبقات المدلسين ، تأليف : ابن حجر ، علي بن احمد ، مكتبة المنار ، ط ١ ص ٢٩ ، وميزان الاعتدال للذهبي ، تحقيق علي محمد النجادي ، دار المعرفة جـ ١ ص ٥٢٧ ٠

من ذلك أن شيخ الإسلام ابن تيمية أدرجه فيمن يسوغ الانتساب إليهم كالحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والقادري (١) .

وأنه كما قال : (لا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها - أي بهذه النسبة - ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها ، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان) (٢) ، وهذا الموقف الإسلامي المعتدل هو ما جعل شيخ الإسلام يستحسن كثيرا من كلام الشيخ عبد القادر ويشرحه مبتدئا كلامه فيه بألقاب حسنة دالة على التقدير والتوقير .

كقوله : (قال الشيخ أبو محمد عبد القادر) و (قال الشيخ عبد القادر قدس الله روحه) وكقوله مستحسنا وشارحا قول الشيخ عبد القادر :

(لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء : أمر يمتثله ، ونهي يجتنبه، وقدر يرضى به) (٣) (هذا كلام شريف ، جامع ، يحتاج إليه كل أحد) (٤) .

وقال عند كلامه على السلوك : إنه سلوكان : سلوك الأبرار أهل اليمين ، وسلوك المقربين السابقين ، ثم قال (وكلام الشيوخ الكبار : كالشيخ عبد القادر وغيره يشير إلى هذا السلوك) (٥) . ثم قال : (قال الشيخ عبد القار قدس الله روحه : افن عن الخلق بحكم الله ، وعن هواك بأمره ، وعن إرادتك بفعله ، فيحنئذ يصلح أن تكون وعاء لعلم الله) (٦) .

ويشرح هذه العبارة وأمثالها من كلام الشيخ عبد القادر إلى أن يقول :

(فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله عنهم : بأنه لا يريد السالك مرادا قط ، وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ، ط إحياء التراث العربي جـ١ ص ٢٠٩-٢١٠ .
(٢) نفسه .
(٣) سبق في ص ٤٩ .
(٤) مجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٥٥ .
(٥) نفسه جـ ١٠ ص ٤٦٣ .
(٦) نفسه جـ ١٠ ص ٤٩٠ وفتوح الغيب ص ١٣ - ١٤ .

سواها ، بل يجري فعله فيه ، فيكون هو مراد الحق) (١) ويشرح مرادهم بهذا الكلام ويحكم بأنهم أعظم مشايخ زمانهم أمرا بالتزام الشرع ، والأمر والنهي (١) ٠

وأما تلاميذ شيخ الإسلام كابن كثير والذهبي فإنهما يريان أن الشيخ عبد القادر من سادات المشايخ ٠ فالذهبي يقول فيه : (ليس في كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبد القادر ، لكن كثيرا منها لا يصح ، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة) ، ويختتم ترجمته له بقوله : (وفي الجملة الشيخ عبد القادر كبير الشأن ، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه ، والله الموعد ، وبعض ذلك مكذوب عليه) (٢)٠

ويقول ابن كثير فيه : (وله أحوال صالحة ومكاشفات أكثرها مغالاة وقد كان صالحا ورعا ٠٠٠ وبالجملة كان في سادات المشايخ) (٣) ٠

والغلو مذموم شرعا وعقلا وذوقا ، ويكفينا هذا من نقل كلام أهل الإنصاف في بيان حال الشيخ عبد القادر عقيدة وسلوكا ٠ وبهذا نختم هذا الفصل الذي خصصناه لترجمة الشيخ عبد القادر وما يرتبط بذلك من عقيدته وطريقته المنسوبة إليه والتي منها القادرية في موريتانيا حيث نصل الكلام عنه بالكلام عنها في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى ٠

---

(١) مجموع الفتاوي جـ ١٠ ـ ص ٤٥٥ - ٥١٦ ٠

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٥٠ ٠

(٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ ص ٢٥٢

الفصل الثاني

الفصل الثاني

نشأة القادرية في موريتانيا

وفيه : مدخل عام ومبحثين

المدخل العام ويشتمل على المقاصد التالية

المقصد الأول : التعريف بموريتانيا ·

المقصد الثاني : دخول الإسلام إلى موريتانيا ·

المقصد الثالث : العقيدة في موريتانيا قبل دخول القادرية ·

المقصد الرابع : العقيدة في موريتانيا بعد دخول القادريه ·

المبحث الأول : دخول القادرية إلى موريتانيا ومراكزها الأولى ·

المبحث الثاني : الطرق الصوفية الأخرى في موريتانيا وصلتها بالقادرية ·

المدخل العام

المقصد الأول : التعريف ببلاد موريتانيا

لم يكن هذا الاسم معروفا في المغرب العربي كعلم على منطقة معينة لها حدود جغرافية وسكان معروفون منذ دخل الإسلام إلى هذه البلاد المغربية حتى قام الاستعمار الفرنسي بتطويق بلاد المغرب عموما ، وكانت بلاد (موريتانيا) آخر بلد يحاول احتلاله في المنطقة ، ومهد لاحتلاله بأن بعث بخبرائه إلى البلاد المذكورة وكلف كل واحد ممن أرسلهم إليها بكتابة تقارير عن أحوال الناس وعاداتهم وأجناسهم وأعمالهم إلى غير ذلك مما تعرف به المنطقة وسكانها وقد وردت أسماء بعض البلاد والمناطق في تقاريرهم مسماه باسمائها عند أهلها المقيمين فيها أو مضافة إلى من يسكنها من القبائل (١) .

وكان المكلف من هؤلاء الخبراء والرحالين يؤمر من قبل وزارة المستعمرات الفرنسية باجتياز جنوب الصحراء الكبرى بين المغرب الأقصى (والسينغال) (٢) ولم يرد فيها اسم (موريتانيا) .

والقبائل التي ورد ذكرها ضمن القبائل التي كان لها شأن في الاسلام لايعرف لها ولا لبلادها هذا الاسم (موريتانيا) .

وقد جاء في وصفهم ووصف بلادهم عند ابن خلدون : (الطبقة الثانية من صنهاجة وهم الملثمون ، وماكان لهم بالمغرب من الملك والدولة : - هذه الطبقة من

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ، تأليف : لوثروب أستورد الآمريكى ، نقله إلى العربية : الأستاذ عجاج نويهض مع تعليق الأمير شكيب أرسلان ، دار الفكر ط ٤ المجلد الثانى ، جـ ٣ ص ٥١ ومابعدها .

(٢) وبلاد سينغال مأخوذ اسمها من نهر السنغال ، والنهر منسوب إلى صنهاجة ، أنظر كلام ابن خلدون بعد هذا الرقم فوق لتعرف مالحق بالكلمة المنسوب إليها من تحريف - وأنظر المصدر السابق جـ ٣ ص ٥١ - ٥٢ .

صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب أبعدوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لايعرف أولها ...) وبعد الإسلام : (اتصل بنيانهم على بلاد السودان إلى المشرق) (١) .

قال : (وأما ذكر نسبهم فإنهم من ولد صنهاج وهو صناك بالصاد المشمة بالزاي والكاف القريبة من الجيم إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج) ثم ذكر أنسابهم وأنها راجعة إلى حمير ثم قال : (وكانت مواطنهم مابين المغرب الأوسط وإفريقية) (٢) .

وقد عرفت هذه البلاد بعد الإسلام بالمغرب الأقصى أو الغرب أو أهل الصحراء الغربية وحدود إطلاق هذه الأسماء من سجلماسة وأغمات إلى أعماق أرض السودان (٣) ثم عبر العصور عرفت البلاد أوجهات منها بأسماء متعددة من أشهرها (شنقيط) وتفسيرها عيون الخيل وهو في الأصل علم مدينة ثم أطلق على سائر البلاد. وقد تكلم الأديب أحمد بن الأمين الشنقيطي على مغربية شنقيط وكتابة لفظها وموقعها الجغرافي وما يتبعها وما يحيط بها من البلاد التي سميت باسمها حتى عرف الكل باسم البعض . وإنما ذلك لما عرفت به في القرون الماضية من انطلاق ركب الحجاج منها كل عام وما اشتهرت به من العلماء

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، كتاب العبر ، وديوان المبيدإ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ط مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت ، سنة ١٣٩٩هـ ، جـ ٦ ص ١٨١و١٩٨ .

(٢) نفسه جـ ٦ ص ١٥٢ .

(٣) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تأليف : ابن عذارى المراكشي ، دار الثقافة - بيروت تحقيق ومراجعة الدكتور/ إحسان عباس ، ط ٣ سنة ١٩٨٣ م جـ ٤ ص١٢ - ٣٠ . وقيام دولة المرابطين تأليف : الدكتور حسن أحمد محمود ، دار الفكر العربى ص ٤٤ ومابعدها .

الأجلاء والمكتبات العامرة (١) .

ومنها : بلاد التكرور : وهي منسوبة عند ابن خلدون إلى أمة من أمم السودان (٢) وهي عند الطالب محمد البرتلي الولاتي تعتبر إقليما له حدوده المعروفة ، ويفهم من ذلك أنه لايعمم إطلاقه على البلاد كلها ولا ينسبه لقبيلة أو أمة معينة بعد الإسلام وقال : (والتكرور إقليم واسع ممتد شرقا إلى (إدغاغ) ، ومغربا إلى (بحريني زناقية) ، وجنوبا إلى (بيط) ، وشمالا إلى (آدرار) (٣) .

وكانت تعرف بعض مناطقها باسم أصحاب النفوذ فيها ، وربما سماها بعض المؤلفين اخذا من المحيط والبيئة بأسماء أخرى لاتعرف بها خارج حدودها (٤) .

وقد استخدم المستعمر الفرنسي هذه الأسماء التي وجدها فترة من الزمن ، ثم ظهر له أن بعض الأسماء اشتهرت في الإسلام وعرفت خارج البلاد بالعلم والشعر والاتصال بالمقدسات الإسلامية لانطلاق الحجاج منها مثل (شنقيط) (وولاته) (وتنبيكتو) فيما بعد ، وهذه أسماء تدل على الخير ولا يحبها المستعمر ، وبقية الأسماء قد تصدق على مناطق محددة أو تكون منسوبة إلى زعامات محلية أو تكون دالة على عروبة أو جنس أبيض وهذه أمور كلها لايرغب المستعمر في استعمالها لقصورها على المحلية أو الشخصية أو غير ذلك مما له دلالة خاصة .

---

(١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، تأليف : أحمد بن الأمين الشنقيطي ، بعناية فؤاد سيد ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ومؤسسة منير في موريتانيا ط ٤ سنة ١٤٠٩ هـ وطبعة المدني ص ٤٢٢ ومابعدها .

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص٢٠٠

(٣) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، تأليف : الطالب محمد بن أبي بكر الصديق بن عبدالله بن محمد بن الطالب علي بنان البرتلي الولاتي المالكي الأشعري اعتقادا . تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ، ومحمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ط ١سنة ١٩٨١م ص ٢٦ .

(٤) تاريخ إدوعيش ومشظوف تأليف : الشيخ سيديا مخطوط خاص ص ٢ ومابعدها .

لذا أخذ يبحث عن الجاهليات التي مرت بالبلاد في جاهليتها فوجد أن المملكة الرومانية كان نفوذها واصلا إلى بعض المناطق المغربية فبادر بإصدار أمر يحدد فيه اسما وحيدا للبلاد التي احتلها وهو : (موريتانيا) وهذه الكلمة مؤلفة من (مور) وتعني في الاسبانية (الأسمر) (وتان) وتعني في اللاتينية : بلاد أو أرض • فيكون الاسم كاملا معناه : (أرض السمر أو بلاد السمر) (١)

وبعث هذا الاسم الروماني الجاهلي وإطلاقه على بلاد مسلمة بكاملها مستغرب وساذج ولم يؤد الغرض منه ، والذي من أبرزه الايحاء للناس بأن هذه البلاد كانت لها حضارة رومانية جاهلية وقد نبش المستعمر مثل هذه الحضارات والقوميات في بلاد كثيرة من بلاد المسلمين •

ومن أهداف هذا الاسم التجهيل والتعمية على الأسماء المعروفة في الإسلام وفي كتب المسلمين والتعمية كذلك على السكان حتى لايعرف عنهم إلا أنهم (أناس سمر) أو أن هذه البلاد هي بلاد السمر ، فلا يستفاد من هذا الاسم عند الإطلاق شيء له معنى إلا أنه لفظ روماني جاهلي •

ولذا تفطن الواضعون لشعار الدولة عند الاستقلال فأضافوا إلى هذا الاسم وصفا مباركا وهو الإسلام فقالوا : الجمهورية الإسلامية الموريتانية • وقد شاع هذا الاسم بين الناس وعرف المراد منه وأنه أطلق على بلاد إسلامية بكاملها •

فلاشتهاره وارتباط الإسلام به عند الناس سواء قدم عليه أو أخر - موريتانيا الإسلامية - جمهورية موريتانيا الإسلامية - الجمهورية الإسلامية الموريتانية - اخترته في عنـوان رسالتي لهذه الأسباب ولأن بحثي في العقيدة والتصوف والغالب أن الشيـوخ في هذه البلاد هم الذين صدروهما للبلاد المجاورة لها على ماسيتضح إن شاء الله تعـالى •

---

(١) بلاد شنقيط ، المنارة والرباط ، تأليف : الخليل النحوي ، تونس ١٩٨٧ م ص ١٨ - ٢٦ •

المقصد الثاني : دخول الاسلام إلى بلاد موريتانيا

دخل الإسلام إلى بلاد صنهاجة سنة ٦٣هـ على يد القائد الفاتح عقبة بن نافع الفهري ، في آخر فتوحاته هناك ، حيث جال في بلاد المغرب ثلاثة أعوام يجاهد في سبيل الله تعالى (١) ٠

قال الحافظ بن عبد البر : (فتح عقبة عامة بلاد البربر حتى فتح كورة من كور السودان) (٢) ٠

وقال ابن عذارى المراكشي : (إنه فتح بلاد السوس الأقصى وبنى مسجدا هناك، وعاد عن طريق بلاد (دكالة وهسكورة) (٣) إلى موضع يقال له (أطار) (٤) ٠

و(أطار الآن مدينة عظيمة في شمال القطر الموريتاني ، تقع في الجنوب الغربي من مدينة شنقيط (٥) ٠

ويؤيد الشيخ سيدي محمد الكنتي في الغلاوية وصول عقبة بن نافع إلى تلك البلاد حتى إنه بني مسجدا في (بسير) المدعوة الأن (بولاتة) ، وأنه واصل فتحه لقطر التكرورحتي وصل (صقع فور) الذي كان فيه يومئذ الأوربيون الذين منهم كسيلة الغادر بالفاتح عقبة سنة ٦٣ هـ (٦) ٠

---

(١) البيان المغرب ، مصدر سابق جـ ١ص ٢٧ و ٣٠ ٠

(٢) نقلا عن المصدر السابق ص ٢٨ ٠

(٣) قبائل من البربر المرجع السابق ٠

(٤) نفسه ص ٢٨ ٠

(٥) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص٤٣٤ ٠

(٦) الغلاوية ، تأليف : الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي الأزوادي ، وهي في الأصل رسالة موجهة إلى عامة المؤمنين ٠ وبالأخص الأخوين الغلاويين - ولم يسمهما - الرسالة الغلاوية مخطوط خاص يقع في ٢٣٩ صفحة متوسطة ٠ ص ٦٢ - ٦٣ ٠

ولعل المراد بـ (سير) الواردة في رواية الشيخ سيدي محمد الكنتي (آيير) القرية من شنقيط (١) نبهت على هذا الاحتمال لغرابة في رواية الشيخ سيدي محمد ، ولموافقة هذا الاحتمال لنصوص المؤرخين التي تذكر أن عقبة مر في عودته من السوس الأقصى ببلاد القبائل البربرية التي عرف أنها تسكن في هذه الناحية من البلاد . والله أعلم .

ووصول الإسلام ووقوع الجهاد من أجل نشره في هذه البلاد وبناء المساجد فيها يدل على أنه أصبح له قدم فيها ، وإن لم يستقر نهائيا إلا بعد ذلك ، حيث فتحت الطريق أمام التجار والدعاة لنشر الإسلام ، وتتابعت الغزوات بعد ذلك حتى قامت دولة الملثمين المتحدة على أساس من العقيدة الإسلامية وأواصر القربى ، وقد أفاض المؤرخون في وصف ماكان لهذه الدولة من قوة وجهاد حتى تفرقت كلمتهم وذهبت ريحهم سنة ٣٠٦ هـ تقريبا (٢) .

وظل الإسلام في تقدم وانتشار حتى استقر في غانة (٣) ولكن بقي مع ذلك أقوام على جاهليتهم وطوائف على وثنيتهم أو مجوسيتهم أو ماكانوا يدينون به من الديانات المحرفة والمنسوخة (٤) وكان أكثر الذين آمنوا ليس عندهم غير الشهادتين ، ولايعرفون من وظائف الإسلام سواهما (٥) .

ولما حج زعيم هذه القبائل يحيي بن إبراهيم الكدالي عام ٤٢٧ أو ٤٢٩ هـ وصفهم لأبي عمران الفاسي وصفا دقيقا حيث قال له : (إننا في الصحراء منقطعون لايصل إلينا إلا بعض التجار الجهال حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء وفينا أقوام

---

(١) يراجع الوسيط ص ٤٢٥ .

(٢) يرجع فيه إلى كتابي : حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، دار الفكر العربي ط ٣ ص٢٠٧-٢١١ وقيام دولة المرابطين مصدر سابق ص ٣٩ - ٧٤ و ١٠٧ .

(٣) الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، مصدر سابق ، ص ٢١١ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ وترتيب المدارك للقاضي عياض ج ٨ ص ٨١ .

(٥) يرجع فيه إلى ترتيب المدارك ج ٨ ص ٨١ ومابعدها .

يحرصون على تعلم القرآن وطلب العلم ويرغبون في الفقه والدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلا) (١) .

فهذا الزعيم الذي وصف بأنه حريص على التعلم صحيح النية والعقيدة جاهل بمايصلح دينه (٢) يصف قومه بعموم الجهل عليهم وحبهم للخير ويطلب لهم معلما .

وحج هذا الزعيم ورفقته إلى بيت الله الحرام من تلك الصحراء القاحلة من العلم وطلبه لمعلم يعلم قومه القرآن والفقه والدين ويطلبون عنده العلم ووصفه لهم بأنهم حريصون على ذلك كل ذلك دال على تمكن الإسلام في نفوس الكثيرين منهم ولو أن الذين زرعوا فيهم ماعندهم من الدين تجار جهال .

ويكفينا من هذا المقصد أن وضح لنا دخول الإسلام إلى تلك الديار والتطلع الجاد إلى معرفة عقيدة التوحيد خالصة من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والتفقه في دين الله وهذا ماسنحاول بيان مساره في المقصد الآتي إن شاء الله .

---

(١) قيام دولة المرابطين ، مصدر سابق ص١٠٧ ويقارن بما في البيان المغرب جـ ٤ ص ٧ - ٨

(٢) الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ، تأليف : الفرد بل الفرنسي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، ط دار الغرب الإسلامي ص ٢٢٩ .

المقصد الثالث :

العقيدة في موريتانيا قبل دخول القادرية

كانت المرحلة السابقة مرحلة انتشار الإسلام الأولى التي لايبحث فيها إلاعن النطق بالشهادتين ومايترتب على ذلك من فرائض الإسلام كالصلاة والزكاة والحج والصوم ، وعرفنا من كلام القاضي عياض السابق ومن كلام زعيم (كداله) يحي بن إبرهيم أن حظهم من معرفة هذه الأركان كان ضئيلا لعدم من يعلم •

وواضح أن هذه المرحلة لايبحث فيها عن العقائد وعلم الكلام والجدل الذي كان مشهورا في الشرق وبعض المدن الأخرى •

وإنما يبحث عن هذه الأمور في المرحلة التي تليها وهي فترة قيام الدولة المرابطية وما صاحبها انطلاقا من طلب يحيي بن إبراهيم الكدالي من الفقيه أبي عمران الفاسي شيخ القيروان في ذلك الزمن أن يرسل معه من يثق بعلمه وديانته من طلبته إلى بلاده ليعلمهم أمور دينهم فوجه الشيخ أبو عمران الفاسي رسالة إلى تلميذه (وكاك) بن زلو اللمطي ببلد نفيس من بلاد المصامدة يطلب منه فيها أن يبعث مع يحيي بن إبراهيم الكدالى من طلبته من يثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ، ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في دين الله (١) •

وهذه رسالة وصفت المعلم المطلوب والمنهج المقترح ، ولايفهم من هذه الرسالة اقتراح تدريس مذهب معين في العقيدة أو غيرها •

---

(١) البيان المغرب جـ ٤ ص ٧ - ٨ •

ولكن لما كان هذا الفقيه الفاسى قد درس في العراق على الباقلاني (١) إمام الأشعرية في عصره وكان وكاك بن زلو اللمطي (٢) من طلبته في المغرب الذين درسوا عليه ماحصله في المشرق ، وكان عبد الله بن ياسين الذي وقع عليه الاختيار ليكون مدرسا ومعلما لهذه البلاد من طلبة •وجاج ومن المقيمين معه في داره التي بناها بالسوس للعلم والخيرأخذ بعض الكتاب من هذا أن الأشعرية وصلت إلى البلاد - موريتانيا - في وقت مبكر (٣) •

مستند هذا الحكم أن أبا عمران الفاسي كما يقولون : برع في علم الكلام والمناظرة وبث هذه التعاليم فيمن قصده من تلاميذ المغرب (٤) •

وهكذا جعلوا للأشعرية شبه سند متصل سلسلته في بلاد موريتانيا خاصة يمكن أن تذكر هكذا : عن عبد الله بن ياسين عن وجاج بن زلــو عـــن أبي عمـــران

---

(١) الباقلاني هو : القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ • وقد عرف بأنه سيف السنة ولسان الأمة ، المتكلم على لسان أهل الحديث وطريق أبي الحسن الأشعري • تراجع ترجمته في مقدمة تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل • تأليف : الباقلاني ، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر ، ط مؤسسة الكتب الثقافية ، ط ١ سنة ١٤٠٧ هـ ص ٩ وأما أبو عمران فهو : موسى بن عيسى أبن أبي حاج الفاسي أبو عمران • أصله من مدينة فاس ونزل القيروان ثم رحل إلى بغداد فحضر مجلس القاضي أبى بكر بن الطيب الباقلاني - راجع : التشوف إلى رجال التصوف ، وأخبار أبي العباس السبتي ، تأليف : أبي يعقوب يوسف بن يحيي التادلي عرف بابن الزيات (ت٦١٧ هـ) تحقيق : أحمد التوفيق ط ١ المغرب ١٤٠٤ هـ ص ٨٧ ومابعدها وتوفي أبو عمران سنة ٤٣٠ هـ •

(٢) هو : (وجاج أو وكاك بن زلو اللمطي ، من أهل السوس الأقصى ، رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران القاسي ثم عاد إلى السوس فبنى داراً سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن • راجع ترتيب المدارك جـ ٨ ص ٨١ والتشوف إلى رجال التصوف ص ٨٩ وتوفى سنة ٤٤٥ هـ نفسه هامش •

(٣) بلاد شنقيط المنارة والرباط ص ١٩٧ •

(٤) قيام دولة المرابطين ص ١١١

الفاسي عن الإمام الباقلاني عـــن أبى عبد الله بن مجاهد الطائي صاحب الأشعـــري (١) • وقد أيد هذا السند وأضاف إليه الدكتور علي سامي النشار في مقدمة تحقيقه لكتاب الإشارة في تدبير الإمارة للإمام أبي بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي القروي المتوفى سنه ٤٨٩ أو ٤٨٨ هـ في أزكي قرب مدينة أطار بالشمال الموريتاني •

قائلا إن المرادي هذا يحتمل أن يكون درس في أيام شبابه على أبي عمران الفاسي في القيروان حيث إنه منسوب إليها (القروي) (٢) •

والذي يهمنا في هذا السند هو العالمان الأخيران فيه وهما :

الإمام عبد الله بن ياسين • والإمام أبو بكر الحضرمي حيث إنهما اللذان أوصلا علما إلى هذه البلاد التي تتناولها الدراسة •

ولذا فلابد من النظر في دراستهما ، ومعرفة أثرهما في هذه البلاد المغربية من حيث العقيدة •

وذلك بالنظر إلى أن كلا منهما يحتمل أن يكون هو الذي أوصل الأشعرية إلى بلاد المغرب عموما وبلاد موريتانيا خصوصا • ومع أن هذا احتمال فقط فإننا سميناه سندا •

وسيتبين بالعرض والدراسة النقدية إن شاء الله تعالى هل يصلح أن يكون أحدهما أو كلاهما أصلا لسند صحيح تعتمد عليه الأشعرية وطريقتها في العقائد وعلم الكلام والجدل أم لا ؟

ومع أن سند كل منهما يتصل الباقلاني عن طريق الفاسي فإننا سندرس حياة كل منهما على حدة لنعرف مدى مصداقية الاحتمالين أو السندين •

---

(١) يراجع في ترجمه شذرات الذهب جـ ٣ ص ١٦٩ والأشعري هو الإمام علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق ابن سالم الأشعري من ذرية أبي موسى الصحابي رضي الله عنه • أبو الحسن المتوفى سنة ٣٢٤ هـ ببغداد • مقدمة تحقيق الابانة عن أصول الديانة ، لأبي الحسن الأشعري ، تحقيق الدكتورة فوقية حسين محمود ط ١ دار الأنصار ١٣٩٧ هـ ص٩ -٣٧ •

(٢) المصدر المذكور ط ١ الدار البيضاء ١٩٧٥ م المقدمة ص ٢٨ ومابعدها •

السند الأول: وهو سند عبد الله بن ياسين رحمه الله تعالى

التعريف بعبد الله بن ياسين : نسبه

هو عبد الله ين ياسين بن ومكو أو (مكوك) بن سير علي الجزولي التامانارتي (١) قال محمد المختار السوسي : (وقفت على نسبة ابن ياسين في عداد السملاليي ، والبيت الياسيني المنقرض في فاس إليه ينسب ٠) (٢)

وكانت تامانارت التي ينسب إليها قاعدة جزولة (٣) ويرجح الدكتور حسن أحمد محمود كون الامام عبد الله بن ياسين من كدالة ، وأن ذهابه مع يحيي بن إبراهيم الكدالي يؤيد ذلك حيث إن الأمر يكون أسهل عليه من غيره ، وأن تحريف الكدالي من الجزولى من السهل على النساخ وغير المحققين من الرواة (٤) وماقاله ليس بظاهر عندي لتواتر نسبته إلى جزولة في كثير من المراجع ومجرد احتمال التحريف لايغير شيئا وخصوصا في الأنساب الثابتة ٠

طلبه للعلم وجهوده في نشره :

قال القاضي عياض : (إنه كان أولاً من طلبة وجاج بن زلو اللمطي (٥) ٠

---

(١) المعسول ، تأليف : المختار السوسي جـ ٨ ص ٣٢٤ و ٤١٤ وهو في تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٢ (عبد الله ين ياسين بن بك الجزولي) ٠

(٢) نفسه جـ ٨ ص ٣٢٤ وذكرها في هامش ص ٤١٤ منه (أنه وقف للإمام عبد الله بن ياسين على سلسة نسبين في الأحكاكين والسملاليين ٠)

(٣) قيام دولة المرابطين ص ١٤٤ ويقارن بما في البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠ ٠

(٤) نفسه ص ١١٤ ٠

(٥) ترتيب المدارك جـ ٨ص ٨١ ٠

وهذا يدل على أنه ترك مسقط رأسه مبكرا في طلب العلم وما يذكره صاحب قيام دولة المرابطين من أنه فارقه في الرحلة إلى الأندلس حيث مكث فيها سبعة أعوام يطلب العلم ، وذلك في عهد ملوك الطوائف •

حوالي سنة ٤٠٠ هـ (١) وقد حصل هناك علما كثيرا حتى عده ابن بشكوال في كتابه الصلة ممن روي عنهم الحديث (٢) وعاد من الأندلس فقيها مشاركا في العلوم ، تنطبق عليه الأوصاف التى طلب الفقيه أبو عمران الفاسي في المعلم الذي يرسل مع يحيي بن إبراهيم الكدالي •

حيث يقول القاضى عياض عنه : (وكان موصوفا بعلم وخير) (٣) •

وقال ابن أبي زرع : (كان من حذاق الطلبة الأذكياء النبهاء والنبلاء من أهل الدين والفضل والتقى والفقه والأدب موصوفا بالورع وحسن التدبير والسياسة ، وشهامة النفس وسداد الرأي والحزم) (٤) •

ويبدو أن عبد الله بن ياسين بعد توجهه مع يحيي بن إبراهيم الكدالي إلى بلاده في أعماق الصحراء ظل ملتزما بما هو موصوف به عند هؤلاء المؤرخين ، وزاد عليه أنه التزم بالمنهج العلمي الذي رسم له في توجيهات الفاسي واللمطي •

وهكذا كانت سياسة الدعوة إلى الله في تلك البيئه تقتضي الاقتصار على التبليغ أولا وتدريس الضروري من علوم الدين ثانيا • ولذا فإنه لم ينقل أن الإمام عبد الله ابن ياسين اشتغل بتدريس غير القرآن الكريم والحديث الشريف ، والفقه ولو كان يعرف علوما أخرى غيرها •

---

(١) قيام دولة المرابطين ص ١١٦ •

(٢) نفسه •

(٣) ترتيب المدارك جـ ٨ ص ٨١ •

(٤) قيام دولة المرابطين ص١١٦ - ١١٧ ويقارن بما في : الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص ٢٣٠ •

قال القاضي عياض : (وسيرته في أموره هناك وتقريراته معروفة محفوظة يتأثر عليها مشيخة المرابطين ، ويحفظون من فتاويه وأجوبته ، مالايعدلون عنه) • (١)

ومن رباطه الذي كان مدرسة ومسجدا ونواة دولة خرج عبد الله شيوخ المرابطين وقد طبعهم بطابع الالتزام بالكتاب والسنة والجهاد في سبيل الله (ودخلوا في دعوته والتزموا السنة به) (٢) وسرت فيهم تعاليمه حتى آخر لحظة من دولتهم ، وبقيت عقيدتهم فيمن بقي من فقهائهم وكثير من القبائل السائرة على منهجهم (٣) •

(إن عبد الله بن ياسين لم يكن من علماء الكلام ، بل كان فقيها مالكيا لايدرس إلا القرآن والشريعة والعبادات) (٤) فعمله في الدعوة (أن يعلمهم القرآن ، ويقيم لهم الدين ••• حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة •••) (٥) •

وقد التزم المرابطون بما تعلموه من إمامهم الإمام عبد الله بن ياسين حتى كانت (لمتونه لاتقدم أحدا منهم للصلاة إلا من صلي خلف عبد الله بن ياسين) (٦) •

ومن تلاميذه المشهورين بالتزام منهجه في الدعوة والتدريس والجهاد :

سليمان بن عدو أو حرو الذي خلفه الإمام عبد الله بن ياسين عندما أحس بدنو أجله إثرجراح أصابته في أثناء معاركه مع البرغواطيين في أوائل سنة ٤٥١ هـ (٧) •

قال ابن خلدون : (وقد أم المرابطين بعد عبد الله ابن ياسين سليمان بن عدو ليرجعوا إليه في قضايا دينهم) وقد استشهد سليمان في قتال برغواطة في نفس السنة ٤٥١ هـ (٨) •

---

(١) ترتيب المدارك جـ ٨ ص ٨٢ •

(٢) البيان المغرب جـ ٤ ص ٩ •

(٣) يرجع فيه إلى كتاب : الإمام عبدالله بن ياسين ، تأليف : إبراهيم الجمل ص ٧٩ -٨٣ •

(٤) الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص ٢٣١ •

(٥) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٢ - ١٨٣ •

(٦ - ٧) البيان المغرب جـ ٤ ص ١٦ •

(٨) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٣ - ١٨٤ . ١٢٣ •

ومن تلاميذه : أيضا لمتاد بن نصير اللمتوني الذي يقول عنه القاضي عياض:

(كان من عبادهم وفقهائهم) (والمثل يضرب بفتياه في بلاد الصحراء ، وتعظيم أمرها إلى الآن) (١) ٠

ومن تلاميذه أيضا : أبو بكر بن عمر أمير الحق صاحب الفتوحات في بلاد المغرب والسودان ، المتوفى في صحراء موريتانيا سنه ٤٨٠ هـ (٢) ٠

ومن تلاميذه أيضا : أبو عمران بن عبد الملك المصمودي ٠ (٣) وميمون الصنهاجي الذي وصف بأنه كان محدثا راوية (٤) ٠

فهذا عبد الله بن ياسين وبعض نبهاء أصحابه وتلاميذه ولم ينقل عن أحد منهم مهما كان تبحره في العلوم الاشتغال بعلم الكلام والجدل ، أو بث العقائد الأشعرية وإذا تبين ذلك فإنني أغلب - وهذا ظن منى - أن الأمام عبد الله بن ياسين قد التقى في الأندلس بالإمام الحافظ ابن عبد البر وتأثر بعقيدته وفقهه ، المأخوذ من الكتاب والسنه وفقه أهل المدينة النبوية ٠

وهذا أمروارد وممكن جدا حيث إن الإمام عبد الله بن ياسين دخل الأندلس حوالى سنة ٤٠٠ هـ على ماتقدم في بيان طلبه للعلم ٠ وقد قامت فتنة البربر في نفس الأيام وأخذ كثير من العلماء في الخروج والتجوال في مدن الأندلس العامرة الأخرى ، وكان من بين هولاء العلماء ابن عبد البر الذي أخذ يتجول ولمدة عشر سنوات في مدن الأندلس يأخذ العلم ويؤخذ عنه حتى ألقى عصا التسيار في مدينة (دانية) من

---

(١) ترتيب المدارك جـ ٨ ص ٨٠ وهو فيه لمتاد بن بلين اللمتوني ، وهو في غيره : المتاد بن نصير اللمتوني ، أو لمتاد بن بلين المرابطي ٠ نفسه هامش ٠

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٤ ٠

(٣-٤) كتاب الامام عبد الله بن ياسين ، تأليف : إبراهيم الجمل ٠ (ذكرهما ولم نعثر على تاريخ وفاتهما) ص ١٦٠ ٠

بلاد الأندلس حوالي سنة ٤١٢ هـ (١) وكانت هذه السنوات التي قضاها هذا الحافظ في التجوال موافقة لدخول الإمام عبد الله بن ياسين إلى الأندلس لطلب العلم حيث مكث فيها سبعة أعوام (وحصل فيها على علوم كثيرة) (٢) ولم نجد تفصيلا لعلومه التي حصلها ولا لشيوخه الذين أخذها عنهم ولكن ذكره من بين المحدثين والقراء والفقهاء والمتمسكين بالسنة يدل على أنه كان جل علومه وعمله في هذا المجال وأنه مانال ذلك إلابصحبة جلة العلماء المشتغلين بهذه العلوم ونشرها دون المشتغلين بعلم الكلام المعروفين عندهم في ذلك الوقت بأهل الأهواء سواء كانوا أشاعرة أو غير أشاعرة (٣) ٠

فإذا كان احتمال أخذ الإمام عبد الله بن ياسين عن الحافظ بن عبد البر وتأثره به عقيدة وفقها وعملا واردا وراجحا لما تبين كان الاحتمال الآخر. وهو القول بأنه أدخل الأشعرية بالسند عن وجاج عن أبى عمران الفاسي إلى آخر السند المتقدم - كان مرجوحا لعدم مايدل عليه ويؤيده ٠

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ، تأليف : الحافظ ابن عبد البر ، تحقيق : محمد مرسى الخولى ، دار الكتب العلمية ، ط ١سنة ١٩٨١ م القاهرة ، جـ ١ ص ١٣٨ ٠

(٢) البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠ ٠

(٣) جامع بيان العلم وفضله جـ ٢ ص ٩٦ ٠

السند الثاني :

أما السند الثاني للأشعرية في البلاد فهو عن طريق الإمام القاضي أبي بكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي القروي ٠

نزل بأغمات وريكة (١) ثم تعرف عليه أبو بكر بن عمر أمير الحق اللمتوني مع جماعة من العلماء فحملهم معه إلى الصحراء فيمن دخل معه هناك للجهاد ، وولى المرادي القضاء والفتيا حيث إن المرادي كان إماما في علوم كثيرة ويدل على ذلك كتابه الذى وضعه للأمير المذكور أو لـــولده إبراهيم الذي تولى الأمر من بعده وهو : أبراهيم بن الأمير أبي بكر بن عمر لم تعرف أمه وكان أسود الجلد (٢) والكتاب المذكور هو: كتاب السياسة أو (الإشارة في تدبير الإمارة) ٠

وظل هذا الإمام مع الأمير المذكور حتى مات سنه ٤٦٨ هـ بسبب سهم أصابه في الجهاد ضد الوثنية المنتشرة في السودان آن ذاك (٣) ثم بقي هذا الإمام مع الأمير إبراهيم الذي خلف والده على حكم البلاد المفتوحة التي تبدأ من سجلماسة إلى أعماق الصحراء وما حول ذلك (٤) إلى أن استشهد هذا الإمام على أيدي اليهود في إحدى المعارك الفاصلة معهم قرب مدينة أطار ، عند أزكي أوأزقي أو أزكي (٥) ٠

---

(١) أغمات مدينة من مدن الصحراء منسوبة إلى إحدى قبائل المصامدة أسمها (وريكة ٠) ، راجع التشوف ص ٨٤ ٠

(٢) يرجع فيه إلى البيان المغربي جـ ٤ ص ١٧ - ٢١ ٠

(٣) نفسه جـ ٤ ص ١٧ - ٢١ ٠

(٤) يرجع في هذا إلى : الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص ١٣٥ - ١٣٦ ٠

(٥) وردت هذه الأسماء لمكان واحد ففي البيان المغرب جـ ٤ ص ١٤ أن أزكى حصن في جبل لمتونة حوله نحو من عشرين ألف نخلة ٠ وفي كتاب قيام دولة المرابطين ص٦٢ أزقي من بلاد مسوفة ولمطة وهي أول مراقى الصحراء ومنها إلى سجلماسة ١٣ مرحلة ومنها إلى تول ٧ مراحل ، وفيه ص ٤٥ أركى مدينة تقع على سبعه أيام من وادى نون ٠ قلت : يعرف مكان قبر الإمام الحضرمي الآن بأزوقي وهو قريب من مدينة أطار ذات الواحات الكبرى في شمال موريتانيا ٠

طلبه للعلم

لم نقف على من ذكر لهذا الامام شيوخا إلا أن نسبته إلى القيروان تؤكد أنه درس العلم على علمائها · ويحتمل كما يرى النشار (١) أنه درس في شبابه على الفقيه أبي عمران الفاسي ، وأنه دخل الأندلس وهي حاضرة العلم آن ذاك ، ثم رحل إلى المغرب الأقصى وتردد بينه وبين الأندلس · وصار له تلامذة نابهون نقلوا عنه بالأسانيد علوما كثيرة من بينها العقيدة (٢) · يقول التادلي : (وكان المرادي أول من أدخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى فنزل بأغمات وريكة ، فلما توجه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء حمله وولاه القضاء فمات بأزكى (٣) من صحراء المغرب سنه تسع وثمانين وأربعمائة فخلفه أبو الحجاج (٤) في علوم الاعتقادات ، وكان آخر أئمة المغرب فيما أخذه عن شيخه المرادي) (٥) ·

وأبو الحجاج المذكور هو : يوسف بن موسى الكلبي ، المتكلم النحوي أبو الحجاج الضرير المتوفى سنة ٥٢٠ هـ بمراكش · كان غلب عليه الزهد في الدنيا وأهلها ، وكان لباسه الخشن من الصوف ، وكان يختلف من مراكش إلى أغمات ، قال عنه القاضي عياض :(كان من المشتغلين بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونظار أهل

---

(١) أنظر كتاب السياسة ، مصدر سابق ، المقدمة ص ٣٠ - ٣١

(٢) يرجع فيه إ لى أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تأليف : شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارت جـ ٣ ص ١٦١ - ١٦٢ ·

(٣) تقدم التعريف بأزكى وقد أضاف محقق كتاب التسوق في الهامش ص ١٠٦ : (ونطقها أزكي بجيم مصرية بين ضم وكسر ، ومعناه : إناء الفخار أو شقفه ·) وراجع الروض المعطار للحميري ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط بيروت ١٩٧٥ م ·

(٤) أنظر ترجمته في الغنية ، فهرست شيوخ القاضي عياض ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم ، دار العربية للكتاب ، ليبيا - وتونس ط ١٣٩٨ هـ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ·

(٥) التشوف إلى رجال التصوف ص ١٠٥ - ١٠٦ ·

السنة ، وقرأت عليه أرجوزته (الصغرى) التي ألف في الاعتقاد ، وحدثني (بالكبرى) ، وبكتاب شيخه المرادي (التحرير أو التجريد) وكان آخر المشتغلين بعلم الكلام بالمغرب) (١) • ويظهر من كلام الباحثين أن هذه الكتب المذكورة هنا مفقودة كما قال النشار : (ولعل الابحاث العلمية تكشف لنا عن كتبه) (٢) يعني المرادي قلت : ومما يضعف هذا السند أنه مبني على احتمال أخذ الحضرمي عن أبي عمران الفاسي وهو مجرد احتمال لا دليل عليه • وأما كونه معدودا في علماء الكلام وله فيه مؤلفات فغير مانع من أن يكون قد أنخرط في سلك المرابطين وحاول السير في منهج ابن ياسين كما قال صاحب الذخيرة : (ثم كر إلى أمراء المرابطين بالمغرب فانخرط في أسلاكهم ••• وإنما أراد أن يسلك في حمل دول المرابطين مسلك عبد الله بن ياسين) • (٣) وبهذا يعلم أنه لايمكن الاعتماد على هذين الإسنادين في الحكم بدخول الأشعرية إلى بلاد موريتانيا أيام دولة المرابطين •

وقد جزم القاضي عياض بأن شيخه أبا الحجاج (كان آخر المشتغلين بعلم الكلام في المغرب) وهو بهذا يشير إلى ماعرف وصدر عن الدولة المرابطية من التشدد ضد علم الكلام وأهله ، حيث إن تاريخ وفاة أبي الحجاج الضرير سنة ٥٢٠ هـ •

وقد سبق هذا إحراق الفقهاء في المغرب والأندلس لكتاب إحياء علوم الدين للغزالي ، وصدور الفتاوى والأوامر السلطانية بالتحذير من علم الكلام وأهله (٤)

النزاع العقدي بين المرابطين والموحدين :

كان المهدي بن تومرت (٥) قد تجول في بلاد المغرب ودخل أغمات وريكة بعد مناظرة بعض الفقهاء في مراكش بين يدي علي بن يوسف بن تاشفين ، وبدأ في دعوته لمذهب الأشعرية والعقائد الكلامية (٦) •

(١) الغنية ص ٢٨٢ - ٢٨٣ •

(٢) كتاب السياسة للمرادي ، مصدر سابق ص ٢٣ والغنية للقاضي عياض ، مصدر سابق ص ٢٨٢ - ٢٨٣ •

(٣) الذخيرة لابن بسام ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٣٦٤ •

(٤) التشـــوف ص ٩٦ •

(٥) هو محمد بن عبد الله بن وجيله ابن بامصال المتوفى سنة ٥٢٢ هـ أو ٥٢٤ هـ أو ٥٢٥ هـ صاحب - انظر اختلاف المؤرخين في نسبه في تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ •

(٦) يراجع فيه تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٨ • وشجرة النور الزكية جـ ١ ص ١٤٠ •

يقول ابن خلدون واصفا حال المهدي بن تومرت ، ومبينا ماكان عليه أهل المغرب من اعتقاد السلف وحماية الدولة المرابطة لهذه العقيدة :

(وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذعنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفيـة والذب عنها بالحجج العقلية الدامغة في صدر أهل البدعة ، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث ، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وامرار المتشابهات كما جاءت) (١) .

وكان ابن تومرت بدأدعوته هذه قبل سنة خمسة عشر وخمسمائة حيث اتهم المرابطين بالتجسيم وكفرهم (وأنكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في إمرار المتشابه كما جاء ويرى أن الجمهور لقنوه - (كذا ولعلها لقبوه) تجسيما ويذهب إلى تكفيرهم بذلك على أحد قولي الأشعرية في التكفير) (٢) قلت : ولعله يريد بأحد قولي الأشعرية في التكفير أن لازم المذهب يعتبر مذهبا فيكفر معتقد كون البارى جل وعلا جسما ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (٣) . ولايخفى أن هذا القول لاأصل لنسبته للسلف ، ولاينسبهم إلى القول به إلا مبتدع معطل لأنهم أثبتوا ما أثبته القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من صفات الباري جل جلاله .

فابن تومرت عند ابن خلدون وغيره هو الذي حمل الناس في المغرب على القول بالتأويل ، والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم ، وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد (٤) .

وقد رد شيخ الإسلام بن تيمية على كتاب المرشدة المذكور وشرح مافيه كلمة كلمة وبين ما فيه من صواب وخطأ ولفظ مجمل ، ولما سئل عنها وعن أصلها وهل تجوز قراءتها ؟ أجاب بما يتضح به حال صاحب المرشدة .

---

(١) تاريخ أبن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٧ .

(٢) نفس المرجع جـ ٦ ص ٢٢٦ .

(٣) يرجع في بيان قولي الأشعرية إلى فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم ، تأليف إبن محمد حبيب الله ابن مأيا ، دار الفكرسنة ١٤٠١ هـ جـ ٤ ص ٣٢٦ ومابعدها . وجـ ٥ منه ص ١٩٠ ومابعدها .

(٤) يراجع تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٦ .

وأنه تعلم طرفا من العلم ، وكان فيه طرف من الزهد والعبادة ، وأنه أرتكب في سبيل نشر دعوته أمورا عظيمة في هدر الدماء والحيل والمخرقة الظاهرة ·

وأن المرشدة اشتملت على عقائد الرافضة القرامطة الباطنية ، والجهمية الاتحادية والمتفلسفة والشيعة (١) (فلم يذكر في مرشدته الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث والفقة والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الائمة الأربعة وغيرهم ···) (٢) · فلم ينسبه ابن تيمية إلى الأشعرية ، خلافا لما سبق نقله عن ابن خلدون وغيره ·

وقد كانت للدولة المرابطية مع ابن تومرت مواقف جليلة لحماية الناس من عقائده، وحماية عقيدة السلف في المجتمع المغربى حيث أحر قواكتب الغزالي وحاكموا من يحمل الناس على قرائتها أو يرغب في مطالعتها ، وناظروا ابن تومرت في محيط المعتقد الصحيح المستمد من الكتاب والسنة ، ولم يستطع الإفلات إلا بالحيل والمخرقة وإثارة المطاعن البعيدة التي أخذها معه من المشرق حيث كان الصراع بين أهل البدع وأهل السنة (٣) ·

يقول المراكشي في وصفه لما كان عليه أهل المغرب في عهد الدولة المرابطية من التزام عقيدة السلف : (دان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين ربما أدى كثيره إلى اختلال في العقائد) (٤)

وقد قرر المراكشي هذه الأوصاف لأهل ذلك العصر في أماكن من كتابه معتبرا هذا هو مذهب السلف في علم الكلام وأهله (٥) ·

---

(١) يراجع مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٤٧٦ ومابعدها ·

(٢) نفس المرجع جـ ١١ ص ٤٨٥ ·

(٣) يرجع فيه إلى المرجع السابق والتشوف ص ٩٦ و ١١٨ والفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص ٣٨٠ ومابعدها ·

(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تأليف: عبد الواحد المراكشي، تحقيق ، محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب الدار البيضاء ط٧ سنة ١٩٧٨ م ص٢٦٤ ·

(٥) نفس المرجع ص ٢٦٤ - ٢٦٥ و ٢٧٠ ·

هذه شهادات علماء المغرب على ماكان عليه المرابطون من التزام عقيدة السلف والتنفير من عقائد علم الكلام ٠

وأكد ذلك من علماء المشرق غير واحد منهم شيخ الإسلام ابن تيمية حيث وصف منهجهم في العلم والإعتقاد وصور منهج المتكلمين من أمثال ابن تومرت المخاصم ان ذاك للمرابطين والمتهم لهم ، بالجمود والتجسيم وغير ذلك من الدعاوي والدعاية المغرضة فيقول شيخ الأسلام ابن تيمية : (واستحل - يعني ابن تومرت - دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية ، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب الإمام مالك وأهل المدينة ، يقرؤون القرآن والحديث كالصحيحين والموطإ وغير ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة ، فزعم أنهم مشبهة مجسمة ، ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولايعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم) (١) ٠

ولايعكر على سلفية المرابطين وجود بعض الراحلين إلى المشرق أو الآخذين منهم طريقة أبي الحسن الأشعري في مناصب عالية في الدولة مثل ابن رشد الجد المتوفى سنة ٥٢٠ هـ أي سنة وفاة أبي الحجاج الضرير المتكلم الذي تقدمت ترجمته ، والقاضي أبي الوليد الباجي المتوفى سنة ٤٧٤ هـ والقاضي أبي بكر بن العربي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ وابن رشد الحفيد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ وأبي عمرو عثمان ابن عبد الله السلالجي الأصولي الموصوف بأنه إمام أهل المغرب في علم الإعتقاد المتوفى سنة ٥٦٤ هـ (٢) ٠

فهؤلاء وغيرهم من المتبحرين في علوم كثيرة منها علم الكلام لايؤثر وجودهم ضمن علماء وفقهاء الدولة المرابطية يحملون علوم الجدل وآداب المناظرات ، ويستخدمونها عند الضرورة لقمع من يحملها أو يدعو إليها علما أن من هؤلاء من صرح باختياره واعتقاده مذهب السلف كابن رشد الجد ٠ (٣)

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٤٧٨ ٠

(٢) التشوف ص ١٩٨ ٠

(٣) المقدمات جـ ١ ص ١٠ ٠

ولكن الدكتور علي سامي النشار يرى أن وجودهم في مراكز السلطة أيام الدولة المرابطية دال على انتشار المذهب الأشعري وازدهاره في المغرب وعدم محاربة الدولة المرابطية له (١) •

وإطلاق هذا الكلام يخالف ماعرف عن الدولة المرابطية من تبديع أصحاب الكلام والتحذير منهم على العموم وهذا ماقدمنا فيه نصوصا كافية في تقريره ، ولكن لعل هؤلاء العلماء لم يظهر عليهم شيء من علم الكلام الذي تقصده الدولة المرابطية ويرى فقهاؤها أن حامله يهجر أو يكفر أو يبدع ، إما لأنهم لايدعون إليه ولا ينشرونه وإن ذكروه فإنما على سبيل النقد له أو النقل لكلام القائلين به ، وعلى كل فمذهب هؤلاء في الاعتقاد وعلم الكلام يختلف عما جاء به ابن تومرت مهدي الموحدين حيث إن مذهبهم قد يوصف بما وصف به شيخ الأسلام ابن تيمية مذهب الأشعرية (بأن غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنه والجماعة ، لكنه مقصر عن ذلك ، ومتضمن ترك بعض ماكانوا عليه ، وزيادة تخالف ماكانوا عليه) (٢) •

أما ابن تومرت ومن تابعه في بلاد المغرب فإن كثيرا من أهل العلم حاربو ه بوسائل شتى ووقفوا في وجه ماأدخله من عقائد غريبة رغم سفكه هو وخلفائه للدماء فمنهم من ألف في بيان مايناقض بعض الدعاوي المهدوية ، ومنهم من ألف في وصف حياة السلف وماكانوا عليه من الاعتقاد الصحيح والسلوك القويم ، ومنهم من خرج وقاد الناس ضد الموحدين ودعوتهم حتى بعد تغلبهم على السلطة الشرعية •

ومن المحاربين لما جاء به مهدي الموحدين ابن تومرت من المعتقدات المختلفة القاضي عياض حيث ألف كتاب ترتيب المدارك مبينا فيه فضائل علماء مذهب الإمام

---

(١) يرجع إلى مقدمة كتاب السياسة ٢٨ ومابعدها •

(٢) كتاب الأستقامة جـ ١ ص ٨١ - ٨٢ •

مالك الذي حاربه الموحدون ، وألف كتابه الشفا ردا ضمنيا على معتقدات وادعاءات الموحدين المهدية والعصمة للإمامهم ، ووضح أن كثيرامن تلك المعتقدات يفضي بمعتقده إلى الزندقة وخرج على الموحدين يقود ثورة أهل سبتة .

ولذا تخلص منه عبد المؤمن الموحدي شنقا سنة ٥٤٤ هـ (١) .

ولم يكن موقف القاضي عياض هذا دفاعا عن المالكية فقط أو الأشعرية وانما كان دفاعا عن عقيدة الإمام مالك نفسه السلفية التي كان أهل المغرب يتمسكون بها ويزودون عنها هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن القاضي عياضا من المحدثين الناشرين للعلم المأخوذ من الكتاب والسنة وإذا به يجد طلابه وأصحابه يدعون إلى الإيمان بعقائد ملفقة كما تقدم عن شيخ الإسلام ابن تيمية وكما انتهى إليه الدكتور النشار حيث يقول : (ولم يكن ماأدخله ابن تومرت مذهبا أشعريا خالصا بل كان مذهبا موفقا بين مختلف المذاهب) (٢) وهذا مايستخلص من كتب الموحدين أنفسهم وكتب المؤرخين في عهدهم (٣) وهكذا رأى القاضي عياض أن الوضع العقدي في المغرب أخذ يهوي إلى جانب الأنحراف عن منهج السلف أهل السنة والجماعة فألف للأطفال كتابا سماه : الإعلام بحدود قواعد الإسلام (٤) شرح فيه باختصار شديد قواعد الإسلام وكأنه يرد به على ابن تومرت في مرشدته التي أخذ يلقنها للأطفال والجهال (٥) .

---

(١) ترتيب المدارك مقدمة المحقق جـ ١ ص ١٣ ومابعدها .

(٢) كتاب السياسة ، المقدمة ص ٢٨ .

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٢٦٥ -٢٦٦ و٢٧٥ وقيام دولة المرابطين ص ١٧٧-١٨٤

(٤) طبع بتحقيق محمد بن تاويت الطنجي في المطبعة الملكية الرباط ١٣٨٨ هـ ط٢ انظر مقدمة المحقق .

(٥) الإعلام بحدود قواعد الإسلام ط ٢ ص ٥ ومابعدها . وحركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تأليف : روجى لي تورنو ، ترجمة الدكتور أمين الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٨٢ م ص ٢٦ .

والقاضي عياض إذ يقف هذه المواقف دفاعا عن عقيدة الامام مالك التي كانت عليها الدولة المرابطية يعتبر أن آخر المشتغلين بعلم الكلام في المغرب هو شيخه أبو الحجاج الضرير كما تقدم وهو بهذا التعبير ينفي عن نفسه الاشتغال بعلم الكلام ويصنف نفسه ضمن فقهاء وعلماء ومحدثي الدولة المرابطية السلفية ٠

وعن القاضي عياض الآخذ علوم الاعتقاد عن أبي الحجاج الضرير عن الإمام أبي بكر بن الحسن المرادي المرابطي أخذ أعلام من موريتانيا (الشطر الجنوبي لدولة المرابطين) وأسسوا المدارس وأدخلوا الكتب المؤلفة في عهد الدولة المرابطية وخصوصا كتب القاضي عياض ومن على شاكلته ٠

فمن الآخذين عن القاضي عياض المؤسسين للمدارس : الشريف عبد المؤمن التشيتي ، مؤسس مدينة تشيت ومدرستها سنة ٥٤٤ هـ والحاج عثمان الوداني الذي أسس مدينة ودان ومدرستها في حدود سنة ٥٣٦ هـ ثم التحق بزميله في الدراسة المذكور قبله ٠

وبعدهما تتابع إنشاء المدارس في المدن والقرى والأرياف والبوادي على أيدي أحفاد المرابطين فأنشئت مدينة شنقيط التي عرف بها القطر ، واشتهر من علمائها في المشرق والمغرب عدد كثير ، وكانت مدرستها معروفة في حدود سنة ٦٦٠ هـ ٠

وكانت الشهرة قبلها لتنيكي ومدارسها العامرة من بداية القرن الخامس منذ عهد قيام الدولة المرابطية ، ثم أنشئت مدارس أخرى في ولاتة وغيرها ٠

وكان اعتماد هذه المدارس في دراساتها على حفظ الكتاب والسنة ، والاشتغال بما تحته عمل كالكتب الفقهية ومايعرف به المكلف ما طلب منه من عبادات ومعاملات (١) ٠

فعقيدة المرابطين السلفية كانت انطلاقتها من بلاد موريتانيا حيث كان رباط المعلم الأول لتلك البلاد بعدما عرفنا ماكانوافيه من الجهل أو ربما الكفر حتى أنقذهم

---

(١) يرجع في هذا إلى الغلاوية ص ٥٨ - ٥٩ والوسيط ص ٤٢٤ - ٤٢٧ و ٤٣٠ و٤٣٣ و٤٥٩ وموسوعة ابن حامد - المختار أبن حامد الموسوعة الموريتانية ، جـ ١ ص ١٤ - ٣٨ ٠

الله منه بذلك المعلم المجدد عبد الله بن ياسين وانطلقت دولتهم من جزيرة (تيدرة) بين انواذيبو في الشمال الموريتاني وانواكشوط العاصمة الحالية وفتحوا البلاد في جميع الاتجاهات ، وكانت عقيدتهم سلفية كما رأينا وعقيدة خصومهم ملفقة كما علمنا .

ولكن الله من على هذه البلاد الصحراوية الموريتانية فاشتغل الموحدون عنها بالأندلس فاستمر الشطر الجنوبي من دولة المرابطين تحت قيادة أحفاد أبي بكر بن عمر ما شاء الله لها أن تستمر إلى أن دب إليها داء الدول فانقسمت إلى إمارات مستقلة لا تتبع لأي دولة ، منها ما يقوى إلى أن يتجاوز حدود قبيلته ومنها مالا يتجاوز ذلك ، ومنها ما هو من أصل لمتوني وما هو من القبائل العربية المهاجرة ومنها ما هو من أصل زنجي وكان الطابع العام لها منهج المرابطين وشملها التعريب منذ هجرة قبائل بني معقل وغيرهم إلى هذه الإمارات إلى وقتنا هذا . وظلت البلاد من درعة إلى الجنوب في منأى عن الموحدين ومن جاء بعدهم حتى آخر دولة المرينيين الذين يعتبرون امتداد الدولة المرابطين ، حيث اتصلوا بأهل الصحراء ، وأقامـوا علاقات مع بعض الإمـراء فيهـا . (٢) وقد وصف بن خلدون أحوال المرابطين بعد تمزق دولتهم فقال : (وبقي من أقام بالصحراء منهم على حالهم الأول من افتراق الكلمة ، واختلاف البين ، وهم الآن يعطون طاعة لملوك السودان يجبون إليهم خراجهم ، وينفرون في معسكرهم ، واتصل بنيانهم على بلاد السودان) (٣) .

وهكذا رأينا أن بلاد موريتانيا دخلها الإسلام شيئا فشيئا ابتداء من فتوح عقبة ابن نافع إلى فتوح المرابطين بقيادة الإمام عبد الله بن ياسين الذي غرس عقيدة السلف في البلاد واعتمد في بيانها على نصوص الكتاب والسنة ، وأرسى دعائم مذهب الإمام مالك رحمه الله وعاشت البلاد المغربية عموما على عقيدة السلف كما رأينا في عهد المرابطين ، وازداد المذهب المالكى رسوخا ووضوحا .

---

(١) يرجع في هذا للغلاوية ص ٥٩ و٦٤ - ٦٦ وحركة الموحدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، مصدر سابق ص ٦٣ - ٦٤ والفرق الإسلامية في الشمال الافريقى ص ٣١٤ ومابعدها . وبداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، تأليف : محمد الغربي ص ٤٦ وما بعدها وتاريخ إدوعيش ومشظوف ص ١٠ وما بعدها وبلاد شنقيط ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) يرجع فيه إلى : كتاب الساقية الحمراء ، تأليف : محمد الغربي ص ٢٠٦ -٢٠٧ .

(٣) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٩٧ . ١٩٨ .

ولما قامت الدولة الموحدية على يد المهدي بن تومرت وخلفائه وحاولوا نبذ مذهب الإمام مالك في الفقه وأخذوا في نشر عقائد ملفقة كما رأينا ، قام علماء السلف المرابطون بمحاربتها ومعارضتها حتى أن الموحدين لم يتمكنوا من تلقينها للأطفال والجهال من البربر إلا بلغتهم الخاصة ، ولم يتمكنوا كذلك من السيطرة من حيث بسط السلطة إلا في حدود المدن المعروفة ، أما الصحراء وماوراءها إلى بلاد السودان فإن أيديهم لم تطلها ، وعقائدهم لم تنفذ إليها للبعد أولا ولاستحكام •

العداوة ثانيا ولتمسك أهل هذه البلاد الموريتانية بما صادف قلوبهم خالية من عقيدة المرابطين السلفية ومذهب أهل المدينة النبوية في الفقه والحديث كما ذكرناه سابقا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية •

وبعد انفرادهم في الصحراء هناك واستقلالهم بمدارسهم التي ذكرنا بعضها لم نجد من وصف منهجهم في العلم بأنه أشعري أو معتزلي أو غير ذلك من المناهج الكلامية ، ولا كننا نجد واصفيها يصفونها بأنها مدارس أنشأها أحفاد المرابطين تأخذ عقائدهامن نصوص الكتاب والسنة ويحفظون طلابها الموطأ والمدونة فيها ويؤخذ الصبيان فيها بذلك ويحفظون رسالة ابن أبي زيد القيرواني وعقيدتها السلفية •

كذلك لم نجد من وصف مجالس علمائهم وأمرائهم بالتعصب لمذهب عقدي أو مذهب فقهي غير الانتماء لمذهب الإمام مالك على ماكان في عهد الدولة المرابطية (١)

وهذه مدرسة ولاته التى أسست في مطلع القرن الثامن تقريبا يمر عليها الرحالة ابن بطوطة فيصف أهلها بأنهم : (مسلمون ، محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن) (٢) •

ولم يتعرض للعقائد بذكر مع مجالسته لعلمائهم وأمرائهم مما يدل على أنه لم ينتقد عليهم فيها شيئا يخالف ماعليه الدولة المرينية التي كانت لها بعض الصلات بالمناطق الشمالية والشرقية من موريتانيا على مايفيده الشيخ سيدي محمدالكنتي في الغلاوية (٣) •

---

(١) يرجع في وصفها إلى : الغلاوية ص ٦٣ - ٦٥ وندوة الإمام مالك ، إمام دار الهجرة ، فاس سنة ١٤٠٠ هـ ١ جـ ص ٢٢٥ ومابعدها ، علماء شنقيط والمذهب المالكي ، بحث شارك به في الندوة الأستاذ محمد عبد الكبير العلوي •

(٢) رحلة ابن بطوطة ، المسماة : تحفة النظار في غرائب الأمصار ، شرحه وكتب هوامشه : طلآل حرب ، دار الكتب العلمية ، ط ١سنة ١٤٠٧ هـ ص ٦٨٨ •

(٣) الغلاوية ص ٦٤ ومابعدها •

المقصد الرابع :

العقيدة في موريتانيا بعد دخول القادرية

وظل الأمر في بلاد المرابطين في الصحراء الموريتانية على ماوصفنا من الاقتصار على الكتاب والسنة في باب العقائد حتى كان القرن التاسع الهجري حيث بدأوا الاتصال بالعالم الخارجي عن حدود صحرائهم فنشطت الرحلة في طلب العلم والحج إلى مكة المكرمة وزيارة الأماكن المقدسة ، والحواضر العلمية كالقاهرة وفاس وغيرهما من المدن التي يمر بها الحجيج في رحلة الذهاب والعودة ونشطت كذلك الهجرات من المغرب والأندلس وغيرهما إلى داخل أعماق الصحراء الموريتانية ، فدخلت البلاد عقائد وكتب لم تكن موجودة من قبل وظهرت انحرافات في العقيدة ، وتصورات خاطئة لبعض مفاهيم الدين ، وشاع أيضا الظلم والجور ، وتسلط القوي على الضعيف ، وانتشرت بينهم الحروب القبلية ، والتعصبات العرقية (١) .

هذا ماصورهم به أحد علمائهم وهو : شمس الدين محمد بن محمد بن علي اللمتوني في رسالة مطولة أرسالها إلا الإمام السيوطي يستفتيه في هذا الواقع المؤلم الذي لايهمنا منه في هذا المجال إلا العقيدة وما يتصل بها من قريب .

يصف صاحب هذه الرسالة المطولة التي وصلت إلى السيوطي في شوال سنة ٨٩٨ هـ أهل بلاده في زمنه بأن فيهم من يعمر المساجد ، ويتلو القرآن والعلوم ومع ذلك يعبدون الأصنام ويذبحون لها .

وأن فيهم من توحيده بالفم ولايعرف حقيقة التوحيد . وأنه قد شاع بينهم التكسب بالطلسمات ، وادعاء المكانة عند الله ، وجلب النفع ودفع الضر ، وأن من بينهم من الفقهاء من عادته ترك القرآن والسنة وأخذ الرسالة (٢) حتى عادوا من

---

(١) يرجع إلى الحاوي للفتاوي ، تأليف : جلال الدين السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي ، دار الكتب العلمي ، بيروت ط٢ ١٤٠٢ هـ جـ ١ص ٢٨٤ - ٢٩٠ .

(٢) يريد رسالة ابن أبي زيد القيرواني .

يفســـر القرآن ، وإذا سمعوا آية تتلى لتفسير نفروا عنها نفرة الحمر الوحشية (١) ويقول : (وفي بلادنا كتب يذكرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقاويل ليست في الموطإ ولا في الصحيحين وليس عندنا من يعلم ذلك فما يفعل فيها) (٢) ٠ ؟

إن هذه الرسالة مع شمولها ودقة وصفها لجميع مناحي الحياة العلمية والفكرية والاجتماعية ، والسياسية لايوجد فيها ذكر للمسائل العقدية التي تصنف أو تنسب إلى مذهب كلامي أو منهج فكري معين معروف ، الأمر الذي يؤكد أن هذه البلاد الموريتانية وإلى نهاية القرن التاسع الهجري لاتعرف هذه المذاهب الكلامية لا الأشعرية ولاغيرها ، وإنما يعتمدون على الكتاب والسنة كالصحيحين والموطإ ، أو الرسالة لابن أبي زيد لقيرواني ٠

فلو كانت عندهم كتب تؤخذ منها العقيدة غير هذه لذكرها صاحب هذه الرسالة، حيث إنه ذكر كتبا أخرى فقهية وغير فقهية وسأل عنها وعن حكم العمل بمالم يتأكد من صحته من الأحاديث المنسوبة للنبى صلي الله عليه وسلم ككتاب الشهاب (٣) ٠

وسأل عن أحكام فقهية في وقائع معيشة ٠ ووضح ماعليه بعض الناس من الانحراف والدجل والخرافة والشعوذة التي من أهم أسباب انتشارها ماكانت عليه البلاد آن ذاك من الفوضى والتسيب (٤) ٠
وبعد هذه الفترة الزمنية التي وصفتها هذه الرسالة نجد كتبا عقدية دخلت البلاد ، وزاحمت الكتاب والسنة ثم رسالة ابن أبي زيد القيرواني في مشرب العقيدة الإسلامية الصافيــة في هذه البلاد ، وظهـــر في بعـض المدارس علمـــاء يوصفـــون بأنهـــم

---

(١) يرجع الحاوى للفتاوي جـ ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ٠

(٢) الحاوى للفتاوى ١ / ٢٩٠ ٠

(٣) كتاب الشهاب أو مسند الشهاب ، تأليف : القاضي أبي عبد الله بن سلامة القضـاعي ، حققه وخرج أحاديثه : حمدي عبد المجيد السلفي مؤسسة الرسالة ط ١ سنة ١٤٠٥ هـ انظر ترجمة القضاعي في الجزء الاول ص ٧ ومابعدها ٠

(٤) يرجع إلى الرسالة المذكورة وجواب السيوطي عليها المسمى : فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور ، الحاوي للفتاوي جـ١ ص٢٨٤-٢٩٤ ٠

أشاعرة أو متكلمون وخاصة في جهة القبلة (١) حيث العناية بعقائد السنوسي وهو : محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني ، ترجمه الشيخ أحمد بابا التينبكتي في نيل الابتهاج ترجمة مطولة وأثنى عليه كثيرا وذكر (أنه ألبسه إبراهيم التازي الخرقة وحدثه بها عن شيوخه وبصق في فمه) وذكر مؤلفاته التي منها عقائده الثلاثة الصغرى والوسطى والكبرى وبالغ في نقل الثناء عليها (٢) . وكانت وفاة السنوسي سنة ٨٩٥ هـ .يذكر صاحب الوسيط أن أهل القبلة منهم من يدرس العقائد الأشعرية ، ويمضي سنين عديدة في إتقان تاليف السنوسي حتى لايبقى عليه منطوق ولامفهوم ليصير عندهم مؤمنا حقيقة وإلا فإنه إذا كان لايقدر على معرفة أنواع الصفات وتعيينها (٣) بالألفاظ المتداولة عندهم فهو عرضة للكفر (٤) .

---

(١) هذه تسمية معروفة الآن للناحية الغربية من بلاد موريتانيا مما يلي المحيط الأطلسي ، وقد رأيت القاضي عياضا أطلقها على تلك الناحية أيضا فقال في ترتيب المدارك جـ ٨ ص ٨٢ (واستقامت للمرابطين بلاد الصحراء بجملتها وماوراءها من بلاد المصامدة و القبلة و السوس ..) وأطلقها صاحب الوسيط حسب المعروف أيضا - الوسيط ص ٥١٨ .

(٢) يرجع إلى كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تأليف : أبي العباس سيدي أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت عرف ببابا التينبكتي . ط بهامش : كتاب الديباج لابن فرحون المالكي . دار الكتب العلمية . ص ٣٢٥ - ٣٢٩ .

(٣) وأنواع الصفات على التقسيم المشار إليه هي :
الصفة النفسية : وسميت نفسية لأن الوصف بها دل على نفس الذات دون معنى زائد عليها . وهي : الوجود والصفات السلبية وسميت سلبية لأنها لا وجود لها في الخارج وإنما هي نفي محض نفى بها أضدادها عن الله تعالى وهي : القدم والبقاء ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه والوحدانية . وتسمى صفات تخلية . وتذكر بعدها صفات التحلية وتسمى صفات المعاني وهي : القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام . وحقيقة صفات المعاني هي الصفات الوجودية فهي كل صفة موجودة في نفسها قائمة بموجود أوجبت له حكما . وتذكر معها صفات تتعلق بها عند بعضهم أو ملازمة لها وهي الصفات المعنوية وهي كونه تعالى قادرا ومريدا وعالما وحيا وسميعا وبصيرا ومتكلما ، فتلك عشرون صفة .
يرجع في تقسيمها إلى : عقيدة أم البراهين للسنوسي ، وشرحها لأحمد بن عيسى الأنصاري ، المكتبة الثقافية بيروت ، ص ١٠ ومابعدها . وشرح الداه محمدبن أحمد الشنقيطي لإضاءة الدجنة للمقري ، مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة ص ٢٠ و ٣٤ . ٤٣ .

(٤) الوسيط ص ٥١٨ .

وقد نقلت عن الأستاذ حمدا ابن اتاه - وهو من أهل هذه المنطقة (القبلة) ومن مدرسة أحمد بن العاقل التي تخرج منها الشيخ المختار بن بون (١) ودرس على أخت مؤسسهاخديجة بنت محمد العاقل العقائد والمنطق حتى وصف بعد مجادلة اليعقوبيين له بأنه إمام المدرسة الأشعرية ٠ (٢)

نقلت عن الأستاذ المذكور : أنهم يقولون : عقيدتنا (تنطق الرسالة) يريدون قول ابن أبي زيد القيرواني في الباب الأول من الرسالة

(باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات) (٣)

وأضاف الأستاذ حمدا في مقابلتي معه في انواكشوط في ٢٣ / ٨ / ١٤١٠ هـ أنه لا بأس عندهم في هذه المنطقة بالتوسع والتبحر في دراسة العقائد الأشعرية ، وبين أن هذا خاص بالدراسة للمتعلم في المحاضر حيث إن المنهج المحضري له السيطرة في هذا المجال ٠

أماغير الدارسين المتعمقين فلن عقيدتهم الموروثة هي : (الايمان والتسليم) وأكد ذلك بأن مدرسة أهل حبيب الرحمن من أهل القبلة يحرمون قراءة هذه العقائدالأشعرية من القديم وحى الآن ٠(٤) وأما المناطق الموريتانية الأخرى فإن أهلها

---

(١) هو المختار بن السعيدالمعروف بابن بون المتوفى سنة ١٢٢٠هـ في مكان بتكانت يسمى بالتيبراتن - انظر ترجمته في فتح الشكور ص ١٤١ والوسيط ٢٧٧ وما بعدها ٠
وخديجة بنت محمد العاقل الديمانية عالمة جليلة وشيخة محضرة عاشت في القرن الثاني عشر الهجري ٠ انظر : بلاد شنقيط المنارة والرباط ص ٥١٢ ٠

(٢) يرجع فيه إلى المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني ، رسالة ماجستير من جامعة الملك سعود بالرياض أعدها : محمد الصوفي بن محمد الأمين ، نوقشت في ١٦-٩-١٤٠٦ هـ ص ٨٤ - ٨٥ ٠

(٣) الرسالة الفقهية للشيخ أبي محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني المتوفى سنة ٣٨٦ هـ تحقيق الهادي حمد وزميله - دار الغرب الاسلامي ط ١ - ١٤٠٦ هـ ص ٧٥ ٠

(٤) ملف الرحلة العلمية ٠

كما قال صاحب الوسيط يبدؤون بكتاب الأخضري : (وهو عبدالرحمن ابن سعيد الأخضري المتوفى سنة ٩٥٣ هـ وكتابه : مختصر في العبادات قدم له بمقدمة مهمة في الآداب الإسلامية الواجبة ، ويعتبرمن دعاة الإصلاح في الجزائر ، وقد انتشرت كتبه في النواحي الوسطى والشرقية من موريتانيا وأفاد الناس منها كثيرا (١) .

يقول صاحب الوسيط : (أما أهل آدرار وتكانت ومن حذا حذوهم ، فإنهم يبدأون بالأخضري وابن عاشر (٢) والرسالة) (ولكل جهة اعتناء ببعض العلوم أكثر من غيرها) (٣) .

وقد نقلت عن كثير من مشايخ العلم أنهم يتركون تدريس مقدمة ابن عاشر للمبتدئين لما اشتملت عليه من القضايا المنطقية والعقائد الأشعرية ، وهم بهذا يعملون بالنصيحة التي أوردها التشيتي في كتابه (منن العلي الكبير) يقول في النصيحة المذكورة:

(وبعد فأقول لمن سيقف عليه من الإخوان والتلاميذ وأنصحهم وأحذرهم أن يخوضوا في براهين علم الكلام حتى يمارسوا العربية والقرآن والحديث ليكونوا على أمن من الاضطراب في متسع آفاق تلك الشبهات) (٤) .

ومع هذا فإن الذي يجزم به أكثر الكتاب المعاصرين عن موريتانيا هو أنها أشعرية المعتقد على العموم أو على الغالب كغيرها من معظم أقطار البلاد الإسلامية .

---

(١) تراجع ترجمته في ندوة الحركة السلفية في المغرب العربي ط المغرب ص ١٥٠ وما بعدها .

(٢) ابن عاشر هو أبو محمد عبدالواحد بن عاشر المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ وكتابه هو المرشد المعين على الضروري من علوم الدين نثر ونظم وقد شرح النظم منه ميارة وهو محمد بن أحمد ميارة المالكي . انظر الدر الثمين والمورد المعين – وهو الشرح المذكور ، دار الفكر ص ٢ – ٥ والشارح من تلاميذ أحمدالمقري أنظرص ٥٠ – ٥١ .

(٣)الوسيط ص ٥١٨ .

(٤)نقلا عن : بلاد شنقيط المنارة والرباط ص ١٩٥ .

وهم في ذلك منطلقون من المقررات المحضرية ، والكتب الأشعرية المعتمدة لدى بعض عمداء المحاضر ، وكذلك مؤلفات شيوخ علم كبار في موريتانيا صرحوا في مقدماتها أنهم أشاعرة أو أنهم جمعوا فيها مؤلفات أشعرية معروفة (١) .

فمن هذه المؤلفات التي صرح أصحابها بأشعريتهم إضاءة الدجنة لأحمد المقري وهي نظم لعقائد السنوسي الآنفة الذكر ، صرح في أول بيت منها أنه أشعري فقال: (يقول أحمد الفقير المقري المغربي المالكي الأشعري) (٢)

وقد نظم عقائد السنوسي وأضاف إليها من علماء موريتانيا الشيخ المختار ابن بون وسمى نظمه : وسيلة السعادة حيث قال :

(سميتـــه وسيلة السعاده في نشر ماتضمن الشهاده
نظما حوى عقائد الشريف محمد السنوسي الظريف) (٣)

وبهذا النظم اعتبر ابن بون من شيوخ المدرسة الأشعرية الكلامية وبدفاعه عن منهج المتكلمين كذلك (٤) .

ويأتي نظم ابن عاشر في المرتبة الثالثة في الأثر بعد هذين الكتابين المذكورين ، وابن عاشر يبدأ نظمه بقوله بعد الحمد والثناء على الله تعالى : -

(وبعد فالعون من الله المجيد في نظم أبيات للامي تفيد

---

(١) يرجع إلى : كتاب شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون ، تأليف يوسف مقلد ، الدار البيضاء ، بيروت - ط ١ سنة ١٩٦٢ م ص ٣٢٧ - ٣٢٨ . وفتح الشكور ص ١٠ والمحاضر الموريتانية ص ٨٤ - ٨٥ وبلاد شنقيط ص ١٩٥ .

(٢) إضاءة الدجنة - مرجع سابق ص ٢ و ١٠٢ .

(٣) وسيلة السعادة مخطوط خاص ص ٦ المقدمة .

(٤) يرجع إلى جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأخيار ، تأليف : الشيخ سيدي المختار الكنتي- مخطوط خاص ص١-٢ و٢٠ وما بعدها . والمحاضر الموريتانية ص ٨٤ - ٨٥ .

في عقد الاشعري وفقه مالك   وفي طريقة الجنيد السالك) (١)

فمن اعتماد هذه المؤلفات في المدارس والمحاضر الموريتانية أخذ من عمم الأشعرية على البلاد تعميمه ، وأخذ من غلبها تغليبه .

ولكن إذا نظرنا إلى هذه المؤلفات وغيرها من الأنظام والمختصرات الموجودة الأخرى نجد أنها ألفت في أواخر القرن التاسع الهجري إلى القرن الثاني عشر الهجري ومابعد ذلك والعقيدة في موريتانيا كما رأينا في العصور المتقدمة منذ دخول الإسلام كانت سلفية حتى وردت كتب السنوسي وما نظمت به من أنظام داخل البلاد وخارجها. لذا فأثرها العقدي مقصور على من درسها ، على أن الإمام محمد بن البوصيري (بداه) أخذ من الكتابين الذين يعتبرهما بعض عمداء المحاضر الموريتانية عمدة للمنهج العقدي الأشعري للنابهين من الطلاب - وهما : إضاءة الدجنة . ووسيلة السعادة - أخذ منهما ما استدل به على أن ناظميهما يذمان علم الكلام وذلك من قول الأول : وهو المقري :

(وذو احتياط في أمور الدين   من فر من شك إلى يقين) (٢)

ومن قول الثاني وهو ابن بون :

(وأن الاورع الذي يخرج من   خلافهم ولو ضعيفا فاستبن)(٣)

وهذا نص كلام الإمام بداه : (ومما حملني على الاحجام عن تعاطي علم الكلام العمل بموجب قول أحمد المقري في إضاعته التي عليها الاعتماد في بوادي وحواضر هذه البلاد :

(وذو احتياط في أمور الدين   من فر من شك إلى يقين)

لأن من فر إلى هدي أهل القرون المحمودة عمل بالاحتياط في الدين في رأي تبعا لرأي أجلاء العلماء ، والعمل أيضا بموجب قول الشيخ ابن بون في الوسيلة :

---

(١) الدر الثمين والمورد المعين ص ١١ .

(٢) إضاءة الدجنة ص ١٥ .

(٣) الوسيلة ص ٧ .

(وأن الاورع الذي يخرج من خلافهم ولو ضعيفا فاستبن)

فكيف إذا كان هدي أهل القرون المحمودة الموافق لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠) (١) ٠

فالتحذير من علم الكلام أو النصيحة بتأخيره في المنهج الدراسي يدل على اعتباره أمرا زائدا على الاعتقاد المطلوب ، إذ قد يتخرج الطالب ولم يدرس شيئا من الكتب التي اشتملت على علم الكلام ٠

ونخلص من هذا إلى أنه ليس من الصواب - حسب هذه الدراسة - إطلاق القول بأن الأشعرية دخلت المغرب بكثرة وانتشرت أكثر في القرن الخامس الهجري قرن المرابطين ، وأنهم لم يحاربوها كما قال الدكتور علي سامي النشار(٢) ٠

وليس من الصواب أيضا إطلاق القول بأن الأشعرية فرضها المهدي بن تومرت مشربا عقديا في المغرب وبقي الناس عليها إلى اليوم كما قال الأستاذ الخليل النحوي (٣) ٠

وأقل صوابا منهما القول بسيادة العقيدة الأشعرية في موريتانيا (٤) للأمور الآتية :

١ - أما قديما فلما تبين من تمسك البلاد بعقيدة السلف الصالح في عهد المرابطين ، ولأن صاحب القول نفسه قال : (والغريب أن المرابطين لم يأخذوا في المغرب بالمذهب الأشعري حتى إنه كان أداة في أيدي خصومهم) (٥) ٠

٢- وأما في عهد الموحدين فإنه تبين كذلك أن الذي نشروه هوخليط من عقائد الفرق الإسلامية المتصارعة في الشرق ، ومن الخطأ نسبته للأشعرية فإن نسبته

---

(١) الدر النضيد في علم الكلام وحقيقة التوحيد ، تأليف : محمد بن البوصيري ، الملقب بيداه ٠ مخطوط خاص ص ٣ ٠

(٢) مقدمة كتاب السياسة ص ٢٨ ٠

(٣) بلاد شنقيط ص١٩٧ ٠

(٤) نفسه ٠

(٥) نفسه ٠

إليها على مافيها يعد ظلما لها • وعليه فمن أخذ به على أنه هو المذهب الأشعري وطريقة أبي الحسن في الكلام سيتبين له أنه مخلط ولا يستقر على شيء أو على قول ثابت ، وإنما سيجد نفسه يحكي أقوالا كثيرة لا ترجع إلى أصل واحد قال قوم، وقال آخرون وقد لاحظ الأستاذ إحسان عباس أن المقري صاحب إضاءة الدجنة : يميل إلى المهدي ابن تومرت في مؤلفه : الجمان من مختصر أخبار الزمان (١) • وكان يقال لسنوسي : شيخ الموحدين

٣- أنه تبين أنه لايوجد أثر في بلاد موريتانيا للموحدين حيث إنه لم تكن لهم سلطة أو احتكاك بالمنطقة •

٤- أنه من المعروف أن موريتانيا بعيدة من الصراعات والتعصبات العقدية والمذهبية التي تساندها السلطة أو تتعصب لها الدول ، لذا فلم يعرف في البلاد من الصراعات مايذكر في جانب العقائد إلا ماحصل بين أفراد من الفقهاء لادافع وراءه إلا الدفاع عن المعلومات الشخصية •

٥- وأما قيام الصراع العنيف بين الشيخ المختار بن بون والشيخ سيدي المختار الكنتي من جهة وبينه وبين اليعقوبيين من جهة أخرى واتهامهم جميعا له بالعمل على توهين الدين والابتداع فيه بنشره لعلم الكلام والمنطق في البلاد ، فإن ذلك دال على أن هذه العقائد التي نظمها المختارجديدة على البيئة ولا أصل لها فيها (٢)، وإن كان بعض العلماء يرى أن الحق كان مع ابن بون في المسائل التي خالفه فيها المجيدري (٣) وأن ابن بون واليعقوبيين اصطلحوا وتسامحوا فإن ذلك لاينافي . إن كان صحيحا. اعتراضهم على مانشره من علم الكلام وقولهم له :

---

(١) تحقيق إحسان عباس لنفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تأليف : الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني - دار صادر بيروت جـ ٨ ص ١٣ •

(٢) جذوة الأنوار ص ١ ، ٢٠ و ٣٩ •

(٣) تأتي ترجمته إن شاء الله - وهو محمد بن حبيب الله المجيدري • انظر الوسيط ص٢١٤ وما بعدها •

(ماالدين إلا الذي تسعى لتوهنه — آي النبي وآثار الهدي العتـــق
لاكل خبط عن اليونان مبتــدع — قد دس بين أصول الدين مختلق
تحمي قواعد رسطا ليس تحسبها — دينا لك الويل نبهناك فاستفق) (١)

ولعل الصلح المذكور بينهم حصل بعد موت المجيدري لأنه مات في حياة ابن بون وظل يذكره بالسوء بعد موته (٢) . وكذلك ماذكر من صلح بينه وبين الشيخ سيدي المختار الكنتي على ماسيأتي تفصيله عند ترجمة الأخير . والذي يظهر لي أن رسالة المجيدري التي ضمنها مجموعة من الأسئلة موجهة إلى المتكلمين المعتمدين على العقول في أصول العقائد بقيت بلا جواب وحتى الآن (٣) .

٦- أنه من المعروف عدم تساوى المتعلمين من أهل البلاد في دراسة العقائد وغيرها ، فكيف يعمم على من لم يدرس العقائد الأشعرية أنه أشعري المعتقد ؟ أم كيف يعمم على عوام الناس أنهم أشاعرة وهم لم يدرسوا هذه العقائد ؟ وكذلك كيف يعمم هذا الحكم على طلاب العلم الصغار الذين يكتفون بمقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني في العقيدة ، أو بعض الأنظام القصيرة في مجرد عقيدة التوحيد .

---

(١) الوسيط ص ٢١٧ .

(٢) الوسيط ص ٢١٥ .

(٣) انظرها في آخر الدر النضيد ص ٤٦ وما بعدها .

التفصيل هو الأولى

إنه يمكن أن يقال بشيء من التفصيل أنه وجد في موريتانيا جماعة من العلماء أتقنوا علم الكلام ودافعوا عن معلوماتهم أو عن علماء ينتسبون إلى المذهب المالكي أو الإمام أبي الحسن الأشعري أو الباقلاني ، وأمثالهم - ويظهر لي والله أعلم - أن حبهم لهم ودفاعهم عنهم إنما هو بسبب حبهم وتعصبهم للمذهب المالكي الذي ينتمون اليه جميعا لا للمذهب الأشعري الكلامي أساسا (١) .

كما وجدت هذه الجماعة فإنه كان في البلاد وظل حتى اليوم علماء يدافعون عن مذهب السلف ، ويلتزمونه ، سواء قلناإنهم بقايا المرابطين أو سميناهم أهل الحديث والأثر كما سمى بعضهم نفسه بذلك .

وفيهم أيضا حفظة قرآن كثيرون لايعرفون عقيدة زائدة على تلاوته والإيمان بما فيه حيث إنه (من بين خمسة أفراد من أهل موريتانيا أربعة يحفظون القرآن الكريم) (٢)

وفيهم أيضا عامة الناس وهم الكثرة لايحكم لهم بالأشعرية ولا بغيرها من المذاهب الكلامية الأخرى : وإنما يحكم لهم بالفطرة الإسلامية والإيمان بالكتاب والسنة والتصديق لما جاء به النبي صلى الله عيه وسلم جملة .

وفي هذا التفصيل مزيد بيان لما استخلصه الأستاذ الخليل النحوي عن مشارب الشناقطة في العقيدة حيث يرى أنهم ذهبوا في مشاربهم الفكرية في اتجاهات ثلاث هي باختصار :

---

(١) يمكن أن يرجع إلى : ندوة الإمام مالك ، إمام دار الهجرة ، علماء شنقيط والمذهب المالكي - الجزء الأول ص ٢٢٥ - ٢٥٥ . ومقدمة تحقيق قانون التأويل ، تأليف القاضي أبي بكر بن العربي - تحقيق محمد السليماني ص٣٩ - ٤٠ ومابعدها . ط١ جدة سنة ١٤٠٦ هـ .

(٢) انتشار الإسلام ، وأشهر مساجد المسلمين في العالم ، تأليف : محمد كمال حسين ط ١سنة ١٩٧٦ م ص ٩٠ .

١- اتجاه أشعري عقلاني متوسع في مذهبه يؤمن بالمنطق الصوري ، وعلم الكلام المنطقي ، وتمثله مدرسة المختار بن بون ٠

٢- اتجاه سلفي نصاني يعادي علم الكلام والمنطق اليوناني ، متأثرا بالوهابية والظاهرية يمثله المجيدري اليعقوبي ٠

٣- اتجاه صوفي قوامه التبحر في العلم والاستقامة في السلوك ، ويمثله الشيخ سيدي المختار الكنتي (١) ٠ قلت : ومع أن استخلاص الأستاذ الخليل غير دقيق من جهة فإنه يقتصر على أفراد من علماء القرن الحادي عشر والثاني عشر والخلافات بينهم مشهورة ومذكورة وسيتبين إن شاء الله فيما يأتي من البحث مدى صحة حكمه على الصوفية ٠

---

(١) بلاد شنقيط ص ١٩٦ - ١٩٧ ٠

المبحث الأول

دخول القادرية إلى موريتانيا ومراكزها الأولى

لقد عرف المغرب بصفة عامة منذ عهد التابعين عبادا وزهادا ، ومرابطين في الثغور ، ونسبت إليهم الكرامات والخوارق .

وساحوا في الأرض ناشرين للإسلام وداعين للزهد والصلاح بحالهم ومقالهم ، وقد تولت كتب الطبقات والتراجم تسجيل أخبارهم وأحوالهم وأقوالهم مما أبقى صور حياتهم يتأسى الناس بها ، ويعملون جاهدين ليصلوا إلى ماوصلوا إليه من الزهد والصلاح أو لطلب الخوارق والكرامات التي نسبت إلى أولئك .

وظل الأمر قاصرا على ذلك حتى جاءت الإسماعيلية إلى المغرب فأدخلت في عقول هؤلاء العباد والزهاد أفكارا وعقائد لم تكن من قبل من مقصودهم ، ولا من علومهم وكان ذلك تطورا خطيرا في هذا الاتجاه (١) .

وتعاقبت على المغرب دول كثيرة ووقعت فيه صراعات زادت من ميل الناس إلى العزلة والاعتكاف في الكهوف والأربطة والزوايا ، وانتشرت هذه المراكز شيئا فشيئا حتى وصلت إلى الأرياف والبوادي البعيدة .

وقد دخل الفقهاء في صراع مع كل من يظهر منه غلو في ذلك الاتجاه سواء بالفعل أو بالقول (٢) ولم يعرف المغرب الطرق الصوفية إلا في أواخر القرن السادس الهـــجري ، في عهد الدولة الموحدية ، حيث انتشرت كتب الغزالي وغيره من شيوخ التصوف في الشرق فنشأ عليها شيـــوخ في المغرب والأندلس ، وعملوا على شرحها ،

---

(١) يرجع إلى : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال افريقياحتى قيام دولة المرابطين ، تأليف : السيد محمد أبو العزم داوود ، المكتبة الفيصلية ، ١٤٠٥ هـ ص ٣٤٧ - ٣٥١ ومقدمة ابن خلدون ص ٥٧٦ - و ٨٧٥ .

(٢) الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

والدعوة إلى مافيها وتدريسها لطلابهم فتكون على ذلك طوائف من الناس تأثرت بالطرق الصوفية في المشرق الإسلامي ، فأنشأت على غرارها زوايا في المدن والأرياف .

واعتقد الناس في شيوخ تلك الزوايا والحضرات اعتقادات مغالية ، فيها الكثير من الانحراف والبعد عن المنهج الإسلامي في العقيدة والسلوك ، وذلك لقلة علم القائمين عليها من جهة ولبعدهم واعتزالهم للعلماء من جهة أخرى .

ثم لاكتفاء مريديهم بالأوراد والوظائف التي وضعها لهم الشيوخ ، ولغناهم بما تدر عليهم به العامة من الهدايا والأعطيات والقرابين ، وبما يجبونه هم أنفسهم من الناس حتى صارت لهم ثروات ومكانة في نفوس الناس ، وهيبة أضعفت في المقابل من مكانة العلماء وهيبتهم وقللت من قيمة ماعندهم من العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فزاد ذلك كله من إقبال الناس على تلك الأربطة والزوايا حتى اعتقد فيهم أفراد من أهل العلم فاتبعوهم وظهر فيهم علماء يعتقدون فيهم فأخذوا يضعون لهم كتبا في طبقات شيوخهم ومناقبهم وينسبون لهم من الأمور مالايصح جله شرعا ولا عقلا .

واستمرت هذه الموجة عبر الأرياف والصحراء التي كانت مفتوحة لدخول أي مذهب أو دعـوة (١) .

ومادامت الصحراء مفتوحة والطرق الصوفية منتشرة وشيوخها متنافسون في نشرها فإنه من العسير جدا تحديد دخولها إلى بلاد موريتانيا تحديدا دقيقا وتحديد أول تلك الطرق دخولا . ولكن قد نقترب بالبحث والتتبع الى أوائل ظهورها ومعالم انتشارها رغم ندرة المصادر التي تؤرخ لهذه البلاد (٢) .

---

(١) يرجع إلى : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ص ٣٧٨ - ٣٩٤ .

(٢) نفسه ص ٤٠٥ وما بعدها .

لقد دخل الصحراء الموريتانية دعاة إلى الإسلام وسواح من العباد والزهاد ومهاجرون من فتن في بلاد المغرب (١) ٠ وقد تتبع سيدي محمد الكنتي (الخليفة) في كتاب الغلاوية هجرات أجداده من إفريقية (بتونس) منذ قيام دولة العبيديين بها ، حيث ذكرأنهم ظلوا يعيشون بين ارتحال وإقامة حتى وصلوا إلى (اتوات) ثم الصحراء الغربية فولاتة فتنبكتوفأ زواد (٢) ٠

وأنه كان فيهم دائما عالم ومرب ينشر الإسلام ويوزع تلاميذه من أجل ذلك في الأرياف والبوادي (٣) ٠

ومن أشهرهم في ذلك سيدي يحي بن سيدي عثمان الذي قال عنه : (إنه كان عالما حافظا ورعا زاهدا مربيا تخرج على يده جماعة ففرقهم في القرى والمدن للارشاد والتربية) (٤) ٠

قال :(ثم خلفه ابنه سيدي علي وكان قطبا علامة مربيا قدوة يهتدي بهديه ٠٠ وأنه كان يخرج إلى المرابطين يأخذون عنه الأوراد ويستمدون منه الأمداد) (٥) ٠ قلت: وفي هذا النص عبارات صوفية ظاهرة مثل القطب والأوراد والاستمداد

وهذا لايعني أن ذلك بداية عصر إنشاء الطرق الصوفية في موريتانيا لأنها من كلام سيدي محمد الذي هو من مشايخ الطرق لامن كلام سيدي علي المتقدم ٠ قال : (ثم إن سيدي محمد الكنتي الكبير بن سيدي علي المذكور سابقا تربى في أخواله من

---

(١) فتح الشكور في أعيان العلماء التكرور ص ٣٠ و ١٠٠ وغير ذلك مما ذكر فيه ورود صلحاء على البلاد ٠

(٢) الغلاوية ص ٦٣ - ٦٤ ٠

(٣) نفسه ص ٦٢ - ٧٣ ٠

(٤) نفسه ص ٦٢ - ٧٣ والمنة في اعتقاد أهل السنة للمختار الكنتي ص ٤٦ وما بعدها ٠

(٥) نفس المرجع ص ٦٤ ٠

المرابطين في الصحراء حيث حفظ القرآن ومهر في سائر الفنون وتربى على أيدي جماعة منهم الإمام أبو العباس السبتي حيث صحبه في سبتة وتخرج على يديه ودعاه بالقطبية ورجع إلى الصحراء فأقام مابين (تيرس) إلى الساقية الحمراء فاستوطنها بمن معه من تلاميذه ٠) (١) ٠٠٠ ثم خلفه ابنه الشيخ سيدي أحمد البكاي الذي قال عنه : (الغوث العلامة النحرير الفهامة المربي المجدد المسلك المسدد) (٢) ٠

وذكرأنه خرج في السياحة حتى وصل إلى (ولاتة) مع بعض تلاميذه حيث ذكرت له فيها كرامات ومناقب كثيرة ، من أعظمها (عندي) أنه أخذ عليهم العهد بالحجاب والاستئذان واتباع السنة وعدم مخالفته في ذلك (٣) ٠
فاستقاموا له على ذلك وصار لهم عادة حسنة إلى يومنا هذا ٠

ومن المعلوم أن ولاته كانت قبل ذلك مدينة فاسدة لايقدر الرجل على منع زوجته من اتخاذ أخدان السوء فيها ، كما قال سيدي المختار الكنتي (٤) وابن بطوطة قبله في رحلته (٥) ٠

ونجد في أيام الشيخ سيدي أحمد البكاي المتوفى في ولاته في حدود سنة ٩٢٠هـ (٦) رسالة مطولة من محمد بن محمد بن علي اللمتوني موجهة إلى السيوطي يصف له فيها أوضاع قطره موريتانيا (بلاد التكرور) ويسأله عن بعض المسائل المتعلقة بما في بلاده ٠ ويفهم من هذه الرسالة وجود نوع من السلوك والصوفية وإن كنا

---

(١) نفسه ص ٦٥ وقال : (وهو خاتمة السلف وعين أعيان الخلف ٠)
(٢) نفسه ص ٦٧ وما بعدها ٠
(٣) المنة في طريقة واعتقاد أهل السنة ، تأليف : المختار الكنتي ، مخطوط خاص ص٤٦-٤٧٠
(٤) نفسه ٠
(٥) رحلة ابن بطوطة ، تحقيق طلال حرب ، دار الكتب العلمية ط ١ ، ١٤٠٧ هـ ص٦٨- ٦٨٨٠
(٦) الغلاوية ص ٧٠ وذكر في الطرائف والتلائد ص ١٢٥ انه توفي جزما في عام ٩١١ هـ ٠

لانجد لهم ذكرا بهذا الاسم ولا نسبة إلى شخص معين كشيخ قادري أو شاذلي مثلا في هذه الرسالة .

ومما جاء فيها أن في البلاد من عادته بناء المساجد وتلاوة القرآن والعلوم والمدائح والحج ومع ذلك يعبدون الأصنام ويذبحون لها وعندهم طلسمات للنكاح ، ويزعمون أنهم ملوك الدنيا وأبناء الأنبياء ومنهم من اكتسابه بالطلسمات والرقى لباب المحبة والعين والعزائم للكشف عن السارق واللصوص .

ومنهم من ليس له عمل إلا تلاوة القرآن والحديث والعبادة ولزوم الخلوة وقراءة الرسالة والشهاب وأمثال ذلك . ومنهم من يدعي أنه عالم أو ولي أو عابد ليخدم وليس كذلك (١) . وفي هذا بعض مظاهر الصوفية من ادعاء المكانة عندالله والاشتغال بالغوامض والطلسمات .

وعلاقة الموريتانيين بالسيوطي علاقة وطيدة إذ كثيرمن أسانيدهم في العلوم عن طريقه وكذلك بعض أسانيدهم في التصوف كما سنرى فيما بعد إن شاء الله .

وهنا يمكننا القول بأن الصوفية وعلومها بدأت في الدخول إلى بلاد موريتانيا مع مطلع القرن العاشر الهجري .

ولكن من شيخ موريتانيا المباشر في التصوف ؟

أهو الشيخ سيدي أحمد البكاي أو أبوه محمد الكنتي الذي صحب في سبتة الإمام أبا العباس السبتي ؟ (٢) .

---

(١) الحاوي للفتاوي جـ ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٢) الغلاوية ص ٦٥ إلا أننا لم نجد له ذكرا في أصحاب السبتي الذين ذكرهم صاحب التشوف ص٤٥١-٤٧٧ . رغم أن الكتاب عند المختار الكنتي بدليل نقله منه في كتابه المنة ص ٣٨ .

أم أجداد محمد فاضل مثل سيدي يحي الصغير الذي ذكر أنه صحب الإمام زروقا ؟ (١) .

أم الإمام محمد بن عبدالكريم المغيلي الذي ذكر أنه لقي الإمام السيوطي في (مصراة) وأخذ عنه الورد القادري ؟ وقد ذكر السيوطي عن نفسه أنه وصل إلى بلاد التكرور ونشر علما هناك فيمكن أن يكون أخذ عنه غير واحد وقد قيل إن السيوطي والمغيلي تبادلا الأوراد القادرية على جهة التبرك .(٢)

إن عمدتنا في بيان أي هذه الاحتمالات أقرب إلى الصحة والواقع هي كتب المختار الكنتي وابنه سيدي محمد وبعض كتب التراجم مثل كتاب فتح الشكور أو الكتب الأجنبية التي ترجمت إلى اللغة العربية والتي اعتمد أصحابها على هذه المصادر السابقة أو المشاهدة والمشافهة .

وعند البحث في هذه المصادر نجد أن المختار الكنتي وابنه سيدي محمد يذكران ماكان عليه آباؤهما من صلاح وتربية ولا يسندان لهم سندا في الصوفية إلا عن طريق محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني التواتي المتوفى سنة (٩٠٩ هـ) (٣)

ويذكرون أن الشيخ سيدي عمر الشيخ بن الشيخ سيدي أحمد البكاي صحب المغيلي ثلاثين سنة ، وسافر معه إلى الحج ، وأن أول لقاء بينهما تم عندما كان المغيلي داخلا إلى بلاد التكرور والمغرب الأقصى مقبلا من بلاد هوصى . (٤)

---

(١) الضياء المستبين مخطوط ص ١٩٠ .

(٢) المنة في اعتقاد أهل السنة للمختار الكنتي ص ٤١ - ٤٢ ونظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي ، آدم عبدالله الالوري ، دار العربية بيروت ط ٣ - ١٤٠١ هـ ص ١٤٥ .

(٣) أنظر المنة ص ٤١ - ٤٢ .

(٤) يرجع إلى نفس المرجع ٤١ .

وعند الرجوع إلى ترجمة الامام محمد بن عبدالكريم المغيلي في نيل الابتهاج نجده يصفه بالإمامة والتحقيق واتباع السنة ، ومحاربة أعداء الدين ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه نشر العلم في أثناء تجواله في بلاد الهوسى وبلاد التكرور ، وأنه صاحب تآليف نافعة مفيدة في الدعوة إلى الله والفقه والحديث والتفسير والسياسة الشرعية والمنطق وغير ذلك (١) .

وأن من شيوخه الامام عبدالرحمن الثعالبي - وهو : عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المتوفى سنة ٨٧٥ هـ .

وأنه وقعت بين المغيلي والسيوطي مراسلة ومشادة شعرية في علم المنطق ، فالمغيلي يجيزه والسيوطي يحرمه . (٢)

ومجرد المراسلة على رواية صاحب نيل الابتهاج لاتؤخذ منها الصحبة ، وأخذ الأوراد حسب المنهج الصوفي المعروف في السلوك والتسليك .

ثم إن المغيلي أستاذ المنطق في معاهد افريقيا . والسيوطي يعيب المنطق ويحرمه وهذا تباين مرجح للقول بعدم أخذ أحد منهما عن الآخر لعدم اتفاقهما في المنهج .

ولكن هذا التباين لايمنع أنه حصل بينهما لقاء واتفاق في المنهج الصوفي ، وتبادل أخذ الأوراد القادرية ، وليس بعيدا اجتماع هذين الإمامين في بلدة مصراة بليبيا كما صرح الشيخ سيدي المختار الكنتي ، أو في بلاد التكرور كما عرف أن كلا منهما زارها (٣) . وإذا أمكن اللقاء بينهما أو ثبت فلا يستبعد الأخذ إلا أنه من الأقرب إثبات أخذ المغيلي للأوراد عن عبدالرحمن الثعالبي ووضعه في السند القادري الذي

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج - مرجع سابق ص ٣٣٠ - ٣٣٢ .

(٢) نفسه ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٣) انظر مقدمة حسن المحاضرة للامام السيوطي جـ ١ ص ١٠ ونظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي ص ١٤٥ والإسلام والثقافة العربية في افريقيا ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

أوردته كتب القادرية في موريتانيا ثم يكون السيوطي من الشيوخ الذين تبادل المغيلي معهم الأوراد القادرية على سبيل التبرك حسب المنهج الصوفي .

وهذا أمر مفهوم من نصوص الشيخ سيدي المختار الكنتي في المنة (١) والشيخ سيدي محمد الكنتي في الطرائف (٢) .

وتقديمهم للسيوطي في السند القادري على الثعالبي يؤخذ منه عدم الضبط الذي ينشأ عنه الحكم بضعف السند المذكور ، ثم إن الثعالبي رغم رحلته الطويلة في الشرق لم نجد في ترجمته ذكرا للسيوطي أو حصول لقاء أو تلمذة بينهما أثناء تلك الرحلة أو بعدها ، بينما نجد أن المغيلي تتلمذ عليه وأخذ عنه .

ولم نجد مصدرا خارجا عن مصادر شيوخ القادرية يذكر علاقة بين المغيلي والشيخ سيدي أحمد البكاي وابنه الشيخ سيدي عمر الشيخ .

والذين ذكرهم الشيخ أحمد بابا التنبكتي من الآخذين عنه بالإسم (٣) ليس فيهم من يشبه اسمه اسم أحد منهما ، ومع ذلك فإننا نغلب على الظن صدق الرواية القادرية ، ونقول بأن الشيخ سيدي أحمد البكاي هو أول من أدخل الورد القادري إلى بلاد موريتانيا ، ولكنه لم يعمل على نشره كثيرا حيث إنه ترك الأمر لابنه الشيخ سيدي عمر الشيخ الذي صحب المغيلي على ماتقدم ثلاثين سنة حتى مات المغيلي (٤)

وتذكر المصادر أن المغيلي أوصى عند موته تلاميذه بالتحول إلى هذا المريد الصادق الشيـــخ سيدي عمر الشيخ ، قائلا لهم : (إن كل ماكان معي من النفع والبركة قد

---

(١) المنة ص ٤١ .
(٢) الطرائف ص ١٣١ .
(٣) نيل الابتهاج ص ٣٣١ - ٣٣٢ .
(٤) المنة ص ٤١ - ٤٢ .

تحول إليه ... فلما مات الشيخ المغيلي استن بسنته سيدي عمر الشيخ في الدعوة إلى الله تعالى ، وإرشاد الضال وتعليم الجاهل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحيطة على الضعفاء والمساكين وزجر الطغاة ...) (١) .

ويضيف الشيخ سيدي المختار الكنتي (أنه عاش ١٤٠ عاما و ٤٤ يوما ومامات حتى بلغ القطبانية العظمى ، وتواتر عنه أنه كان ينظر إلى مابين العرش والفرش كما ينظر إلى الدرهم في كفه .) (٢)

وبهذه العبارات الصوفية الغالية التي ينسبها هذا الشيخ إلى جده نجد أننا دخلنا في عصر من النشاط الصوفي المتنافس على إظهار المكانة عند الله أو ادعائها على الأقل (٣) .

ولاشك أن هذا الشيخ . الذي عمر كثيرا ووصف بالنشاط في نشر الطريقة القادرية - لاشك أنه كان من أول شيوخ القادرية في موريتانيا إن لم نقل بأنه أولهم مراعاة للروايات القائلة بأن والده الشيخ سيدي أحمد البكاي كان قادريا ، وأن الجد الرابع للشيخ محمد فاضل خرج من المغرب إلى الصحراء ، وأنه استقر في ولاتة في القرن العاشر الهجري (٤) . وأن سبب نزوله إلى البلاد كما يقول صاحب الضياء المستبين ، هو : تعلق قبيلة أولاد امبارك به وطلبهم منه العون بالحكم والأسرار في محاربة عدو لهم (٥) .

---

(١) المنة ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) نفسه .

(٣) سيأتي إن شاء الله في فصل الولاية من باب العقائد نقد هذه العبارات وأمثالها .

(٤) يرجع إلى كتاب : كنتة الشرقيون ، تأليف : بول مارتي ، تعريب : محمد محمود ودادي ، ط دمشق ص ١٤٢ - ١٤٣ . وموسوعة التاريخ الإسلامي ، تأليف أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ - ١٩٧٨ م - ج ٦ ص ٢١٢ - ٢١٣ . والساقية الحمراء - محمد الغربي مصدر سابق . ص ٣١٣ - ١٣٢ .

(٥) المرجع المذكور ص١٨٩- ١٩٠ - وانظر خبر اولاد امبارك في الوسيط ص ٤٨٦ وما بعدها .

وعلى هذا يكون دخول هذين الشيخين القادريين إلى بلاد موريتانيا متقاربا أومتزامنا ، على أنه لم يعرف على وجه التحقيق مدى عناية أجداد الشيخ محمد فاضل بنشر الطريقة القادرية ، إلا أن صاحب الضياء المستبين على ما سيأتي في سلسلة الفاضلية ذكر أنهم كانوا شيوخ صوفية .

وبهذا العرض نكون قد اقتربنا من بيان ذلك الإجمال الذي نجده عند بعض الكتاب عن دخول القادرية إلى بلاد موريتانيا ثم افريقيا الغربية حيث إن (السير توماس و ارنولد) يقول في كتابه الدعوة إلى الإسلام : إنها دخلت البلاد على أيدي مهاجرين من توات (١) ، وتبعه على ذلك مع شيء من التفصيل كل من (الوثروب ستودارد) الأمريكي في حاضر العالم الإسلامي (٢) و(بول مارت) الفرنسي (٣) وأحمد شلبي في موسوعة التاريخ الإسلامي . (٤)

وبهذا أيضا نكون توصلنا إلى أن القادرية دخلت البلاد الموريتانية في حدود مطلع القرن العاشر الهجري ، ونمت ببطء وخفاء ، كما تدل عليه المراجع التي تحت أيدينا عنها حتى تكونت لها مراكز انتشرت منها ، وبرز لها شيوخ دعوا إليها (٥) .

---

(١) المصدر المذكور ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وزملائه ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ ص ٣٦٥ .

(٢) المصدر المذكورجـ ٢ ص ٣٩٥ .

(٣) كنتة الشرقيون مصدر سابق ص ١٤١ وما بعدها .

(٤) المصدر المذكور جـ ٦ ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٥) الغلاوية ص ٧١ - ٧٢ .

مراكز القادرية الأولى

يحدد الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي المراكز الأولى لجانب كبير من القادرية الكنتية حيث يقول إن الشيخ سيدي أحمد البكاي : خرج من الساقية الحمراء مع بعض تلاميذه حتى وصل إلى ولاتة ، وأن ابنه الشيخ سيدي عمر الشيخ بعد وفاة شيخه الامام المغيلي في توات ظل يعيش بطلابه ومريديه بين الساقية الحمراء وأزبار إلى الحمادة إلى أركشاش ، إلى واد الشب شرقي توات .

وأن متجرهم ومكيلهم سوس الأدنى إلى درعة وسجلماسة إلى توات ، فإذا كانوا بأركشاش وماوالاه سافروا إلى السودان فريق إلى قرية تينبكتوا ، وفريق إلى السودان الأكحل : كاشنة وكوير وهوص (١) .

وكانت مراكز الفاضلية منطلقة من المغرب عبر الصحراء الكبرى إلى مدينة ولاته فالحوض الشرقي فبلاد السودان ، ثم أخذت في الانتشار بعد ذلك في شكل مراكز متعددة سيأتي ذكرها إن شاء الله (٢) .

ولا يخفي أنهم كانوا ينشرون طريقتهم في هذه الأماكن التي يسكنونها ، أو يتاجرون معها (٣) . ويذكر الشيخ سيدي المختار الكنتي عددا من الشيوخ العاملين على نشر القادرية من أجداده انطلاقا من المراكز المذكورة ابتداء من الشيخ .

---

(١) الغلاوية ص ٧٢ - ٧٣ والاماكن المذكورة موزعة الآن بين المغرب وموريتانيا والجزائر ومالي ونيجيريا - راجع الوسيط ص ٤٢٣ - ٤٢٤ و ٤٣٨ و ٥٦٩ - ٤٥٩ ، والدعوة الإسلامية في غرب افريقيا وقيام دولة الفولاني ، لحسن عيسى عبدالظاهر ط جامعة الامام محمد بن سعود بالرياض ١٤٠١ هـ ص ٩٧ و ١٣٢ وما بعدها .

(٢) الضياء المستبين ص ١٨٩ - ومابعدها . والساقية الحمراء ص ١٣١ وما بعدها .

(٣) الدعوة إلى الاسلام ص ٣٦٥ - ٣٦٦ وحاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

سيدي أحمد البكاي المتوفى في ولاتة سنة ٩١١ أو ٩٢٠هـ وانتهاء بالشيخ سيدي الأمين الملقب بذي النقاب الذي خرجت بموته رئاسة المشيخة القادرية البكائية عن بيت الكنتي إلى أحد مريديه وهو : الشيخ سيدي علي بن النجيب بن محمد بن شعيب الشريف التكروري ، والذي منه أخذها الشيخ سيدي المختار الكنتي ، فكان ذلك امتدادا للبكائية (المختارية) فيما بعد ٠

وكان من أبرز هؤلاء المشايخ الذين ذكرهم الشيخ سيدي المختار الكنتي ، الشيخ سيدي أحمد بن الشيخ سيدي محمد الرقاد الذي بنى زاوية كنتة في توات ٠

ويذكر الشيخ سيدي المختار الكنتي أن أجداده من شيوخ القادرية في هذه الحقبة كانوا على جانب كبير من العلم والدعوة إلى الله ، مع امتلاك خزائن كتب كبيرة (١) ٠

---

(١) المنة ص٤٣ - ٤٦ وكنتة الشرقيون ص ١٤٩ - ١٥٤ ٠

المبحث الثاني :

الطرق الصوفية في موريتانيا عموما

تقديم :

عرفنا في المبحث السابق أن البلاد دخلتها الصوفية القادرية ، ورأينا مراكزها الأولى التي كانت تنطلق منها داعية لما عندها في تلك الصحراء المترامية الأطراف ، ولندرة المصادر عن هذه الحقبة من الزمن التي كانت بمثابة مرحلة نمو بطيء لايظهر فيها التنافس والتدافع الذي نشأ بعد ذلك فإنه من الأفيد للبحث العلمي أن يركز على دراســة من كان لهم الأثر الملموس في حياة الناس في حدود البلاد أولا وما جاورها ثانيا .

ومع قولنا إن مرحلة النمو كانت بطيئة ، وأن أثرها كان محدودا ، وأن المصادر عنها نادرة فإن نموها وأثرها ومصادرها كانت أسسا لانطلاقة كبيرة أثرت في حياة الناس بوجه عام وفتحت المجال أمام إنشاء طرق صوفية جديدة ابتداء من المختارية وما صاحبها أو تلاها من ولادة طرق جديدة متفرعة عنها أو مستفيدة منها فائدة ملموســة .

وفي موريتانيا حاليا طرق صوفية كثيرة أهمها : -

(١) المختارية : وسيأتي الكلام عنها بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى .

(٢) الفاضلية : وسيأتي أيضا الكلام عنها بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى .

(٣) الشاذلية : وهي من الطرق القادرية ، ولها في موريتانيا فروع أهمها : -

أ) المتالية . ب) الأغظفية .

(٤) التجانية : وهي أيضا تتصل بالقادرية وتتفق معها في كثير من الأمور ، وأهم فروعها في موريتانيا .

أ) الحافظية ٠ ب) الحموية ٠ (١) ٠

أما المختارية والفاضلية فالكلام عليهما يأتي إن شاء الله في الفصل الثالث الآتي بعد هذا الفصل ٠

وأما الطرق المذكورة بعدهما فإنها هي المقصودة أساسا بهذا المبحث حيث نتناولها بشيء من العرض والنقد بعد تمهيد حتى تتضح صورة النشاط الصوفي في محيط الدراسة بصفة عامة ٠

---

(١) يرجع إلى : بلاد شنقيط ص ١٢٢ - ١٢٤ وكنتة الشرقيون ص ١٥٣ - ١٥٤ ٠

التمهيد :

من القرن العاشر الهجري أخذ التصوف ينتشر في موريتانيا ، ويتوسع من خلال شيوخها إلى البلاد الإفريقية المجاورة ، ومن أبرز انطلاقات التصوف في غرب إفريقيا ما حققته القادرية ، حيث يقول صاحب حاضر العالم الإسلامي : (ونجد القادرية في السودان أقساما منها القادرية البكائية والقادرية المختارية ، والقادرية أتباع زين العابدين ابن سيدي أحمد ، والقادرية أتباع الشيخ سيديا ، والقادرية الفاضلية جماعة الشيخ سعد بوه . فالسواد الأعظم من مسلمي السينغال وغامبيه وغينية والنيجر الأعلى هم قادرية من أتباع هؤلاء ، ثم في بلاد ولاتة : القادرية الرقانية أتباع الشيخ أحمد الرقاني ، وهم ثلاث فرق .) (١) .والثلاثة الأولى عبارة عن فرع واحد .

وتعتبر المختارية والفاضلية من أهم أصول هذه الطرق ، ولكل من هذين الأصلين فروع كثيرة استقلت أو كادت ، وإلى جوار هذين الأصلين وفروعهما طرق صوفية أخرى متصلة بهما اتصالا وثيقا في السند والأوراد والوظائف والمظاهر الصوفية الأخرى (٢) .

فمن هذه الطرق زيادة على ماذكر في موريتانيا : الشاذلية بفروعها والتجانية بفروعها والصديقية ، والخضرية والنقشبندية (٣) ، والثلاثة الأخيرة ليس لها وجود قوي يذكر .

---

(١) حاضر العالم الاسلامي جـ ٣ ص ٤٥-٤٦ قلت : والرقانية منسوبة إلى عبدالمالك بن عبدالله الركاني كذا اسماه صاحب فتح الشكور ، فلعل صاحب حاضر العالم الإسلامي وهم في اسمه . ، وهي ترجع إلى الشيخ محمد بن ناصر الدرعي فهي فرع من الشاذلية . ، وأول من أوصلها الى ولاته : سيدي مولاي زيدان بن سيدي محمد المتوفى سنة ١٢٠٢ هـ . انظر فتح الشكور ص ٩٧ - ١٠١ .

(٢) يرجع إلى : دائرة المعارف الاسلامية جـ ١٥ص ١٧٩ وحياة موريتانيا للمختار بن حامد ، مكتوب على الآلة الكاتبة جـ ١ ص ٨٠ وما بعدها . ونعت البدايات ص ٢٠١ - ٢٠٢ وندوة الحركة السلفية في المغرب العربي ص ٢٠٠ .

(٣) انظر بلاد شنقيط ص ١٢٢ - ١٢٤ .

ولذا فلا نزيد البحث بها أكثر من ذكرها لعدم وجودها أو اشتهارها في شكل طرق منظمة ينتسب إليها الناس ، وإن كانت موجودة عند بعض الأسر والأفراد ، أقلها النقشبندية وقد وقفت على سندها في دار الثقافة في انواكشوط ، قسم المخطوطات رقم ٢٨٢ ٠

ويبدو أن المجيدري هو الذي أدخلها إلى البلاد إثر عودته من الحج وأخذها عنه العلامة محمد بن محمد سالم المجلسين ولكنها كما قلت لم تشتهر ولم تنتشر ٠

يضاف إلى هذه الطرق التي تعرف في شكل طرق منظمة نوع آخر من التصوف المنتشر بين بعض الزوايا . أي أهل العناية بالعلم والدين حسب المصطلح العرفي في البلاد . هذا التصوف المأخوذ من بطون الكتب أو بالاحتكاك والمعايشة للطرق الصوفية المجاورة إلا أن الفقهاء الحاملين لهذا النوع من التصوف لايترددون في

مهاجمة المظاهر الصوفية المخالفة للشريعة الإسلامية ، بل إن بعضهم يهجو من عرف عنه شيء من الانحراف بالشعر ويجهلهم ويرد عليهم حتى إن الأمر وصل في بعض الأحيان إلى المقاتلة (١) ٠

وسيتبين ذلك إن شاء الله تعالى عندما نخصص الدراسة الآتية لأهم الطرق الصوفية غير المختارية والفاضلية ، ونعرض لأهم ماجرى بينهاوبين الطرق الصوفية الأخرى ، وماجرى بينها بين الفقهاء من جهة ثانية ٠

---

(١) الوسيط ص ٢٨٢ و ٣٦١ ٠ وكتاب : الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ، تأليف : فيليب فونداس ، تعريب : محي الدين القليبي ، دار الفكر الاسلامي ، ط ١٩٧٠ م ص ١٣٦-١٣٧٠ وحياة موريتانيا ، الحياة الصوفية ، للمختار بن حامد ج ١ ص٨٠ وما بعدها ٠

الشاذلية

تنسب هذه الطريقة للإمام أبي الحسن الشاذلي وهو : علي بن عبدالله الشاذلي ولد سنة ٥٧١ هـ وتوفي بحميثرة من صعيد مصر قاصدا للحج في شوال سنة ٦٥٦ هـ . وقيل ميلاده سنة ٥٩١ هـ . (١)

وقد دخلت طريقته بلاد موريتانيا عن طريق شيخين مغربيين : أحمد زروق المتوفى سنة ٩٦٣ هـ ، ومحمد بن ناصر الدرعي المتوفى سنة ١٠٣٦ هـ .

وقد عرفت في موريتانيا في مناطق متعددة في غرب البلاد وشرقها ، وظهر فيها شيوخ متعددون ، اشتهروا بالعلم والصلاح .

وقد ذكر صاحب فتح الشكور (٢) وصاحب الوسيط (٣) وصاحب الموسوعة الموريتانية (٤) وصاحب بلاد شنقيط (٥) منهم عددا كبيرا ، بل إن جميع الطرق الصوفية بما فيها البكائية المختارية والفاضلية تمر سلاسلهم في السند القادري على ماسيأتي بيانه إن شاء الله - بالإمام أبي الحسن الشاذلي ، ولذا فقد ترجم له الشيخ سيدي محمد الكنتي في الطرائف والتلائد ترجمة ضافية ، وقال إنه : الأستاذ الثاني للطائفة بعد الشيخ عبدالقادر الجيلي (٦) .

ومن هنا يمكن اعتبار القادرية في موريتانيا كلها شاذلية ، كما أن كل الشاذلية تعتبر قادرية ، ولكن القادرية لايقولون إنهم شاذلية عند الانتساب ، وإنما يقولون

---

(١) شجرة النور الزكية ص ١٨٦ - ١٨٧ والأعلام للزركلي جـ ٤ ص ٣٠٥ وستأتي ترجمته في السلاسل القادرية إن شاء الله .

(٢) فتح الشكور ص ١٠١ - ١٠٦ وغيرها .

(٣) الوسيط ص ٢٢٢ و ٣٤٣ وغير ذلك .

(٤) الموسوعة ، الحياة الصوفية ص ٨٠ - ٨١ .

(٥) بلاد شنقيط ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٦) الطرائف ص ١٣٨ - ١٤٠ ويقارن بما في الضياء المستبين ص١٩٠ .

إنهم قادريون أو جنيديون (١) ولكن بالاستناد إلى الأسانيد التي بحوزتهم فإنه لايخطىء من نسبهم إيضا إلى الشاذلية (٢) .

وقد تشعبت الشاذلية في موريتانيا إلى فروع كثيرة ارتبط بعض فروعها بشيوخ محاضر وعلم فغلب على مريديهم طلب العلم وارتبط بعض فروعها بالحياة الصوفية الخالصة فدخلها كثير من العوام المتجردين لخدمة المشايخ والاشتغال بالأوراد والوظائف من غير أساس من الفقه في الدين أو علم بالشريعة وآدابها ، وحرمتهم خدمة الشيوخ برعي الحيوان والتجارة والزراعة وجمع حطام الدنيا عن السلوك الصحيح ، فكان لذلك آثار سلبية بل وسيئة على البيئة العلمية والأخلاقية العامة ، وعلى الطريقة بصفة خاصة عرضتها وبعض شيوخها إلى النقد الصريح من الفقهاء من شيوخها أو من شيوخ العلم خارجها وسيأتي مزيد بيان لذلك في باب السلوكيات .

ويوجد في موريتانيا فرعان كبيران للشاذلية ، أحدهما في غرب البلاد والآخر في شرقها ، مع أنه ليست هناك حدود معروفة يتوقف عندها مد أحدهما دون الآخر ، وانما بحسب شهرة الشيخ وانتشار علمه وأوراده ونظامه فإن أثر كل منهما مازال محدودا في المناطق التي اشتهر فيها .

---

(١) مقدمة هداية الطلاب ، تأليف الشيخ سيدي المختار الكنتي ، مخطوط بزاويته في انواكشوط ص ٢ .

(٢) أحمد زروق والزروقية مصدر سابق ص ١٤٢ - ١٤٣ وكنتة الشرقيون ص ١٤١ .

الفرع الأول : المتالية

التعريف بشيخها المنسوبة إليه : المتالية نسبة إلى الشيخ محمذ فال بن متالي التندغي و (محمذ) بالذال المعجمة المنونة المكسورة معناه بالبربرية محمد نا بقصد إضافته إلى ضمير المتكلمين . وأما (فال) فالمقصود بها فأل أي تيمن بهذا الاسم .

قال عنه صاحب الوسيط : (علامة جليل ، وصالح نبيل ، أذعنت العلماء لعلمه ، وتضلع كثير من الزوايا من معينه ، وصار حرما آمنا يفر الخائف إليه فيؤمنه ... فتح الله عليه دفعة واحدة ورجع إلى أهله ، وشاع خبره ، وانثالت إليه الناس ، وأقبلت عليه الدنيا ، وكان كريما صالحا يتبرك به) (١) .

ويظهر من أنظامه وقصائده أنه كان متواضعا متوجها إلى الله تعالى ، ومن شعره: (من البسيط)

(أنا الفقير وفقر المرء ذا ضرع   بالله صدق إلى مولاه محض غنى
ومن رآى أنه بالمال حاز غنى   قدمان في زعمه ماحاز غير عنا)

وكان يحث على طلب العلم كثيرا ويفضل الاشتغال به على التفرغ للنوافل قال :

(عليك بالتعليم والتعلم   ذا رغبة في أجره المعظم)

من أرجوزة له يحث فيها على طلب العلم وفضل التعليم ، ويحذر فيها من طلبه لغير وجه الله تعالى .

(ومات صاحب الترجمة في عجز القرن الثالث عشر ، وقد عمر) (٢) . وقد جزم الخليل النحوي بأنه ولد سنة ١٢٠٥ هـ وتوفي سنة ١٢٨٧ هـ فعمره على هذا اثنتان وثمانون سنة . (٣) ومن مشاهير تلاميذه : المختار بن ألما الديماني ويحظيه بن عبد الودود . (٤)

وقد استفاد من مؤلفاته وأنظامه الكثيرة في الأخلاق والآداب العامة وسار على نهجه في طريقته الشيخ محمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي ا لموسوي المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ حيث يعتبر صاحب مدرسة فقهية وأخلاقية لكثرة أنظامه ومؤلفاته في هذا المجال .

---

(١) الوسيط ص ٢٤٣ - ٢٤٤ بتصرف يسير .

(٢) نفسه ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٣) بلاد شنقيط ص ٥٣٠ .

(٤) الوسيط ص ٢٣٩ و ص ٣٧٧ .

فمن مؤلفاته الفقهية : الكفاف ، نظمه وشرحه شرحا موجزا وقد طبع عدة مرات ، ومن مؤلفاته ٠ في الآداب والسلوك : مطهرة القلوب نظمها وشرحها وقد طبعت أيضا ٠

ويظهر أنه يعتمد فيها على عوارف المعارف للسهروردي ، وقد ذيلها الإمام محمد بن البوصيري بنظم سماه : إسعاف المهرة في تذييل المطهرة (١) ٠

منهج المتالية وميزاتها :

نقلت عن غير واحد من شيوخ العلم في موريتانيا أن الشيخ محمذ فال : كان شديد الحماية لجانب الشريعة عاملا بسد الذريعة ٠

وقد قابلت من أجل استيفاء معلومات واضحة عن المتالية ومنهجها وميزاتها أساتذة وشيوخ علم في موريتانيا وفي مكة المكرمة أثناء الحج عام ١٤١٠ هـ ٠

فمن شيوخ العلم الذين قابلتهم في مكة الشيخ محمد المصطفى بن عبدالرحمن حيث رويت عنه الأبيات التالية في العقيدة وهو يرويها سنده إلى قائلها الشيخ محمد فال بن متالي٠ وهي :

(وموقن وجود رب واعترف ... بالعجز عن إدراكه فقد عرف
وليس ذنب فوق ذنب الخائض ... بالفكر في ذات العلي الخافض
غاية علم العلما ومنتهى ... إدراك أرباب العلوم والنهى
أن يعلموا أن لهذا الخلق ... مخترعا أوجده بالحق
متصفا بصفة الكمال ... منزها عن ضدها المحال
وطرق المعرفة الكبار ... عيان أو مثال أو آثار
فأول منعه الجبار ... إذ قال لاتدركه الأبصار
والثاني أيضا منتف بالنقل ... لأنه ليس له من مثل
لم يبق بعد ذا سوى آثار ... قدرته في العالم السيار) (٢)

---

(١) ملف الرحلة العلمية ، مقابلة مع الإمام بداه : محمد بن البوصيري بتاريخ ٢٧-٨-١٤١٠ هـ ٠

(٢) ملف الرحلة العلمية ص ١٣ ٠

والشيخ الذي نقلت عنه هذا النظم يرى أنه مشتمل على عقيدة السلف من الايمان مع التنزيه والتسليم وعدم الخوض فيما لايدرك بالعقول ٠

ومن أهم مؤلفات ابن متالي : فتح الحق ٠ الحميل بصلاح الدارين ٠ وشرح مختصر خليل ٠ وقرة عين الضعيف (١) ٠ وقد قابلت الأستاذ القاضي : أبين بن بيانا في انواكشوط بتاريخ ٢٨-٨-١٤١٠هـ وقصدته لصلته بمنطقة الشيخ محمذ فال بن متالي ، ومعرفته بفرعه من الشاذلية ، واطلاعه على مايجري في الزاوية المتالية بانواكشوط ، فأفادني بأن اعتمادهم على الكتاب والسنة وطلب العلم في المقام الأول ، ثم ماهو مذكور من الأوراد الشاذلية في الكتب، على أن المطلوب عندهم أن تكون أوقات المسلم كلها عامرة بعبادة قولية أو عملية (٢) ٠

وممن قابلتهم في مكة المكرمة في حج عام ١٤١٠ هـ الأستاذ محمد الحسن بن أددو: فحدثني وكتب لي بخط يده مايأتي : أن من ما يشترطه شيوخ المتالية على مريدهم :

(١) عدم التدخين أو الإعانة على تعاطيه أو الصلاة خلف متعاطيه ٠

(٢) وعدم نوم الصبيحة ٠

(٣) وعدم الإكثار من الهذر في القول والعمل مع الحيطة في الورع من المحرمات والمكروهات ٠

ورد المتالية :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، « استغفروا ربكم إنه كان غفارا » ثلاثا ٠ لبيك اللهم وسعديك ، ثلاثا ٠ أستغفر الله مائة ٠

« إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما» ثلاثا ٠ لبيك اللهم وسعديك ، ثلاثا ٠ اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، مائة ٠

« اذكروا الله ذكرا كثيرا » ثلاثا ٠ لبيك اللهم وسعديك ، ثلاثا ٠ لا إله إلا الله ، ألفا ٠ كلما أتم مائة قال : سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) لا تزال مخطوطة كلها وهي بزاويته بانواكشوط ٠

(٢) أجريت المقابلة في المكتب بالتاريخ المذكور ، وهذا هو ملخص كلامه ٠

هذا صلب الورد • ولازمه هو في الصباح من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس •

وأما زوائد الورد ومندوباته فهي :

لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهوعلى كل شيء قدير ، مائة • سبحان الله وبحمده مائة ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، مائة •

لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، مائة ، يالطيف ، مائة وتسعة وعشرين • (وهو قدر رمز حروف لطيف) • ياباقي ، مائة • ووظيفة الشيخ زروق ، وهي مطبوعة وأكثرها أذكار مروية عنه صلى الله عليه وسلم (١) •

والذي عرف عن هذا الفرع من الشاذلية أنه يعتمد طلب العلم في المقام الأول ، ولذا لم يشتهر عنهم انحراف يذكر بين الفقهاء ، حتى يحتاج إلى الرد عليه • ولكن ذكر لي أحد شيوخ العلم أنه حصلت بين الشيخ ابن متالي - وبين مولود بن أحمد الجواد تلميذ المجيدري الشاعر نفرة وخلاف ، ولكنه لم يوضح لي السبب لعدم معرفته بما وراءه (٢) •

وقد رجعت إلى ترجمة مولود المذكور في الوسيط فلم نجد ذكرا للخلاف المشار إليه، وإنما قال فيه أحمد بن الأمين بعد ثناء حسن وإيراد مايحفظه من أشعاره : (وله قصائد فيما وقع بينه وبين ابن بون ، ومع اديبج الكمليلي وغيرهما) (٣) • قلت : ولعل محدثي اختلط عليه مولود المتقدم الذكر بمولود بن اغشممت المجلسي الذي (كان يشرب الدخان كثيرا على علمه وصلاحه) (٤) ، وتقدم تشدد المتالية في الدخان وموقفهم من شاربيه ، فيمكن أن يكون تباين المواقف من هذه العادة السيئة مثار نزاع كما حصل ذلك بين جماعة من أتباع محمد بن

---

(١) هذا ماكتبه لي الأستاذ محمد الحسن •

(٢) ملف الرحلة العلمية ص ٣ •

(٣) الوسيط ص ٢١٤ وانظر بداية ترجمته فيه ص ١٩٠ وما بعدها •

(٤) الوسيط ص ٢٥٦ •

ناصر الدرعي وبين جد الشيخ سيدي المختار الكنتي لأمه بسبب أنهم هم يحرمون الدخان وينكرون على من يتعاطاه (١) وهذا الموقف من الدخان سائد بين أتباع الشاذلية ومن يتعاطف معهم من الزوايا ، ولهم في ذلك أشعار وأنظام وأحكام ٠

وقد ذكر المختار بن حامد سلاسل الشاذلية الواردة إلى موريتانيا (٢) ، ولكنني لم أجد من ذكر سند الشيخ ابن متالي فيها ومن الشيخ المباشر الذي أخذ عنه ؟ علماأنهم قالوا (بأنه فتح عليه دفعة واحدة) (٣) ٠ ويكفي في رد الورد أنه وضع هكذا بدون نص من الشارع والتخصيص أو القصد إليه بدون مخصص تحكم ومردود شرعا وعقلا وخصوصا في باب العبادات ٠ والله اعلم ٠

---

(١) الطرائف ص ٨٩ ٠

(٢) المختار بن حامد ، الحياة الصوفية ص ٨٠ - ٨١ ٠

(٣) الوسيط ص٣٤٣ ٠

الفرع الثاني : الأغظفية

التعريف بشيوخ هذا الفرع :

وينسب هذا الفرع الشاذلي إلى الشيخ محمد الأغظف الداودي ، الجعفري المتوفى سنة ١٢١٨ هـ (١) ولم نتمكن من معرفة شيىء عن تفاصيل حياة هذا الشيخ ولا عن مكانته العلميه ، إلا أن الناقدين لطريقه لا يصبون نقدهم على ذات الشيخ وانما يوجهونه إلى (الغظف) أو (الأغظفية) فلم يذكره الشيخ سيدي المختار الكنتي الذي كان معاصرا له بسوء خاص به ، ولم يوجه له الشيخ سيدي محمد الكنتي لوما على وجه الخصوص ولم يسمه الشيخ محمد يحيي الولاتي فيمن سماهم بزنادقة القظف (٢) وما كتبه الفرنسيون منصب على أتباعه الذين عايشوهم .

ولم نتمكن من الحصول على ما كتبه عنه المختار بن حامد في موسوعته في أجزاءالبيوتات ، ووقفت على رسائل موجهة من الشيخ محمد بن أبي مدين إلى الشيخ المحفوظ بن بيه يطلب منه في واحدة منها أن يكتب له شيئا عن الشيخ الأغظف ، فإن كان أجابه بالمطلوب فإن من مظان وجوده مكتبة آل الشيخ أحمد في (بوتيلميت) (٣)

وقد ورد ذكر الشيخ محمد الأغظف في كتب الفاضيلة كثيرا وبإعجاب وتوقير حتى اعتبر بسبب ذلك شيخا لهم في الطريقة على ما سيأتى بيانه إن شاء الله ، ولكنهم هم أيضا لم يكتبوا شيئا عن حياته وعلمه وزهده وورعه وسلوكه وغير ذلك من الأمور التي أهلته لأن يكون شيخ طريقة صوفية .

وكذلك لم نجد في كتبهم من شيخ أو شيوخ الشيخ محمد الأغظف فى الصوفية ؟ ولكني نقلت عن الشيخ عبد الله بن بيه أن الشيخ محمد الأغظف أخذ عن مولاي زيدان ومولاي زيدان هذا ترجمه الولاتـي في فتح الشكور وساق نسبه إلى علي رضـي

---

(١) الحياة الصوفية ، المختار بن حامد ص ٨١

(٢) الأغظف والغظف المنسوبون إليه والأغظفية التي هي طريقتهم كلها تنطق بالغين والقاف . والأغظف تحريف الأغضف بالضاد وهو العيش الناعم . القاموس ج ٣ص ١٨٠ . ١٨١ .

(٣) بوتيلميت بئر مشهورة لأهل الشيخ سيدي . الوسيط ص ٤٦٤ . وهي الآن مدينة تبعد عن العاصمة انواكشوط بحوالي ١٥٠ كيلو .

الله عنه وقال عنه : (أحد الأولياء العاملين ، والصلحاء المتقين ، ذو جد واجتهاد ، ولزوم أذكار وأوراد ...) .

ثم قال : (وهو الذي أوصل ورد الشيخ مولاي عبد المالك لنا ولأهل بلادنا ، فجزاه الله تعالى بأحسن الجزاء قدم بلاد التكرور أربع مرات) .. وساق بسنده في الطريقة إلى محمد ابن ناصر الدرعي ثم قال :

(توفي رحمه الله في آخر شعبان عام اثنين ومائتين وألف ، في موضع يقال له إيوالن عند مسجد ابن عبد الكريم بينه وبين اتوات نحو أربع رحلات .) (١)

وعلى هذا فالفرع الشاذلي من القادرية في موريتانيا يرجع بفروعه إلى الدرعية الناصرية وعليه فلا يستقيم على الإطلاق ما أطلقه الأستاذ الخليل النحوي من قوله :

(الغظفية : وهي مزيج من الطريقتين القادرية والشاذلية ...) (٢) حيث إننا عرفنا سندها إلى محمد بن ناصر الدرعي الشاذلي .

أتباع الأغظفية :

صحب الشيخ محمد الأغظف جماعة منهم سيدي محمد بن أحمد الأسود ، ومحمد الأمين بن عبد الوهاب وولد الشيخ محمد الأغظف زروق وهؤلاء شيوخ الشيخ محمد فاضل بن مامين شيخ الفاضلية (٣) ولذا قال الخليل : (واليه تنسب الشعبة الفاضلية من القادرية) (٤) يعني الشيخ محمد الأغظف وقد أخذ عن الشيخ محمد الأغظف أيضا الشيخ علي بن عبد الله بن علي بن آفة الدليمي المتوفى في حدود ١٩١٧ م وكان في بداية أمره

---

(١) انظر فتح الشكور ص٩٧ - ١٠١ .

(٢) بلاد شنقيط ص ١٢٤ .

(٣) الضياء الستين ص ٨ - ٩ و ٢٢٠ - ٢٢٢ وغيرها .

(٤) بلاد شنقيط ص١٢٤ .

قارئا ومقرئا للقرآن ثم صحب الشيخ محمد الأغظف حتى صدره وكان يصاب بالجذب الأمـــر الذي كان من أسباب نقد الطريقة الأغظفية على ما سيأتي إن شاء الله (١) .

يقول الأستاذ الخليل النحوي في وصف هذه الطريقة أو الفرع الأغظفي :

(ازدهـرت في عهد الشيخ سيدي المختار بن الطالب بن نوح البصادي وخلفائه : خاصة الشيخ محمد محمود الخلف المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ والشيخ الغزواني ومن مشايخها الشيخ محمد المحفوظ ابن بيه) (٢)

قلت : أما الشيخ الغزواني فهو بصادي لم نتمكن من معرفة الكثير عن حياته وأثره ، أما خليفته الشيخ محمد أحمد ابن الغزواني المتوفى سنة ١٤٠٨ هـ فقد زرت منطقته (بومديد) وهي قرية زراعية رعوية تقع بين تكانت ولعصابة ، ورأيت من المتجردين والمتجردات من عموم الناس يخدمونه في الزراعة وتنمية المواشي وجمع الأموال وغير ذلك وهم مع ذلك في حالة من الجهل والبؤس يرثى لها ، وقد بلغني أنه توقف في آخر حياته عن استقبال الداخلين الجدد وتفسير ذلك إن لم يكن توبة مما كان فيه هو الخوف من أن يكون هؤلاء عالة عليه لتغير الأوضاع المعيشية . وأعظم إثم يرتكبه هؤلاء هو الاختلاط والتبرج هذا من مشاهداتي الشخصية ، أما العلم والكتب فلم أجد لهم فيها نصيبا ، وأظن أن الأحوال المذكورة هنا يمكن أن تعمم على مريدي الأغظفية ، أما الشيوخ فيختلفون في أنفسهم وأحوالهم حسب بيئتهم العلمية وصيانتهم لمكانتهم الدينية والاجتماعية .

وأما الشيخ المحفوظ ابن بيه فإنه أخذ التصوف عن ابن عمه الشيخ محمد محمود ومحمد محمود أخذ عن علي بن عبد الله بن آفه المتقدم الذكر .

فالشيخ المحفوظ قال عنه الشيخ الأمين صاحب أضواء البيان عندما نزل عنده ضيفا اثناء خروجه من البلاد إلى البلاد المقدسة قال : (ورفع تجارتا الذين هـم في

---

(١) ملف الرحلة العلمية ص ١١

(٢) بلاد شنقيط ص ١٢٤

قريـة العيـون إلى قاضي (تنبدقة) برقية بتوجهنا إلى (تنبدقة) وأنا سننزل في ضيافته ..) :

(وهوالعالم الأديب واللوذعي الأريب المحفوظ ابن بيه المسومي ، فأقمنا عنده أيامنا في غاية التبجيل والإعظام والإحسان والإكرام ، وكثرت بيننا المذاكرات في كثير من فنون العلم) (١)

ويصف الشيخ المحفوظ وشيخه محمد محمود مؤرخ موريتانيا المختارين حامد فيقول : (أما الشيخ المحفوظ فإنه وحيد العصر علما وورعا وأدبا وأخلاقا ورواية وتركها (كلمة باقية في عقبه) (أخذ عن الشيخ المحفوظ العلم وطريق التصوف ، وهو عن ابن عمه الشيخ محمد محمود الصوفي المربي العلامة المصنف السخي المنفق الورع ، كان يحتجب عن النصارى (٢) ولم يتقابل قط معهم ، أخذ التصوف عن الشيخ علي ابن آفه ، وتوفي حول ١٣١٧ هـ) (٣) .

وقد وقفت على رسائل علمية تتضمن أسئله مهمة في قضايا مختلفة متبادلة بين الشيخ المحفوظ والشيخ محمد بن أبي مدين المتوفى سنة ١٣٩٦ هـ صاحب كتاب الصوارم والأسنة في الذب عن السنة (٤) تدل من جهة على علومكانة الرجلين في العلم وتدل كذلك على رضى الشيخ محمد بن أبي مدين . الذي عرف أنه من مدرسة الشيخ بابه بن الشيخ سيدي القائمة على الكتاب والسنة ومحاربة البدعة والدعوة إلى التخلص من التقليد الأعمى سواء في المسائل العقدية و الفقهية (٥) كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى في فصل الصحوة السلفية في الطريقة القادرية . عن الشيخ المحفوظ .

---

(١) رحلة الحج إلى بيت الله الحرام ، بقلم العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الجكني ، دار الشروق ، جدة ، ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ ص ٥٧

(٢) يريد أن الاستعمار الفرنسي دخل عليه البلاد وهو حيي فكان من شدة بغضه لهم يحتجب عنهم .

(٣) موسوعة ابن حامد . جزء مسومة ، مسومة الحوض ص ٨ . ٩

(٤) طبع هذا الكتاب بدار الكتب العلمية . بيروت ط ١ سنة ١٤٠٧ هـ

(٥) نفسه انظرص ٣ . ٢٤

وفي الرسائل المشار إليها يصف الشيخ محمد بن أبي مدين الشيخ المحفوظ (يسني الصوفية وصوفي أهل السنة) ، هذه المكانة لدى العلماء التي حصل عليها الشيخ المحفوظ مع ما عرف لدى الناس من جرأته في الحق ، وقيامه ضد أساليب العلمنة والتغريب أيام عمله في القضاء مع الدولة الفرنسية وما بعدها رشحه ذلك كله لانتخاب العلماء له رئيسا لمؤتمرهم الأول في انواكشوط سنه ١٩٦٧ م ٠

وقد حدثنى ولده العلامة الشيخ عبد الله بن الشيخ المحفوظ في جدة حيث هو أستاذ في جامعة الملك عبد العزيز أن والده لما حج أمسك عن إعطاء الورد القادري والشاذلي حيث كان شيخا فيهما وقال : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما كنت شيخا لأحد ٠ ويؤكد الشيخ عبد الله موقف والده المذكور من الطريقة بأنه لم يعهد لأحد من أبنائه من بعده بالمشيخة مع صلاحهم لها ولم يلزم غيرهم بشيء بعد ذلك (١)

نقد الأغظفية :

رأينا أن الأغظفية شاذلية قادرية ولذلك اعتبرها بعض الباحثين مزيجا من الطريقتين كما تقدم ، وسبب ذلك عندي أن كل شيخ أراد الاستقلال عن عموم الطريقة التي ينتسب إليها ، عليه أن يضيف لأوراد الطريقة أو نمط سلوكها جديدا ، أو يختار في وظائفها اختيارات تنسب إليه ، ويعرف بها دون غيره (٢)

ولكن ما الذي زاده الشيخ محمد الأغظف أو غيره من مشايخ الأغظفية حتى نعتبرهم أضافوا جديدا استقلوا به عن الطريقة الشاذلية الأم ؟

إننى لم أتمكن حتى الآن من الحصول على معلومات تؤكد انفرادهم بشيء جديد أو إضافة أوراد جديدة على الطريقة الشاذلية (٣) ولعلهم أظهروا هذه الأوراد المنسوبة للناصرية والزروقية وأضافوها إلى الأوراد القادرية

---

(١) تعدت مقابلاتي للشيخ المذكور ونقلت عنه ما أوردته هنا مرتين أو ثلاثا

(٢) يرجع إلى : زروق و الزروقية مصدر سابق ص ١٤٢ ـ ١٤٧

(٣) وقد ذكر لي الشيخ عبد الله ابن بيه أنه وقف على إضافات جديدة لهم في الورود الشاذلي، ولكني لم أتمكن من الحصول عليها لعدم وجودها مكتوبة ، ولتحفظ الشيخ من نشر هذه الأوراد إن كان حافظا لها ، إلا أننى لم أحاول التأكد من ذلك والأغلب عندي أنه يحفظها وتقدم نقل ورد المتالية ، والأغظفية مثلها في المصدر الأساسي ٠

الأوراد المنسوبه للناصرية الدرعية والزروقية ، وأضافوها إلى الاوراد القادرية الأصل ، واستعملوا ذلك كله ، وبذلك اعتبروا طائفة مستقلة ، مزجت نتاج من سبقها ، وأنشأت عليه طريقة محلية ، استقلت بهذا الاسم (الغظف) أو (الأغظفية) على أنهم لا يذكرون إلا أنهم شاذلية .

إن عدم بروز شيخ أو شيوخ محليين معروفين صحبهم الشيخ محمد الأغظف وأخذ عنهم العلم والتصوف جر على طريقته نقدا محرجا من مشايخ الطرق الصوفية المجاورة له واتهموه بأنه خالف سنة التصوف القائمة على الصحبة والسلوك (١)

ويختلف الناقدون المعترضون على الأغظفية من حيث حدة النقد ووجاهته ، ومن حيث التصريح باسمها أو تحديد مسلكها ، أو التلويح بما يفهم منه أنها هي المرادة بذلك النقد . فالشيخ سيدي المختار الكنتي يشدد النكير على أصحاب ، الحضرات ، موضحا أن البلاد قد ظهر فيها طوائف من أصحاب الدعوى الكاذبة أهل الرقص والشطح (٢)

وتبعه على هذا النقد المجمل ابنه الشيخ سيدي محمد وزاد عليه أن من بين هؤلاء الطوائف البدعية الطائفة الأغظفية ، فيقول :

(وأن نحو ما بلغنا عن بعض من يتشبه بالقوم ، ويدعى سلوك طريقتهم في الدعوة إلى الدخول إلى ما هم فيه بحكاية كلمات في أذن المدعو أو الضرب في صدره فيصعق لحينه ، ثم يفيق وقد أخذ إلى نحو ما هم عليه ، وربما جن وتدله كحال سكارى المجاذيب ، مع دؤوبهم على العبادة والذكر . بدعة شنيعة في وجه الدعوة ، قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الغلاوية ص ١٩٤ ويقارن بما في كتاب : فيليب فونداس ، رئيس مصلحة التجسس الفرنسية ، الاستعمار الفرنسي في إفريقيا السوداء ، دراسة عن الاسلام في أفريقيا السوداء الفرنسية ، صدر في باريس سنة ١٩٥١ م ، وعربه : محيي الدين القليبي ، نشر دار الفكر الإسلامي ص ١١٩ وما بعدها .

(٢) جذوة الأنوار في الذب عن مناصب أولياء الله الأخيار ، مخطوط ، مكتبة كلية القرويين ، بفاس (٨٩٥) ص ٩٧ .

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ (١) وليس ما تعاطى هؤلاء القوم المسمون بالغظف بإرشاد ولا تربية ولا ترقية بل هو باب الدعوة الفاسدة .. وشأن العارفين من المشايخ والناصحين إعطاء كل وارد عليهم ما يحتمل ويقبل ، وكتم ما زاد عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (حدثوا الناس بما تحتمله عقولهم) (٢) ولا شك أن هؤلاء على تقدير صدق دعواهم قد خالفوا هذا الحديث الصحيح ، وصادموا ما عليه مشايخ الطرق) (٣)

ويفصل نقده لهم هذا في كتابه الغلاوية حيث يحكم عليهم بأنهم أتوا ببدعة صريحة في الدين لأن : (مبنى طريقهم الإسرار إلى المريد بكلام أو رمز يضعف السمع من أجله ، فيصير السامع لا يحس ولا يعقل ، وهذا ما لم ينقل مثله عن مسلم فيما سلف . وأنهم أماتوا سنة الرياضة التي مضى عليها الأمر سلفا وخلفا . وأنهم يلقنون الوارد عليهم بعد صعقه ذكر الهيللة مفردا.) وهو يأخذ عليهم في هذا عدم التدرج في السلوك ، وعدم إضافة الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة مع كلمة الشهادة لله تعالى بالوحدانية ، لأنهما أحد جزئي الكلمة الشريفة التي لا يكون الإيمان بالاقتصار على أحد شطريها.

وأنه لا عناية لهم بالوارد عليهم بعد صعقه وتلقينه الذكر المفرد لا بتعليم ولا بأداء عمل (بل يوهمونه أن صعقته تلك موصلة إلى أرقى المقامات) (٤) .

---

(١) سورة النمل (الآية ١٢٦)

(٢) ورد هذا الاثر موقوفا على علي رضي الله عنه ، في صحيح البخاري : (٤٩ . باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا . وقال علي : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله وسوله ؟) البخاري كتاب العلم ، الباب المذكور رقم الحديث (١٢٧) وورد معناه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في صحيح مسلم : (المقدمة باب النهي عن الحديث بكل ما سمع .

(٣) الطرائف والتلائد ص ٣١٣ . ٣١٤ .

(٤) الغلاوية ١٦٤ . ١٧١ و ١٨٣ . ١٨٦ و ١٩٤ بإختصار غير مغير .

قلت : إن نقد الشيخ سيدي محمد الكنتي هذا للأغظفية وجيه وصائب إذا صح هذا عنهم حيث إن الإسرار أو الإعلان بما يذهب العقل الذي هو مناط التكليف وبه يحصل التمييز حرام في الأديان السماوية كلها ، ولا تحصل عبادة أو عبودية صحيحة إلا بسلامة العقل ، واعتدالة هذا من الناحية السلوكية المرتبطة بالميزان الشرعي دائما • وأيضا فإن تلقين كلمة الشهادة فقط والاقتصار على شطرها الأول فقط دون استعمال الأذكار الأخرى الثابتة في الكتاب والسنة يعد نقصا وانحرافا عن الاتباع ، خصوصا إذا ثبت أنهم يقولون : (إنما تبلغ الغاية وينال الوصول بذكر الله ، وذكر النبي . صلى الله عليه وسلم . حجاب عن الغاية •) (١) فالأولى والأفضل الجمع بين شطري الكلمة الشريفة ، أما : (من أنف عن الشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة حالة الذكر . واستخف بها فإنه يكون شبيها بإبليس ومن نهى عنها أحرى في ذلك ، ومن أهملها فقد أخطأ الطريق الحق) (٢) •

وهو أيضا صائب في أنه لا يجوز من الناحية الشرعية ولا في الآداب السلوكية والتربية إهمال المريدين دون تعليم ومتابعتهم في الأعمال التي كلفوا بها من الشارع حتى يعتادوها ويستقيموا عليها • ومع صحة ووجاهة نقد الشيخ سيدى محمد الكنتى للطائفة الأغظفية . إن صح ما ذكر عنهم فإننا لا ننسى أن شيوخ التصوف في عهده يتنافسون في كسب أكبر عدد ممكن من المريدين ، ولذا فلا يرضون بظهور منافس جديد ، ربما قلل من إقبال الناس عليهم ، أو ربما قعد في طريقهم لاجتذابهم نحوه (٣) وهذا ما نلاحظه ونفهمه من أسلوب الشيخ سيدي محمد الكنتي ، ويفرضه عليه واقع المشيخة حيث إنه يهاجم ويدافع من أجل المحافظة على مكانته كشيخ مورود ، ولذا فهو يرى أن من ادعى المشيخة في الطريقة دونه ، فإنما هو مبتدع صاحب دعوى باطلة يحب الرئاسة وصرف وجوه العامة إليه ، وقد أمات سنة الرياضة والأخذ عن وارث النبوة والولاية • (٤)

---

(١) الغلاوية ص ١٩٢ •

(٢) نفسه ص ١٨٦ •

(٣) الاستعمار الفرنسي في أفريقيا السوداء ص ١١٩ •

(٤) الغلاوية ص١٩٤ . ١٩٥ •

وقد زاد من حدة نقد العلماء للطائفة الأغظفية كثرة المتجردين فيها من العوام للخدمة على ما تقدم ، وكذلك مظاهر الجذب التي قد تستمر مع أحدهم وقتا طويلا يضيع عليه خلاله من الواجبات والفرائض ما لا يمكنه تداركه من أجل هذا حمل عليهم الشيخ محمد يحي الولاتي وكفرهم واتهمهم بالزندقة في رسالتين أو مؤلفين يقع أحدهما في مائة وثمانية وخمسين صفحة (١) ويقع الثاني في مائة وستة وثلاثين صفحة (٢) ٠

والواقع أن الأغظفية رد عليها من طرف الفقهاء ردا عنيفا وصل إلى المحاكمة (٣) علاوة على الاتهام بالزندقة وادعاء الجذب الكاذب لتضيع الصلاة (٤) وارتكاب المحظورات وكان الذي حوكم من شيوخ الأغظفية الشيخ علي بن آفة الذي تقدمت ترجمته حيث اتهمه أحد الفقهاء بالزندقة والجذب الكاذب والكلام بالمتشابه من القول أو ما لايعرف معناه ، ولعله لم يثبت عليه شيء مما نسب إليه حيث إنه لم يصدر عن المحاكمين له حكم بثبوت التهمة عليه ٠

ولهذ الشيخ المحاكم نظم في التصوف يقع في ثلاثمائة بيت تقريبا سماه : نصيحة المغتر وكفاية المعتر ٠ بين في هذا النظم منهجه في السلوك الصوفي ورد فيه على الناقدين له عموما ٠ ومما تكلم عليه في هذا النظم الواردات التى ترد على قلب الذاكر فتقضي به إذا لم يكن قويا متماسكا إلى الجذب الذي هو أهم أسباب نقد هذه الطريقة ٠

قال : (فالواردات كالرياح والقلوب مثل الغصون والثمار والحبوب

فالرجل الضعيف غصنا يفزع لكل وارد عليه يقع) (٥)

قلت : يعرف من هذا أنه يرى أن حالة الجذب والذهول صفة ضعف غير ممدوحة ، ولا مطلوبه لذاتها ٠ وممن خصصهم صاحب هذا النظم بالرد ، الشيخ

---

(١) انظر نصيحة أولاد الزوايا والطلبة عن الدخول في طريق زنادقة المتصوفة ، مخطوط خاص ص ٢. ٤ ٠

(٢) الرد على الحسن القظفي ، مخطوط خاص ص ٢ ـ ٣ ٠

(٣) المحاضر الموريتانية ، مصدر سابق ص ٨٧ ٠

(٤) انظر الرد على الحسن القظفي ص ٣ وما بعدها ٠

(٥) الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١٣٩ وملف الرحلة العلمية ص ٩ ـ ١ ٠

محمد يحيي الولاتي ، حيث أنكر عليهم كما هو مفهوم من الرد الاجتماع للذكر وتوظيف الوظائف ، وما يصحب أداء ذلك من القيام والرقص والجذب ، فيقول :

(فانظر لذا أجوبة التجانـــي ... عن شيخه التجاني في ذا الشان
قبل غروبها اجتماع ذا الملا ... فيرقصـــــون جلســـــاء أولا
من بعدما يتلون بعض وردهم ... ثم يقومون من اجـل جدهـــم
فيرقصون قائميـــن أيضـــا ... ومنشد ينشد شوقا فيضـــا
وذا بكل جمعة قد يفعل ... يا عجبا من منكر ويفعـــل) (١)

قلت : وليس فيما يرتكبه الناس من البدع المصاحبه للذكر حجة لأحد على أحد ، كما أنه ليس لمن يفعلها حجة عليها ٠

ويؤخذ من البيت الأخير أن المردود عليه ينكر ما يفعله هو وأصحابه ، كما أن فيه إشارة واضحة إلى أن الشيخ محمد يحيي الولاتي من أتباع التجانية ، وهذا عندى بعيد لما عرف عنه من الفقه والحديث ومقاومة أهل البدع عموما تشهد بذلك رحلته التي كتبها عن حجته (٢) والرسالتين اللتين ذكرناهما في ردوده على الأغظفية ومن يدخل في مسمى زنادقة المتصوفة عنده ٠ إلا أنه يفهم من رواية لمحمد المختار السوسي في كتابه المعسول أنه أخذت عنه فى المغرب الطريقة (الأحمدية) (٣) ولم أعرف ما مراده بالأحمدية إذ إن هذا الاسم يطلق على فرق وطرق صوفية ولا يعرف علما على التجانية (٤) هذا مع أن التيجانية انتشرت في ولاتة مسقط رأس الشيخ الذي توفي فيه سنة ١٣٣٠ هـ ، ولولده الفقيه محمد عبد الله رد على مشتهى الخارف الجاني للشيخ محمد الخضر بن ما يأبى وقفت عليه مخطوطا في مجلد يزيد على المائة والخمسين صفحة فلعل التجانية تمكنت في ذريته من بعده والله أعلم ٠

---

(١) ملف الرحلة العلمية ص ١١ ٠

(٢) انظر الأسئلة الواردة عليه وهو بالأسكندرية وحواره مع الصوفى الصحرواي في نفس الرحلة وهي مخطوطة غير مرقمة ٠

(٣) انظر ترجمته في المعسول جـ ٨ . ٢٨٢ والأعلام للزركلي جـ ٤ ص ١٤٢ . ١٤٣

(٤) نعم سماها الشيخ عمر بن سعيد الفوتي في كتابه رماح حزب الرحيم ، المطبوع على هامش، كتاب جواهر المعاني ، بأسماء عديدة : الأحمدية والمحمدية والإبراهمية والحنيفية والتجانية فدلت هذه الأسماء الكثيرة على عدم اشتهار الأحمدية علما عليها ولكن التجانية هي العلم المعروفـة به ٠ انظر المرجع المذكور وتوجيه مؤلفه لكثرة أسمائها (دار الكتاب العربي ٠ بيروت ط ٢ سنة ١٣٩٣ هـ ص ١٦١ ٠)

أثرها وواقعها :

بعد أن عرفنا بالأغظفية وترجمنا لأبرز شيوخها حسب الإمكان واستعرضنا بعض النقد والرد الموجه ضدها من بعض أهل العلم والتصوف ، يجدر بنا أن نعرف شيئا عن أثرها في الحياة وواقعها المعيشر .

يجمل الأستاذ الخليل النحوي أبرز سمات الأغظفية بعد أن ذكرها تحت عنوان طرق أخرى : إلى جانب الطرق الثلاث الرئيسية : القادرية ، الشاذلية ، التجانية ، ظهرت طرق أخرى في بلاد شنقيط سادت في فترات محدودة أو في مناطق محدودة ولكنها أدت أداورا هامة . ومن هذه : الطريقة الغظفية : (.. وهى طريقة محكمة التنظيم وقد شغلت الفرنسيين وأهمتهم فصدرت عنها أبحاث وكتب ، ورغم تركيزهم على مظاهـــر الجذب فى هذه الطريقة فلىن منشأ اهتمامهم بها قد يكون تميزها بثـلاث سمات :

١) أنها شنقيطية المنشأ (١)

٢) أن الشريف سيدى بن مولاي الزين قاتل (كابولاني) ينسب إليها ، (٢)

٣) أنها نظمت حركة هجرة جماعية إبان دخول الفرنسيين . ففي سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤ م توجهت ٥٠ أسرة من الغظف إلى الحج بقيادة الشريف القلقمى محمد الأمين بن زيني - وفي الطريق حملهم الأتراك إلى القسطنطينية حيث استقبلهم السطان عبد الحميد استقبالا حسنا ، واستقروا بعد الحج في الأناضول) (٣)

---

(١) سبق قول صاحب هذا النص أن الغظفية : مزيج من الطريقتين القادرية والشاذلية وقد تبين بشيىء من التتبع أنها ناصرية درعية ، والدرعية زروقية شاذلية والشاذلية قادرية . وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان لهذا عند عرض سلاسل القادرية في موريتانيا .

(٢) سيأتــي الكلام عنه في ميحث : موقف القادرية من الجهاد ، وانظر المحاضر الموريتانية ص١٣٠

(٣) بلاد شنقيط ص ١٢٤

كان للأغظفية أثر بارز في نواحي عديدة فهي من ناحية أثارت بعض شيوخ الطرق الصوفية كما رأنيا حتى كتبوا فى نقدهم والرد عليهم ، وقام بعض الفقهاء في مناطق متعددة بنقدها والرد عليها ، وكان لها هي أيضا شيوخ كتبوا في الرد عنها والدفاع عن مسلكها ، وفي ذلك كله إثراء للناحية العلمية والأدبية .

وكانت لها مواقف من (التبغ) واستعمالاته وهي بهذا الموقف حمت كثيرا من أتباعها ومحيطها من هذه العادات السيئة التي غزت البلاد الإسلامية مع دخول الكفار إليها ، ولها مواقف جهادية مشهورة ضد المستعمر الفرنسي وغيره داخل موريتانيا وخارجها (١)

وأشتهر عنها من البغض للكفار ورؤيتهم أشياء عديدة منها أن شيوخها الأوائل كالشيخ محمد محمود الخلف مثلا كان يحتجب عن النصارى حتى مات ولم ير منهم أحدا قط .

ويظهر أن الكفار كانوا يبادلونهم نفس البغض ويراقبون تحركاتهم ، ويضيقون عليهم قدر المستطاع ، لذا كانت كتابات المخابرات الاستعمارية عنهم شديدة حيث تصفهم بالتحلل الديني والأخلاقي والإصابة بالهستيريا والوقوع في المحارم ، والفوضى في أثناء الصلاة والاشتغال بالدسائس والمكايد (٢) .

وعندما أحست الأغظفية بتشديد الحملات عليها من جهة بعض الفقهاء والاستعمار نظمت الرحلات المذكورة سابقا للحج والانضمام إلى الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت وهي الدولة العثمانية (٣) .

وقد أثرت هذه الهجرة التي نظمتها الأغظفية ميادين علمية وثقافية حيث أنشأ العلماء رسائل وقصائد وأنظاما في حكم الهجرة من بلاد الكفر أو دار الحرب عند العجز عن الجهاد (٤) .

---

(١) المصدر السابق والمحاضر الموريتانية ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ، مصدر سابق ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٣) بلاد شنقيط ص ١٢٤ .

(٤) المحاضر الموريتانية ص ١٣٨ وما بعدها .

وقد كونت الأغظفية مراكز زراعية وإنمائية ساعدتها على البقاء في وجه الضربات الموجهة إليها من جهة ، وأثرت الاقتصاد المحلي من جهة أخرى وكان بعض هذه المراكز مأوى لكثير من طلبة العلم ولو لم يكونوا من أتباع الطريقة الأغظفية ٠

وبهذا يكون قول الأستاذ الخليل النحوي : إنها سادت في فترات محدودة ، أو في مناطق محدودة ، وأنها أدت أدوارا هامة في محله ٠

ولكنها اجتمعت عليها أمور عديدة كادت تقضي عليها ، فمن هذه الأمور أن الفقهاء من جهة والاستعمار من جهة أخرى متفقون على مقاومة انتشارها ، ومحاربتها فمن الفقهاء وشيوخ الطرق الصوفية التي هي أقدم منها من يكفرها كما رأينا ومنهم من يبدعها ، والاستعمار من جهه أخرى يشتد عليها ويفتش ويصادر الداخل إلى مراكزها (١) فاجتمع عليها بسبب ذلك أن انحصر انتشارها في الداخل وفتح باب الهجرة لخروج معظم شيوخها وأتباعها إلى الخارج ، يضاف إلى ذلك اكتساح التجانية للمنطقة التي كانت تتمركز فيها ٠ واستيعابها لأعداد كبيرة من الداخلين الجدد كما سنرى فيما بعد إن شاء الله تعالى ٠

يضاف إلى هذا توقف شيوخها أو بعضهم عن إعطاء الورد للوافدين الجدد كما تقدم ، وتغير أحوال المعيشة في البلاد بسبب توالي سنوات الجفاف الأمر الذي هلك بسببه الحرث والنسل وهذان هما مصدرا استمرار الحياة في هذه المراكز الأغظفية وغيرها حيث إن عمل المريدين المتجردين في الغالب في الزراعة ورعي المواشي وقد اجتث ذلك كله ٠

ولم تكن التجارة والعمل في المدن من شأنهم في السابق خصوصا أن معظمهم قد طعن في السن ولم يكن له اولاد بسبب نظام التجرد والعزوبة التي يفرضها ذلك النظام ، وبالتالى أصبح هؤلاء عالة على الشيوخ وأحفادهم ، وانحسرت الطريقة وبقي من كانت حضرته في الأصل لها دور علمي تبني عليه مستمرة فيه ، ومن لم يكن له في السابق مثل ذلك الدور استولى الجهل على أتباعه ، وبقي هو وهم يعيشون على ذلك الانتساب الغابر حيث يجنون من ورائه شيئا من حطام الدنيا ٠

والله أعلم ٠

---

(١) نبل المراد ـ المقدمة ج ٠ د ٠

التجانيـــة :

ظهرت هذه الطريقة على يد أبي العباس أحمد بن محمد المختار بن أحمد ابن محمد سالم التجاني المضاوى ، المولود سنة ١١٥٠ هـ المتوفى على الأرجح سنة ١٢٣٠هـ (١) .

وتلقى عنه طريقته في فاس عدد من الموريتانيين ، كان من أشهرهم فيها ، وأكثرهم نشرا لها الشيخ محمد الحافظ ابن المختار بن حبيب العلوي المتوفى سنة ١٢٤٧هـ .

حيث عاد من فاس إلى بلاد موريتانيا في حدود سنة ١٢٢٠ هـ ، فنشر هذه الطريقة في قبيلته التي هي من أكثر قبائل موريتانيا علما . ومن أشهر من حمل هذه الطريقة عن الشيخ محمد الحافظ من الموريتانيين الموصوفين بالعلم : محمد بن سيدي عبد الله بن الفغ (الفقيه) سيدي أحمد ، الذي لقب (بالخليفة) لخلافته لشيخه محمد الحافظ المذكور (٢) (وكان المعتمد عنده الكتاب والسنة) . (٣) وسيدي أحمد بن محمد الصغير ، المعروف بابن التشيتى (٤) وسيدى عبيدة بن محمد الصغير التشيتى (٥) وسيدي عبد الله بن أحمد دام (٦) وسيدي مولود فال (٧) .

فعن هؤلاء انتشرت الطريقة التجانية في مناطق من موريتانيا وما جا ورها من بلاد افريقيا (٨) .

---

(١) يرجع في ترجمته إلى كتاب جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني ، تأليف : علي حرازم بن العربي براده المغربي الفاسي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٢ سنة١٣٩٣ هـ ج ١ ص ١٩ وما بعدها . وبغية المستفيد لشرح منية المريد ، تأليف سيـدي محمد العربي السايح الشرقي العمري التجاني ، ط دار الجيل ، بيروت (بدون) ص ١٣٥ وما بعدها .

(٢) يرجع في تراجمهم إلى بغية المستفيد ، مرجع سابق ص ١٠ ، ٢٥٧ وما بعدها .

(٣) الوسيط ص ٣٠ .

(٤) نفسه ص ٨٩ .

(٥) نفسه ص ٢٨٨ .

(٦) بلاد شنقيط ص ١٢٣ .

(٧) الحياة الصوفية . المختار بن حامد ص ١٨ . ٨٢ وحاضر العالم الإسلامى جـ ٢ ص ٣٩٦ وما بعدها وبغية المستفيد ص ٢٥٩ ، ٢٦٥ .

(٨) الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ص ٢٧١ - ٢٧٣

وتعتبر التجانية من الطوائف التي عملت على نشر الإسلام ، وتكوين الدول ، ومحاربة الاستعمار في بعض المناطق ولكن هذا لم يشفع لها عند الطرق الصوفية التي هي أقدم في البلاد ، بسبب المنافسة ، ولا عند الفقهاء عندما أظهر أتباعها من الأمر ما يراه الفقهاء مخالفا للاعتقاد الإسلامي الصحيح والسلوك الشرعي المألوف .

فكان الشيخ سيدي المختار الكنتي من أول المهاجمين للتجانية وسلوكها العام حيث اعتبرها من الطوائف البدعية التي ظهرت في البلاد (.. ومنهم أصحاب الحضرات والرقص) ثم يوجه كلامه للشيخ المختارين بون في قوله في معرض الرد عليه بسبب تكفيره من اعتقد وجوب تصديق الأولياء . يعني الصوفية . فيما يخبرون به من الإلهامات والمنامات وغيرها فيقول له :

(ولو أن هذه المقالة الشنيعة كانت في أهل الدعوى الكاذبة الذين قد عموا البلاد ، وأكثروا الفساد وأعموا العباد لكان لقوله وجه) . ثم يضيف . (ومن ذلك ما ظهر في أقطار الأرض من دعوى طوائف شهوانية غوغاء شيطانية ... لو جاءهم إنسان فقال لهم إني نبي أرسلني الله بعد نبيكم لاستمعوا إليه ولم يظهروا النكير عليه ، ولو قال لهم إنه يتحدث مع الله ويأكل من ثمار الجنة ، ويعانق الحور لصدقوه ، لشدة جهلهم وغباوتهم ، وعدم عنايتهم بأمر دينهم ، فالتشديد على هؤلاء بالتنكيل التنديد والابعاد والتطريد آكد منه على الكفار.) (١)

قلت : وهذا من وصفه لحالهم وحكمه عليهم يدلنا علي أن ما ذكره التجانية من أن الشيخ سيدي المختار الكنتي حمد الله أن جعله في قرن خاتم الأولياء ، وأنه أراد بذلك الشيخ أحمد التجاني(٢) غير صحيح ، والذي ورد عنه في ذلك سنوضحه إن شاء الله في ختم النبوة والولاية في الفصل الخامس من باب العقيدة .

وقد تبع الشيخ سيدي المختار الكنتي في نقده للطوائف البدعية الشهوانية كما يقول - ولده وخليفته الشيخ سيدي محمد الكنتي ، حيث شدد النكير على أصحاب

---

(١) جذوة الأنوار ، مرجع سابق ص ٩٧ ، ١٠٨ ، ١٢٢ .

(٢) مجلة العربي ، الكويتية ، ربيع ثاني ، ١٤٠٢ هـ ص ١٤٢ .

الدعوى عموما وذكر أن من أصولهم الجهر بالذكر ، والاجتماع له ، والتغاشي فيه، والتشطح وإظهار التهالك والتساكر ، وبرأمن ذلك طريقته وحكم على ذلك كله أنه من البدع ، وأن أصحابه تؤثر فيهم الأبيات المنشودة ولا تؤثر فيهم الآيات المنزلة •

وأكد أنها حضرات مبتدعة ، وأن ذكر أصحابها لا ينير القلب ولا ينشر الرحمة (وأقبح من فعلهم التعامي عن الرد عليهم وافتضاح با طلهم اذ لاحجة لهم ولا دليل ولا برهان ولا تأويل) (١) وقد عناهم الشيخ المختار بن بون فيمن عنى من الصوفية الذين قال فيهم : << من الطويل >>

(لئين كنتم استظهرتمو أن جعلتمـــوا ... أمور ا علينا في الشريعة لم تكن
فلا تنكروا أن كنت الكتب عنكـمو ... سرائر عنا حالة البحث لم تكن) (٢)

فواضح أنه يتهمهم بالابتداع في الدين ، وإحداث أمور في الشريعة لم تكن • وأن جهلهم بما في الكتب هو الذي أدى إلى ارتكاب هذه البدع •

وواضح جدا أن الشيخ سيديا بابه يعني التجانية فيمن عناهم بقوله : << من الرجز >>

(آمن أخي واستقم ... ونهج أحمد التــزم
واجتنبت الطرق لا ... تغررك أضغاث الحلم
لا خير في دين لدى ... خير القرون منعـــدم
أحدثه من لم يجيء ... قطع بأنه عصـــــــم
من بعد ما قد أنزلت ... << أليوم أكملت لكم • >> (٣)

وإياهم يعني محمد بن أبن الحسني بقوله معرضا : << من الخفيف >>

<< غير أني والحمد للــه بالإيمـــــــــــان مستمسك وذاك أمان
جازم أن الأنبياء الطهـــــارى ... مستحيل عليهم الكتمان
بلغوا كل مــا به أمـــروا مــا ... كتموه وما نسوا ما خانوا
لست أحجو وردا وإن جل عندي ... قاصرا عن إدراكه القرآن • >>

---

(١) الغلاوية ص ١٦٦ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ •
(٢) الوسيط ص ٢٨٢ •
(٣) حياة الشيخ سيديا بابه ، بقلم محمد بن أبي مدين ، على الآلة الكاتبة ص ٥ •
(٤) ديوانه ، مخطوط ص ٣ •

أما الشيخ سيدي أحمد البكاي الكنتي المعاصر للشيخ سيديابابه واللذان قارن بينهما بول مارتي الفرنسي في حدة الذهن وحب المعرفه (١) فإنه حارب التجانية نظما ونثرا ودخل معهم في معارك مسلحة حتى مات إمامهم الشيخ عمر الفوتي ·

فقد نظم قصائد وأراجيز كثيرة ينفر الناس فيها من التجاني وأصحابه ، ويحمل خاصة على أتباع الحاج عمر الفوتي · (٢)

ووجه رسالة في شوال عام ١٢٧٠ هـ إلى أهل مراكش يحثهم فيها على التمسك بالطريقة القادرية ، ويحذرهم فيها من الاختلاف ، ومن الطريقة التجانية موضحا لهم تناقضها وابتداعها في الدين، وما قامت عليه من الغلو والمبالغات في رفع مكانة شيخها التجاني (٣) ·

أما الشعر الذي هجيت به التجانية في موريتانيا فصيحا وعاميا فإنه لو جمع لكان في عشرات الدواوين ، وما زال الناس يحفظونه وينشدونه في مجالسهم الخاصة والعامة ، ويستدلون به على ما يريدون في دراساتهم ومحاضراتهم · ومن أشهر من تصدى للتجانية في بداية أمرها من وصفه صاحب الوسيط بنابغة قطره وجريرعصره (٤) اد ييج بن عبد الله الكمليلي (٥) وكان شعراء التجانية لا يجيبونه لأمر الشيخ محمد الحافـظ المتقدم الذكر ، فلما مات هاجموه واقذعوا له فازداد عليهم جرءة وشراسة · (٦)

قلت : وأمر الشيخ محمد الحافظ بن المختار بن الحبيب العلوي بعدم الرد على منتقديهم يمكن أن يكون سبب سكوتهم عن الشيخ سيدي محمد الكنتي وأمثاله لما

---

(١) كنتة الشرقيون ص ١٠٠ ·
(٢) انظر كنتة الشرقيون ص ١٠٣ - ١٠٤ ·
(٣) انظر الرسالة المذكورة في الخزانة العامة بالرباط ، رقم (د ١٠٧١) ص ١ . ٢٢
(٤) الوسيط ص ٣١ ·
(٥) نفسه ص ٣٦٨ ·
(٦) يراجع بلاد شنقيط ص ٥١٦ . ٥١٧

علم من تصاممهم عن الرد عليهم وعدم إجابتهم للناقد لهم والهاجي لطريقتهم ، على الاقل فى حياة الشيخ محمد الحافظ المتوفى سنة ١٢٤٧ هـ وقد مات الشيخ سيدي محمد الكنتي قبله سنة ١٢٤١ هـ ولما أطلقوا ألسنتهم بالرد والهجاء ، وأقلامهم بالتأليف ، ازداد أهل العلم في نقدهم والرد عليهم ، وشددوا في النكير عليهم ، حتى اتهموهم بالردة والزندقة ، الأمر الذي نتجت عنه معارك مسلحة ، زادت ضحاياها على الثلاثمائة نفس (١) .

ونتجت عنها سجون ومحاكمات ، ونفي وتشريد . (٢)

وأثار كذلك موجة من المؤلفات وزوبعة من المهاجاة (٣) فألف الشيخ محمد الخضرين ما يأبى الذي قال فيه صاحب الوسيط : (الإمام الدراكة الفهامة مالك زمانه) (٤) . ألف كتابه (مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني الجاني) (٥) .

وألف الفقيه سيدي بن عبد الجليل الملقب بسيدي بن حين رسالة في تضليل التجانية ومن يشاكلها وقال فيهم إنهم : (أكفر من فرعون والشيطان) (٦) .

---

(١) يرجع إلى : الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ، مرجع سابق ص ١٣٥ . ١٣٧ .

(٢) نفسه ص ١٣٦ . ١٣٧ .

(٣) الوسيط ص ٣٠ . ٣١ و ٨٩ . ٩٠ و ٣٦٨ . ١٦٩

(٤) الوسيط ص ٣٨ . ٨٩ قلت : والعجيب أنه يثني عليه هذا الثناء الحسن وهو يعرف أنه ألف مشتهى الخارف الجاني المذكور ثم هو يرد على النبهاني بكتاب سماه : دره النبهاني عن حرم سيدي أحمد التجاني ، طبع بمصر سنة ١٣٣٠ هـ أي قبل وفاته بعام حيث إنه توفي سنة ١٣٣١ هـ بالقاهرة ، علما أنه لم يذكر شتيا مما هجيت به التجانية ، وادعي عند ترجمته لاديبج أنه لم يحفظ شيئا من شعره قال : (وما أحفظ شيئا من شعر إديبج) ولكنه حفظ مارد عليه به . انظر الوسيط : ص ١٧ . ١٨من المقدمة و ص ٣٦٨ وانظر اعتذارالدكتور محمد المختار ولد اباه عنه في مقدمته للوسيط ص ٩ .

(٥) طبع الكتاب في دار البشير بعمان الاردن سنة ١٤٠٥ هـ .

(٦) مخطوط خاص ص٤

وبدخول الاستعمار الفرنسي افريقيا ومقاومته لانتشار التجانية أخذت التجانية في تضاؤل بالنسبة إلى ما كانت عليه في السابق في عهد الشيخ عمر الفوتي وخليفته في السياسة والحكم (١) .

ومع ضعف التجانية كدولة تنشر العقائد التجانية والسلوك الصوفي بالقوة والجهاد والسياسة فإنها بقيت طريقة منتشرة في مساحة كبيرة في أفريقيا ، وهي وإن لم تكن في الواقع أكثر أتباعا من الطرق الصوفية الأخرى فإن أتباعها أكثر حركة ونشاطا وترويجا لما عندهم ودفاعا عنه بالحق أو الباطل (٢) ولا شك أن المعارك العلمية والعسكرية التي خاضتها التجانية حدت من قوتها ونشاطها ، ويتوقع بعد موت شيوخها الكبار وعدم وجود ما كان عندهم من علم وقناعة ونشاط عند خلفائهم أن يخمد الحماس في الأتباع ، ويكتفي الشيوخ الحاليون منهم بإظهار الولاء وتقديم الهدايا والأعطيات وإنشاد المدايح ، والإتيان بما تيسر من أوراد الطريقة ، وفي الاكتفاء بهذا الحد من العوامل ما يكفي للقضاء مع مرور الزمن على الطريقة التجانية ، إلا إن حولت منهجها إلى الدعوة بالسلم والتساهل والسماحة ، وهذه أمور كانت تنتقدها التجانية فور نشأتها الأولى على الطرق الصوفية التي كانت قبلها في أفريقيا (٣) .

---

(١) الاسلام والثقافة العربية في افريقيا ص٢٧٣ وحاضر العالم الإسلامى جـ٢ ص ٣٩٧ . ٣٩٨ .

(٢) انظر التجانية ، تأليف : علي بن محمد الدخيل الله ، ط الرياض دار طيبه سنة ١٤٠١هـ وإبراهيم انيس وآراؤه ، تأليف محمد الطاهري ميغري الفلاني البرناوي ، ط دار العربية ، بيروت ط ١ سنة ١٤٠١ هـ .

(٣) انظر استطلاع مجلة العربي الكويتية ، ربيع ثانى سنة ١٤٠٢ هـ ص١٤٢-١٥٢ والاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١٣٢ وما بعدها ، و الإسلام والثقافة العربية في افريقيا ص ٢٧٢ .

فروع التجانية :

تشعبت التجانية في الآونة الأخيرة إلى شيوخ وشعب كثيرة كل يرى أنه هو الشيخ الذي ينبغي للجميع اتباعه ، لكن من أهم هذه الفروع التي تعد الآن أصولا فرعين هما :

الحافظية والحموية ٠

الحافظية :

وهي منسوبة للشيخ محمد الحافظ السابق الذكر ، وقد انتشرت في موريتانيا وفي سينغال ومالي وما جاورهما على يد كل من الحاج عمر تال المتوفى سنة ١٢٨٠ هـ ، والحاج مالك المتوفى سنة ١٣٤٠ هـ والحاج عبد الله انياس المتوفى ١٣٤٠ هـ ثم ابنه إبراهيم المتوفى سنة ١٣٩٥هـ ومنه انتشرت الطريقة التجانية إلى أفريقيا الوسطى وخصوصا في نجيريا (١) ٠

الحموية :

الحموية تنسب إلى الشيخ حماه الله الشريف التشيتي المتوفى في المنفى الفرنسي بفرنسا سنة ١٣٦٣ هـ ٠

انتشرت عنه الطريقة التجانية الحموية ، ولاسيما في شرقي موريتانيا ومالي وقد ترجم له رئيس المخابرات الفرنسية أيام الاحتلال الفرنسي لموريتانيا ترجمة كاملة ، وتابع تطور حياته ، ونشأة طريقته ، وما سببته للمستعمر من إزعاج ، وللقبائل المجاورة لها من زعزعة الأمن والحروب ، وما آل إليه أمرها ، وقد كتب هذا الفرنسي عن معايشته لهذه الطريقة ونقل عن مخابر قبله وهو بول مارتي (٢) ٠

وقد أقتصرت في الحديث عن التجانية فلم اتعرض لوردها وغلوها وشطحها واكتفيت بالاحالة على المراجع التي تخصصت في دراسة عقائدهم وأورادهم وآرائهم فذلك أفضل للقارىء في تكراري أنا له هنا ٠ والله أعلم ٠

---

(١) رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم للشيخ عمر بن سعيد الفوتي ، مرجع سابق بهامش جواهر المعاني جـ ١ ص ٢٠١ وما بعدها ٠ وبغية المستفيد على منية المريد ص٢٥٩ ، والحياة الصوفية ، المختار بن حامد ص ٨١ . ٨٢ ٠

(٢) الاستعمار الفرنسي في إفريقيا السوداء ص ١٣٢ وما بعدها ٠

الفصل الثالث

الفصل الثالث

فروع القادرية ومراكز انتشارها .

وفيه المباحث الآتية بعد التمهيد :

المبحث الأول : البكائيه (المختارية) وفروعها

المبحث الثاني : الفاضلية وفروعها: سلاسل القادرية في موريتانيا

المبحث الثالث : وفيه مطلبان :

المطلب الأول : سلسلة البكائية (المختارية)

المطلب الثاني : سلسلة الفاضلية

التمهيـــد :

تناولت المباحث السابقة النشأة الأولى للقادرية في موريتانيا ، وأهم مراكزها ووسائلها في نشر واستقرار طريقتها في ذلك المجتمع البدوي المتنقل ، والقبلي المتصارع ، الذي لا تجمعه دولة أو سلطة ، ولا تحده حدود جغرافية .

وتناولت كذلك مظاهر ذلك الانتشار وذلك الصراع الذي أخذ أشكالا مختلفة علمية تارة ، وحربية أخرى ، قبلية مرة وطرقية عصبية في أشكال أخرى .

ولئن أسهمت تلك المنازعات في الحد من انتشار الطرق الصوفية في موريتانيا في بعض المناطق أو بين بعض البيئات العلمية المختلفة ، فإنها ظلت تنتشر وتؤثر في بعض الأفراد الذين كان لهم فيما بعد أثر كبير فى الحياة العلمية والأدبية ، الأمر الذي جعل منهم قدوات تحتذى ، وأضفى عليهم قداسة روحية تمنع من نقدهم أو حتى توجيه اللوم لهم ، فازداد بذلك اعتقاد الناس فيهم ، وتجمعهم حول حضراتهم .

هذا مع ما عرف عنهم عند الناس من رعاية طالب العلم أو الطريقة ، والقيام على الجار والمسكين ، ونشر روح المسالمة والمحبة بين المجاورين لهم ، مقابل ما عرف من القسوة والسلب والنهب ، والحروب بين المجتمعات البعيدة منهم والتي لا تأخذ بطريق أهل العلم ولا بطريق أهل التصوف ، وكان الذى يمن الله عليه بالتوبة من حياة السلب والنهب والخروج من تلك المجتمعات الجاهلية يجد أمامه طريقين للخلاص :

أ) طريقة طلب العلم على أيدي الفقهاء والقراء ، وهي طريقة شاقة ، وليس كل الناس مؤهلالها أو للدخول فيها أو التحصيل النافع إذا هو غامر ودخل فيها .

ب) طريقة أهل التصوف التي عرف عنها التساهل في قبول المريدين ، واكتفاء كثير من شيوخها من المريدين بقدر قليل من فروض العين ، واستعمال الأوراد والوظائف اليومية ، والعكوف على خدمة الشيخ وذويه ، وأنه بذلك يحقق في وقت قصير مالا يحققه لو قضى عمره في طلب العلم . فيختار بعض الناس التوجه إلى زوايا وحضرات الطرق الصوفية لهذه السهولة والحصيلة الموعودة ،

وبذلك عظمت مراكزها وانتشرت فروعها ، وتولت قيادة قبائل بكاملها ، وأثرت في مناطق كثيرة لانتشار أتباعها فيها عبادا أو سواحا وتجارا (١) وقد اشتهرت في بلاد موريتانيا طريقتان قادريتان هما :

البكائية (المختارية) (٢) والفاضلية (٣)

وتفرعت عن كل منها فروع كثيرة في موريتانيا وخارجها ، ولكن مع مظاهر هذا الانتشار للطرق الصوفية فإن المنتظمين فيها فعلا لايتجاوزوه ٣ ٪ من عدد السكان في أي بلد من البلاد الإسلامية (٤)

والمقصود هنا تحديد مسير كل من هذين الأصلين وما تفرع عنهما ، وعرض سلسلتيهما في الطريقة القادرية ، وبيان ما بينهما من علاقات أو ميزات حتى يتضح مشرب كل منهما ، ومدى تعمقه في الفكر الصوفي ، وأثر ذلك على العقيدة التي هي مقصد البحث الأول .

---

(١) يرجع إلى : الفرق الإسلامية في الشمال الافريقى ص ٣٨٤ ـ ٣٨٨ و ٤٠٩ وما بعدها . والدعوة إلى الإسلام ، لسير توماس ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٢) حاضر العالم الإسلامي جـ ٢ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦ و ٣ ، ٤٥ ـ ٤٦ و ٥٣ ـ ٥٤ .

(٣) الاستعمار الفرنسي في افريقيا ص ١٠٨ ـ ١١٠ .

(٤) انظر دائرة المعارف الإسلامية جـ ١٥ ص ١٧٦

أولا : البكائية (المختارية)

تنسب هذه الطريقة إلى اثنين من شيوخها .

أولهما : الشيخ سيدي أحمد البكاي (١) وإن كان ابنه الشيخ سيدي عمر الشيخ هو المجتهد في نشرها (٢) كما عرفنا في السابق .

ثانيهما : الشيخ سيدي المختار الكنتي من أحفاد المتقدم ، ومن الذين تصدروا في الطريقة القادرية وعملوا على نشرها ، وبنوا عليها مكانة دينية في موريتانيا وخارجها (٣) .

وصل أجداد الشيخ سيدي المختار الكنتي كما يقول ابنه الشيخ سيدى محمد الكنتي في الغلاوية إلى أزواد بالصحراء شرق موريتانيا حاليا سنة ١١٣٠ هـ (٤) .

وانتشرت هذه الطريقة من مراكزها الأولى التي ذكرناها سابقا ، ثم من أزواد مقرها الرئيسي الجديد حيث كان الشيخ سيدي المختار الكنتي يصدر مريديه ويعين منهم مقدمين ونوابا عنه في المناطق النائية عنه (٥) ثم انتشرت هذه الطريقة إلى البلاد الافريقية المجاورة (٦) وتأسست فيها مراكز على نهج المركز الرئيسي في أزواد ، ثم عملت هذه المراكز الفرعية على نشر الطريقة المختارية فأنشأت المدارس والزوايا حتى كاد بعضها يستقل دون المركز الرئيسي الأمر الذي اعتبره الشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه سيدي محمد من بعده مروقا أو خروجا عن الطاعة أو

---

(١) انظر ترجمته في فتح الشكور ص ٣٠ . ٣١ .

(٢) تقدم الكلام عن صحبته للمغيلي وخلافته له .

(٣) وستأتي ترجمته مستوفاة إن شاء الله في أول تراجم أعلام القادرية .

(٤) الغلاوية ص ٧١ وانظر الوسيط ص ٤٥٨ .

(٥) جنة المريد ص ١٩٩ . ٢٠٠ .

(٦) حاضر العالم الإسلامي جـ٢ ص ٣٩٥ والمدرسة الكنتية القادرية لمحمد المديوني . مخطوط خاص . ص ٢ . ٣ .

حبا للرئاسة والوجاهة وجمع حطام الدنيا (١) ٠

ويمكن الحديث عن توزيع مراكزها الرئيسة على النحو الآتي :

أ) المركز الرئيسي بأزواد وشيوخه :

- الشيخ سيدي المختار الكنتي (١٢٢٦ هـ)

- ابنه الشيخ سيدى محمد (الخليفة) (١٢٤١هـ أو ١٢٤٥هـ)

- ابنه الشيخ سيدي المختار (الحفيد) (١٢٦٣هـ) (٢)

- أخوه : الشيخ سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي الكبير (١٢٨١ هـ) وفي عهد هذا الأخير دخل الاستعمار الفرنسي البلاد ووقعت بسببه فتن كثيرة ، داخلية ، وظهرت أطماع خبيثة أجنبية استعمارية ٠ (٣)

ولذا قال (بول مارتي) : إن السلطة الروحية لهذا المركز تناثرت بين شخصيات مختلفة أكثرها نفوذا وسلطة في عهد الاستعمار الفرنسي للمنطقة علواته بن حمادي وبابي ولد سيدي عمر : (أما اليوم فليس هناك من زعيم روحي وحيد ٠ فالسطة المعنوية تقسمت بين شخصيات مختلفة ، كان نفوذها محسوسا في القبائل التي تحيط بها) (٤) ٠

قلت : وكان الاستعمار بدسائسه وراء ما حصل للنطقة من نزاعات وتوزيع الزعامات والمكائد حتى بين الإخوة ، حيث إن من أطاع الكفار المستعمرين وتعاون معهم سلطوه على إخوانه الآخرين الذين أخذوا بواجب الجهاد فتشتت بذلك وحدة

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٦٤ وجنة المريد ص ١٩٧ . ١٩٩ ٠

(٢) المدرسة الكنتية القادرية بأزواد وغرب افريقيا ص ٢ ٠

(٣) كنتة الشرقيون ص ١٥٠ - ١٥١ ٠

(٤) نفسه ص ١٥٠ ٠

المسلمين وتمكنت منهم في النهاية الدولة الكافرة فرنسا (١) •

ب) أما الزوايا والمراكز التي انبثقت عن هذا المركز فهي كثيرة نقتصر على أكثرها شهرة وأعظمها أثرا في موريتانيا وما جاورها من الدول •

لقد عد بعض الكتاب الغربيين الذين كانوا بمثابة أقلام للاستعمار ودرسوا من أجل مهمتهم جميع مظاهر الحياة في تلك البلاد . عدوا مراكز كثيرة لهذا الفرع القادري البكائي (المختاري) فعد لوثروب الآمريكي المراكز الآتية في قوله : (والقادرية كثيرون جدا في المغرب وزاويتهم الكبرى في (عزوات) . (يعني أزواد) . أسسها الشيخ مختار الكبير • وبعد وفاته انقسمت القادرية إلى ثلاث فرق : الأولى : القادرية البكائية الذين مركزهم الزاوية المذكورة ، وقد انتشروا إلى (تمبكتو) • الثانية : القادرية الذين في (آدرار) • (٢)

الثالثة : القادرية الذين في (والاته) وقد انتشروا إلى السودان الغربي فلهم مراكز في (كانكان) و(تيمبو) ، من بلاد (فوتا جالون) (٣) وفي مورسارد من بلاد الماندنيق (٤) ومن هذه النقطة امتدوا إلى الجهات المجاورة فعمروا ديار بلال الله ، وذكير الله ومدينة ، وما زالوا حتى وصلوا مقاطعة سيراليون) • (٥)

---

(١) انظر نفس المرجع ص١١٣ وما بعدها • وسيأتي مزيد بيان لذلك في مبحث الجهاد

(٢) آدرار . بالبربرية معناه الجبل وهو إقليم كبير في الشمال الموريتاني وهو عبارة عن جبال وأودية • انظر الوسيط ص ٤٢٨ •

(٣) بلاد تقع بين غينية والسينغال ، وهي بلاد جبلية وسكانها من جنس الجالونقة والبله والتريقولور وكلهم مسلمون وأمراؤهم يلقبون بالمامي بمعنى الامام من جنس البله ، وعاصمتهم في السابق هي تيمبو المذكورة في النص •

(٤) جيل من الزنج يضم البافبارة ، والمالينكه ، والسوتيكه •

(٥) حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦ والبلاد المذكورة من ساحل غينية ومنها سيراليون ليبرية جمهوريتان افريقيتان •

ومن أشهر مصدري هذه الطريقة المختارية في موريتانيا السفلى (القبلة) الشيخ القاضي بن الحاج بن أشفق احمد بابا الاجيجبي ، الذي ستاتي ترجمته إن شاء الله والشيخ سيدي الكبير ، وستأتي ترجمته أيضا ..

وقد انتشرت المختارية في المغرب واشتهرت لها زوايا عديدة وأوقاف كثيرة ، فمن هذه الزوايا المغربية المختارية :

- زاوية الحاج محمد بن دح الزموري المختاري . قال عنه صاحب الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام : (وكان له إذن في إعطاء الطرق الثلاثه المختارية وبها اشتهر بل هو عمودها في المغرب ... أما المختارية فشد الرحلة من آزمور إلى بلاد الصحراء بقصد أخذها عن القطب سيدي المختار الكنتي فوجده توفي ولعله في العشرة الخامسة (١) فأخذ عن الشيخ سيدي المختار الخليفة .) (٢) ثم ذكر صلات وثيقة بينه وبين الشيخ سيدي أحمد البكاي وقال : (وغالب الظن أنه أخذها عنه أيضا ووقع لبعض المتأخرين الجزم بذلك ورجع إلى آزمور فشدت له الرحال من أقطار المغرب وشيدبها الزاوية المختارية هو والمقدم الطاهر.) (٣) توفي الحاج محمد بن دح الزموري في المدينة المنورة سنة ١٢٨٤ هـ وأخذت عنه المختارية في الحرمين وزاوية فاس (٤) وزاوية مكناس (٥) وزاوية مراكش (٦) .

قلت : وقد تبلغ زوايا المختارية في المغرب والصحراء نحوا من عشر زوايا خاطب الشيخ سيدي أحمد البكاي في رسالته إلى أهل مراكش شيوخها بأسمائهم وحثهم

---

(١) لعله يقصد ابنه الشيخ سيدي محمد وقد توفي الشيخ سيدى محمد سنة ١٢٤١ هـ وقيل سنة ١٢٤٥ هـ .

(٢) هو الحفيد المذكور في الصفحة ١٩٨ .

(٣) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ، للعباس بن إبراهيم ، ط الرباط ج ٨ ص ٣٢٣ وما بعدها .

(٤) الإعلام ، المرجع السابق ج ٨ ص ٣٢٤ .

(٥) نفسه .

(٦) نفسه .

فيها على ما تقدم من التزام الطريقة القادرية ، وخاطبهم مخاطبة الشيخ لأتباعه مصرحا بذلك (١) .

وقد أخذت المختارية عن ابن دح المتقدم في الحجاز فأخذها عنه في مكة المكرمة سيدي عمر بن المكي بن المعطي ابن الصالح صاحب الذخيرة (٢) .

وأخذها عنه خلق آخرون منهم : ابن طاهر - أبو الحسن على بن ظاهر الوتري المدني الحنفي المولود سنة ١٢٦١ هـ والمتوفى في المدينة المنورة سنة ١٣٢٢ هـ قال الكتاني في معرض بيانه لشيوخ المذكور : (وبالجملة فشيوخه كثيرون ، ومن أغربهم روايته للطريقة المختارية عن (باشا) فاس : عيد بن أحمد بن موسى البخاري عن ابن دح دفين المدينة) (٣) ويظهر الشيخ سيدي محمد الكنتي في الطرائف والتلائد مدى انتشار مراكز القادرية المختارية فيقول : (... وكذلك الشيخ رضي الله عنه ، فإن الله تعالى لم يتوفه إليه حتى لم يبق موضع مما بين برق الأكراد إلى برك الغماد إلا وله فيه أتباع وأشياع يكونون أعيان ذلك الصقع الذي هم به ، فإن العدال محمد الباقر الذي هو أمير برن وماولاها كاتب الشيخ رضي الله عنه وأهدى إليه ، ودخل تحت طاعته ، وكذلك أمراء فلان وعلماؤهم عموما وخصوصا العلامة القائم بالدعوة إلى الله عثمان بن محمد ابن عثمان ابن فودى وأخوه المريد الفقيه عبد الله ، وابنه العالم الوزير محمد بل(٤) وسائر متغلبي الطوارق من : (أهير ودنك ولمدن وهكار وتدمكت) (٥) وعامتهم

---

(١) الرسالة المذكورة ، الخزانة العامة بالرباط (د ١٠٧١) ص ١ . ٢ والمدرسة الكنتية القادرية ص ٤ - ٥

(٢) الإعلام جـ ٨ ص ٣٢٣ .

(٣) فهرس الفهارس والأثبات ، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، عبد الحي عبد الكبير الكتاني ، دار الغرب الإسلامى ، ج ١ ص ١٠٨ .

(٤) يرجع في التعريف بالمذكورين إلى كتاب : الدعوة الإسلامية في غرب افريقيا وقيام دولة الفلاني ، مصدر سابق ص ١٥٨ وما بعدها .

(٥) هذه أسماء قبائل من الطوارق ورد ذكرها كثيرا في النزاعات القبلية التي أرخ لها صاحب الطرائف ، وانظر كنتة الشرقيون ص ١٥٥ وما بعدها .

فى ذلك كخاصتهم ثـم رؤساء السودان والبنابرة وفلان والرماة مابين (ابدحل) و(كاشن) ، قبل تغلب فلان واستيلائهم على البلاد السودانية (١) ثم رؤساء المغافرة من أولاد عبد الله والترارزة إلى أولاد داوود بن محمد من بقي منهم ، وأولاد الفحفاح ، وادوعيش ، وأولاد الناصر وأولاد أحمد أكيد وغيرهم ممن تحت أيديهم من القبائل اللمتونية المتغلبين هم عليها ، وكذلك عرب الصحراء من بني أدليم اسناينيهم ومعرفيهـم واعريب وأدي امنيع وعرب توات ابناء أعمر بن ملوك وأولاد زنان، وابناء احريز وأولاد الحاج وأولاد محمد ومن تحت أيديهم من بقايا زناتة ٠) (٢)

---

(١) يشير بذلك إلى ظهور الشيخ عمر بن سعيد التجاني ، الذي أقام امبراطورية كبيرة في غرب افريقيا وظل يتوسع حتى حاربه الشيخ سيدي أحمد البكاي خليفة صاحب النص . حيث ماتـا في شهر واحد تقريبا . واستولى الاستعمار الفرنسي بعدهما على البلاد كما تقدم بيانـــه ٠

(٢) الطرائف والتلائد ص٥١٨ وقد وافق بول مارتي على صحة هذا الانتشار الواسع للقادرية المختارية حسب معلومات وتتبعات خبراء الاستعمار انظركنتة الشرقيون ص ٧٤ . ٧٥ و ص ١٥٣ . ١٥٤ والقبائل المذكورة قبائل موريتانية تعمها (اللهجة الحسانية) راجع : حاضر العالم الاسلامي جـ ٢ ص ٣٦٠ . ٣٦٩ ٠

ثانيا : الفاضيلية وفروعها

تنسب هذه الطريقة إلى الشيخ محمد فاضل بن مامين (محمد الأمين) المتوفى سنة ١٢٨١هـ وقد اعتبرت هذه الطريقة فرعا من الطريقة الأغظفية ، التي تقدم الحديث عنها • ويؤيد هذه النسبة التي ذكرها بعض الباحثين وجود الطريقتين في منطقة واحدة هي الحوض الشرقي الموريتاني ، وكثرة ذكر الشيخ محمد فاضل للشيخ محمد الأغظف وثنائه عليه ثناء المريد على شيخه ، ومجاورته لقبره بعد موته ، واعتباره أن الفتح الذي جاءه إنما هو ببركة هداياه للشيخ محمد الأغظف ، ومجاورته عند قبره (١) •

يضاف إلى ذلك صحبته الفعلية لأهم وأعظم تلاميذ الشيخ محمد الأغظف ومصدريه كمحمد الأمين بن عبد الوهاب ، وسيدي محمد بن أحمد الأسود ، وأحمد زروق بن محمد الأغظف (٢) وإظهاره أيضا لما كان يدعو إليه الشيخ محمد الأغظف من الانفتاح على جميع الطرق الصوفية وإعطائه الأوراد القادرية والشاذلية لكل النـاس (٣) •

وقد كتب الاستعمار الفرنسي عن هذه الطريقة ، واهتم بها لبروز شيوخ كبار فيها ، ولانتشارها في جل مستعمراتهم الإفريقية ، ثم لقيام الشيخ ماء العينين في الشمال الموريتاني والمغرب بواجب الجهاد ضد أطماعهم •

فمن الكتاب الفرنسيين الذين كتبوا عن هذه الطريقـة رئيس المكتب الخـامس أي مصلحة التجسس الفرنسية حيث قال:(الطريقة الفاضلية : نشأت في قبائل

---

(١) الضياء المستبين - أنظر منه ص ٨ و ٢١٧ - ٢٢٢ و ٣١٧ و ٣٤٥ •

(٢) نفسه ص ٣١٧ - ٣٢٠ •

(٣) أنظر القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ، حامد بن محفوظ بن بو بكر سيره ، انواكشوط ١٩٨٤م ص ١٠ •

زناقة (١) في منطقة (الحوض) - الذين عرفوا بأهل طالب المختار - وقد نشأت في حجر الطريقة القادرية ، وهي عبارة عن رد فعل منطقي من قبل الشيوخ الذين هم رؤساء الطرق المعارضين للمحسنين ضد النفوذ السياسي والديني اللذين تتمتع بهما قبيلة (كنتة) التي لم ترد كما رأينا سابقا بالرغم من أصلها الزناتي أن تنفصل عن القبائل (الصنهاجية) وأن تدعم التفوق العربي في موريتانيا ·

ومؤسس هذه الطريقة هو الشيخ محمد فاضل (عاش من ١٧٨٠ - ١٧٦٩م كذا وخطؤه واضح والمعروف أنه توفي سنة ١٢٨٧هـ) واستند في تأسيس طريقته على أن كل الطرق التي حسب مفهوم الإسلام السني تقيم أسس الشريعة ، كل هذه الطرق مرغوب فيها ، وقد جعل طريقته كأنها مركز التقاء وقطب جاذبية لكل هذه الطرق لتي تعمل ضمن نطاق الشريعة الإسلامية وبفضل بركته الخاصة - فهو يعلم الورود (٢) كل الطرق الأخرى لا القادرية فحسب - تمكنت هذه الطريقة بمثل هذه الانتهازية أن تؤسس لها أتباعا روحيين انتزعوا من شيوخ الطرق القريبة ومن مقدميها - على حساب بقية الطرق لا سيما وأن تعاليمها تنص على جواز الانتساب في آن واحد إلى عدة طرق كما أنها مفوضة لإعطاء أي ورد من أوراد جميع الطرق الأخرى) (٣) ·

ويرجع الإدراي الفرنسي (بيري) - كما يقول الأستاذ حامد بن محفوظ - هذا الانفتاح الذي أخذت به الفاضلية كمنهج لها تجاه أهل التصوف عموما إلى أنه من سياسة الشيخ محمد الأغظف الذي تنسب إليه الطريقة الغظفية (إلا أنها لم تطبق إلا مع الشيخ محمد فاضل) (٤) ·

وهذا ما يؤكد أن الفاضلية فرع من الأغظفية التي تبين في السابق أنها ناصرية درعية كما قال به بعض الباحثين ، ولكن إذا وافقنا هؤلاء الباحثين فيما

---

(١) سيأتي بيان مراد المؤلف بهذه النسبة ·

(٢) يريد : أنه يعلم أوراد كل الطرق الأخرى ·

(٣) الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١١٩ - ١٢٠ انظر من هذا البحث ص ٢٨٠ ·

(٤) القادرية بين قبول الاستعمار ورفضه ص ١٠ ·

ذهبوا إليه من اعتبار الفاضلية فرعا من الأغظفية فإننا نجد لها مصادر أخرى ساهمت في تكوينها ، وتغذية مشربها الصوفي العام .

من ذلك أن صاحب الضياء المستبين يذكر صحبة لجد الشيخ محمد فاضل لأمه مع الشيخ سيدي المختار الكنتي وأنه أعطاه حكمة يبلغها للشيخ محمد فاضل وذلك قبل أن يولد ، وبشره بأنه سيولد (١) .

وذكر مثل ذلك عن شيوخ آخرين (٢) وذكر غيره صحبة للشيخ محمد فاضل مع خليفة الشيخ سيدي المختار الكنتي ، الشيخ سيدي محمد الذي انتشرت البكائية (المختارية) في عهده بتوسع كبير (٣) ولكن نجد (بول مارتي) بعد أن ذكر فروع البكائية المختارية يقول :

(وسنذكر أخيرا الفاضلية في السودان وسنغال والصحراء الغربية ، والذين - والحق يقال - يرفضون أن يكونوا تلامذة المدرسة الكنتية ، ولكنهم استفادوا بالتأكيد من الإصلاح الطاريء على الدراسات الصوفية ، والتقوى الإسلامية التي تعود للشيخ سيدي المختار الكبير وتبدو الرواية مهما كان موقفها ، صريحة في هذا المجال ، ويبدو الأمر في الواقع مقبولا إلى حد كبير) (٤) ويؤكد هذه الاستفادة المذكورة هنا كثرة ذكر الفاضلية في كتبها للشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه وخليفته الشيخ سيدي محمد ، والاعتماد على كتبهما في كثير من الروايات ، والسلوك الصوفي ، والثناء عليهما وعلى مؤلفاتهما (٥) .

---

(١) سيأتي إن شاء الله في باب العقائد عند الكلام على ادعاء علم الغيب الكلام على هذا وأمثاله .

(٢) الضياء المستبين ص ٢١٦٦ - ٢١٧ وانظر : فاتق الرتق على راتق الفتق : تأليف ماء العينين بهامش نعت البدايات وتوصيف النهايات ، دار الفكر ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٣) مساهمة في إبراز الأدوار الفكرية والسياسية للشيخ ماء العينين ، عبد الله بن محمد الأمين ، أنواكشوط ١٩٨٤م ص ١٦ .

(٤) كنتة الشرقيون ص ١٥٤ .

(٥) انظر الضياء المستبين ص ٣٠ وغيرها نعت البدايات ص ٢١٨ .

ولكن الشيخ محمد فاضل حاول الجمع بين المختارية والأغظفية مع ما نجده من نقد حاد من الشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه الشيخ سيدي محمد للأغظفية ، التي تعتبر الفاضلية على ما تبين فرعا منها ، حيث يصفهم بالإخلال بسنة الرياضة ، والصحبة ، والحسد والتكبر من أن ينسبوا إلى فلان أو فلان ، واعتبارهما لهم من أصحاب دعاوى التصوف في البلاد الغربية ويعرضان بهم تارة قائلين بأن بلادهم سائبة مما سلط أهل الظلم والجور على الناس ، الأمر الذي تسبب في البحث عن الأمور الوازعة للظلمة والقطاع من علوم الشر والمخرقة والشعوذة بدعوى الولاية (١) ٠

ومع ذلك فالشيخ محمد فاضل لا يعترف لأحد بمشيخة عليه إلا لوالده وأجداده ، وأن مشيخة والده عليه محدودة في أنه علمه الورد القادري ، وأعطاه حكمة وعممه ، وصدره - على ما سيأتي إن شاء الله عند ترجمته ، وذكر سلسلته في الطريقة (٢) ٠

فروع الفاضيلية :

الذي يظهر عند البحث عن مصدري الشيخ محمد فاضل المباشرين أنهم قليل بالنسبة إلى كثرة المنتسبين لطريقتة ، وخلو الساحة له نوعا ما(٣) وفتحه الباب أمام الداخلين غلى جميع المستويات العلمية والطريقة على مدى عمره الطويل (٤) ٠

وقد يعزى ذلك إلى نوع من السياسة الطرقية حيث تظل المشيخة في الطريقة حكرا على الشيخ وأبنائه ، والمقدمين من المخلصين له من أقاربه (٥) ٠

---

(١) انظر جذوة الأنوار ص ٩٧ ٠ والغلاوية ص ١٨٧ ، ٢٠٩ ، ٢٧٢-٢٧٣ ٠

(٢) أنظر الضياء المستبين ص ٢٣٣ - ٢٣٥ ٠

(٣) الاستعمار الفرنسي في غرب افريقيا - انظر ص ١١٩ - ١٢٠ ٠

(٤) الساقيه الحمراء مرجع سابق ص ١٣٣ ٠

(٥) انظر الضياء المستبين ص ٢٥٥ وما بعدها ٠

وقد يعزى أيضا إلى كثرة الجذب المستمر القاطع عن الوصول إلى درجة التصدير والمشيخة حسب نظام الصوفية • وقد عرفت طريقته بمظاهر الجذب والشطح وغير ذلك مما يدل على عدم اعتدال العقل والاستقامة المطلوبة في المصدرين للمشيخة (١) •

ومع هذا كله فقد صدر عن الشيخ محمد فاضل شيوخ كان لهم أثر بالغ في الحياة العامة في موريتانيا وخارجها •

وكان من أشهر هؤلاء الشيوخ أبناؤه الثلاثة الذين وزعهم على البلاد الموريتانية غربا وشمالا وجنوبا مع الاحتفاظ بالمركز الرئيسي •

وهم : الشيخ ماء العينين ، والشيخ سعد أبيه ، والشيخ الحضرمي ، هذا مع ترك الباب مفتوحا للمتجولين من أبنائه الآخرين ومريديه المخلصين (٢) •

ولنورد هنا نصا ولو كان طويلا نوعا ما لأحد الكتاب الفرنسيين العاملين في موريتانيا يصور فيه توزيع أبناء الشيخ محمد فاضل وأهدافهم في اختيار هذه المراكز التي استقروا فيها ، وأثر كل مركز في محيطه واهتماماته - فيقول :

(وقد توزع أبناء الشيخ محمد فاضل هذا وعددهم ٤٨ توزعوا في كل الصحراء الكبرى الغربية ، واختاروا أماكن إقامة لها نقاط التقاء الطرق الكبرى التي تمر منها القوافل وأماكن تجمع البداة ومناطق التبادل بين الرعاة الصحراويين والزراع السود ، وأصبحوا يؤلفون حاليا أربع زمر هامة :

---

(١) انظر نفس المراجع ص ١٦٣ •

(٢) انظر الساقية الحمراء ١٢٣ •

١) زمرة أهل الشيخ سعد بوه - في منطقة طراره (١) الغربية في (موريتانيا) ، ورئيسها الحالي هو الشيخ طالب بويه (٢) ونفوذ هؤلاء في المقام الأول في البلاد السوداء : السنغال ، وغامبيا ، وغينيا الفرنسية ، وغينيه البرتغالية - وفي كازا عانس التي يوجد فيها زواية فرعية ومقدم من (الديولا) (٣) وهذه الزاوية توجد على مقربة من (ديولولو) (٤) وحركة الشيخ طالب بويه لزيارة أتباعه السود تشبه حركة سيرك (٥) متنقل لما فيها من الخيام والمظاهر ومن كل نوع أكثر مما تشبه جولة الصوفيين .

ولدى أهل سعد بوه نجد أن (القدر) المترعة قد حلت مكان كل روحية صوفية وكل سمو في القلب (٦) .

تعقيب : هذا النص حدد مناطق نفوذ هذا المركز الفاضلي الذي يقع في غرب موريتانيا ، وواضح أن صاحب النص يلاحظ أن هدف هذا المركز في عهد الطالب بويه هو التجول بين الأتباع في الأماكن المذكورة وجباية الأموال منهم . والله أعلم .

٢) (زمرة أهل الشيخ ماء العينين : وقد اختار هؤلاء منطقة (الريود والا) (٧) مجالا لعملهم - والشيخ ماء العينين هو أشهر أبناء محمد فاضل وقد أنشأ

---

(١) يريد « الترارزة » .

(٢) الطالب بويه : أحد أبناء الشيخ سعد أبيه هو ثالث خلفائه ، وقد استوفى الكلام عليه وعلى مصدري الشيخ سعد أبيه داخل موريتانيا وخارجها ، الاستاذ محمد يصلح بن الأمانه ، في بحثه : دراسة حياة الشيخ سعد أبيه . انواكشوط ، سنة ١٩٨٨م ص ٤٣-٤٥ .

(٣) قبيلة من الزنوج .

(٤) موضع .

(٥) نوع من الالعاب .

(٦) الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١٢٠ .

(٧) هذه لفظة اسبانية تعني منطقة الصحراء في الشمال الموريتاني .

رباطه عام ١٨٨٠م في سمارة (١) في هذا الوادي الشهير بأوليائه ، والمعروف بالساقية الحمراء ، وقد كانت همته عظيمة جداً عل البدو الرحل (الرقيبات) (٢) حتى على سائر الشعوب البربرية القاطنة في منطقة الذراع والسوس ·

وهو الذي حرض على مذابح الدار البيضاء في عام ١٩٠٧م وقد أعلن نفسه سلطانا عام ١٩١٠م ودعا إلى الحرب المقدسة (الجهاد) وغزا مراكش برجاله (الزرق) (٣) واحتل مدينة مراكش وكاد يجدد بعد فترة ألف عام حركة المرابطين لولا أن وجودنا في مراكش في هذا التاريخ وضع حدا لجولته هذه فقد هزمت الحملة الفرنسية التي كان يقودها (مانجان) - في موقعة سيدي أبو عثمان عام ١٩١٢م (الهيبة) ولدماء العينين ·

وأما جماعة القادرية الذين أظهروا وحدهم موقفا عدائيا صريحا لتغلغل فرنسا في المغرب فقد ظلوا إلى عام ١٩٣٤ م (وهو تاريخ انتهاء فرنسا من إخضاع المناطق المراكشية الجنوبية تحت قيادة الجنرال جيرو) - رجال دين ومحاربين حقيقيين يلهبون بخطبهم قبائل الرقيبات البدوية ويدفعونها إلى حرب عصابات مستمرة ضد أفواج جنودنا البداة الموريتانيين ·

ولا يزال نفوذ القادرية هاما في منطقة الذراع وفي (الريو أورو) بسبب وجود أبناء ماء العينين ، الشيخ محمد ليمان ، والشيخ محمد الاغدف (٤) ولكن نفوذها يكاد لا يذكر في إفريقيا الغربية الفرنسية حيث لها بعض الأتباع في (أطار) (٥) يجتمعون على الشيخ بو نعمه) (٦) ·

---

(١) يريد منطقة السمارة ·

(٢) من القبائل الموريتانية الشماليه ·

(٣) قبيلة من قبائل الزوايا في الصحراء الغربية ·

(٤) يريد الشيخ محمد الامام والشيخ محمد الأغظف ابنا الشيخ ماء العينين ·

(٥) أطار مدينة في الشمال الموريتاني سبق ذكرها ·

(٦) الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١٢١-١٢٢ ويريد بـ (بونعمة) بوننه بن الشيخ ماء العينين ·

تعقيب :

هذا النص يعطينا علاوة على تحديد مراكز هذا الفرع الفاضلي وانطلاقاته - ما كان لشيخه الأول : ماء العينين من نفوذ ديني سياسي وجهادي ضد الاستعمار الفرنسي الكافر ، وسيأتي في ترجمته في الأعلام القادرية مزيد بيان لما قام به في المنطقة من أعمال كثيرة أجلها الجهاد في سبيل الله بنشر العلم أولا في منطقة كانت قاحلة منه ثم مقاومة الكفار الغزاة .

٣) (زمرة أهل الشيخ الحضرمي - يقيمون قرب نيمه (١) في منطقة الحصن (٢) ، وانقسموا تحت تأثير (التجانية السنية) إلى طوائف عديدة وكثر الاختلاف بينهم - وأثرهم محلي محدود ولهم في ذلك أتباع لدى السود (الساراكوليه) ولدى (البامبارا) وفي قرى الحراتين (٣) في المثلث عيون العتروس - نعمة - نارة) (٤) .

---

(١) يريد : النعمة وهي مدينة في شرقي موريتانيا .

(٢) يريد الحوض .

(٣) هذا جمع لمن تقدم عليهم رق من الموالي وتجمعت منهم مجموعة للعمل في الزراعة واستصلاح الأودية والواحات إلا أن الناس ينطقون هذه التسمية هكذا (حرطاني للفرد وحراطين للجمع) وقد نقلت عن بعض أهل المعرفة أن أصل التسمية هو : حر ثاني أي حر من الدرجة الثانية . أو أن أصل الكلمة حر طارئ فأبدلت الراء نونا لكثرة الاستعمال .

(٤) نفس المراجع ص ١٢٢ (ونارة) يريد بها النوارة ، ويقصد بالمثلث ما بين هذه المدن .

تعقيب :

فمع أن هذا الشيخ بقي على رأس حضرة والده ومركز طريقته الكبير فإن أثره كما يقول هذا الفرنسي محلي ومحدود • وذلك لأسباب :

منها : اشتغال هذا الشيخ بسياسة قبيلته ، حتى ظهر أنه أصلح لشيخ قبيلة منه لشيخ طريقة •

ومنها : ظهور منافس جديد يستهوي العوام ، والجهال المحبين لأنواع الشطح والرقص والغناء والبذخ •

ومنها : قربه نسبيا من مركز البكائية المختارية في تيميكتو وأزواد ، وقد برز فيها شيوخ رحل إليهم الناس لطلب العلم خاصة •

هذا بالإضافة إلى ظهور شيوخ في الأغظفية أيضا اعتبروا مجددين فيها قرب هذا المركز ، أضف إلى ذلك التغيرات السياسية والاجتماعية التي أحدثها المستعمر ، وكانت من أهم أسباب كثرة الطوائف والخلافات •

ولكن جاء بعد فترة من الزمن إلى هذه المنطقة الشيخ التراد بن العباس بن الحضرمي فأحيا هذا المركز (الأم) ، وجدد فيه الفاضلية (١) •

٤) (زمرة أهل الشيخ محمد فاضل ولد عبيدي ، ويقيمون في الأدرار (٢) في منطقة حصن غورو ويفضلون العمل في تجارة القوافل بين أطار قوليمين - بيرمقرين (٣) على نشر الدعوة ، وكانوادوما يبدون تحفظا تجاهنا •) (٤) •

---

(١) انظر : نيل المراد ، المقدمة ج - ز •

(٢) يريد آدرار ، ومعناه بالبربرية : الجبل العظيم ، وهو عبارة عن جبال شاهقة تنتهي إلى أرض مستوية - أنظر الوسيط فإنه تكلم عليها بالتفصيل ص ٤٢٨ •

(٣) يريد : اقليم بئر أم قرين ، في الشمال الموريتاني •

(٤) الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١٢٢ •

تعقيب :

الشيخ محمد فاضل بن اعبيدي وبنوه من أبناء عمومة الشيخ محمد فاضل بن مامين شيخ الفاضلية ، ويظهر من النص المنقول هنا عنهم أنهم يشتغلون بالتجارة ، والتنمية أكثر من اشتغالهم بالطريقة ، ولذا فأثرهم الصوفي محدود ٠

أما النفوذ السياسي فيظهر أنه كان لهم فيه ضلع بحكم ارتباط بالتجارة من جهة وبحكم قرابتهم من الشيخ ماء العينين الذي تقدم أنه كان قائد الجهاد وسياسة المنطقة الصحراوية حتى ربط سلاطين المغرب بالمنطقة حبا منه لكسبهم ضد المستعمر الفرنسي وغيره من الطامعين الغربيين (١) ٠

وللشيخ محمد فاضل مصدرون بارزون غير أبنائه وأهل قراباته المعدودين في طريقته وهم كثير حسب الروايات الشفهية ، ولكن نقتصر على ذكر أهم من ذكر لنا مشافهة أنه من مصدريه ثم وجدنا ذلك مكتوبا في حياة الشيخ محمد فاضل نفسه ، فمن هؤلاء :

(٥) الشيخ سيدي عبد الله بن سيدي أحمد الملقب بما يأبى الجكني :

(أدخله الشيخ محمد فاضل الخلوة مرتين وأعطاه علوما يحفظها في أثنائها ، وكان يدخل عليه في خلوته يعارضه القرآن ويحاوره في العلوم ٠) (٢) ٠

وقد اشتهر أولاده بالعلم عموما وعلم الحديث خصوصا ، فكان منهم العلامة الشيخ محمد الخضر صاحب:كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (٣)

---

(١) انظر : القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٥٥ وما بعدها ٠

(٢) الضياء المستبين ص ٢٢٧ ٠

(٣) طبع من الكتاب ثلاثة أجزاء - وأنتهى الجزء الثالث بباب كتابة العلم ، دار البشير عمان الأردن ط ١ سنة ١٤١٠ هـ وانظر ترجمة الشيخ في الجزء الأول منه ص ٧ - ١٠ وانظر الأعلام للزركلي جـ ٦ ص ١١٣ ٠

ومشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني المتقدم الذكر ومؤلفات أخرى بعضها مطبوع وبعضها مخطوط ، توفى في المدينة المنورة سنة ١٣٥٤هـ ومنهم أيضا العلامة الشيخ محمد حبيب الله بن الشيخ سيدي عبد الله مؤلف زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ، وما عليه من تقييدات وتعليقات وغير ذلك من المؤلفات توفي بالقاهرة بمصر سنة ١٣٦٣هـ (١) ٠

ومنهم الشيخ محمد العاقب (أكثر إخوته العلماء الاثني عشر علما) توفي في فاس مهاجرا في سبيل الله بعد العجز عن مقاومة الاستعمار الفرنسي في بلاده موريتانيا ، وكانت وفاته في حدود سنة ١٣٢٧هـ له مؤلفات وأنظام وأشعار نافعة (٢) ٠

وقد كان لهؤلاء العلماء وذريتهم من بعدهم أثر كبير في الشام ومصر والحجاز وبلاد إسلامية أخرى كثيرة (٣) ٠

وهناك شيوخ آخرون مصدرون من الشيخ محمد فاضل ولكن لم نتمكن من التعريف بهم أكثر مما ذكره عنهم صاحب الضياء المستبين ، وهم :

محمد نعمة بن الإمام بن حكي صحب الشيخ محمد فاضل مدة أربع سنين فصدره للمشيخة ، (وأمره أن يتزيا بزي المشايخ) ٠

وسيدي عبد الله ابن أبي بكر البشير (الذي جاء إلى الشيخ على نية التجرد للخدمة فصدره في ثلاث ليال ، وكان له تلاميذ كثيرون) ٠

ومحمد المختار بن البشير بن الطالب صالح ، والطالب جد بن الرايس ، ومحمد الصغير بن محمد بن عبد الله) (٤) ٠

---

(١) أنظر : مقدمة زاد المسلم ، دار الفكر سنة ١٤٠١هـ ج١ ص١ - والاعلام للزركلي ٦-٧٩ .

(٢) انظر : بلاد شنقيط ص ٥٤٢ - ٥٢٥ ٠

(٣) يرجع إلى مؤلفاتهم وتراجمهم المطولة في مقدمات كتبهم ٠

(٤) انظر : الضياء المستبين ص ٣٢٧ ٠

المبحث الثالث : سلاسل القادرية

المطلب الأول : سلسلة البكائية (المختارية)

تقديم :

لقد تحمل الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي في كتابه : الطرائف والتلائد سرد سلسلة فرعه من القادرية ، والترجمة لشيوخها ترجمة متفاوتة في الدقة والإسهاب حسب معلوماته عن كل شيخ .

وفي هذه السلسلة ، التي نوه هو بصحتها وأثنى كثيرا على إسنادها عدد من الشيوخ الذين اعترض العلماء قديما على عقائدهم ، ومناهجهم في التربية والسلوك والتأليف والأحزاب والأوراد (١) .

ولكن المقصود هنا عرض هذه السلسلة المذكورة مع التعليق على ما يتضح فيها من ثغرات أو صلات موهومة بين بعض شيوخها ، أو موضوعة أصلا حتى لا يكون ذكرها سردا لا فائدة فيه .

ونبدأ السلسلة من الشيخ الذي أظهرها ونسبت إليه ، وهو :

١) الشيخ سيدي المختار الكنتي . وهذه هي البداية التي ابتدأ بها الشيخ سيدي محمد الكنتي هذه السلسلة فقال : (فأقول مبتدئا بختام سلك السلسلة ورأس نظام السادة المسلسلة المفترع له التأليف والمبتدع من أجله التصنيف والدنا الشيخ العلم والطود الشامخ الأشم أبو الأنوار والأسرار سيدنا وسيلتنا الى ربنا سيدي المختار) (٢) .

---

(١) سيأتي التعريف بها إن شاء الله في باب السلوكيات والعبادات .

(٢) الطرايف ص ١١٥ وستأتي ترجمة المذكور كاملة إن شاء الله .

٢) وهو عن الشيخ : سيدي علي بن النجيب بن محمد بن شعيب الشريف التكروري المتوفى في حدود سنة ١١٧٠ هـ عن نيف وثمانين سنة • وقد خرجت إليه رئاسة القادرية البكائية عن قبيلة كنتة بموت شيخه الآتي . من الرقاقدة من كنتة ، ومنه رجعت إلى كنتة للمختار المتقدم وهو من أبناء سيد الوافي من كنتة •

٣) وهو عن : الشيخ سيدي الأمين الملقب بذي النقاب المتوفى سنة ١١١٦ هـ •

٤) وهو عن : سيدي أحمد بن سيدي محمد الرقاد (الخليفة) (١) •

٥) وهو عن : سيدي علي بن الشيخ سيدي أحمد الملقب (بقطب الوقت) (٢) •

٦) وهو عن : الشيخ سيدي أحمد بن الشيخ سيدي محمد الرقاد ، باني زاوية البكائية في (توات) المتوفى سنة ١١١٩ هـ (٣) •

٧) وهو عن : الشيخ الرقاد بن الفيرم المتوفى في حدود سنة ١٠٦٣ هـ (٤) •

٨) وهو عن : الشيخ أحمد الفيرم بن الشيخ سيدي عمر الشيخ المتوفى في حدود سنة ٩٥٠ هـ (٥) •

٩) وهو عن : الشيخ سيدي المختاربن سيدي عمر الشيخ (٦) •

---

(١) انظر الطرائف ص ١١٥ . ١٢٤ و ١٢٨•

(٢) نفسه وكنتة الشرقيون ص ١٤٦ •

(٣) الطرايف ص ١٢٤ . ١٢٨ ويظهر أن رسم تواريخ الوفيات ليس بدقيق وقد يكون ذلك من الناسخ حيث إن تاريخ وفاة ذي النقاب المذكور قبل هذا هو سنة ١١١٦ هـ وبينه وبين هذا شيخان ولم يذكر المؤلف تاريخ وفاتهما إلا أنه حكم هو ووالده من قبله على هؤلاء الشيوخ أنهم في الغالب عمروا كثيرا •

(٤) الطرائف ص ١٢٨ . ١٢٩ •

(٥) نفسه ص ١٢٩ •

(٦) المنة في اعتقاد أهل السنة للشيخ سيدي المختار الكنتي ، مخطوط خاص ص ٤٣ والطرائف ص ١٢٩•

١٠) وهو عن : الشيخ سيدي عمر الشيخ بن الشيخ سيدي أحمد البكاي المتوفى في حدود سنة ٩٦٠ هـ (١) .

١١) وهو عن : الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني اتواتي المتوفي سنة (٩٠٩ هـ) (٢) .

١٢) وهو عن : الإمام السيوطي ، عبد الرحمن جلال الدين ، المتوفى سنة (٩١١ هـ) (٣) كذا قال : وقد سبق أن أخذ المغيلي إنما كان عن الثعالبي مباشرة ، ولا أعلم صلة بين السيوطى والثعالبي ، والموجود إنما هو ثبوت مراسلة بين السيوطي والمغيلي في شأن تحريم المنطق وقول بحصول اللقيا بينهما . وذلك أمر ممكن .

١٣) وهو عن : الشيخ الإمام عبد الرحمن الثعالبي ، الحافظ أبي العباس ولد سنة ٧٨٦ أو ٧٨٧ هـ وتوفي سنة ٨٧٥ عن نحو تسعين سنة (٤) .

وفي ترجمته : (أخذ عنه جماعة كالشيخ العالم محمد بن محمد بن مرزوق الكفيف ، والإمام السنوسي ، وأخيه لأمه علي التالون والإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي) (٥) .

١٤) وهو عن : القاضي أبي بكر ابن العربي ، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد المعافري المعروف بـ (ابن العربي) المتوفى في شهر ربيع الأول من سنة (٥٤٣ هـ) (٦) .

---

(١) المنه ص٤٢ والطرائف ص ١٢٩ . ١٣٢ وينظر تاريخ وفاته مع تاريخ وفاة تلميذ تلميذه أحمد الفيرم السابق .

(٢) المنه ص ٤١ . ٤٣ والطرائف ص ١٣٢ . ١٣٣ .

(٣) الطرائف ص ١٣٣ . ١٣٤ .

(٤) الطرائف ص ١٣٤ ، ويظهر أن تاريخ الوفاة انقلب عليه من ٨٧٥ هـ إلى ٨٥٧ هـ والصواب ما أثبتناه . انظر ترجمته فى نيل الابتهاج . مرجع سابق ص ١٧٣ . ١٧٤ .

(٥) نيل الابتهاج ص ١٧٤

(٦) انظر ترجمته في : الغنية ، فهرست شيوخ القاضي عياض ، تحقيق . محمد بن عبد الكريم ، الدار العربية للكتاب تونس ١٣٩٨ هـ ص ١٣٣ وما بعدها .

قلت : قول الشيخ سيدي محمد في الطرائف : (أخذ عن القاضي أبي بكر بن العربي في اجتيازه بسبتة القاضي عياض وأبو العباس سيدي عبد الرحمن الثعالبي) (١) فيه نظر حيث إن القاضي توفي كما ذكرت نقلا عن القاضي عياض سنة(٥٤٣ هـ) وأخذ القاضي عياض ثابت عنه ٠

وأما الثعالبي فإنه كما تقدم ولد سنة ٧٦٨ وقيل ٧٨٧ هـ وتوفي جزما سنة ٨٧٥هـ فبين ميلاده ووفاة القاضي نحو من قرنين من الزمان ٠

وقد ظهر بالتاريخ انقطاع هذا السند هنا ، علاوة على أن القاضي بن العربي صحب الإمام أبا بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ وقال : (إن الله نفعه به في العلم والعمل) (٢) فلو نسب إليه لكان أليق ، يضاف إلى ذلك أن القاضي كان شديد النقد للصوفية ، ولم تزده صحبته للإمام الغزالي إلا حدة في نقدهم ٠ وقد شكى إلى شيخه الطرطوشي ما يجده من قسوه جبلية في قلبه (٣) ٠

١٥) وهـو عن : سيدي محمد بن أحمد بن أبي بكر بن مرزوق التجيبي التلمساني ٠ (٤)

ثم قال : (وعمدته في الطريقة أبو علي ناصر الدين المشذالي) (٥) كذا قال : ولا يمكن أن يكون ابن مرزوق شيخا لابن العربي لأن ابن العربي كما تقدم توفي سنة ٥٤٣ هـ ، وقد ولد ابن مرزوق سنة (٧١٠ هـ) كما ذكر صاحب نفح الطيب ، وتوفي سنة ٧٨١ هـ كما نقل أيضا عن ابن حجر (٦) ٠

---

(١) الطرايف ص ١٣٤ - ١٣٦ ٠

(٢) انظر مقدمة تحقيق : قانون التأويل للقاضي أبي بكر بن العربي ، تحقيق محمد السليماني وانظر منه ص ٤٣٥ ٠

(٣) انظر : آراء القاضي أبي بكر بن العربي الكلامية ، تحقيق : عمار الطالب الجزائر ص ٢٠٩ وما بعدها ٠

(٤) الطرئف ص ١٣٦ . ١٣٧ ٠

(٥) نفسه ٠

(٦) راجع نفح الطيب ، مرجع سابق جـ ٥ ص ٤١٢ . ٤١٤ ٠

قلت : وقد ترجم له ابن فرحون في الديباج المذهب وذكر شيوخه ومنهم : (وببجاية الإمام العلامة أبو علي ناصر الدين المشذالى) (١) وفيه أنه بعد الثمانين وسبعمائة (٢) .

١٦) وهو عن : الشيخ ناصر الدين أبي موسى عمر ان بن موسى بن يوسف المشذالي (٣) توفي عن سن عالية سنة (٧٢٠ هـ) (٤) .

قال في شجرة النور الزكية : أبو موسى عمر ان ابن موسى صهر الناصر المشذالي أخذ عن أئمة منهم صهره المذكور مولده سنة ٦٧٠ هـ وتوفي سنة ٧٤٥ هـ) (٥). وليس هو بالناصر بل ناصر الدين صهره . فهذا خلط .

١٧) وهو عن : الشيخ الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي نسبة إلى بلد لا إلى عمل (٦) قلت : ووضع الغزالي في هذه السلسلة فيه نظر حيث إنه دخل بغداد سنة (٤٨٤ هـ) أي قبل قدوم الشيخ عبد القادر إليها طالبا سنة (٤٨٨ هـ) كما سبق ، وكان الغزالي شيخا ومدرسا ، وترك أخاه أحمد الغزالي الذي ينتسب إليه في الطريقة الصوفية نائبا عنه في التدريس بالمدرسة النظامية المعروفة ، وعاد الغزالي إلى بغداد سنة (٤٩٩ هـ) وخرج منها سنة (٥٠٣ هـ) ولم يعد إليها حتى مات سنة (٥٠٥ هـ) (٧) .

ولا يخفى أن الغزالى توفي قبل ميلاد عمران المشذالي بمائة سنة تقريبا .

---

(١) الديباج المذهب في معرفه أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكي ، تحقيق . محمد الأحمدي أبو النور دار التراث جـ ٢ ص ٢٩٤ .

(٢) نفسه جـ ٢ ص ٢٩٦ .

(٣) الطرائف ص ١٣٧ . ١٣٨ .

(٤) نفسه ص ١٣٨ .

(٥) شجرة النور الزكية ، محمد بن محمد مخلوف ، دار الفكر ص ٢٢٠ .

(٦) الطرائف ص ١٣٧ . ١٣٨ .

(٧) انظر : أبو حامد الغزالي والتصوف ، عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية ، الرياض ص ٢٩ . ٢٣ .

١٨) وهو عن : الشيخ علي أبي الحسن الشاذلي ، قال : (ولما سئل عن شيخه قال: كنت أنتسب الى الشيخ عبد السلام بن مشيش) (١) .

قال في شجرة النور الزكية (أخذ عن الشيخين العارفين أبي عبد الله محمد بن حرزهم ، وأبي محمد عبد السلام بن مشيش بسنده المشهورعند أهل الطريقة).

وميلادالشاذلي سنة (٥٧١ هـ) ووفاتة سنة (٦٥٦ هـ) (٢) وعلى هذا فلا يمكن أن يكون شيخا للغزالي الذي توفي قبل ميلاده بأكثر من ستين سنة .

١٩) وهو عن : الشيخ عبد السلام بن مشيش أو بشيش بن أبي بكر منصور بن علي الإدريسي الحسني أبي محمد ، المتوفى سنة (٦٢٢ هـ) بجبل العلم بثغر تطوان (٣) .

٢٠) وهو عن : محيي الدين بن العربي . محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن العربي الطائي الحاتمي ، قال : (وهو أحد أركان هذه الطائفة) (٤) .

قال المقرى : ولد سنة (٥٦٠ هـ) بمرسية وتوفي في دمشق سنة (٦٣٨ هـ) (٥) قلت : دخل بغداد سنة (٦٠١ هـ) فأقام بها اثنا عشر يوما ثم دخلها ثانيا حاجا مع الركب سنة (٦٠٨ هـ) (٦) ويبعد أن يكون الحاتمي شيخا لابن مشيش يروي عنه بواسطته لأن الحاتمي عاش بعد ابن مشيش (١٤) سنة .

---

(١) الطرائف ص ١٣٨ . ١٤٣ .

(٢) انظر ترجمته في المرجع المذكور ص ١٨٦ . ١٨٧ .

(٣) الطرائف ص ١٤٣ . ١٤٤ والأعلام للزركلي جـ ٤ ص ٩ .

(٤) الطرائف ص ١٤٤ . ١٤٦ .

(٥) نفح الطيب جـ ٢ ص ١٦٢ وما بعدها .

(٦) انظر المراجع السابقة .

٢١) وهو عن الشيخ ضياء الدين أبي النجيب عبد القاهربن عبد الله السهروردى المتوفى سنة (٥٦٣ هـ) قال : (صحب الشيخ علي بن هيتا واجتمع بالشيخ عبد القادر) (١) قلت : قد أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية والذهبي وغيرهما اجتماع السهروردي بالشيخ عبد القادر ، وقد توفي قبل علي بن هيتا فيبعد أن يكون تلميذا له يروى عنه بواسطته (٢) ويتضح من تاريخ وفاته ، وميلاد الذي قبله أنه لا يصح أخذه عنه ، ولكن لعله أخذ عن خليفته : شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله ابن حفص المتوفى سنة ٦٣٢ هـ .

٢٢) وهو عن : الشيخ علي بن هيتا (٣) ، المتوفى سنة (٥٨٠ هـ) ولم يذكره صاحب بهجة الأسرار فيمن صحب الشيخ عبد القادر أو أخذ عنه مع أنه ذكر ما يزيد على المائه والعشرين من تلاميذه .

وقال الشيخ سيدي محمد : (صحب الشيخ عبد القادر الجيلى ، وانتفع به وتخرج علي يديه) (٤) .

وقد تمت دراسة السلسلة بعد الشيخ عبد القادر ، وظهر أنه لا يعتمد عليها في إثبات أي شيىء كما تبين ذلك من دراسة هذه السلسلة .

---

(١) الطرائف ص ١٤٦ . ١٤٧ والبداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٥٤ .

(٢) الاستقامة جـ ١ ص ٨٦ . ٨٧ و سير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٤٤٨ .

(٣) الطرائف ص ١٤٧ .

(٤) نفسه .

المطلب الثانـــي

السلسلة الفاضلية :

ونبدؤها بمن نسبت إليه هذه الطريقة وهو الشيخ محمد فاضل فنقول :

١) الشيخ محمد فاضل بن مامين (١) • عن والده : محمد الأمين

٢) مامين (الطالب الأمين) بن الطالب اخيار ، قال صاحب الضياء المستبين (أجازه والده في الطريقة قبل البلوغ • وانه صحب بعده شيوخا آخرين) (٢) •

عن والده :

٣) الطالب اخيار بن الطالب محمد ، قال : صاحب الضياء المستبين أيضا (إن الطالب اخيار كان ولياكاملا مربيا غزير العلم يحفظ مائة مصنف عن ظهر قلب) (٣) • عن والده :

٤) الطالب محمد بن (الجيه) أبي الأنوار قال : (وهو ولي كامل مكث في الصوفية والسياحة خمسة عشر عاما بعدما تمت ذريته) (٤) عن والده :

٥) الطالب اجيه (المختار) بن الحبيب ، قال : (وهو ولي عارف بالله تعالى له مناقب جمة كثيرة) وعد منها : أنه كان سبب نزول أولاد امبارك حيث تعلقوا به) (٥)

عن والده :

٦) الطالب الحبيب بن الطالب اعل • عن والده :

---

(١) الضياء المستبين ص ١٨٦ •
(٢) نفسه ص ١٨٦ •
(٣) نفسه ص ١٨٦ . ١٨٨ •
(٤) نفسه ص ١٨٨ . ١٨٩ •
(٥) نفسه ص ١٨٩ . ١٩٠ – لعله يريد تحولهم من تكانت إلى الحوض الشرقي في موريتانيا •

٧) الطالب اعل بن سيدي محمد • عن والده :

٨) سيدي محمد بن يحيي الصغير . عن والده :

٩) سيدى يحي الصغير (١) وكل هؤلاء آباء الشيخ محمد فاضل صاحب الطريقة، فهذا البيت على رأى صاحب الضياء ، هو ثالث بيت فى الأمة يتسلسل فيه هذا العـدد من الكمل بعد بيت الحسين بن علي رضي الله عنهما وبيت الإمام السبكي (٢) •

١٠) عن الشيخ أحمد زروق وهو أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق ولد في محرم سنة ٨٤٦ هـ وتوفي سنة ٨٩٩ هـ (٣) وقد أخذ زروق عن الإمام عبد الرحمن الثعالبى فتجتمع البكائية مع الفاضلية فيه وإن كان المذكور في هذا السند غيره •

١١) عن أحمد بن عقبه الحضرمي قال عنه الدكتور فهمي خشيم إنه كان قادريا يمنيا هاجر من بلده واستوطن مصر ، والتقى به زروق في القاهرة عند عودته من الحجاز سنة ٨٧٦ هـ (٤) •

١٢) قال في الضياء عن شيخه . ويبدو أنه لم يحضره اسمه : وهو كما ذكر في كتاب زروق والزروقية يحيي الشريف القادري (٥) •

---

(١) نفسه ص ١٩٠ قلت : لعل الآخذ عن زروق ابنه محمد لا هو كما يشهد له ما في شجرة النور الزكية أن محمد الشنقيطي أخذ عن زروق ص ٢٨٦ مع أن الكتاني ذكر في فهرس الفهارس جـ٢ ص ١٠٢١ أن يحي الصغير هذا أخذ عن أبيه محمد عن شيخه الشيخ العلي عن الحافظ الأسيوطي •)

(٢) نفسه ص ١٩٠ . ١٩١

(٣) أحمد زروق والزروقية ص ٢١ . ٦٣ ونيل الابتهاج ص ٨٥

(٤) زروق والزروقية ص ٤٠ . ٤٢

(٥) نفسة ص ١٥٣

١٣) عن علي بن وفا وهو : الخطيب أبو الحسن علي ابن محمد وفا مولده سنة ٧٦١ . وتوفي سنة ٨٠٧ هـ (١) .

١٤) عن محمد بن وفا وهو : محمد أبو الأشراف ابن وفا ، وهو الذي أخذ عنه داورد ما خلا (١) .

١٥) عن داورد الباجلي والذي في نيل الابتهاج أنه أخذ عن ابن عطاء الله : داورد بن عمر بن إبراهيم الشاذلي الأسكندري توفي سنة ٧٣٢ هـ وفي شجرة النور الزكية : أن الشيخ داورد الكبير ابن ما خلا الشاذلي أخذ ابن عطاء الله وانتفع به وعنه الشيخ محمد وفا (٣) .

١٦) عن أحمد بن عطاء الله وهو : أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله أبو العباس وأبو الفضل بن أبي عبد الله بن محمد الجذامي الأسكندري الإمام المتكلم الشاذلي توفي بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ (٤) .

١٧) عن أبي العباس المرسى وهو : أحمد بن عمر بن محمد ، أبو العباس شهاب الدين الأنصاري المرسي . توفي عام ٦٨٥ هـ . (٥)

١٨) عن أبي الحسن الشاذلي (٦) الذي تقدمت ترجمته وعنده تجتمع الفاضلية مع البكائية فيما يأتي من الشيوخ إلا أني لم أجد في أسانيد زروق الذي هو عمدتهم في الطريقة ابن العربي والغزالي (٧) .

---

(١) شجرة النور ص ٢٤٠

(٢) نفسه ص ٢٣٧٠ . ٢٣٨ . ٢٠٤

(٣) نيل الابتهاج ص ١١٦ وشجرة النور ص ٢٠٤ وترجمة الثلاثة في نفس الصفحة منه ولا نعرف أيهم هو الباجلي المذكور في السند وفي سند زروق من هذا اسمه راجع زروق والزروقية ص١٥٣ .

(٤) الديباج المذهب ص ٧٠

(٥) نفح الطيب جـ ٢ ص ١٩٠ ونيل الابتهاج مصدر سابق ص ٦٤

(٦) تقدمت ترجمته ومن بعده في السند .

(٧) أحمد زروق والزروقية ص ١٥٣ .

١٩) عن عبد السلام بن مشيش الذي تقدمت ترجمته ·

٢٠) عن ابن العربي وأظنه يريد ابن عربي الطائي . وقد تقدم الكلام على موضعه من السند البكائي وسبق أنه لا يمكن أن يكون تلميذا للسهروردي مباشرة ·

٢١) عن أبي النجيب السهروردي ·

٢٢) عن علي بن هيتا ·

٢٣) عن الشيخ عبد القادر (١) ·

هذا ما ذكره صاحب الضياء المستبين ، وقد قال الكتابي في كتابة فهرس الفهارس في ترجمة السيوطي :(ولنذكر هنا سندا غريبا إاليه من طريق أهل الصحراء الإفريقية ، وهو مسلسل بالآباء عن الشيخ العارف محمد مصطفى ماء العينيين الشنقيطي دفين (قيزنيت) رحمه الله ونعمه ، عن أبيه الشيخ محمد فاضل عن أبيه مامين عن أبيه الطالب اخيار عن أبيه الطالب محمد أبي الأنوار عن والده الجيه المختار عن والده محمد الحبيب عن أبيه محمد علي عن أبيه سيدي محمد ، عن أبيه يحي الصغير عن أبيه محمد عن شيخه الشيخ العلي ، عن الحافظ الأسيوطي بأسانيده) (٢) ·

ومع أنه يمكن أن يكون هذا الاسناد متصلا إلى زروق لأن آباء الشيخ محمد فاضل كل واحد منهم يمكن أن يكون أخذ عن أبيه . رغم أنه لا تتوفر لدينا عنهم معلومات غير ما ذكر صاحب الضياء . ومن زروق إلى عبد القادر الجيلاني توجد فيه ثغرات فإننا نلاحظ أنه يبعد من الناحية التاريخية أن يكون سيدي يحي الصغير أو ابنه محمد تلميذ الزروق ، ويكون في نفس الوقت بينه وبين السيوطي واسطتان أو ثلاث ، لأن زروقا توفي قبل وفاة السيوطي بعشرة سنين وعلى هذا فهذا السند كسابقه لا يثبت به شيء

والله أعلم ·

---

(١) الضياء المستبين ص ١٩٠ ·

(٢) فهرس الفهارس جـ ٢ ص ١٠٢١ ·

الفصل الرابع

أعلام من القادرية وأهم مؤلفاتهم في التصوف

تقديم : أعلام القادرية في موريتانيا :

يقصد من هذا الفصل دراسة لأهم الشخصيات التي تصدرت المشيخة في الطريقة القادرية للوقوف على جوانب من حياتهم العلمية والاجتماعية حتى يتمكن البحث من سبر أثرهم العقدي والفكري الصوفي الأمر الذي يساعد على دراسة نتاجهم العقدي في الأبواب التالية إن شاء الله • . المبحث الأول :

الشيخ سيدي المختار الكنتي شيخ البكائية (المختارية) ، وتحته ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : نسبه ومولده ونشأته :

هو المختار بن أحمد بن أبي بكر بن محمد بن محمد حبيب الله بن الوافى بن عمر الشيخ بن الشيخ سيدى احمد البكاي بن محمد الكنتي بن علي بن يحيي بن عثمان بن يهس (٢) بن دومان (٢) بن ورد (٣) بن العاقب (٤) بن عقبة المجاب (٥) •

---

(١) في الغلاوية ص ٦٣ : (يهس الملقب عبد الله •)

(٢) في الغلاوية ص ٦٢ : (دومان الملقب عمر •)

(٣) ورد في الطرائف ص ٩١ وليس في الغلاوية وفيها شاكر بن يعقوب ص ٦٣ وفي جذوة الأنوار ص٢ : (وريد الملقب بشاكر) وفي البيان المغرب : أن شاكرا صاحب لعقبة وأنه تركه في الموضع الذي يسمى الآن باسمه (سيدي شاكر) البيان المغرب جـ ١ ص ٢٧ قلت : لعله سمى ابنه باسم صاحبه هذا قال الشيخ سيدي محمد : (وعنده تجتمع كنتة والمحاجيب •) الغلاوية ص ٦٣ •

(٤) زاد في الغلاوية ص ٦٣ يعقوب بن العاقب • وقال : (هو الذي تجتمع عنده كنتة مع اد يعقوب من ادو الحاج ومن تجكانت •)

(٥) الطرائف والتلائدص ٩١ والمنة في اعتقاد أهل السنة ص ٤١ ـ ٥١ والغلاوية ص ٦٢ ـ ٧١

قال الشيخ سيدي المختار الكنتي في (المنة) في نسب عقبة ين نافع : (عقبه بن نافع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عقبة المستجاب ابن نافع ابن عبد الله ابن عمر ابن عبد مناف ابن ضبة ابن زيد ابن عبد مناف ابن سعيد ابن عبد الله ابن فهر ابن مالك .) (١) .

نسب عقبة عند النسابين :

قال الحافظ ابن عبد البرفي الاستيعاب :

(عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تصح له صحبة) (٢) .

وتبعه على ذلك الحافظ بن الأثير في أسد الغابة فقال : عقبه ين نافع بن عبد القيسى بن أميه بن الظرب ابن الحارث بن عامر بن فهر القرشي الفهري ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تصح له صحبة) (٣) .

ويتفق الحافظ ابن حزم مع ابن عبد البرو ابن الأثير فيقول : من ولد أمية بن الظرب : نافع بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية ابن الظرب ين الحارث بن فهرنخس بزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع هبار بن الأسود ، وابنه عقبة بن نافع الذي بنى قيروان افريقية) (٤) .

---

(١) المنه ص ٥١ .

(٢) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر على هامش الإصابة في تمييز الصحابة ، دار الكتاب العربى جـ ٣ ص ١٠٩ . ١١٠ قال ابن عبد البر (ويقولون إن عقبة ين نافع كان مستجاب الدعوة فالله أعلم) ص ١١٠ .

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة لعــز الدين بن الأثير أ بي الحسن علي بن محمد الجزري (٥٥٥ . ٦٣٠ هـ) دار الشعب جـ ٤ ص ٥٩ .

(٤) جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، دار المعارف بمصر ١٣٩١ هـ ص ١٧٧ . ١٧٨ زاد ابن الأثير (عامر) ابن فهر جـ ٤ ص ٥٩ .

والنسب الذي ذكر المختار الكنتي لعقبة بن نافع يختلف تماما عن هذه الأنساب التي ذكرها هؤلاء الحفاظ علاوة على أنه لا تصح له صحبة عندهم •

وقد عده صاحب الاستقصاء صحابيا بالمولد (١) وأدخله فيمن دخل افريقيا من الصحابه رضوان الله عليهم (٢) •

ويؤخذ على عمود النسب الذي ذكره الشيخ سيدي المختار . وعلاوة على ما تقدم من اختلاف في نسب عقبة مع ما ذكره المترجمون لعقبة ـ أن محمد بن المختار ذكر في أبناء عقبة وأحفاده من لم نجد لهم ذكرا في كتب التراجم والأنساب فهو يقول إن عقبة ترك العاقب وترك العاقب يعقوب وترك يعقوب وردا أو وريدا أو شاكرا .) على اختلاف النسخ والكتب التي ذكرت ذلك كما تقدم (٣) والذي ذكره ابن حزم وغيره ممن وقفت على مؤلفاتهم أن ولد عقبة : أبو عبيدة وان ولد أبي عبيدة هم :

حبيب قاتل عبد العزيز بن موسى بن نصير • وعبد الرحمن بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع •وناقع بن أبى عبيدة •

وذكر أن حبيب أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ولد عبد الرحمن الذي ولي إفريقية •وإلياسا •وعبد الوارث (وأن لهم بافريقية عقب كثير (٤) •

ويعبد أن يكون لعقبة بن نافع أولاد آخرون استخلفهم على بعض المناطق كما ذكر في الغلاوية (٥) ولم يذكرهم المؤرخون ، وإن كنا لا ندعي لهم الإحاطة ، ولكن

---

(١) الاستقصاء الأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري السلاوي جـ ١ ص ٣٦

(٢) نفسه جـ ١ ص ٤٠ •

(٣) يرجع إلى الصفحة من هذا البحث والغلاوية ص ٦٣ •

(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٧٨ وابن خلدون جـ ٦ ص ١١١ •

(٥) الغلاويه ص٦٣ وما بعدها • قلت : وقريب من رواية الشيخ سيدي المختار الكنتي في ادعاء الانتساب إلى عقبة على ما رأنيا ، رواية يتمسك بها • (الفلان) تقول : إن عقبة تزوج بنت ملك : (التوردب) بعدما أسلموا على يديه في جنوب المغرب ، واسمها (بج مغ) (وولدله منها أربعة أولاد إليهم ترجع كل قبائل الفلان ثم تزوجوا وأنجبوا وتكاثروا فكان ذراريهم الفلان •) انظر تفاصيل الرواية في كتاب الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني • مرجع سابق ، ص ٥٢ . ٥٥ •

ما دموا ذكروا لنا أولاده وبعض أحفاده وما كان لهم من أثر بارز في الحياة السياسية والعلمية ولم نجد من بينهم هذه الأسماء التي ذكرها محمد الكنتي في الغلاوية ، ولم يذكر لنا مصدرا أخذها منه حتى نرجع إليه ونقارن ما فيه بما ذكر هؤلاء النسابون ، وكانت الكتابة أيضا في الصحراء التي تعيش فيها القبائل الموريتانية قليلة والنقول الشفهية عرضة لسوء الحفظ والخلط مهما كانت شدة المحافظة على الأنساب . لما كان ذلك كله : رجحنا عمود نسب عقبة الذي ذكره النسابون قبله ، وتوقفنا عن الإقدام على موافقته على الأسماء التي خالفه فيها من تقدمه أولم يذكرها غيره .

وليس ذلك شكا في الثقة بنقله أو موافقة لمن نسب كنتة إلى غير ما نسبوا إليه أنفسهم وإنما لترك عهدته عليه هو ، ولا شك أن في تتبعه لهجرات أجداده من القيروان حتى أوصلهم إلى بلاد موريتانيا كثير من الثقة وحكاية الإجماع على ذلك عند أهل التواريخ الذين لم يذكر لنا منهم واحدا . ولكن لعله اعتمد بعد كتابات والده المختار في كتبه التى لم تحصل عليها على كتاب : تاريخ كنتة الذي ذكره هو مرات في كتابه الطرائف (١) ولكنه لا شك أيضا أنه يؤرخ لحقبة مجهولة للبداوة والترحال وكثرة الخوف والفتن والاضطرابات . وما ذكره فيه أمور قد لا يقبلها باحث يطلب الحق والصواب (٢) .

وقد سمى بول مارتي هذه الحقبة التي أرخها محمد الكنتي بالفترة الأسطورية . (٣)

بقي أن صاحب الوسيط عند ما ترجم للمختار الكنتي قال إنه وقف على سلسلة نسبه متصلة بعقبة بن نافع الفهري الصحابي ثم قال : (وهذا يعارضه ما ثبت عند النسابين في أرض الصحراء من أن كنتة من بني أمية) قال (وكقبيلة كنتة والمدلش ، فلا

---

(١) الطرائف والتلائد ص ٥٠٣ و ٥٠٧ (ومؤلف الكتاب هو : سيدي محمد التمناوي ، وعنوانه : السيرة الكنية)

(٢) انظر الغلاوية ص ٦٣ . والطرائف والتلائد ص ٩١ وما بعدها .

(٣) كنتة الشرقيون ص ١٢ وما بعدها .

خلاف أنهما من بني أمية ، مع تباين مشاربهما) (١) ولم يذكر لنا مرجعا معروفا لنقف على مستنده في ذلك ، والمشهور من كتب الأنساب في بلاد موريتانيا نظم عمود النسب لشيخ أحمد بن محمدا الشهير بالبدوي المجلسي وشرحه تحفة الألباب للعلامة حماد بن الأمين (ابن أخي الناظم) وقد اتفق الناظم والشارح على ان عقبة بن نافع من بني الحارث بن فهر (٢) .

قال الناظم :

(وعقبة بن نافع الذقالا ‏ ‏ ‏ ياأهل ذا الوادي اظعنوا فسالا
واديه بالمعروف والمنكور ‏ ‏ ‏ من كل مايضر في العصور .)

وقال الشارح : (أي ومن بني الحاث بن فهرعقبة بن نافع بن عبدقيس .) (٣) وذكر أنه لا تصح له صحبة ، وهو تابعي كبير (٤)

وأما قول عبد الله بن سيدي محمود (٥) في معرض التأليب على أعدائه من كنتة إنهم من بقايا أحلاف اليزيد (٦) فلا يؤخذ منه كونهم من بني أمية ، ثم إن أمية ليس من متحد الأنساب بل يوجد أمية بن وانمالي الصنهاجي ثم اللمتوني أحد جدود أمراء المرابطين و أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي ، وأمية بن الظرب بن الحارث بن فهر (٧) الذي تقدم أنه من أجداد عقبة الذي تنتسب إليه كنتة هذا مع احتمال أن يكون من نسبهم إلى بني أمية يريد أنهم كانوا من ذرية عقبة الذي هو من أمرائهم في افريقية (٨) وقد صاهر سيدي علي بن سيدى يحي أحد أجداد المختار الكنتي

---

(١) الوسيط ص ٣٦١ و ٤٧٧ .
(٢) تحفة الالباب بشرح الأنساب . ط قطر سنة ١٤٠٥ هـ جـ ٢ ص ٧٨ .
(٣) نفسه جـ ٢ ص ٧٨ .
(٤) نفسه ص ٧٩ .
(٥) هو العلامة الحاجي المعروف ، راجع ترجمته في الوسيط ص ٣٦١ ـ ٣٦٤ .
(٦) الوسيط ص ٣٦٤ ويقصد باليزيد : يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي .
(٧) الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام جـ ٢ ص ٢٤٣ .
(٨) ابن خلدون جـ ٦ ص ١١١ و ١٤٧ والبيان المغرب جـ ٤ ص ١٧.

رئيس (أبدوكل) محمد آلم بن كنت بن زم المرابطي عندما كان يخرج إلى المرابطين في الصحراء وجبل حسان حيث أنجبت له بنت ذلك المرابطي الصنهاجي ولده محمد الذي تربى في أخواله ونسب إلى جده لأمه (محمد كنت) على عادتهم في ذلك (١) .

ومن هذه الصلة والنسبة أخذ بعض المستشرقين ولأغراض أخرى من أهداف الاستعمارنسبة كنته إلى زناتة من البربره كما فعل (فيليب فونداس) الفرنسي (٢) ولم نجده ذكر سندا تاريخيا يعتمد عليه أوحتى يمكن أن يدرس ، وانما هو حكم مجرد كما علق عليه معرب الكتاب في الهامش (٣) مع أن فيليب ذكر ما يناقض ما حكم به حيث قال إن كنتة اصطفت في صف بني حسان الذين حاربوا قبائل زناتة حربا مستمية حتى عام ١٦٧٤ م (٤) وأنها أيضا تمكنت برجاحة عقولها وتواضعها ، أن تغدو في أكثر الأحيان حكما بين القبائل الصحراوية .. (٥) .

والذي يظهر لي بعد هذا البحث أن الناس مصدقون في أنسابهم ما لم يدعوا أمرا مستحيلا ، وأن أهل الصحراء الموريتانية حريصون جدا على حفظ أنسابهم مع قلة الكتابة عندهم وإذا لم يصدق بعضهم بعضا فيما يدعيه من نسب فإن النافي سوف يطالب بدليل نفيه وليس في وسعه حسب علمي إحضار دليل أكثر من الطعن في الأنساب المذموم شرعا وعرفا ، وأما واقع كنتة فإنهم كما قال محمد الكنتي في الغلاوية : (إن كنتة قبيلة من قبائل الزوايا المتقادمة ..) (٦) .

والزوايا تطلق في موريتانيا على مجموع القبائل المهتمة بالعلم ونشره أيا كانت نسبتها (٧) ثم إن الانساب ليست من كسب الناس حتى يتعلق بها ذم أو مدح ولكن لما كان أهل الصحراء يتعلقون ويعتقدون فيمن ينتسب إلى آل البيت النبوي الشريف أو أحد من الصحابة الأعلام أو العلماء والصلحاء المشهورين كان لابد للباحث من دراسة أنساب المترجم لهم في هذا البحث على قدر الحاجة ، مع التوسط بين الإيجاز والإطالة .

---

(١) الغلاوية ص ٦٤ . ٦٥ .

(٢) دراسات عن الإسلام في افريقيا السوداء الفرنسية ص ١٠٨ . ١٠٩ .

(٣) نفسه ص ١٠٩ ومثله ما ذكر صاحب حاضر العالم الإسلامي المجلد الثاني ص ٤٥ .

(٤) نفسه ص ١٠٩ ولعله يشير إلى ما ذكر محمد الكنتي عن جده سيدي محمد الكنتي من تأليب أولا الناصر على أخواله من المرابطين لمغاضبة غامضة وقعت له معهم ، الغلاوية ص ٦٥ وما بعدها .

(٥) دراسات عن الإسلام ص ١٠٩ وحاضر العالم الإسلامي ، جـ ٢ ص ٤٥ . ٤٦ .

(٦) الغلاوية ص ٨٥ .

(٧) بلاد شنقط ص ٣٤ وما بعدها .

مولده ونشاته وأسرته :

ولد المختار رحمه الله عام ١١٤٢ هـ وقيل عام ١١٣٥ هـ بموضع يدعى (كثيب أغاله) في شمال أزواد من أحواز تينبكتو (١) .

(نشأته وأسرته)

ونشأ (المختار الكنتي) في المنطقة التي ولد فيها حيث نشأ يتيما في كفالة أخويه لأبيه وجده (٢) وذلك أن أمه امباركة بنت بادي (٣) توفيت عنه في الرابعة من عمره ، وفقد والده أيضا وهو في سن العاشرة (٤) .

ولعل والده أحسن رعايته في هذه السنين العشر التي عاشها معه قبل أن يصبح يتيم الأبوين ، ثم عاش بعدهما في عائلة تتكون من الإخوة والأخوات والإخوة لأب وكان الكل يحفه بالرعاية والمحبة ، وإن كانت مسؤولية كفالته على أخيه الأكبر سيدي محمد أبي حامية (٥) .

ومع ما ذكرصاحب الطرائف من حسن عناية أهله به وإحساسهم بنبوغه وما ذكر عنه من الكرامات التي صاحبت ميلاده وما عرف عنه من الكشف والنطق بأنواع الحكم من صغره مع ذلك كله فإنه ذكر عنه روايات تدل على أنه عاش طفولة صحراوية غير مستقرة ولا متميزة بشيء عن حياة أبناء عمومته ومجتمعه من رعي الإبل والأغنام والركض بين الأودية والجبال وتسلق الأشجار وشقوق الصخور ، الأمر الذي جعل (بول مارتي) يستخلص من ترجمته له أنه عاش طفولة تائهة غير مستقره (٦) .

---

(١) الطرائف والتلائد ص ٨٩ .

(٢) هم سيدي محمد بن أحمد بن أبي بكر أبو حامية عاش ٨٤ عاما وسيدى بو بكر أخوه وقد اشتهر بأنه من الشيوخ الأولياء . وجده سيدي بادي بن الحبيب الذي كان يحبه كثيرا ويبشره بمستقبل زاهر الطرائف ص ٩٠ . ٩١ . ٩٢ .

(٣) لال مباركه بنت سيدي بادي بن الحبيب الطرائف ص ٩١ .

(٤) الطرائف ص ٩٢ .

(٥) نفسه ص ٩٢ . ٩٤ وفيه (أنه كان ذا أنفة وكرم وعزة نفس وديانة وصيانة)

(٦) الطرائف والتلائد ص ٨٨ وما بعدها وص ٩٤ وكنته الشرقيون ص ٤٠ وما بعدها .

وهذا نص الطرائف في وصفه لنشأته :

(فإنه كان نشأ بين صبيان قومه من كناتة نشأة أهل الصحراء يقرأ القرآن بالكتاب وربما رعى وربما تعطل لعارض وهكذا نشأ حتى بلغ سن الثالثه عشرة من عمره حيث بدأ يعمل الفكرة فى كيفية الخروج لطلب العلم والتغرب في تحصيله والتجرد للارتباض وتهذيب النفس .) (١) .

---

(١) الطرائف ص ٩٤ .

المطلب الثاني :

طلبه للعلم ورحلته فيه وشيوخه :

رأينا نشاة المختار الكنتي وأنه ليس فيها مزيد على نشأة غيره من أبناء البادية ، وأنه بلغ الثالثة عشرة ولم يتقن المادة الأولى في منهج أهل تلك البلاد وهي القرآن الكريم وأن قراءته للقرآن تقطعها عوارض الرعي والترحال وغير ذلك ٠

ولكن على عادة كثير من المريدين وكتاب المناقب عندما يؤلفون عن مشايخهم فإنهم لابد أن يذكروا لبداية أمورهم حادثا خارقا أو مستغربا هذا الأمر لم يخرج عنه محمد الكنتي فقد قال إن والده وقف ذات يوم مع بعض لداته من صبيان قومه على معابد (عبيد) يفتلون الحلفاء فتناول كل صبي من أولئك الصبيان حبلا من يد عبد يقتله لهوا ، فتناول الشيخ رضوان الله عليه حبلا من عبد نوبي لا يفهم كلا ما ، ولا يحسن جوابا ، فأفصح العبد وقال : ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت) (١) ٠

وأنه بدأ يفكر في الرحلة لطلب العلم وترك ما هو عليه من رعي الإبل واللعب (مع قلة المساعد على جمائل المقاصد) (٢) ٠

وبعد أيام قليلة وعندما كان في رعي الإبل إذ جزم بالخروج والتوجه إلى جهة المشرق ، فأخذ جملا من الإبل وسأل الله أن يرد الإبل إلى أهلها وأن يصحبه بعينه وعنايته (٣) ٠

---

(١) الطرائف ص ٩٤ ٠

(٢) نفسه ص ٩٤ ٠

(٣) نفسه ص ٩٤ - ٩٥ ٠

شيوخـــه

بعـــدما ذكر من مشـاق السفر التي تعرض لها أول خروجه من ديار أهله (١) وصل إلى حي من أحيـاء السوقييـن الذين هم طلبة علم ووعاظ في الطوارق (٢) .

ويدعى ذلك الحي أو الفحذ بـ(كل أنلبوس) فأقام بين ظهر انيهم يطلب العلم ويلعب مع فتيانهم (٣) . ويذكر أنه أصابته حيرة بسبب اللعب معهم فأخذ على نفسه أن لا يلعـب وأن يجتهـد في التحصيل ولا يسبقه أحد إلى أخذ لوحه أو كتابه (٤) ولكي يتفرغ لذلك أكثر أرسل الجمل ليرجع إلى منهله (٥) .

كانت هذه بداية لم يحدد لنا فيها معلما معينا تلقي عنه وهذا يدل على أن في الحي الذي طلب فيه العلم شيوخا متعددين تلقى عنهم العلم ، كما أنه لم يذكر فنا بعينه أخذه عنهم . وهو أمر يؤخذ منه أنه مازال مبتدئا فى الفنون حيث يأخذ القرآن وكتب الفقه الصغار كابن عاشرو الأخصري وغيرهما من المختصرات الفقهية في العبادات .

يؤكد هذا أنه لما خرج من هذا الحي إلى حي آخر من الطوارق التحق بشيخ يدعـى آح الكلحرومى (٦) وهو من حيي في زوايا الطوراق حيث يذكر أنه أقام (عنده زمنا يتعلم الفقه (٧) . ولعله أخذ عنه مختصر خليل بن اسحاق (٨) .

---

(١) الطرائف ص ٩٥ .
(٢) كنتي الشرقيون ص ٤٣ . ٤٤ .
(٣) الطرائف ص ٩٥ .
(٤) نفسه ص ٩٥ .
(٥) نفسه ص ٩٥ .
(٦) نفسه ص ٥ . ٩٦ .
(٧) نفسه ص ٩٥ . ٩٦.
(٨) كنته الشرقيون ص ٤٤ .

فيما أخذ حيث يذكر أنه كان يكتب مدة إقامته عنده سبعة ألواح كل لوح في فن، وأنه يحفظها ويفسرها ويدرسها للطلاب ويشارك غيره من الطـلاب في الفنون التي يدرسونها ، وأنه بسبب هذا الذكاء المفرط والحفظ النادر تعرض لإصابة بالعين (١) ذلك أنه من النادر أن يكتب الطالب مختصر خليل بقفين أو ثلاثة وأربعة كما ذكر هو عن نفسه (٢) والقف مقدار يومي اصطلح عليه قراء مختصرخليل حتى صار كالأثمان في القرآن . وقد يعترض على ما ذكر عن نفسه من معرفة الكتاب أو الفن بمجرد كتابة شطره أو ثلثيه ، ذلك أن الكتاب الواحد يكون مختلف الموضوعات متباين الأبواب فلا يعقل عادة في مجال طلب العلم معرفة ما في الكتاب بمعرفة بعضه مع اختلاف موضوعاته إلا إن كان يريد أنه يسهل عليه إتمامه بدون كثير تكرار (٣) .

وفي أثناء طلبه للعلم عند آح الكلحررومي كان يتعرض لأذى الطلاب وينتصر له شيخه ويـدافع الله عنه بابتلاء من ظلمه أو أهانه بأن يسلط عليه من هو أقوى منه .. (٤) . وهو في ذلك صابر على الأذى والعري والغربة (٥) .

وهذا لا يشك أنه من تحمل طلاب العلم أولى العزم ولكنه غير خارج عن إرادة البشر بل توجد صور كثره من التحمل أقسى من مثل هذا الذي كان يتعرض إليه المختار الكنتي .

ويبدو أن شيخه آح هذا كان ناصحا له حيث خشي عليه من البرد عند حلول فصل الشتاء وهم في أثناء هذا الفصل يكونون قرب النهر فأمره بالنزول إلى مدينة تينبكتو حيث البيوت والدفء والاستقرار فامتثل لأمره ورحل إليها ، إلا أنه عندما

---

(١) الطرائف ص ٩٦ .

(٢) نفسه ص ٩٦ .

(٣) نفسه ص ٩٦ .

(٤) نفسه ص ٩٦ .

(٥) نفسه ص ٩٦ .

وصلها خيبت ظنه علميا وماديا فلم يجد بها من يستفيد منه لفقد العلماء والمدارس بها ولم يكن بها من أهل الكرم والضيافة من يؤويه وهو غريب لا يعرف بها أحدا واستمرت به هذه الحالة التي تعد فترة حيرة وانقطاع عن التحصيل حتى وقف على أصحاب هيئات وعمائم في جامع المدينه فأنصت لهم ، فإذا بهم يخوضون في أنواع من العبث والمجون والغيبة فمقتهم وأغلظ لهم القول ثم انصرف عنهم ٠

فهيأ الله له . ولعله بسبب أمره بالمعـــروف ونهيه عـــن المنكر . رجلا يدعـــى (الكويهينى) فأسكنه ومكنه مما بيده من الكتب وأقام يطالعهــا ثم خرج ذات يوم وإذا بأحـــد أقربائـــه في رفقة ، قال (فأنبني وشنع علي في الإقامه بشظف العيش والعـــري) (١) ٠

وتحت الحاح هذا القريب خرج معه هو رفقته من تينبكتو ولكنه تخلف عنهم في الطريق واختفى عنهم حتى فاتوه ، ثم أخذ في البحث عن الشيخ سيدي علي بن النجيب . ولعله كان عنده علم بوجود ه في تلك المنطقة وبمكانته العلمية ٠

فعثر على الشيخ الذي كان له الأثر الكبير في حياته العلمية والعملية (٢) ٠

قال : (ثم قدمت على الشيخ المربي سيدي علي بن النجيب :

وكان عارفا بالله ناسكا متعبدا عالما متفننا صاحب أحوال سنية وأعمال زكية سنية فصحبته وأخذت عنه الأوراد القادرية وعملت في الرياضة) (٣) ٠

وهذا النص يعطينا علاوة على مكانة هذا الشيخ الذي وقع عليه المختار الكنتي أنه هو لم يكن قد دخل في الطريقة القادرية رغم ما كان عليه أجداده من القيام عليها والعمل على نشرها على ما تقدم بيانه ٠

ويصف الشيخ المختار الكنتي مجاهداته ورياضاته الصوفية وما لاقاه من معاناه من النفس والهوى والشيطان (٤) ٠

---

(١) الطرائف ص ٩٦ ٠

(٢) نفسه ص ٩٦ . ٩٧ ٠

(٣) الطرائف ص ٩٧ ٠

(٤) نفسه ص ٩٧ سيأتي نصه في هذا الموضوع عند الكلام على المجاهدات في الطريقة القادرية

وهو في وصفه هذا إنما يكرر ما سبقته به الصوفية من إظهار صعوبة المجاهدات والرياضات ، ووصف البدايات والنهايات وما ينتهي إليه الصادق في سلوكه ، وما يؤل إليه أمر المنافق أو الضعيف في إيمانه من الوقوع في حبائل الشيطان أو الانقطاع عن السلوك والتربية بالكلية (١) .

ولم يكن المختار الكنتي سالكا مرتاضا على طريقة القادرية فقط بل إنه كما يقول : اتخذ من الخلوه والعزلة عن الخلق فرصة لحفظ العلوم وفهمها وأخذ الأسانيد عن شيخه فيها (٢) .

وهذا نموذج من دراسته : العلوم التي أخذها بالسند عن الشيخ سيدي علي هي :

تفسير القرآن الكريم :

أخذ فيه الكتب التالية بالسند عن شيخه إلى مؤلفيها .

١) تفسير الجلالين .

٢) تفسير البغوي .

٣) لباب التأويل لابن الخازن .

٤) تفسيربن عطية .

٥) تفسير النسفي .

٦) تفسير البيضاوي (٣) .

الحديث والعلومه بالسند عن شيخه :

---

(١) نفسه ص ٩٧ .

(٢) نفسه ص ٩٧ . ١١٢ .

(٣) الطرائف ص ٩٩ ، ١٠٥ .

١) الصحاح الستة • (١)

٢) جامع الأصول لابن الأثير •

٣) وجامعي الاسيوطي . الكبير والصغير •

٤) شفاء القاضي عياض •

٥) كشف الغمة عن جميع الأمة للشعراني •

٦) والترغيب والترهيب للمنذري (٢) •

علوم الفقه بالسند عن شيخه وغيره إلى المؤلفين :

١) مختصر خليل ومنظومة بن عاصم أخذهما على محمد أحمد البلتماتيحي بالسند إلى مؤلفيهما (٣) •

٢) جامع الأصول لابن الحاجب •

٣) كتاب ابن عرفة •

٤) رسالة ابن أبي زيد القيرواني عن الشيخ سيدي علي بن النجيب إلى مؤلفيها (٤) •

---

(١) الظاهر أنه يريد بها : الموطأ والصحيحين البخاري ومسلم ، وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وفي إطلاق الصحة عليها جملة كلام للعلماء • انظره في الباعث الحثيث على معرفة علوم الحديث ، تحقيق محمد عبد الرازق حمزة ، دار مصر للطباعة ص ٢٤ . ٢٧

(٢) الطرائف ص ٩٩ . ١٠٥ •

(٣) الطرائف ص ١٠٤ . ١٠٥ •

(٤) نفسه ص ١٠٥ قلت : ولابن الحاجب مختصران أحدهما في الفروع الفقهية اسمه : جامع الأمهات • ولعله هو المراد هنا ، والثاني : في الأصول اختصر به كتابه : منتهى السول والأمل من علمي الأصول والجدل • ولا أعرف له كتابا بهذا الأسم : جامع الأصول •

أما علوم الأصول : فقرأها على أحمد عبد الله الولاتي :

وبسنده أخذ عنه الكتب التالية :

١) ورقات إمام الحرمين أبي المعالي الجويني ·

٢) جمع الجوامع لابن السبكي ·

٣) كافية ابن الحاجب · قلت : كافية ابن الحاجب في النحو ·

٤) تنقيح الفصول ·

٥) قواعد المنجوري (١) قلت : لعله يقصد شرح المنجور على المنهج للزقاق وهو في القواعد الفقهية لا الأصول ·

اللغة العربية وعلومها :

يقول : إنه كان زاهدا في أول أمره في علوم اللسان ويرى أنها تصده عما هو بصدده حتى لحن في قراءته أمام شيخه الذي كان يحثه في السابق على تعلم النحو فعزم على قراءته فأخذ في قراءة الكتب التالية التي ذكر أنه فاق فيها من سبقه إليها ممن كان معه من الطلاب وهي:

١) مقدمة بن آجروم ·

٢) الخلاصة لابن مالك ·

٣) والفريدة للسيوطي (٢) قال: (وبرعت في الفن ثم اشتغلت بفنون البيان) (٣) ·

وهي : علوم المعاني :

١) ألفية السيوطي : عقود الجمان ·

٢) التلخيص الذي هو أصل الفية السيوطي · (٤) قال الشيخ سيدي محمد عن والده : وكان يقول في إفتتاحيات إجازته منوها بأهمية الاسناد :

(أما بعد فإن السند هو العروة الوثقى للعلماء والصلة المتصلة الموصلة بمددها للأولياء اتخذه العلماء مغنما والأولياء سلما ··) (٥) ·

---

(١) نفسه ص ١٠٥ ·

(٢) الطرائف ص ٩٩ ـ ١٠٠ و ١٠٥ ·

(٣) نفسه ص ١٠٠ ·

(٤) نفسه ص ١٠٥ ·

(٥) نفسه ص ١١١ ·

قلت : وبالمقياس البشري العادي فإنه يصعب أو يكاد يكون مستحيلا مهما أوتي الإنسان من ذكاء وفراغ ، تحصيل هذه الفنون كلها بإتقان في مدة تنحصر في خمس سنوات إلى أربع ، وهي مدة غياب المختار الكنتي عن أهلـه في رحلته لطلب العلم حيث قضى عاما منها بين شيوخه من الطوارق كل أنليوس (١) وآح الكلحرومى (٢) وتينبكتو (٣) .

وأربعة أعوام عند شيخه علي بن النجيب حيث أمره بعدها بزيارة أهله فيما يفهم منه انه تصدير وإذن بالمشيخة (٤) .

وقد زار المختار الكنتي بعد ذلك مراكز في البلاد ، مشهورة بعطائها العلمي كولاته وتشيت (٥) .

وكان المختار الكنتي فيما يرويه عنه ابنه محمد (الخليفة) في أثناء طلبه للعلم محفوفا بالعناية من الله حيث فتح عليه في العلوم كلها وكان الخضر عليه السلام يرشـده (٦) وربما أتاه رجال يعلمونه حتى يعلم هو شيخه (٧) . وأن من أكرمه الله ومن أعرض عنه أو اعترض عليه أو ناظره نصره الله عليه (٨) .

ومن القديم والصوفية يظهرون مكانتهم عند الله التي قد لا يوافقهم العلماء على كثير مما يدعونه منهما إما لاستحالته عقلا أو لمخالفته للشريعه الاسلامية ، وإذا كانت هذه المبالغات التي يذكرها الصوفية عن أنفسهم قد تصل إلى حد الغلو وادعاء

---

(١) الطرائف ص ٩٥ .

(٢) نفسه ص ٩٥ .

(٣) نفسـه ص ٩٦ .

(٤) نفسه ص ٩٧ . وما بعدها .

(٥) نفسة ص ٣٨ و٩١ و١٦٤ و١٩٥ .

(٦) نفسه ص ٩٩ . ١٠٠ وهو الذي أشار عليه بقراءة رسالة ابن أبي زيد القيرواني حسب الرواية

(٧) نفسـه ص ٩٩ .

(٨) نفسـه ص ١٠٠ . ١٠١ .

ما لا يجوز ادعاؤه فإنه لا مدح في نسبتها لشخص ما ، والأولى أن يدرج في سلم طلاب العلم المجتهدين والعباد الملتزمين والعلماء العاملين بدلا من أن يؤخذ عليه ما في الغلو وحب العلو فلا يسلم له ولا يسلم من الناقدين له . (١)

وإذا ثبت ما نسب إلى المختار الكنتي من الاجتهاد والانقطاع في طلب العلم واتباع السلوك الشرعي كفانا ذلك في معرفة ما أنعم الله عليه به ، وما اثمر له ذلك من مكانة علمية كبيرة - سنتحدث عنها إن شاء الله فى المبحث الآتي وزهد (٢) وتواضع (٣) وورع (٤) وصبر (٥) وسياسة حكيمة (٦) مكنته من نشر طريقته بين العلماء وطلاب العلم والشيوخ والأمراء (٧) .

وأغنانا ذلك عن تتبع ما نسب إليه على لسانه هو أو نقله عنه من واقع حياته ابنه سيدي محمد الذي نعتمد على كتاباته في ترجمته له . من عبارات صوفية غامضة أو غالبية .

على أنه لابد من عرض ونقد ما هو داخل في خطة هذا البحث من ذلك إن شاء الله .

---

(١) نفسه ص ٢٦٩ . ٢٧٠ .
(٢) الطرائف ص ١٦١ .
(٣) نفسه ص ٢٠٢ وما بعدها .
(٤) نفسه ص ١٧٦ . ١٧٧ وما بعدهما .
(٥) نفسه ص ١٧٠ .
(٦) نفسه ص ٢١٣ .
(٧) نفسه ص ٤٠٢ و ٤١٧ و ٤٢٠ و ٤٢٢ و ٤٢٣ و ٤٢٨ وما بعدها .

المطلب الثالث : مكانته العلمية وآثاره

المقصد الأول : مكانته العلمية :

لقد حظي المختار الكنتي من بين علماء بلاده بتراجم متعدده كلها تحاول إبراز مكانته وقوة أثره .

فقد ترجم له صاحب فتح الشكور من جهة كونه عالما فقيها (١) ، وترجم له صاحب الوسيط من جهة كونه شاعرا وأديبا (٢) وترجم له صاحب شجرة النور الزكية من جهة كونه أحد أعلام المالكية (٣) وترجم له بول مارتي ترجمة عامة معتمدا في ترجمته له على المصادر المكتوبة والأحاديث الشفهية (٤) .

ويظل أكبر مترجم له ولده وخليفته محمد الكنتي حيث خصص لترجمته وكل ما يتصـل به كتابا ضخما سماه : الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالـدة والوال (٥) .

وخصص له أحد أتباعه وهو محمد الأمين بن عبد الله الجعفري الحجاجي الصحراوي المتوفي سنة ١٢٩٦ هـ كتابا سماه :

المنهـج المختار والكوثر الممدرار في مناقب الشيخ المختار واشياخه الاخيار الأبـرار (٦) .

وإذا تركنـا ما في هذه التراجم من الإطراء والإطناب فإننا نجدها في غير ذلك

---

(١) فتح الشكورص ١٢٥ الترجمه رقم : ١٤٧ .

(٢) الوسيط ص ٣١٦ .

(٣) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٣٧٧ .

(٤) كنتة الشرقيون ص ٣٩ وما بعدها .

(٥) الطرائف والتلائد ص ١ . ٥ وهو الكتاب الذي نعتمد عليه كثيرا في تراجم المختارية وما يتصل بها .

(٦) الاعلام للزركلي جـ ٦ ص ٤٣ ، والإعلام بمن حل بمراكش وأعمـات من الاعلام لابن سوده جـ ١ ص ٣٣١ .

مجمعة على وسمه بسمات العلماء الاجلاء و المجددين النبلاء • فالشيخ محمد بن محمد مخلوف يصفه قائلا : (كان من أعلام العلماء والآئمة الفضلاء ، وأحد الأساتذه المشهورين والجهابذة المعروفين) (١) •

ويقول فيه صاحب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور : بأنه شيخ الأشياخ السادات ، ساقي المريد وعمدة أهل التوحيد ، شيخ المحققين : (كان رحمه الله تعالى وليا عابدا زاهدا ، يأتونه المريدون من كل فج ومكان) (٢) •

ويقول فيه صاحب الوسيط (كان الشيخ المذكور ، من أفراد عصره علما وصلاحا ولم نر أحدا يطعن في ولايته) ويقول : (ومن نظر في كتبه تبين له فضله ، سواء كانت في الحقائق أو غيرها) (٣) • ويعتمد بول مارتي في ترجمته له على ما كتبه ابنه عنه ويتخلص منه ومن الروايات الشفهية التى جمعها عن حياته (أنه كان قبل كل شيىء مصلحا ، وفاتحا إسلاميا حقيقيا ، اجتذب علمه إلى خيمته زوايا البيضان الذين منهم انتشر دعاته فى كل الأقطار السوداء في إفريقيه الغربية وبالتالي تدين لهم الصحراء الكبرى وبلاد السودان في الوقت الحالي ، باعتناقها الاسلام مؤخرا) • إلى أن قال : (وأنه في الوقت ذاته هو السيد الذي وطد وأنار للمشايخ طريق إيمانهم ، والزعيم الديني الذي أدخل في الاسلام الأقوام الوثنية) (٤) •

وقد لا يجد الباحث غضاضة في التسليم لما وصف به هذا الشيخ من المكانة العلمية والاجتماعية إلا أنه لابد من القول بأن أمثاله كثير في تلك المنطقة ممن عاصروه أو جاؤا بعـــده بقليل ولو أنهم لم يكتب لهم تاريخ يبرز حياتهم ويسلط الضوء على آثارهم • (٥)

---

(١) شجرة النور ص ٣٧٧ •

(٢) فتح الشكور ص١٥٢ (يأتونه) : كذا في النسخة المطبوعة من فتح الشكور وهو على لغة : أكلوني البراغيث •

(٣) الوسيط ص ٣٦١ •

(٤) كنته الشرقيون ص ٣٩ •

(٥) الوسيط . أنظر خاتمته ص ٥٧٨ . ٥٨٠ •

هل كان الشيخ سيدي المختار الكنتي مجددا ؟

إنه لابد من مناقشة القول بأن هذا الشيخ هو مجدد القرن الثاني عشركما وصفه به ابنه (١) والتعرض كذلك لبيان عقيدته ليتضح مدى صحة منهجه من خطئه •

ينطلق محمد الكنتي في وسمه لوالده بهذه المكانة العالية من الأمور التالية :

١) سعة باعه في جميع الفنون (٢) •

٢) وأنه آيه في علوم الباطن من تصوف وعلم منازله وأسرار الباطن (٣) •

٣) اعتماده في ذلك على الكتاب والسنة لغلبتهما عليه حيث إنه كان يفسر القرآن إلى آخره عن ظهر قلب كما يقول (٤) •

٤) وأنه كان مرجحا للاتباع كارها للابتداع والخروج عن سنن السلف الصالحين وما اجتمع عليه صدر العلماء العاملين •(٥)

يضاف إلى هذه الأمور أنه هو صرح بما يقتضي حكمه لنفسه بهذه المنزله فى مناسبات كثيره منها قوله في قصيدة بائة له :

وإياك ترضى باقتناص فروعها	بدون ارتشاف من مشارعها العذب
فمن لم يقيد بالكتاب علومــه	طغى وبغى واستبدل البسر بالرطب
ولا تقتصر إن الحديث بيانه	وتفسيره فقه الائمة لا الشغــب

---

(١) الطرائف والتلائد ص ٢٦٩ - ٢٧٠ . ٢٧٣ ومحمد المديوني المدرسة الكنتيه : نموذج للدعوة والارشاد ص ١ •

(٢) نفسه •

(٣) انظر : جنة المريد ص ٢٩ . ٣١ والطرائف ص ٢٨٠ . ١٨٥ •

(٤ . ٥) الطرائف والتلائد ص ٢٦٨ سيأتي إن شاء الله في مبحث العلم عند القادرية بيان المراد بعلم الظا هر والباطن •

وثق بكتاب الله والسنة التي أتت عن رسول الله والعكس فاجتنب

ودع عنك أقوال الرجال ورأيهم لقول رسول الله فهو الـــذي يطـب

ولا تبتدع قولا تخاف عقابه فمن يبتدع في النار مع قوله يغب) (١)

ومن قوله في افتتاحية كتاب هداية الطلاب :

(الحمد لله الذي خص هذه الأمة المحمدية بأن جعل لها في كل قرن وارثا يجدد لها دينها يفيض عليه العلوم من لدنه ليحقق تمكنها) (٢) .

وهذا الكتاب اعتمد فيه على فقه الصحابة والسلف الأول كما يقول ولده ولذا فإنه مشتمل على مسائل في الفروع خالف فيها مختصر خليل وأصله (٣) ويؤكد ذلك برؤية من النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول في منازلة له :

(رأيت المصطفى في النوم حقا فبشرني وأدنانـــي إليـه

وقـــال بأنك المبعوث صدقـا تجدد سنتي فاصبر عليه

فعلمنـــي علومـــا زاخـرات وحقق نسبتي فيما لديـه) (٤)

من هذه النصوص وغيرها جزم محمد الكنتي قائلا : (بل كان رضي الله عنه المجدد في القرن الثاني عشر) (٥) .

---

(١) الطرائف ص ٢٦٩ في الأصل : (وثق بكتاب والسنه التى) وأظن أن الصواب ما أثبتناه والابيات مختارة وليست متتالية وتأتي إن شاء الله في فصل الصحوة السلفية في الطريقة القادرية متتالية .

(٢) نفسه ص ٢٦٩ .

(٣) نفسه ص ٢٦٦ .

(٤) نفسه ص ٢٦٩ .

(٥) نفسه ص ٢٦٩ في الأصل : (بتجديد سنتى فاصبرعليه)

قلت : ومع ميله فيما تقدم إلى تعميم الحكم له بالتجديد في جميع الميادين فإنه يصرح بما يقيد مجال تجديده ، حيث يقول بأنه وإن ادعى أحد مشاركته فى بعض العلوم الرسمية ألقى القياد إليه في غيرها من العلوم الوهبية اللدنية . فيقول : (بل وافر رضي الله عنه على حين انقطاع من التربية بالرسم المألوف على السنن المعروف فأحيا مواتها ونشر رفاتها غربى وعلم وهذب وقوم ..) (١) .

ويوضح ذلك بكثرة مجالات التجديد ليؤكد مجال تجديد والده (٢) فيقول : (ثم لما كان الأهم الأولى تربية المريدين وتهذيب أخلاقهم كانت عنايته رضي الله عنه بذلك أشد وعمله في تقرير قواعد الصوفية أتم وآكد) (٣) .

وأنه كان يحيل المشتغلين من طلبته بالفروع والنحو على غيره ممن له خبرة بذلك الفن . (وليس هو كذلك مع المشتغل بعلم التفسير والحـديث والتصوف) (٤) (ولذا كان غالب تآليفه في فن التصوف ، وما كان منها في غيره يظهر لك بديهة منه معنى الميل إليه وغلبته على كلامه ودورانه عليه) (٥) .

---

(١) الطرائف ص ٢٧٠ .
(٢) نفسه ص ٢٧١ .
(٣) نفسه ص ٢٧١ .
(٤) نفسه ص ٢٧٢ .
(٥) نفسه ص ٢٨٠ .

المناقشة والنقد :

الواقع أنه لا يكفي بالمقياس التجديدي أن يدعو عالم أو شيخ في قصيدة إلى العناية بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو العمل على تحرير المسائل العلمية أو يؤلف كتابا يخالف في بعض مسائله مختصرا كان موجودا قبلة ٠ أو يذكر في مناماته أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بتجديد سنته ، أو يؤكد على العناية بعلوم الصوفية وتدريسها وتسليك المريدين على منهجها ٠

ذلك أن التجديد أعم من هذه الأمور وأشمل حيث لابد أن يجتمع فيمن يوصف بالتجديد العلم والعمل والدين وسياسة الدنيا من أخذ الناس بالشريعة وإقامة حدود الدين وفق المنهج الذي كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وتغير مسيرالحياة الفاسدة إلى حياة صالحة باللين في موضعه والشدة في مكانها كما كان عليه الخلفاء والراشدون ومن تبعهم على نهجهم في سياسة الدين وحمل الرعية على ذلك بما يناسب٠

وهذا ما لم يدعه محمد الكنتي لوالده حيث يقرر أن غالب الأحكام السياسة يجري فيها المجرى اللائق بالحال لفقد شروط القيام بها على الوجه المقرر شرعا من إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام بالوظائف السلطانية ، وأنه مع ما أفرغ عليه من القبول ونفوذ الكلمة وعظمة الهيبة عند الأمراء والمتغلبين والرؤساء والمتعصبين في سائر الأقطار ركان يتوصل إلى تنفيذ ما تعين من ذلك بالمجاملة والمداراة والعطاء (١)

قلت : ومن كان على هذا الجانب الكبير من المكانة عند الناس وفي أرض سائبة يسودها الظلم والجور والفوضى فإن مجال تجديده هو العمل على جمع الناس على إمام عادل وحملهم على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتطبيق أحكام الله فى جميع شؤنهم ٠

---

(١) الطرائف ص ٢٧١٠

وهذا ما لم يكن عليه المختار الكنتي بل إنه دعي إلى ذلك فامتنع مكتفيا بما هو فيه من السلامة مع الجاه العريض بل إنه تولى القضاء في تمبكتو فعدل حتى لمس الناس آثار العدل أثناء قضائه وعرف ما عليه القضاة في عهده من الظلم والجور في الاحكام وأخذ الرشاوى ثم تركه لمجرد رؤيا (١) ٠

أما العلوم فكانت كثيرة والعلماء متوافرون في تلك المنطقة والداعون إلى الله وإلى تحكيم شرعه كثيرون ولكن لم يدع أحد منهم التجديد بمجرد ذلك (٢) ٠

وإذا نظرنا إلى موقفه من المجددين داخل البلاد وخارجها نجد أفقه لا يتسع في بعض الأحيان للتحقيق الذي دعى إليه في بائيته ٠ فمثلا نجده يرد على المختار بن بونه والمجيدري بتأليف كتاب كبير قائلا في سبب تأليفه له :

(والسبب في ذلك ما بلغني مستفيضا من خروج رجلين متقولين من تلقاء أنفسهما لا بنص صريح ولا تبيين أحدهما يقال له ابن بون : أعلن بتكفير من يقطع بقول الأولياء الصالحين بغير نص معه ولا حجة من رب العالمين) (٣) وأخذ يؤلف ويرد ويشنع بأمور بعيدة عن موضع النزاع على ما يستبين إن شاء الله في الصفحات الآتية ذلك أن ابن بون وهو الرجل الأول الذي كان من الموصوفين بالتجديد وهو : إنما يبين في نظمه : (الوسيلة) منهجا وسطا في الأولياء والفرق بينهم وبين الأنبياء حيث يقول :

(وإن فرقة الجنيدهم على ... هدى ومن لنهجهم توصلا (٤)

وإنما الإقساط في النبـــي ... وجوب عصمة وفي الــولي

تجويز أن يؤتيهم الكرامــه ... من قد هداهم للأستقامـه

---

(١) انظر تفصيل ذلك في الطرائف ص ١٧٦ - ١٧٧ و ٢٨٥ . ٣٨٧ و ٣٨٩ و ٤٢٠ و ٤٩٩ ٠

(٢) يراجع في ذلك : فتح الشكور والوسيط وبلاد شنقيط ٠

(٣) جذوة الأنوار ص ١ وما بعدها ٠

(٤) وسيلة السعادة ص ٧ و ٨ ، و ٩ ٠

كرامة الولي حـق وظهــر　　منها كثير كرسالة عمر
لنيل مصر وسماع ساريه　　كلامه من البلاد النائيه

إلى أن قال : لكن من أوجب هذا أفرطا　　في حقهم ومن أباه فرطا
وقطعه بما به الـــولي　　أخبر كفر عكسه النبي) (١)

وحكى المختار الكنتي أن حجة ابن بون في ذلك مخافة أن تثبت العصمة لغير الأنبياء (٢) ٠

وحكى أن السبكي قال : (أقوال غير الأنبياء لا يقطع بصحتها ولا يجب العمل بها لفقد العصمة من الخطإ في حق غير الأنبياء) (٣) ٠ وقد رد الكنتي على ابن بون وشنع عليه ، ورمى صاحب هذا القول بالبدعة الشنيعة والزندقة ، والخروج والرفض (٤) إلى غير ذلك من الألقاب التي لم يكن ابن بون من أهلها حتى إنه اعتبر قوله تنقيصا من مكانة أولياء الله وتوعده بسوء الخاتمة وسلب الإيمان (٥) والعياذ بالله ٠

وقد ردا بن بون ودافع عن نفسه في أبيات منها :

(أسيدنا المختار لا تك مفرطا　　وإياك والتفريط واعدل وأقسطـــا
فكونك ذا مـــال وجاه ورتبــة　　علت في قلوب الناس لم يمنع الخطا
وكوني لم أذكر كذكرك لم يكـن　　ليمنع التوفيق من ما نح العطـــا
أتسلبني والله ماشاء مثبــت　　إذاً أنت في تعظيم نفسك مفرطا) (٦)

وقد اعتبر صاحب الوسيط هذه الأبيات من النكير الشديد على ولي لله تعالى(٧)

---

(١) نفسه ص ٩ ٠
(٢) جذوة الانوار ص ٢٨ ٠
(٣) نفسه ص ٢٨ ٠
(٤) نفسه ص ١٥ . ٢٨ و ٥٩ . ٧٢ و ٨٨ وغيرها ٠
(٥) نفسه ص ٩ . ١٠ و ١٨ . ٢٠ و ٩٧ و ١١٩ . ١٢ ٠
(٦) الوسيط ٢٨٢
(٧) نفسه ص ٢٨٢ ٠

لم يجد أحدا يطعن في ولايته (١) وجزم بأن ابن بون رجع عن ذلك النكير مع أنه . كما يرى . لا يوجد ولي إلا وله من ينكر عليه من العلماء (٢) وظاهر من كلامه أنه يريد وليا با لمعنى الصوفي ، وإلا فالعلماء المسلمون العاملون كثيرون ولا ينكر عليهم أحد ولايتهم لله تعالى ويؤخذ من هذه العبارة الأخيرة أن مراده بالأولياء : شيوخ الصوفية وهم الذين ألف المختار الكنتي كتابه جذوة الأنوار في الذب عنهم مع أنه ذكر معهم غيرهم من الصحابة والتابعين والزهاد والعباد منوها بكراماتهم ، وهذا مما لا يخالفه فيه ابن بون ولا غيره حيث يقول ابن بون في الوسيلة :

والأولياء المؤمنون الأتقيا فالعلماء العاملون أوليا (٣)

وما ذكر من رجوع كل من المختاريين عما وقع بينهما من خلاف لم نعثر له على دليل بل الموجود يخالفه حيث إن ابن بون توفى سنة ١٢٢٠ هـ (٤) وقد فرغ المختار الكنتي من الرد عليه في مؤلفه جذوة الأنوار عشية يوم الاثنين تاسع عشر رمضان عام ١٢٢٥هـ (٥) أي قبل وفاته أعني المختار الكنتي بأشهر قليلة وبعد وفاة ابن بون بخمس سنين ثم إنه من المعروف أن الكنتي امتنع من مقابلة ابن بون في (تكانت) بعد ما ذكر من اتفاقهما على ذلك اللقاء وذلك يؤكد عدم الاتفاق المذكور . يقول أحمد بن الأمين في ترجمته للمختار بن بون : (وكان يشدد النكير على ولي الله الشيخ المختار الكنتي، وله في ذلك ، وقد بلغه أن الشيخ قال إنه يسلبه . ثم ذكر له الأبيات السابقة . إلى أن قال : ثم إنه رجع عن ذلك ، وصارت بينهما مكاتبات وملاطفات ، واتفقا على أن يجتمعا في تكانت، بأن يقوم ابن بون من أرض القبلة ، ويتوجه الشيخ من أزواد ثم إن المختار رحل من القبلة كما قال ، ولما بلغ أول طرق تكانت ، بلغه أن الشيخ عدل عن عزمه ، وسأل عن ذلك المحل ، فقيل له : يقال له التيبراتن اسم طريق من طرق تكانت فقالهم : بلدة طيبة ورب غفور ، وأخبرهم أن ذلك المحل تربته ، وكان كما قال ، هكذا تقول الناس ، والله أعلم (٦) .

---

(١) نفسه ص ٢٦١ .

(٢) نفسه ص ٢٦١ .

(٣) نفسه وسلية السعاده ص ٩ .

(٤) بلاد شنقيط ص ٥٣ .

(٥) جذوه الأنوار ص ١٢٢ .

(٦) الوسيط ص ٨٢ .

الرجل الثاني وموقف الكنتي من دعوته إلى التجديد :

وممن وصف فى بلاد موريتانيا بالميل إلى التجديد فى العلم والعقيدة محمد المجيدري بن حبيب الله اليعقوبي الذي أعتبر رابع ثلاثة لم يبلغ أحد مبلغهم فى القطر الموريتانى فى العلم والفهم (١) وعندما انتقد ما عليه فقهاء قطره من الجمود على الفروع بما يكاد يصل إلى اعتقاد العصمة لمقلديهم والتعصب المقيت للأشخاص والحذر من الاعتراض على الفقهاء ضلله بعضهم وبدعه آخرون بدون تفهم لما ذهب إليه من قول وما دعا إليه من الاعتماد على نصوص الكتاب والسنة ، وأخذوا يشنعون عليه القول لأنه قال : بإن الامام مالكا مثل سائر المجتهدين من علماء الأمة يؤخذ من قوله ويرد عليه كما قال هو رحمه الله دون النبى صلى الله عليه وسلم ٠

وأخذوا عليه أنه قال إن فى الموطإ أقوالا لبعض العلماء المجتهدين من السلف وبعض الروايات الظنية (٢) فكان المختار الكنتي مع ما تقدم من دعوته لاعتماد الكتاب والسنه والأخذ بالتحقيق والتحرير وعدم الأغترار بأقوال الرجال من بين الرادين عليه المشنعين لقوله ٠ فهو ثاني الرجلين اللذين وصفهما بالتقول بدون دليل كما سبق ، فاتهمه بالطعن على الإمام مالك فقال : (وقد بلغني أن بن حب الله (٣) طعن فى مالك بن أنس إمام الائمه ٠٠) (٤) وقال : (٠٠٠ وأن حب الله كأنه يريد الطعن على ظاهر الشرع وأهله) (٥) ٠

وغاية ما قاله المجيدري أن الإمام مالكا يأتي بالأقوال الظنية ليبين أنه لا معنى للجمود عليها إذا خالفت نصا أقوى منها ، ومعلوم أن الأحاديث التى لم تتواتر لا تفيد إلا الظن فكيف بالأقوال المنسوبة للمجتهدين (٦) ٠ وقدبين المجيدري رحمه الله ما يريد من كلامه في العقيدة وغيرها ٠

---

(١) الوسيط ص ٢١٤ ـ ٢١٥ والدر النضيد مصدر سابق ص ٤٦ ـ ٤٧ ٠ والأربعة هم كما ذكرهم صاحب الوسيط هم : ابن رازكه ثم ابن الحاج ابراهيم ومحمد اليدالى ٠ وقال صاحب الوسيط : ابن ابن بون أحق في المجيدري بأن يكون هو رابع الأربعة.نفس الصفحة ٠

(٢) ندوة الإمام مالك فاس ص ٢٣٧ ٠

(٣) هو الاسم الشائع الذى يطلق على محمد بن حبيب الله المجيدرى ٠

(٤) جذوة الانوار ص ١ و ٢٣ ٠

(٥) نفسه ص ٢٥ ٠

(٦) انظر : ندوة الإمام مالك جـ١ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ٠

وقد نظم قصيدة يناقش فيها القائلين بتحكيم العقول من المتكلمين ، ويستدل فيها لعقيدة السلف ، وشرحها الشيخ محمد المامي بقصيدة سماها الزعفرانية حيث يقول المجيدري :

عقولكم فيما ادعيتم محيطة بإدراك ما عن قدرة الله يصدر
فإن عجزت عن دركه قلتم إنه محال وليست فيه قطعا تؤثر
(ويخلق مالا تعلمون) مقطع بها من دعاويكم وتين وأبهر
إذ العقل نفس العلم حقا وقاله علي الذي حازت به المجد أشعر
فعقدي بحمد الله إمكان كل ما به الله أو خير البرية يخبر
وما قد نفى هو المحال حقيقة لدي ولابالتعداد لم يك يحصر
وذلك كابن والشريك وزوجة فدعواك إلزام التحكم تهدر (١)

ونقل بداه بن البصير اسئله له ومناقشات في نفس المجال (٢) .

وقال هو عن نفسه :

لو كنت بدعيا لما كان الصواب عندي الاحاديث الصحاح والكتاب (٣)

والمختار الكنتي يوافق ابن حبيب الله فيما ذهب إليه من الاعتراض على علم الكلام وأهله ، في نفس الكتاب الذي ذكر فيه الرد عليه ، وغيره من كتبه (٤) ولكن عدم دقة النقل أو عدم صواب الفهم للمنقول كثيراً ما توقع المرء في أغلاط ، فيرد ما يؤيد ويصدق ما يكذب ويحكم على الناس بما لم يعرفوا به وينسب إليهم ما لم يتلبسوا به . وقانا الله وإخواننا الوقوع في ذلك .

---

(١) ديوان شعر الشيخ محمد المامي ، نشر زواية علمه في انواكشوط ص ٨١ . ٨٤ .
(٢) انظر : الدار النفيد ص ٤٦ . ٤٨ .
(٣) المحاضر الموريتانية ص ٨٢ .
(٤) جذوة الانوار ص ٢١ . ٢٥ وما بعدها و ص ٣٩ .

الموقف الثاني : للمختار الكنتي من دعوات التجديد

وما وقع للمختار الكنتى رحمه الله : مع من وصفوا فى بلاده بالتجديد وقع له مع الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية حيث صدق روايات الحجاج وعوام أهل التعصب ، فنسب أهل الدعوة السلفية المجددة إلى أمور شنيعة قبل أن يقرأ عنها كتابا أو يقف لها على حقيقة .

حيث يقول لولده محمد فى جواب رسالة يستأذنه فيها في الحج إلى بيت الله الحرام : (إن الحج لا يجب عليك لفقدان شروطه لكثرة الفتن وثوران الخوارج وأستيلائهم على الحجاز) (١)

ووصفهم بالرفض والاعتزال وغير ذلك من الأمور التى صد بها غفر الله لناوله من استشاره في الحج فقال : (فقد قال صلى الله عليه وسلم حجوا هذا البيت قبل أن تضرب العرب على أذناب أوديتها فتحول بين الناس وبين حج البيت) (٢) .

ولا أرى ذلك إلا قد أظل زمنه فإن عرب الحجاز ونجد وأطراف العراق قد أصفقوا (٣) على حمل الناس على ما هم عليه من الرفض والاعتزال ، وقد استولوا

---

(١) الطرائف ٢٥٧ . ٢٥٨ . ٢٥٩ . (يراجع حاضر العالم الاسلامى ٣ . ٤ . ١٦٤ وكان استلاؤهم على الحجاز سنة ١٢٢٠ هـ حده منه .

(٢) خرجه البهيقى فى السنن الكبرى بلفظ : (حجوا قبل أن لا تحجوا ، قيل فما شأن الحج ، قال : : تقعد أعرابها على أذناب أوديتها فلا يصل إلى الحج أحد) . وهو من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وفى سنده عبد الله بن عيسى وشيخه محمد بن أبى محمد قال الذهبى : (عبد الله بن عيسى الجندي ، شيخ لعبد الرازق ، لا يعرف . والحديث منكر) (محمد بن أبي محمد عن أبيه ، عن أبى هريره : ((حجوا قبل أن لا تحجوا)) منكر) . انظر فى أصول الحديث : السنن الكبرى للبيهقى ، باب ما يستحب من تعجيل الحج ، إذا قدر عليه . ط باكستان ٤ . ٣٤١ . وأنظر فى التخريج : المغني فى الضعفاء للذهبى ط ١ قطر ج ١ ص ٤٤٩ ترجمة رقم (٣٢٩٦) وجـ ٢ ص ٢٦١ ترجمة رقم (٥٩٥٣) وأنظر رقم (٥٤٣) من سلسلة الاحاديث الضعيفة والموضوعة للألبانى جـ ٢ ص ٢٣ والحديث أن كانت فيه حجة فهي تعجيل الحج لاتأخيره كما يفهم من سياق الشيخ له ، وينطبق على الوضع فى الحجاز قبل الدعوة السلفية .

(٣) (أصفقوا) كذا فى الأصل الذى عندي ، ولعله تصحيف والمراد : أطبقوا : أي على الأمر أتفقوا عليه وكذلك أصفقوا أيضا .

على الحرمين والطائف وجميع من بتهامة والحجاز من حرب وعنزة وعرب الينبوع وأروا الناس العدل والتدين على حين فساد من الدين وقلة من العلماء ووهن من الاسلام وضعف من دولته فأقل ما يخاف على الحاج تحت ولايتهم الافتنان بهم عن دينه أو تغرير بنفسه بالتعرض لفضيحته أو حينه وهم لم يزا لوا فى إقبال من دولتهم وقوة من صولتهم فالله تعالى يلطف بالاسلام وأهله فالأهم بك والأليق أن تقبل على تهذيب نفسك والتميز عن أبناء جنسك بإخماد نار حسك حتى تفوز بدوام أنسك بتجليات جمال ربك بمرايا قدسك) (١) ٠

قلت :

في هذا النص من عدم التحقيق الذى ينافي الحكم لصاحبه بالتجديد مالا يخفى حيث إن الدعوه السلفية إنما جاءت لتكون مطهرة لبلادالاسلام من أنواع الانحرافات والبدع فكيف توصف بما عليه الخوارج والروافض والمعتزلة - رغم تناقضه - وهي حرب على هؤلاء الفرق وأمثالهم ٠

وكيف ينفر المسلم من أداء واجب الحج عليه لمظنة فتنة متوهمة لا دليل على حصولها ؟

وكيف توصف الحجاز وما حولها بقلة العلماء مع وصف الدولة التى قامت على أساس من العلم وعلى أكتاف العلماء بالاقبال والقوة ؟

إن سوء النقل وتحريف الأمور بلا شك هو الذي أوقع هذا الشيخ في مثل إصدار هذه الأحكام التى تفتقر إلى تحقيق يليق بمكانتة العلمية وما عرف عنه من فهم وإنصاف وورع ٠

ونفس هذا الجواب والوصف لهذه الدعوة السلفية أخذ به المجاب ، ووصف به أهلها ،

---

(١) الطرائف ص ٢٥٩ ٠

بأنهم من الخوارج الوهبية (١) .

معتمدا كذلك على أخبار الحجاج العائدين حوالى عام ١٢٢٩ هـ مبديا ارتباحه بما ارتكبه محمد على باشا فى أهل هذه الدعوة ، واصفا عمله بأنه ، عمل جاء من قبل أهل السنه على الخوارج (٢) .

قلت : وقد التبست الوهبية من الخوارج الاباضية على الشيخ سيدي محمد فاختلطت عليه بالدعوة السلفية فى الجزيرة العربية التى قام بها الإمام محمد عبد الوهاب ، وسماها بعض أعدائها بالوهابية ولا يخفى ما فى ذلك من عدم التحقيق والدقة .

والخلاف واقع بين المؤرخين فيمن تنسب له الوهبية ، فقيل عبد الله بن وهب الراسبى المتوفى سنة ٣٨ في وقعة النهروان ، وهذا احتمال بعيد لأن عبد الله هذا من المحكمة الأولى لم تنسب له فرقة من فرق الخوارج .

وقيل الوهبية منسوبة إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ثانى أئمة الرستميين فى الجزائر (بتاهرت) قيل توفي سنة (١٩٠هـ) وقيل بعد ذلك وهذا هو الذي رجح مؤرخوا الإباضية نسبتها إليه (٣) .والشيخ سيدي محمد يعرف أن الوهبية من إباضية الجزائر بدليل تتبعه لهجرات أجداده عبر الصحراء وسكناهم شرقي الجريد حيث كانت الدولة للرمستميين ، ثم إنه نقل فتاوى فيهم وفي معاملتهم (٤) .

---

(١) الصوارم الهندية فى حسم دعاوى المهدية لمحمد بن المختار الكنتى مخطوط شخصي ص١٣. ويراجع فى الوقائع التى أشار اليها فى حاضر العالم الاسلامي المجلد ٢ ـ ٤ ص ١٦٥ ـ ١٦٧

(٢) أنظر عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها فى العالم الاسلامى تأليف الدكتور/ صالح بن عبد الله بن عبد الرحمن العبود ، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ط ١ سنة ١٠٤٨ هـ الكتاب كله وخصوصاالصفحات ص ٥٤٦ و ٦٣١ ، ٦٩٠ .

(٣) أنظر : الإباضية بالجريد فى العصور الإسلامية الأولى ، بحث تاريخي مذهبي ، تأليف صالح باجيه ط ١ تونس ص ٣٦ ـ ٣٧ ..

(٤) أنظر : الغلاوية ص ٦٣ ، ١٢٠.

المقصد الثاني : آثاره

آثاره :

لقد رأينا ما وصف به المختار الكنتي من العلم والتجديد والتصوف وما جلب ذلك من إقبال الناس عليه وهو في موقع مناسب بين أقاليم مختلفه وبين شعوب متعددة في دول متعددة وفي طريق الحج والطرق التجارية والرعوية (١) .

هذا بالاضافة إلى أن الله من عليه بالتعمير حتى بلغ التسعين تقريبا مع ما ذكر عنه من تحمل الطلاب والنفقه عليهم ، والضيافة وحفر الآبار وما قام به من صلات سياسية وإصلاحات قبلية (٢) .

وكان له أثر كبير على أمراء البلاد المجاورة له يكاتبونه ويقدمون عليه وكأنهم من أتباعه وخدام حضرته كما يقول ابنه الشيخ سيدي (محمد من أمراء الطوارق)حكى الطرائف عن كاوي ابن أم أك (٣) وأن جميع الطوارق عبيده وطوع يده (٤) وأن سلاطين أولاد التدمكي يوليهم ويعزلهم (٥) مع أعتقاد جميع القبائل فيه والتسليم له (٦) .

---

(١) أزواد يقع ما بين الجزائر ومالي وموريتانيا والنيجر ويقترب من حدود المناطق الاستراتيجية والمراكز العلمية والتجارية ، كنتة الشرقيون ص ٢٨ وغيرها ، والوسط ٤٥٨ .

(٢) الطرائف ص ١٩ و ٢٠٨ و ٢١١ و ٢١٢ و ٣٥٥ و ٣٨٩ و ٣٩١ . ٣٩٢ . ٣٩٣ و ٤١٧ . ٤٢٣ و ٥٢٣ . ٥٢٥ و ٥٨١ .

(٣) نفسه ص ٤٢٠ .

(٤) نفسه ص ٤٢٠ وهو ايضا من أحسن أمراء الطوارق .

(٥) نفسه ص ٣٨٥ .

(٦) نفسه ص ٤٢٢ . وما بعدها .

بل إن محمد الكنتي بعد أن ينص على دخول أمراء الفلان وعلمائهم تحت طاعة والده وخصوصا كما يقول : (العلامة القائم بالدعوة إلى الله عثمان بن محمد بن عثمان ابن فودي وأخوه المريد الفقيه عبد الله وابنه العالم الوزير محمد بل (١) بعد أن نص على ذلك كما تقدم قال : (فإنه لم يتوفه الله إليه حتى لم يبق موضع مما بين برق الاكـــراد إلى برك الغماد إلا وله فيه أتباع وأشياع يكونون أعيان ذلك الصقع الذي هم به) (٢) • ولعل هذا يكفي من الحديث عن آثاره السياسية والاجتماعية ونصله بالحديث عن آثاره العلمية بذكر بعض مشاهير تلاميذه ومؤلفاته •

تلاميذه :

سبق أن جاء في هذا الفصل في بداية ترجمة هذا الشيخ ما تلقاه من علوم شرعية ولغوية ، وأنه عاد إلى أهله في فترة زمنية قليلة نسبيا بالنظر إلى ما ذكر عن الكم الذى أخذه وقد اتفق الذين كتبوا عن المختار الكنتي أنه كان المريدون وطلاب العلم يأتونه من كل فج ومكان (٣) •

وقد قدموا عليه من مسيرة شهر تقريبا متعدين مراكز علم كثرة قصدا له دون غيره (٤) •

ولم نعثر على من أحصى تلاميذه على وجه الدقة ولكن بالاستقراء فى كتب ابنه سيدي محمد وكتب تلاميذه يمكن حصر الكثير منهم أو أهمهم على الأقل •

يقول : الاستاذ محمد محمود ولد ودادي فى ملحقاته التي أعدها عند ترجمته ونشره لكتاب كنته الشرفيون حيث ذكر خمسة عشر شخصا قائلا : (أما من صدر عن الشيخ من العلماء والمشايخ فهم أعداد كبيرة سنذكر منهم فقط من كان له شأن في وسط موريتانيا وغربها وشمالها (٥) •

---

(١) نفسه ص ٥١٨ والاسلام والثقافة العربية فى افريقيا الدكتور/ حسن احمد محمود ص ٢٧٠

(٢) الطرائف ص ٥١٨ •

(٣) فتح الشكور ص ١٥٢ •

(٤) بالوسيط ص ٢٤١ و ٣٦١ •

(٥) كنته الشرقيون ص ٢١٢ •

واعتمد هذا العدد الأستاذ الخليل النحوي في كتابه بلاد شنقيط (١) وزاد عليه شخصا واحدا سنذكره إن شاء الله فيهم :

١) الشيخ القاضى بن الحاج الفغ (الفقيه) الاجيجى المتوفى ١٢٢٤ هـ وستأتى ترجمته إن شاء الله .

٢) الشيخ محمد الأمين بن عبد الوهاب القلقمي . يأتي الحديث عنه إن شاء الله في ترجمة الشيخ محمد فاضل .

٣) الشيخ بن أمني المجلسي الزينبي المتوفى سنة .

٤) الشيخ سيدي أحمد بن عويس التاقاطي المتوفي سنة .

٥) الشيخ بابا الحي بن محمود بن الشيخ عمر البدوكلي المتوفى سنة .

٦) الشيخ ابات بن الطالب عبد الله ادفجملي المتوفى سنة .

٧) الشيخ الكوري بن المختار السالم (من أهل سيدي أحمد بوحجار المتوفى سنة .

٨) الشيخ المختار السباعي الدميس المتوفى سنة .

٩) الشيخ ويف بن سيدي الأمين اليوسفي المتوفى سنة .

١٠) الشيخ شماد المتغنيري الكنتي المتوفى سنة (٢) .

١١) الشيخ عبدي ولد سيدي أحمد البوبكري المتوفى سنة

١٢) الشيخ أحمد ولد أمينوه البو بكري المتوفى سنة

١٣) الشيخ المصطفى بن العربي الايبري المتوفى سنة

---

(١) بلاد شنقيط

(٢) لم نتمكن من التعريف بهم أكثر من هذا وكثير ممن ذكرناهم لا تعرف على وجه التحديد وفياتهم ولكنهم جميعا من أهل القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجريين .

١٤) الشيخ المصطفى بن المختار بن الهيبة الابيري المتوفى سنة

١٥) الشيخ سيديا الكبير بن المختار بن الهيبة الابيري المتوفى سنة ١٢٨٣ هـ لازم المختار الكنتي ستة أشهر تقريبا ثم توفي عنه وتركه عند ابنه سيدى محمد الذي تصدر عليه فيما بعد .

قال صاحب الوسيط : (إنه حنسة من حسنات المختار الكنتي) (١) وستأتي ترجمته إن شاء الله في أعلام القادرية .

وهذا هو العدد الذى ذكره ولد ودادي ، وزاد عليه الخليل النحوى .

١٦) سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي المتوفى ينة ١٢٣٣ هـ .

قال صاحب الوسيط فى ترجمته للمختار الكنتي في معرض الثناء عليه .

(ويكفيه أن ابن الحاج إبراهيم كان يعتقده ويثني عليه) (٢) وذكر سيدي محمد في الطرائف وجنة المريد بعض مريدي والده منهم :

١٧) سيدي الأمين بن سيدي محمد بن الصديق (٣) .

١٨) سيدي ابراهيم بن سيدي المختار البصادى (٤) .

١٩) (المريد الصادق) سيدي أحمد بن محمد مولود بن حبيب الله بن بارك الله بن أبى زيد اليعقوبي (٥) .

٢٠) سيدي عبد الرحمن بن أحمد التنواجيوي (٦) .

---

(١) الوسيط ص ٢٤١ و ٣٦١ .

(٢) نفسه ص ٣٦١ ولا يفهم من هذا حصول لقاء أو تلمذة لابن الحاج ابراهيم على الكنتي .

(٣) الطرائف ص ١٧١ .

(٤) الطرائف ص ٢١١ .

(٥) نفسه ص ٢٦٦ .

(٦) نفسه ص ٤٢٩ .

٢١) المصطفى بن محمد الحبيب الابييري نسبا اليعقوبي وطنا ·

قال (وكان من خواص أصحاب الشيخ) (١) ·

٢٢) المصطفى بن محمد حبيب الله يثني عليه كثيرا (٢) ·

ولعل من أهم مصدري الشيخ سيدي المختار الكنتي أبناوءه الثمانية : زين العابدين ، وسيدي أحمد البكاي ، وسيدي حمه الأمين ، وسيدي بابا أحمد ، وسيدي حسيب لله وسيدي عمر ، وسيدي محمد . ولعل أهمهم أثرا في الطريقة بعده :

٢٣) سيدي محمد الذي لقب فيما بعد (الخليفة) لخلافته لأبيه في المكانة العلمية والسياسية والصوفية (٣) وستأتي ترجمته إن شاء الله وقد سبق أن الشيخ عثمان فودي كان هو وذووه من تلامذته · فإذا أضفنا اسمه واسم أخيه عبدالله وابنه محمد (٤) وصل العدد إلى ستة وعشرين · وهذا العدد من التلاميذ والمصدرين وإن كنا نجرم بأن العدد الحقيقي يفوق هذا بكثير فإنه هو الذي تيسر الآن ولعله من أهم تلاميذه الذين كان لهم أثر بارز فى الحياة العلمية والاجتماعية ، وإن كنا لا نجد عن الكثير منهم شيئا مكتوبا يمكن الاعتماد عليه لكتابة ترجمة له ولو قليلة ، فإن ذكره فى الكتب ونسبته لذلك الشيخ ونقل الناس في رواياتهم الشفهية ، لأخباره ، يؤكد ذلك كله . على أنه كانت لهم مكانة علية بين الناس ·

ونصل الحديث عن آثاره بالكلام على مؤلفاته ·

---

(١) نفسه ٥١٥ ·

(٢) جنة المريد ١٦٧ وقد يكون هو نفسه الذى قبله ·

(٣) كنته الشرقيون ٧٨ . ٧٩ ·

(٤) راجع الصفحة ص ٢٥٩ من هذا البحث ·

مؤلفاته :

يذكر ولده محمد الكنتي عنه في الطرائف : (أنه اشتغل غاية الشغل بالتصنيف أواخر عمره بنحو سبع وعشرين سنة وهي التي صنف فيها غالب مصنفاته بوجه خارق للعادة) (١) ويوضح ذلك بقوله : (فإن من مصنفاته ما يمكث الماهر بالتصنيف في مثله ما ينيف على العشرين عاما تسويدا وهو رضي الله عنه لم يستوف عاما كاملا في تسويد مصنف من مصنافاته وفيها ما هو أربعة أسفار ضخام) (٢)

إن سبعة وعشرين عاما من عالم قليل الخروج من البيت (٣) بين طلابه وكتبه فترة كافية لتأليف كتب نافعة محققة في مجالات متعددة ، وعند استعراض واقع مؤلفات الشيخ المختار الكنتي وما قيل فيها نجد أنها ليست واصلة إلى ذلك المستوى المطلوب من الاتقان والموضوعية وإن وجد فيها مؤلفات ضخمة وأسفار عظيمة الحجم ذلك أن أكبرها على ما قيل كتابه : نزهة الراوي وبعية الحاوي . صنفه في واحد وعشرين بابا على شكل موسوعي نثر فيه مسائل في التوحيد والهيئة ، والسيرة النبوية والتصوف والوعظ ، والحديث ، والنباتات والمعادن والأحجار والتاريخ (٣) وقد أثار اهتمام الشيخ رفاعة الطهطاوي فأثنى عليه في رحلته وقال بأنه ذكر فيه كروية الأرض (٤) وقال عنه صاحب فتح الشكور إنه يقع في جزئين على القالب الكبير في غاية النبل لم يسبق بمثله (٥) ومن كتبه المهمة : هداية الطلاب وشرحه فتح الوهاب (٦) .

---

(١) الطرائف ص ٢٧٢ و ٢٠٣ .

(٢) نفسه ص ٢٧٢ .

(٣) الطرائف والتلائد ص ٢٦٣ . ٢٦٤ والمدرسة الكنتية .

(٤) المدرسة الكنتية ص ١ . ٢ وشجره النور الزكية ص ٣٧٧ .

(٥) فتح الشكور ص ١٥٢ .

(٦) الطرائف ص ٦٦ ٢ .

قال ابنه سيدي محمد إنه اعتمد فيه فقه الصحابه (١) وخالف فيه بعض ما جاء في مختصر خليل بن اسحاق (وقد تميز كتابه هداية الطلاب بتتبع خليل في كل ما خالف فيه المشهور أو الراجح فى المذهب وزاد عليه بمسائل كثيره) •

وأنه مات ولم يبيضه وأذن له هو في تبيضه مع شرحه (٢) •

وقد صنف كتبا ورسائل متوسطة وصغيرة ، وقد ذكر المأمون بن محمد أحمد أنه ألف أكثر من ثلاثمائة كتاب عرف منها ما يقارب الثمانين ، والموجود منها الأن أقل من الأربعين (٣) ولكن ابن ودادي أوصل المتداول بين الناس من كتبه - حتى اليوم كما يقول إلى واحد وأربعين مؤلفا (٤) وقد ذكر الخليل النحوي منها خمسة وعشرين كتابا (٥) • ولا شك أن صاحب الوسيط وقف على بعضها لحسن ثنائه عليها ولكنه لم يذكر منها ولا واحداً (٦) بخلاف صاحب فتح الشكور الذي توفي قبل الشيخ المختار الكنتي بنحو سبعة أعوام فإنه يذكر من مؤلفاته مع الثناء عليها والوصف الموجز لبعضها أثنين وعشرين مصنفا (٧) وسنعتمد هذا العدد أولا ثم نكمله بما وقفنا عليه منسوبا إليه مع وجوده أو بإحالته هو عليه أو ابنه سيدي محمد ، مع العلم بأن الزركلي ذكر عند ترجمته لسيدي محمد الكنتي أنه نسب إليه بعض كتب والده (٨) مما يدل على أن الأمر يحتاج إلى قدر من التبصر •

---

(١) نفسه ص ٢٦٦ •

(٢) نفسه ص ٢٢٦ وشجرة النور الزكية ص ٣٧٧ وندوة الإمام مالك جـ ١ ص ٢٣٩ •

(٣) مقدمة تحقيق : فتح الودود شرح المقصور والممدود ص م •

(٤) كنتة الشرقيون ص ٢١٠ - ٢١١ •

(٥) بلاد شنقيط ص ٥٦١ - ٥٦٢ •

(٦) الوسيط ص ٣٦١ •

(٧) فتح الشكور ص ١٧ - ٢٢ و ١٥٢ - ١٥٢ •

(٨) الاعلام جـ ٧ ص ٩٢ •

قال صاحب فتح للشكور : (وله تآليف كثيرة منها :

١) تفسير البسملة في نحو كراسة ٠

٢) وتفسير الفاتحة فى جزء أتى فيه بالعجب العجاب ، بحيث يمكث نحوالسبعة أيام أو أكثر يكتب على آيه واحدة ٠

٣) بلوغ الوسع على الآيات التسع (١) ٠

٤) نضار الذهب في كل فن منتخب في ثلاثة أجزاء (٢) ٠

٥) نزهة الراوي وبغية الحاوي ٠

٦) هداية الطلاب (٢) ٠

٧) فتح الوهاب على شرح هداية الطلاب في أربعة أجزاء ضخام جدا ، بحيث لو وسط لأتى في سبعة ونحوها (٣) ٠

٨) الشموس الأحمدية في العقائد المحمدية (٤) ٠

٩) الجرعة الصافية والنفحة الكافية (٥) ٠

١٠) الرسالة في التصوف ٠

١١) شرح المقصور والممدود لابن مالك (٦) ٠

١٢) كشف اللبس فيما بين الروح والنفس (٧) ٠

١٣) نصحية المنصف المبصر المتعطف في خمسة كراريس ٠

١٤) الأجوبة المهمة لمن له بأمر الدين همة (٨) ٠

١٥) زوال الالباس في طرد الشيطان الخناس (٩) ٠

---

(١) طبع فى دمشق بتحقيق محمد محمود ولد ودادي في مائة ورقة من الحجم الصغير ١٤٠٥هـ

(٢) توجد منه نسخة كاملة مضبوطة بالشكل في زاوية الشيخ بانواكشوط ٠

(٣) يوجد منه الجزء الثالث بالخزانه العامه بالرباط تحت رقم (١٦٣١) ٠

(٤) توجد منه نسخة ناقصة في زاوية الشيخ بانواكشوط ٠

(٥) توجد منها نسخ كثيرة كاملة ٠

(٦) حققه مأمون محمد أحمد ونشره سنة ١٠٤٥ هـ ٠

(٧) أحال عليه في كتابه الكوكب الوقاد ونقل عنه أنظر ص ٩٧ ـ ٩٨ ٠

(٨) مخطوط بالخزانه العامه بالرباط تحت رقم (٢٥٤١ ك) ٠

(٩) حقق وطبع على الآله الكاتبة بالمعهد العالي في أنواكشوط حققه الشيخ ابن باب أحمد رقمه (٤١٣)

١٦) والبرد الموشى في قطع المطامع والرشي في جزئين في الأنكار على القضاة ومن يأخذ الرشوة من العمال . (١)

١٧) وألفية في العربية . قال محمد بن محمد مخلوف نقلا عن رفاعة الطهطاوي في رحلته . بأنها تضاهي ألفية بن مالك (٢) .

١٨) جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأخيار . طبعت على الآلة الكاتبة برعاية أحد أحفاد المؤلف (٣) .

قلت : وذكر البرتلي الولاتي لهذا التأليف غريب حيث إنه توفى سنة ١٢١٩ هـ وكتابه فتح الشكور ألفه عام ١٢١٣ هـ وفي آخر جذوة الانوار أن تمام جمعه كان عام ١٢٢٥ هـ فما أدري من أين جاء الخطأ ؟

١٩) الممزوج وهو تأليف جمع فيه بين الحقيقة والشريعة .

٢٠) وشرح قصيدة له في التصوف مطلعها :

شغف الفؤاد بحب ذات الواحد   والسر أنبأ عن مقر جاحد

٢١) نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب (٤) .

٢٢) يتمية الليالي في إفحام علماء تنبالي (٥) وإلى هنا تنتهي القائمة التي ذكرها له صاحب فتح الشكور .

٢٣) ومن كتبه أيضا الإرشاد ذكره في الطرائف . ولعله في الانساب (٦) .

---

(١) توجد صورة منه بزاوية الشيخ بانواكشط .

(٢) شجرة النور ص ٣٧٧ .

(٣) وهو يادي بن باي بن باب ص أ مقدمة الكتاب المذكور وانظر فتح الشكور ص ١٧ و ٦٢ والمصدر المذكور ص ١٢٢ جذوة الأنوار .

(٤) وقد طبع في دمشق ١٠٤٥ هـ برعاية محمد محمود بن ودادي .

(٥) فتح الشكور ص ١٥١ . ١٥٢ .

(٦) الطرائف ص ١٢٩ .

٢٤) المنة في اعتقاد أهل السنة في جزئين (١) .

٢٥) الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وأصول الأوراد (٢) .

٢٦) الروض الخصيب في شرح نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب (٣) .

٢٧) شذور الأذكار (٤) .

وفي هذا العدد من التآليف الذي تأكد عندي صحة نسبته إليه ما يدل على مكانته العلمية وتوسعه واقتداره على التأليف ، هذا وبالاضافة إلى القوائم التي تقدمت الاشارة إليها فإنه يتعين القول بأن هذا الشيخ ترك كتبه في مناطق تصعب المحافظة على الكتب فيها لظروفها البيئية والاجتماعية ، ولما تعرضت له بعد موته هو بقليل من هجمات استعمارية وفتن داخلية استغلها المستعمر فنهب المكتبات ورحلها إلى دياره وأحرق البعض منها كما قام بعض الشيوخ بتخبية كتبهم خوفا عليها وتلفت بسبب ذلك .

على أن المختار الكنتي نقل عنه طلابه كتبه بأقلامهم وحملوها معهم إلى ديارهم وتعرف الناس عليها وتعددت نسخها الأمر الذي صان الكثير منها عن الضياع والتلف .

---

(١) توجد منه نسخ مخطوطة .

(٢) طبع في دكار سنة ١٣٩٢ . ويكون ان شاء الله موضع دراسة آتية .

(٣) توجد منه نسخه في الخزانة العامة بالرباط (١٢٤٠) (١٣٠) وفيه أنه تأليف لأحد تلاميذه فرع من تأليفه يوم الاثنين الموافق ٢٨ شوال ١٢٢٥ هـ وهو في جزءين .

(٤) نسبه له الشيخ أحمد بنبه في مجمع النورين فى فوائد الدارين ، الدار السينغاليه للنشر ص ٢٢ ونسبه له صاحب شجرة النور وهو أحزاب وأوراد كاحزاب الامام الشاذلى ص ٣٧٧ وقال صاحب فتح الشكور ص ١٥٣ : بأن أحزابه وأدعيته ورسائله لأصحابه لو جمعت لجاءت في مجلد . وقد جمعها ابنه محمد في الطرائف فكونت بابا كبيرا . قلت : وشذور الاذكار مطبوع على الآلة الكاتبة في زوايته بانواكشوط .

ويمكن القول كذلك أن أهم مراكز وجودها المكتبات التالية :

١) مكتبة آل الشيخ سيديا بتلميت موريتانيا وعنها نقلت زاوية الشيخ في انواكشوط ·

٢) دار الثقافة في انواكشوط ·

٣) الزاوية الكنتية في توات بالجزائر ·

٤) المكتبات الخاصة في أزواد وغيرها من الدول المجاورة ·

٥) مركز أحمد بابا التنبكتي بما لي ·

٦) المكتبات المغربية ·

٧) ···· الفرنسية ·

٨) مكتبات الحرمين الشريفين ·

٩) ومكتبات سنغال ·

١٠) المكتبات التركية (١) ·

---

(١) ملف الرحلة العلمية ومقدمة جذوة الانوار المطبوعة على الالة الكاتبة لا المخطوطة التى اعتمدناها في هذا البحث ص ١٧ . ١٨ ·

وفاته رحمه الله تعالى :

يذكر صاحب الطرائف : (أنه حدث بركبته في آخر عمره مرض من البرد واستعمال الماء زمنة فثقل عليه القيام والمشي من أجله) (١) .

ويفهم من ذلك أنه ضعف في آخر عمره وإن لم يصل إلى أن يكون مقعدا ، كما يفهم من استمراره في التأليف أنه مات وهو يتمتع ببصره .

وتوفي على ما جزم به ابنه سيدي محمد زوال يوم الاربعاء خامس عشر جمادى الاولى سنة ست وعشرين بعد المائتين والألف (٢) فيكون عمره على الرواية التى قدمها سيدي محمد وهي أنه ولد سنة اثنين وأربعين بعد المائة والالف (٣) أربعة وثمانين سنة (٤) وعلى الرواية الثانية المرجوحة يكون عمره حين وفاته واحد وتسعين سنة بناء على أنه ولد سنة خمس وثلاثين بعد المائة والألف (٥) ويذكر ابنه محمد أنه عندما ثقل تناول السبحة ليناوله إياها قياما بوظائف الطريقة من العهد للخليفة إلا أنه لم يتمكن من ذلك لعارض ..) (٦) ودفن عند بئر أبى المرجان التي حفرها في حياته، كما دفنت زوجه عندها (٧) ونصل الحديث عنه بالحديث عن ترجمة شيخ الفاضليـــة .

---

(١) الطرائف ص ٢٠٣ فيكون ما جاء في شجرة النور من أنه توفي سنه ١٢٢٩ هـ خطأ .

(٢) نفسه ص ٨٧ .

(٣) نفسه ص ٨٧ .

(٤) نفسه ص ٨٧ .

(٥) نفسه ص ٨٧ .

(٦) نفسه ص ١٥٩ . ١٦٠ .

(٧) الطرائف ص٥٨١ . ٥٨٢ ولعل المنطقة كلها تسمى بو الانوار أنظر : كنته الشرقيون ص٨٢ .

ترجمة الشيخ محمد فاضل

نسبه ومولده ونشأته :

نسبه :

تسبه كما هو في أكثر الكتب التي ترجمت له : هو محمد فاضل بن مامين (محمد الأمين) ابن الطالب اخيار بن محمد بو الانوار بن اجيه المختار ابن الحبيب بن علي ابن سيدي محمد بن يحيى الصغير بن علي بن شمس الدين بن يحيي الكبير القلقمي (١) ابن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن يحيي بن عبد الرحمن بن أران بن جملان بن إبراهيم ابن مسعود بن عيسى بن عثمان بن اسماعيل بن عبد الوهاب بن يوسف بن عمر بن يحيي بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن إدريس الأصغر ابن إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن المثنى بن السبط بن علي رضي الله عنهم جميعاً ٠ (٢)

وقد ذكر الشيخ التراد في رسالته كشف الأستار أن هذا النسب ثابت بالحيازة والكشف ، ونقل مرائي تدل على ذلك ، كما قال ، ونقل عن شيخه وعمه الشيخ سعد أبيه أبياتاً من الرجز يرد فيها على منكر شرفهم بالانتساب لآل البيت ، كما اعتذر عن اختلاف السلاسل في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير بأنه كثير في سلاسل الأنساب ، ومثل لذلك بالاضطراب في نسب الشاذلي وأحمد البدوي ٠

والاختلاف الذي أشار إليه هو أن الكتاني أضاف في هذه السلسلة محمد بين يحيى الصغير وعلي ، كما أنه جعل اسم الحبيب السادس في السلسة مركبا فسماه محمد الحبيب وسمى والده أيضا محمد علي (٣) وقد ذكر أن الشيخ محمد فاضل

---

(١) القلقمي نسبة إلى بلدة بالمغرب كما أفادنيه الأستاذ الطالب اخيار ابن مامين من نفس الأسرة . في أحد لقاءاتي معه في انواكشوط بتاريخ ٢٩ شعبان ١٤١٠ هـ ٠

(٢) هذه السلسة منظومة في(٥٥) بيتا ونظمها : أحمد بن عبدالمولى العلمي اليملاجي الفاسي ، وتوجدمنها نسخة بالخزانة العامة بالرباط ، مجموع (١٥٦٠ د) من ورقه ١ب إلى ٢ ب ٠

(٣) انظر في الاختلاف المذكور : فهرس الفهارس للكتاني ، مرجع سابق جـ ٢ ص ١٠٢١ حيث قال في ترجمة السيوطي : (ولنذكر هنا سندا غريبا إليه من طريق أهل الصحراء الإفريقية ، وهو مسلسل بالآباء عن الشيخ العارف محمد مصطفى ماء العينين الشنقيطي ٠٠) ٠

كتب نسبه إلى شمس الدين ثم قال هذا ما كان عندي ، ثم ذكر عن أوائله نسبة شمس الدين إلى يحيى الكبير إلى إدريس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

وقد ذكر الباحث : عبد الله بن محمد الأمين في بحثه الذي أعده في معهد الأساتذة بانواكشوط عام ١٩٨٤ م تحت عنوان :

مساهمة في إبراز الأدوار الفكرية والسياسية للشيخ : ماء العينين : أن بعض أتباع المختارية أثارت سرعة انتشار الفاضلية بين الناس لديهم غيرة وحسدا فبدؤا يطعنون في نسب صاحب الطريقة الشيخ محمد فاضل ، ويشككون في صحة نسبه لآل البيت . (٢)

وهذا الانتشار الذي ساءهم لا شك أن من أحد أسبابه الانتساب لآل البيت النبوي حيث إن أهل الصحراء يكنون حبا شديدا لمن يدعى الانتساب إليه حقا أو أدعاء .

ولذا كثر ادعاؤه في تلك البلاد ، وكثر الطعن فيه بدون دليل والذي يرجح دائما صحة نسب الناس المتمسكين به مهما كانت الثمار التي يجنونها من ورائه ، ما لم يكن هناك طعن يعتمد على دليل .

ثم إن هذا الطاعن في صحة نسب هذه العائلة إلى آل البيت النبوي لم يقف على كلام الشيخ سيدي المختار الكنتي الذي هو منتسب إليه حيث يقول . بعد أن ذكر أن القلاقمة المنتسب إليهم الشيخ محمد فاضل من الشرفاء (٤) الذين أخفوا شرفهم لأول مقدمهم على البلاد . قال : (ولا يطعن فيهم إلا من يخبط خبط عشواء في ظلمة الجهل) (٣) .

---

(١) كشف الأستار عن نسب آل اجيه المختار ، تأليف التراد ، مخطوط ص ٢ ، ٥ و ١٢ .

(٢) المصدر المذكور ص ١٦ .

(٣) ذكر السيوطي في الحاوي للفتاوي : جـ ٢ ص ٣٢ . (أن اسم الشريف كان يطلق في الصدر الاول على كل من كان من أهل البيت سواء كان حسنيا أم حسينيا .....) انظره

(٤) موسوعة المختار بن حامد ، جزء القلاقمة ص ٢٦ . قلت : ولعل المصدر الذي أخذ عنه ابن حامد هو : كتاب الأنساب للشيخ سيدي المختار . فلعله يعثر عليه في مركز أحمد بابا التنبكي فى مالي .

وإذا رغبنا في التعرف على رجال هذه السلسة فإن المراجع التي توفرت لدي لا تساعد على ذلك بسبب تشابه الأسماء في المراجع القديمة ، وعدم توضيح كاتبي هذا النسب من المتأخرين للمصادر التي استقوا منها هذا النسب ، على أن السيد محمد بن علي السنونسي الادريسي قال في كتابه الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية : (كان الأدارسة لما أجلاهم الحكم عن العدوة إلى الشرق وسائر بلاد المغرب ، واستقامت غمارة على طاعة المروانية ، وأذعنوا لجند الأندلسيين ، ورجع الحسن بن كنون لطلب أمرهم فهلك على يد المنصور بن أبي عامر فانقرض أمرهم ، وافترق الأدارسة في القبائل ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا إشارة النسب واستحالت صفتهم منه إلى البداوة) (١) على أن أول من يصلنا خبره من أجداد الشيخ محمد فاضل على التحقيق هو : اجيه المختار على ما في الضياء المستبين من أنه أول النازلين من أجداده من الصحراء بسبب تعلق قبيلة أولاد امبارك (٢) به وقد شاع في المغرب عموما بين القبائل استقدام أو إيواء من ينتسب لآل البيت التماسا للبركة واعتقاداً أن ذلك من أسباب النصر على الأعداء ، ويعظم فيه الاعتقاد إذا كان صاحب تصوف أو علم ولذا وجد ارتباط كبير بين التصوف وادعاء الشرف بالحق أو بالكذب (٣) .

قال محمد الغربي : (وإذا أردنا أن ندقق في تواريخ الاحداث فإننا نجد الجد الأكبر الطالب المختار رابع أجداد محمد الفاضل ينتقل من المغرب إلى قرية (تاغا) عند القرن العاشر الهجري ويستقر في العمود إلى أن يدركه الموت في آخر القرن المذكور ، فيقيم أبناؤه ذكراه وينصبون فوقه قبة للمزار ثم يتوجهون إلى الحوض حيث يستقرون في بلد ولاته (٤) ، والواقع أنه قبل هذا الاستقرار في ولاته لا يعرف

---

(١) المصدر المذكور ص ١١١ .

(٢) الضياء المستبين ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

(٣) انظر الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي ص ٤٢٢ ، وما بعدها وص ٤٣٢ ـ ٤٣٣ .

(٤) الساقية الحمراء ١٣٢ ويذكر في صفحة ص ٣٤٠ أن شريفا ادرسيا جليلا غادر مراكش قبل أربعة قرون وانتقل أحد أحفاده إلى الحوض الموريتاني وهو الشيخ محمد فاضل ليؤسس طريقة الفاضلية) .

الكثير على وجه الدقة عن أجداد هذا الشيخ إلا أن الجد الكبير لهذه الاسرة وهو يحيي الكبير القلقمي نزح من بلدة قلقم في المغرب إلى صحراء موريتانيا بصحبة جماعة من أصحابه في ظروف غامضة من تاريخ تلك المنطقة المجهول كثيرا ، وقد يكون من أسباب نزوحهم سقوط الدولة الادريسية في القرن العاشر حيث استقروا في اقليميم بالصحراء فترة من الزمن حيث بقيت له ذرية في تلك المنطقة (١) وانتقل بعض أبنائه متوغلين في البلاد الموريتانية حتى وصلوا ولاته ، سواء كان دخولهم للبلاد بطلب من أولاد امبارك أو بسبب آخر .

وكان من الداخلين إلى بلاد موريتانيا اجية المختار الآنف الذكر حيث تكونت قبيلة أهل الطالب مختار من أبنائه وأحفاده ومن انضم إليهم من المجاورين لتلك المنطقة (٢) .

وفي ولاته من الحوض حيث تكونت قبيلة أهل الطالب مختار كان مولد ونشأة صاحب الترجمة محمد فاضل .

---

(١) الوسيط ص ٤٣٤ حيث ذكر أملاكا منسوبة إليهم في تلك المنطقة منها (المنفقع وجريف) من أودية النخيل وغيرها هناك .

(٢) السافية الحمراء ص ١٣٢ والمساهمة في إبراز الأدوار الفكرية للشيخ ماء العينين ص ١٧ وقال بأن شرف هذه الاسرة وصل إلى حد التواتر) قلت : ومشهور عند الناس هنا(من صح أنه قلقمي صح أنه شريف)

مولده ونشأته :

لقد كتب عن الشيخ محمد فاضل بعض مريديه مثل محمد فاضل بن الحبيب والطالب بو بكر المحجوبي الولاتي وكانت عناية من كتب عنه التماس الكرامات أولا ، ولذا لم يوردوا معلومات واقعية حتى فى ميلاده ، ذلك أن أحدهم وهو محمد فاضل بن الحبيب صاحب كتاب الضياء المستبين الذي هو العمدة فى ترجمة هذا الشيخ حيث إنه هو الذي استطعت الحصول عليه من الكتب المخصصة لبيان أحواله وكراماته وعلومه . يقدم لميلاده بارهاصات وبشارات من الأولياء عن ميلاده واسمه وما ادخره الله له واشتغل بذلك عن ذكر تاريخ ميلاده أومكانه ولكن ذكره غيره فقال بأن ميلاده كان في ولاته من عام : ١١٩٤ هـ (١) وهذا التاريخ تخالفه رواية أخرى تقول بأنه ولد عام ١١٩٧ هـ (٢) ولا يمكن التحقق من أي التاريخين أصوب وإن كانت الشقة بينهما غير كبيرة خصوصا إذا أخذنا في الاعتبار عدم عناية أهل الصحراء بكتابة مثل هذه الأمور .

نشأته وطلبه للعلم :

إذا أخذنا بالوسط فيما ذكره من ألف عن حياة الشيخ محمد فاضل عن ولادته ونشأته وطلبه للعلم نجد أنه مثل أبناء بيئته عموما من أبناء الزوايا ولدوا في الغالب في وسط علمي يتفاوت من منطقة إلى أخرى ومن أسرة إلى أسرة .

وإذا أقتصرنا في الدراسة على حقيقة ما ذكروه عن نشأته العلمية لا نجد فيها أمرا زائدا على أحوال الناشئين من أبناء عصره .

فيقول صاحب الضياء المستبين : إنه أدخل الكتاتيب عندما بلغ العام الخامس من عمره (٣) وهذا ما عليه النظام العلمي في تلك البلاد (٤) .

---

(١) الساقية الحمراء ص ١٣٢ .

(٢) بلاد شنقيط ص ٥١٨ .

(٣) الضياء المستبين ص ٢٣٢ .

(٤) الوسيط ص ٥١٧ .

ولكن يمكن أن يؤخذ من كلام صاحب الضياء على ما فيه من مبالغة أنه كان على جانب كبير من الذكاء وسرعة الحفظ فيقول : بأنه حفظ القرآن في أقل مدة حيث كان يكتب حزبا أول النهار وحزبا آخره مع الإتقان والضبط ٠

وأن أحد شيوخه في التحفيظ وهو محمد المختار بن الاحبوس قال : بأنه لا يجوز أخذ أجرة على تحفيظه القرآن ٠ (١)

وإذا وافق باحث على قبول مثل هذه الرواية فإنه يكون من الذين يسلمون بالمبالغات والنوادر إذ إنه على أساس هذه الرواية يكون حفظ القرآن بإتقان في شهر واحد وهذا لغرابته لابد أن يكون نقل بالتواتر وشاع شيوع النوادر والنوابغ ٠

قال : وحفظ في هذه المدة . يعني ما بين خمس سنوات إلى سبع سنوات : الكتب الصغار وقصص الأنبياء وسيرهم وسير الصالحين (٢) ولما بلغ سبع سنين تتلمذ على أبيه على أن يوصله إلى الله تعالى ويبلغ على يديه مبلغ الأولياء الكمل (٣) فعلمه والده الإسم الأعظم والأسرار والحكم (٤) ٠

وأشتغل بالذكر (بلا إله الا الله) ملتزما ببيعة والده حيث عممه وصدره وعمره خمس عشرة سنة ، وقال له : (اذهب حيث شئت أو امكث إن شئت فما لي عليك اليوم من حق) (٥) ٠

يؤخذ من هذا أنه مكث في سلوك الطريقة على يد والده نحو من ثمانية أعوام ولم يكلفه القرآن وما قرأه معه من كتب إلا مدة قليلة من شهر واحد إلى عامين إذا خرجنا عن رواية صاحب الضياء وقلنا بأنه بدأ في التعلم من خمس سنوات إلى سبع سنوات ثم دخل في سلوك الطريقة ٠

ومع ما يأتي من تنقلاته في طلب العلم فإن صاحب الضياء ينقل عنه قوله : (والله ما أخذت شيئا إلا عن الله تعالى بلا واسطة غير أن أبي علمني كتاب الله تعالى وما يعلم من علوم الأسرار) (٦) ٠

---

(١) الضياء المستبين ص ٢٣٢ ٠

(٢) نفسه ص ٢٣٣ ٠

(٣) نفسه ص ٢٣٣

(٤) نفسه ص ٢٣٣ - ٢٣٤

(٥) الضياء المستبين ص ٢٣٧ ٠

(٦) نفسه ص ٢٩٩ وسيأتي الكلام على هذا في مبحث موقف القادرية من العلم ٠ إلا أن كل مدع أخذ علم عن الله بلا واسطة يكذبه أن الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يأخذون عن الله تعالى بواسطة الملك فلا يحل لمسلم أن يدعي هذه الدعوى العريضة ٠

رحلاته في طلب العلم :

إن الشيخ محمد فاضل في هذه المرحلة أصبح شيخا صوفيا مصدرا يرافقه تلاميذه ومريدوه ، والكرامات والخوارق تحل حيثما حل وشيوخه الذين يدرس عليهم ينتهى بهم الأمر إلى أن يصبحوا تلامذه عنده ، ومن كان منهم يشترط على تلاميذه منهجا فإن الشيخ محمد فاضل لا يخضع لذلك الشرط والمنهج وإذا لم يستجب الشيخ لرغبته فإنه حرفي الانتقال عنه إلى غيره (١) .

إلى غير ذلك من الأمور التي يصورها صاحب الضياء المستبين مما يخالف إن كان النقل صحيحا سيرة طالب العلم المتواضع المتأدب مع شيوخه ، الحريص على التحصيل .

وعلى كل نجده يذكر أنه عزم على دراسة الفقه على أحد شيوخ العلم المجاورين له ويدعى : أحمد عم بن عيني .

وأن عمه محمد فال بن زروق صرفه عن ذلك لأن لا تكون لذلك الشيخ عليهم منة الشيوخة العلمية قائلا له : (إنما يريد هذا الشيخ أن يجعلنا تحت قدمه وأنت سلمنا ومرمى عزنا) (٢) فتركه وأخذ في قراءة رسالة ابن أبى زيد القيروانى على ابن عمته الطالب بن الحسن (٣) الذي أصبح مريدا عنده رغم كبر سنه ووفور علمه (٤) .

وبعد أن أنهى رسالة ابن أبي زيد القيروانى ذهب لدراسة مختصر خليل على : محمد بن الطالب ابراهيم .

---

(١) الضياء المستبين ص ٢٢٧ . ٢٤٣ و ٢٤٦ . ٢٥٠ . هذا مع أنه تقدم قريباً أنه لم يأخذ شيئا إلا عن الله بلا واسطة ص ٢٦٧ من هذا البحث .

(٢) نفسه ص ٢٣٧ .

(٣) نفسه ص ٢٣٧ .

(٤) نفسه ص ٢٣٧ .

وكـان هذا الشيخ يشترط على تلاميذه أن لا يكتب أحد منهم أزيد من تصف قف (١) من المختصر ، ورفض محمد فاضل هذا الشرط وعزم على الرحيل إلى سيدى عبد الله بن الحاج ابراهيم الذي صده عن مواصلة السير إليه شخصان جاءاه في النوم وأخبراه بقرب أجله واقترحا عليه الذهاب إلى : سيدي المصطفى بن عثمان بن محمد الكيحل فاتحه إليه واخذ يكتب المختصر بستين قفا ويحفظها عن ظهر قلب ويشترك مع أبناء الزوايا من طلاب ذلك الشيخ في الفنون التي يدرسونها (٢) وهكذا أتم المختصر في شهر واحد (٣) .

وهذه مبالغة أخرى نذكرها لصاحب هذا الكتاب الذى تعتمده في ترجمة هذا الشيخ نظرا لعدم وجود غيره عنه وهو في ترجمته له يريد أن تكون أموره كلها خوارق وكرامات غير عادية ، ومع ذلك يجب على الناس قبولها والتصديق بها (٤) .

وطلب الشيخ محمد فاضل من الشيخ أحمد بن الطالب محمود بن عمر إدوعيش أن يقدم عليه ليأخذ عنه علم النحو ، ولكن تعلل بعذر . مختلف فيه فقيل بأنه رد عليه بأن العلم يؤتى ولا يأتي ، وقيل بأنه اعتذر بمرض يتعالج منه على ما ذكره صاحب الضياء في القول الأخير له (٥) .

---

(١) القف : مقـدار درس يومي ينبغي للتلميذ أو الطالب أن لا يزيد عليه وهكذا اصطلحوا عليه .

(٢) الضياء المستبين ص ٢٣٩ . ٢٤٢ والساقيه الحمراء ص ١٣٢ . ١٣٣ .

(٣) نفسه ص٢٤٢ .

(٤) نفسه ص ٢٣٥ . ٢٣٧ .

(٥) نفسه ص ٢٥٠ .

شيوخه وتلاميذه :

تبين من خلال العرض السابق لطلبه للعلم أنه أخذ عن الشيوخ الآتين :

١) والده مامين . أخذ عنه القرآن والطريقة القادرية أو الشاذلية ولعل من شيوخة في القرآن ومختصرات الكتب محمد المختار بن الأحبوس (١)

٢) ابن عمته الطالب بن الحسن أخذ عليه رسالة بن أبي زيد القيرواني (٢)

٣) محمد بن الطالب ابراهيم أخذ عنه مختصر خليل بن إسحاق أو بعضه قبل أن يتحول عنه إلى :

٤) سيدي المصطفى بن عثمان بن محمد الكيحل الذي أخذ عنه المختصر أيضا وشارك طلابه في علوم أخرى (٣) .

وقد ذكر أنه درس أو صحب كل من :

٥) محمد الأمين بن الطالب عبد الوهاب . وهو معدود في مصدري الشيخ سيدي المختار الكنتي (٤) .

٦) سيدي محمد بن سيدي المختار الكنتي (٥) .

٧) سيدي محمد بن أحمد الأسود (٦) .

ولا يمكن حصر أساتذته وشيوخه في هذا العدد القليل حيث إنه عاش في منطقة يكثر فيها العلماء وفي فتره من إقبال الناس في تلك البلاد على العلم والتحصيل

---

(١) الضياء المستبين ص ٢٣٢ . ٢٣٣ .

(٢) نفسه ص ٢٣٧ .

(٣) نفسه ص ٢٣٩ . ٢٤٢ .

(٤) نفسه ص ٩ . ١٠ و ٢١١ . ١١٢ و ٢٦٣ . ٢٦٤ وبلاد شنقيط .

(٥) الأدوار الفكرية للشيخ ماء العينين ص ١٦ .

(٦) الضياء المستبين ص ٩ . ١٠ و ٢١٢ و ٣١٧ ، ٣١٨ .

وقد ذكر صاحب الضياء وغيره أسماء شيوخ كثيرين التقى بهم وجاورهم وأخذ عنهم وأخذوا عنه (١) ٠

تلاميذه :

إنه نظرا العدم الضبط بالكتابة في تلك الصحراء التي عاش فيها الشيخ محمد فاضل يكون من العسير حصر الذين أخذوا عنه أو تصدروا تحت يده ٠

وقد سبق في ذكر فروع الفاضلية ذكر أبرز تلاميذه من أبنائه ومن غيرهم على أن صاحب الضياء يعتبر من لقيه من الناس عموما تلاميذ له ، وأن مدارس بكاملها انتقلت إليه من شيوخها ، وأن شيوخه تتلمذوا عليه ، وأن المريدين يسيرون معه أينما توجه وهو يتنقل في طلب العلم (٢) ٠

هذا علاوة على أنه ترك من صلبه ثمانية وأربعين ذكرا وخمسين أنثي وكل أخذ عنه العلم والطريقة وساحوا في الأرض ينشرون عنه ما أخذوه (٣) ٠

---

(١) نفسه في الصفحات السابقة وغيرها والساقية الحمراء ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ٠

(٢) الساقية الحمراء ص ١٣٣ ٠

(٣) ويرجع إلى فروع الفاضلية ص

مكانته العلمية والاجتماعية

عرضنا في المطلب الماضي العلوم التى أخذها الشيخ محمد فاضل ٠ والمقتصر في علمه على ما ذكر سابقا لايعده عالما بالمعنى الصحيح أحرى أن يحكم له بالإمامة والتجديد والاجتهاد وكثرة التأليف ، وهذه الأمور كلها وأكثر منها نسبه صاحب الضياء للشيخ محمد فاضل حيث يقول بأنه حامل لواء علوم القرآن من قراءات وتفسير (وهذا الشيخ حامل لواء هذا الفن وآكل أزهار روض المن من كل فن) (١) ٠

أما الحديث وعلومه :(فمبلغ الشيخ في هذه العلوم لا تحوم حوله حوائم الرسوم فله في علم الرواية من الحفظ والخبرة ما عجز عنه كل الحفاظ ولا تحصره الألفاظ ، وله في علم الرجال ومعرفة طرقهم وأحوالهم مالا تكيفة العقول ولا يمكن حصره بالقول حتى لا يمكن عقلا أن يكون له سابق في هذا الفن ولا أن يلحقه لاحق) (٢) ٠

(وأما علم النحو والخط والكتابة وما يلحق ذلك فله فيه من التمكين ما أمكنه به أن يطويه في أنظام تصل إلى الثلاثمائة أو وخمسمائة) (٣) تأتي في ذكر مؤلفاته إن شاء الله ٠

وله في علم اللغه : (من السبق ما قصر عنه شأو السابقين ولا أرى أن يبلغه مدى جري اللآحقين) (٤) ٠

(أما علم أصول الفقه فهو من أجل العلوم لديه وأحبها عليه (٥) وهو أحسن عنده من علم فروع الفقه (وله في كليهما من الخبرة مالا سبيل إلى غيره عليه) (٦) ٠

---

(١) الضياء المستبين ص ١٩٣ ـ ١٩٨ ٠

(٢) نفسه ص ٢٠٢ ٠

(٣) نفسه ص٢٠٢ ـ ٢٠٥ ٠

(٤) نفسه ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ ٠

(٥) نفسه ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ٠

وقال : (أما علم المنطق فله به من الخبرة مالا يعلمه إلا علام الغيوب) (١) وله فى علم الطب والحساب الخبرة الكاملة (٢) ٠

أما :(علوم أسرار أسماء الله تعالى وخواصها وخواص الآيى وأسرار الحروف والأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحزاب القوم وأدعياتهم فكل هذه العلوم هو قطب رحاها بل شمس ضحاها) (٣) ٠

(فهو البالغ مبلغ الاجتهاد لجمعه العلوم المشروطة فيه وليس من فنون العلم إلا وهو بالغ فيه مبلغ الاجتهاد . وإذا اندرست علوم الشرع لا يقدر على إحيائها غيره) (٤)٠

هذا عرض موجز لما أفاض فيه صاحب الضياء المستبين في بيانه لما وصل إليه شيخه وخاله من مكانة علمية ٠ والمريد إذا كتب عن شيخه يتوقع منه المبالغات الزائدة التى لا يوافقه عليها حتى شيخه الذى يكتب عنه ، ولكن هذا المريد كتب كتابه في حياة شيخه وهذامفهوم من كثرة دعائه له في أثناء الكتاب بطول العمر والعافية ، وما فيه من حكايات وقعت للمؤلف قصها على شيخه وأثبت ذلك في كتابه (٥) الامر الذي يجعل الشيخ مشاركا في هذه الحالة لمريده هذا في نشرهذه المبالغات التي تخالف ما يذكر عنه من التواضع وإنكار الذات (٦) ٠

ولكنه عند مالم يذكر لهذا الشيخ شيوخا في هذه الفنون الكثيرة والعلوم النادرة أحال إلى أن شيخه أخذها وهبامن الله تعالى ووراثة نبوية لا سبيل للعقل فيها (١) إذ إنها من العلم الذي يخص الله به من شاء من عباده وأوليائه (٢) ٠ وعند توضيحه

---

(١) الضياء المستبين ص ٢٠٩ ٠

(٢) نفسه ص ٢١١ ٠

(٣) نفسه ص ٢١١ ٠

(٤) نفسه ص ٢١١ . ١١٢ ٠

(٥) نفسه ص ٢٢٣ ٠

(٦) نفسه ٠٠٠

(٧) الضياء المستبين ص ١٩١ . ٢٠٢ ٠

(٨) نفسه ص ٢١٣ . ٢٠٨ ٠

لكيفية حصول هذا العلم اللدني لشيخه يقول : بأن سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم كانت بيده مفاتيح العلوم ومفاتيح الغيب وعندما حضر أجله انعقد مؤتمر للأولياء لاختيار من تعطى له هذه المفاتيح ٠

فقال بعضهم : اعطوها للشيخ المصطفى . وكان الشيخ محمد فاضل من ضمن تلاميذه في هذه الفتره . فقال بعضهم هو لها أهل لولا أنه قد حضر أجله ٠

وقال آخرون : أعطوها للشيخ محمد فاضل : (فأخذوها فى مجمع من الأولياء والملائكة وسلموها له ٠وقالوا : هذه مفاتيح الغيب فأخذها واختص بها دون غيره فعلم كل علم بلا كد ولا كدح بمحض التخصيص الالهى) (١) ، (وكان بعد ذلك لا يجلس تحت شجرة ولا ينظر فى حجر ولا غيره إلا تعلم منه علما ٠ إما أن يراه مكتوبا فيه ، وإما أن يخاطبه به ، فكانت العلوم تحيش عليه جيشان الريح العاصف والبحر ففاض عليه الكشف والعلوم الالهية) (٢) ٠

وفي هذه النقول من المبالغات مالا يخفى ، أما ما فيها من الأمور العقدية فسيأتى الكلام عنها إن شاء الله في باب العقيدة عندهم ٠

---

(١) نفسه ص ٢٤٢ . ٢٤٣ قلت : ومن ادعى أن بيده مفاتيح الغيب فقد كذب القرآن وتكذيب القرآن كفر ٠

(٢) نفسه ص ٢٤٣ ٠

مؤلفاته وطريقته :

يذكر محمد الغربى فى كتابه الساقية الحمراء (١) أن للشيخ محمد فاضل كتبا عديدة أتخذ منها مؤسس الطريقة السنوسية منبعا ومصدرا لطريقته واستفاد منها عند وضع كتبه ، والذي يذكره الشيخ ماء العينيين (محمد المصطفى) ومحمد فاضل ابن الحبيب من كتبه إنما هو أنظام وقصائد مديحية أو توسلية لا يحكم لصاحبها بالتأليف ولا بالشاعرية ، ولذا لم نجد للشيخ محمد فاضل ذكرا في الوسيط مثلا كشاعر ولا في فتح الشكور أو غيرهما من المؤلفات التى عنيت بذكر أسامي المؤلفات والترجمة لأصحابها (٢) ٠

وهذه مؤلفاته :

١) بدر التم (٣) فى التصوف وعلومه ٠

٢) مطية المجد (٤) نظم في التصوف أيضا ٠

٣) التيسير (٥) نظمه فى بحر المتقارب ، قريب من ثلاثمائة بيت في علوم اللغه العربية ٠

٤) فقه المنن (٦) رجز في نيف وخمسمائة بيت في البيان والبديع ٠

---

(١) المصدر المذكور ص ١٣٣ ٠

(٢) راجع الكتابين المذكورين ، وانظر مقدمة تحقيق فتح الشكور خاصة ص ٧ ٠

(٣) الضياء المستبين ص ١٨ ٠

(٤) نفسه ص ١٤٠ وذكرها وأكثر الاستشهاد بها الشيخ ماء العينين في نعت البدايات وتوجد منها نسخة كاملة في دارالثقافة بانواكشوط تحت رقم ٢٠٨٦ المخطوطات ٠

(٥) نفسه ص ٢٠٥ ٠

(٦) نفسه ص ٢٠٦ ٠

٥) منظومة الأحوال (١) في السلوك .

٦) كشف الحجاب (٢) في السلوك .

٧) النور الساطع أو الستر المسبول أوحسن الطريد (٣) : أنظام لأسماء الله الحسنى مخلوطه ببعض الأسماء الأعجمية على حسب روايات الصحاح ، وابن ماجه ، وابن مردوية والحاكم وابى نعيم وأبى الشيخ لأسماء الله الحسني .

٨) وله معين على الألفية (٤) لابن مالك .

٩) وله معين على نظم الأخضري : الجوهر المكنون (٥) .

١٠) التوصيح فى علم العروض (٦) يبلغ مائة وعشرين بيتا .

١١) قصائد تتضمن أدعية لطرد الجن والاستسقاء وغير ذلك (٧) .

١٢) النير الدائم (٨) .

١٣) منبع الارتجال في التوسل بالصالحين من الرجال (٩) .

هذا ما أمكنني الوقوف عليه مما ينسب للشيخ محمد فاضل من المؤلفات .

ويعرف من عناوينه وما اشتمل عليه من مادة أنه لا جديد فيه يستحق ما ذكر عنه من المبالغات الزائدة فمعظمه أنظام مستقاة من كتب متأخري الصوفية الذين اختلطت عليهم السبل فخلطوا بين السلوك الشرعي المستمد من الكتاب والسنه وبين تجاربهم الخاصة وميولهم البيئة .

---

(١) الضياء المستبين ص ١٦٤ .

(٢) نفسه ص ١٤ .

(٣) نفسه ص ٢١١ .

(٤) نفسه ص ٢٠٨ .

(٥) نفسه ص ٢٠٨ .

(٦) نفسه ص ٢١١ .

(٧) نفسه ٢١١ .

(٨ - ٩) ذكرهما له صاحب إبراز الأدوار الفكرية للشيخ ماء العينين ص ١٥ .

طريقته ومكانته الاجتماعية :

اتضحت مكانة الشيخ محمد فاضل العلمية بما تقدم من ذكر طلبه للعلم ومشايخه وتلاميذه ومؤلفاته وغير ذلك مما بين انتسابه للطريقة القادرية وإما مته للفرع الذي ينسب إليه (الفاضلية) ٠

وهو إن لم يكن مذكورا في الشيوخ الذين جمعوا بين تدريس العلم والطريقة الذين ذكرهم الخليل النحوي من أهل بلادشنقيط فإنه معدود من بين كبار المتضلعين بالعلم الذين أسسوا في حضراتهم مدارس يأوي إليها العالم والمتعلم وهذا ما ضاعف من مكانته عند أهل بئته (١)

وللوصول إلى معرفة نهجه في الطريقة وما نتج عن ذلك وغيره من مكانة اجتماعية مرموقه خلفها لأبنائه والمنتسبين له يجدر أن نبدأ أولا بعرض موجز عن حياته في السلوك والتربية الطرقية ٠

يذكر صاحب الضياء المستبين أنه اشتغل بالذكر (بلا اله الا الله) وهوصبي مع الصبيان حتى لقبوه بصاحب (لا إله الا الله)وأنه ظل ثابتا في ربقة البيعة لأبيه حتى صدره وعمره إذ ذاك خمس عشرة سنة (٢) ٠

وأنه تعلم من أبيه وغيره الأسرار والحكم إلى غير ذلك من أسماء الله الحسنى ومدلولاتها ، والأسماء الأعجمية وآثارها (٣) ٠

والناس يعتقدون فيمـن ينسب إليه شيىء من هذه الأمور ويخافونه خوفا زائدا يمكنـه من السيطرة على عقولهم ويحول بينهم وبين عرضه على معارفهم هذا من ناحية ٠

---

(١) بلاد شنقيط ص ١٢٣ . ١٢٥ ٠

(٢) نفسه ص ١٢٥ . ٠

(٣) الساقية الحمراء ١٣٣ ٠

ومن ناحية أخرى يذكر عنه أنه كان على درجة كبيرة من الخشوع والعبادة والزهد والصيام ، والتوسعة على العيال ورعاية الأرامل والايتام والضيافة مع البشر الدائم والتواضع الكبير والرفق بالصغير(١) فكان إذا صلى الصبح جلس في المسجد متوجها إلى القبلة عاطفاعلى الأذكار لا يكلم أحدا ولا يكلمه أحد حتى تطلع الشمس ويتنفل فحينئذ يسوغ تكليمه .. وإذا صلى العصر جلس في بيت خلوته فلم يأته أحد ويبقى هناك فارغا لأوراده حتى تغرب الشمس) (٢) .

قال : وأسس طريقته المقامات التالية :

١) الاسلام .

٢) الايمان .

٣) الصلاح الذي هو مرام العبادة .

٤) الاحسان .

٥) الشهادة .

٦) الصديقية .

٧) العبودية (٣) . قال : وهذه الطريقة القرآنية هى طريقة الشيخ (٤) . قلت : وهذا التقسم لم نجده لغير هذا المؤلف من شيوخ القادرية على أن عمدة التقسيم عنده : الاسلام والايمان والاحسان حسب حديث جبريل عليه السلام وغير هذه الثلاث داخل تحتها .

---

(١) الضياء المستبين ص ٣٦ ـ ٨٤ .

(٢) نفسه ص ٣٧ يعني (عاكفا) .

(٣) نفسه ص ١٠٥ ـ ١٢٢ وسيأتي الكلام عن المقامات في باب السلوكيات والعبادات

(٤) نفسه ص ١٣٣ .

قال (وكان يربي مريديه بمقتضى الكتاب العزيز والسنة المحمدية) (١) .
ويجوز رفع الصوت بالذكر في المساجد ويأمر تلاميذه بذلك ويذكرون بكلمة لا إله إلاالله دون الشطر الثاني من الكلمة الشريفة وهو الشهادة بالرسالة للنبي صلى الله عليه وسلم ولا يرى وجوب اقترانها بها) (٢) .

ويرجح جواز الذكر بلفظة الجلالة (الله) مفردا وجواز الذكر بهو هو (وكان مريدوه كثيرا ما يذكـــرون بحضرته بهو هو وكثير ما أسمعه يذكر بنفسه الشريفة ويقـول : هو هو ..) .

(وكثيرا ماكان يذكر مريدوا الشيخ بأنت أنت وكثيرا ما سمعته يقل أنت أنت) (٣)

(وكان الشيخ كثير التأوه بمعنى أنه كثيرا ما يقول أه أه) (٤) .

(وأعلم أن تلاميذ الشيخ كثيرا ما يأخذهم الجذب والشطح والرقص والسكر والوجد .. وأن الشيخ كان فى ابتداء أمره كثيرا الوجد) .

(ولم أره يستعمل السماع بل ولا يأمر به بل قد سمعته ينهى عن صورته ويزجر عنها) (٥) .

(وكان بعض تلاميذ الشيخ ربما ركبوا إلى العامة لأخذ الأموال ، وربما يقبلون الهدايا ممن أتى بها من الخاصة وهو لا ينهاهم عن ذلك) (٦) .

فهذه النقول توضح ما كان عليه هذا الشيخ من السلوك الصوفية ونشره لعلومهم وآدابهم وعباراتهم بالإضافة إلى جمعهم للأمـــــوال واستحلالهم لذلك وهو أمر ساعدهـــم على نوع من السلطة والنفوذ وزاد من مكانتهـم عند العامة وبعض الخاصة ،

---

(١) الضياء المستبين ص ١٤٠ .

(٢) نفسه ص ١٤١ .

(٣) نفسه ص ١٥٠ . ١٥٥ و ١٥٦ . ١٥٨ .

(٤) نفسه ص ١٥٩ . ١٦٢ .

(٥) نفسه ص ١٦٩ .

(٦) نفسه ص ١٧٠ . ١٦٧ قلت : وما تضمنته هذه النقول سيأتى نقده في باب السلوكيات

يضاف إلى هذه المكانة العامة المكتسبة من أمور متعددة بالنسبة لهذا الشيخ ٠مكانته سائسا لقبيلته ورئيسا لأهل منطقته (١) وهي مكانة كما يذكر ورثها من أبيه (٢) ودعمها بدوام الاستقرار (٣) والسخاء وكثرة مصاهرة الناس (٤) مع امتداد العمر به حتي بلغ التسعين تقريبا (٥) ٠

وفاته رحمه الله : قال محمد الغربي ولم تختمره المنية . يعني الشيخ محمد فاضل . إلا بعد أن أصبح له ذكر وصيت في سائر البقاع الصحراوية والسودانية فكان ذا كرامات وصلاح ، وعالما لا يشق له غبار في ميدان الحديث وعلوم القرآن والانساب والأدب ، وتوفي بعد عمل طويل قضاه في خدمة طريقته ، بعد عمر يناهز التسعين عاما (١٢٨٧) هـ الموافق ابريل ١٨٦٩ م (٦) وقال صاحب الوسيط مبينا موضع مدفنه :

(أدياده) تامورت عظيمة ، وبها ماء لا يغور ، وبها قبر الصالح الشيخ محمد فاضل ، والد الشيخ ماء العينين) (٧) وشيدت على قبره قبة على ما ذكره محمد الغربى حيث يقول :

(وشيدت على قبره قبة آية في الصنعة والايداع وألحقت بها زاوية للذكر ودار لإيواء القصاد وأبناء السبيل ٠٠) (٨)

قلت : وقد نقلت عن أحد أحفاد الشيخ التراد أن جده الشيخ التراد كان يريد هدم هذه القبة ولكنه خشي فتنة أكبر فتركهامتأسيا بالنبي صلى الله عليه وسلم في تركه لهدم الكعبــة الشريفة وإعادتها على قواعد إبراهيم عليه السلام خوفا من فتنة في الديـن ٠

---

(١) ابراز الادوار الفكرية للشيخ ماء العينين ص ١٥ . ١٦ ٠

(٢) الساقية الحمراء ص ١٣٣ والمعسول جـ ٤ ص ٨٣ ٠

(٣) الساقية الحمراء ص ١٣٣ ٠

(٤) المساهمة فى إبراز الادوار للشيخ ماء العينين ص١٥ . ١٦ ٠

(٥) الساقية الحمراء ص ١٣٣ ٠

(٦) الساقية الحمراء ص ١٣٣ ٠

(٧) الوسيط ٤٥٧ واتامورت : غيضه تجتمع فيها مياه الأمطار وتدوم أكثر العام ٠

(٨) هو محمد بن الشيخ سعد أبيه بن الشيخ التراد ، قاضي في انواكشوط ، أنظر ملف الرحلة العلمية ، المقابلة في تاريخ ٢٧ / ٨ / ١٤١٠ هـ ٠

ترجمة الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي

حصل توسع مقصود في ترجمه العلمين السابقين في هذا الفصل المخصص لتراجم أعلام القادرية في موريتانيا وذلك لأنهما إماما الطائفتين الرئسيتن في البلاد ومن يأتي بعدهما وإن كان علما في الطريقة وكون له فرعا مستقلا فإنه يظل تابعالهما سواء أكان من أبنائهما أو من مصدريهما .

والشيخ سيدي محمد كما عرف نسه هو : محمد بن المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي نجارا الأزوادي دارا) (١) .

قال الزركلي في ترجمته (وأبو عبد الله الكنتي فقيه مالكي مؤرخ من شنقيط له تصانيف) (٢) .

ويقول فيه الخليل النحوي : (عالم صوفي جليل) (٣) .

وقد اعتنى بول مارتي به عناية خاصة فترجم له ترجمة جيدة في كتابه كنتة الشرقيون (٤) مع أنه قال بأنه لا يملك الكثير عن حياته إلا أن ورعه (٥) وعلمه اجتذبا إليه انتباه والده فاصطفاه خليفة له وهو خامس أولاده .

ميلاده ونشأته :

ولد الشيخ سيدي محمد الكنتي حوالي ١٧٦٥ م . وعاش ثلاثا وستين سنة تقريبا حيث ظل في كنف والده منها ما يزيد على الأربعين عاما .

---

(١) الطرائف والتلائد ص ١ .

(٢) الاعلام للزركلي جـ ٧ ص ٩٢ .

(٣) بلاد شنقيط ص٥١٦ .

(٤) كنته الشرقيون ص ٧٧ ـ ٨٣ .

(٥) نفسه ص ٧٩ .

ويقول هو عن نشأته :(لقد تعلقت بالشيخ (يعني والده) على رسم الإراده من الصبوة على حين انقطاع من رسم الطريقة وفترة من طالبيها بل غاية ما يتعلق به هممهم وتنتهى إليه رغباتهم أخذ الأوراد مجردة عن إستعمال السلوك والأخذ في الارتباض ، فأخذت الأوراد قبل أمد البلوغ وكان والدي يروضني بساسة عجيبة وتدريب غريب) (١) .

والواقع أن الشيخ سيدي محمد نشأ في رعاية علميه وصوفية خاصة حتى إن والده لم يمت إلا وهو نسخة منه طبق الأصل ولم نجد فى ذكر ترجمته أنه خرج من حضرة والده حتى أنه عندما استأذنه في الحج كما تقدم صده قائلا له : الأولى بك أن تعنى بإزالة رعونات نفسك ولا تعرض نفسك للفتن وقد قال عنه صاحب المدرسة الكنتية إنه لا يقصر عن والده علما وتأليفا (٢) .

مكانته العلمية

لم تطل مدة حياة الشيخ سيدي محمد الكنتي بعد وفاة والده حيث إنه عاش بعده نحوا من عشرين سنة تقريبا أو أقل من ذلك كما في كنتة الشرقيون أنه عاش بعده خمسة عشر عاما فقط (٣) ولم يكن له ظهور كبير في حياة والده للآداب العلمية والصوفية إلا أنه في هذه المدة ظهر للناس أنه لم يتغير شيء في مسيرة مدرسة والده التي استخلفه عليها لا من الناحية العلمية ولا الصوفية (٤) وإن كان الباحث يجد فى طيات كلامه مرارة من تصرف بعض أتباع والده ومقدميه من الصوفية حيث يظهر من كلامه عنهم عدم تقدير لخلافته (٥) .

---

(١) جنة المريد له ص ١٦٧ .

(٢) المدرسة الكنتيه ص ٢ .

(٣) كنته الشرقيون ص ٧٩ .

(٤) نفسه ص ٧٩ ـ ٨٠ .

(٥) جنة المريد ص ١٢ ـ و ٢٤ . ٩٧ . ٢٠٠ .

آثاره :

واصل الشيخ سيدي محمد الكنتي مسيرة والده في التدريس وتربية المريدين والتأليف والاتصال بأصحاب السلطة المحلين وعمل على إصلاح ذات البين بين القبائل المتصارعة (١) • فمن مؤلفاته :

١) الطرائف والتلائد وهو الكتاب الذي أعتمدنا عليه في كثيرمن نواحي هذا البحث أو ما يتعلق بالمختارية خاصة وهو موسوعة ضخمة تضم العديد من المناظرات الدينية والمعالجات الصوفية والأخبار التاريخية والرسائل العلمية والأدبية •

وقد اعتبره بول مارتى من أهم أعماله الجليلة لما فيه من التاريخ لتلك المنطقة إلا إنه وصفه بأنه كتاب مشوش للغاية ومعالجاته للأمور تبعث على السآمة لأنه كما يقول يعالج مواضيع شتى من حيث التنويع (٢) •

وهو كما قال من حيث الموضوعية أما من حيث العرض والأسلوب فإنه مؤلف ماهر في الأساليب العربية سهل العبارة كأنه نشأ في الأندلس كثير الاستطراد ويمكن الاعتذار عنه فيما يؤخذ عليه في تآليفه كلها بأنه عاجلته المنية وهو مشتغل في مؤلفات عديدة وأطفاء فتن كثيرة •

٢) الغلاوية سميت بذلك لمخاطبته فيها لأخوين له في الاسلام كما يقول من قبيلة الاغلال (٣) وهي في بدايتها رسالة وفي واقعها كتاب كبير يعالج كثيرا من الأمور التاريخية والصوفية والفقهية والاجتماعية وأبرز مقاصدها مهاجمة عبد الله بن سيدي محمود الحاجي (٤) كما هاجم فيها كثيـــرا من انحرافـــات الصوفيـــه (٥) •

---

(١) كنته الشرقيون ص ٧٩ . ٨١ •

(٢) نفسه ص ٧٩ . ٨٠ •

(٣) الغلاويه ص ٢ •

(٤) الوسيط ص ٣٦١ . ٣٦٣ •

(٥) كما تقدم عند الحديث عن الأغظفية وغيرها من الطرق الصوفية •

٣) جنة المريددون المريد : كتبها جوابا على رسالة تلميذه الصادق كما يقول : سيديا بن المختار وهي كتاب كبير في مائتين وخمسين صفحة على الآله الكاتبة تشتمل على ثلاثة مباحث في الحث على طلب العلم والتصوف ، وعلوم الصوفية وآداب سيرهم وبعض العقائد والآداب العامة ٠ (١) ٠

٤) الصوارم الهندية في حسم الدعاوى المهدية . مخطوط في نحو مائة صفحة٠

ألفه ناصحا لعموم المسلمين ومحذرا إياهم من الاغترار بأصحاب الدعاوى المهدوية وخصوصا القاضي الشهير . كما يقول : .

(الصالح بن محمد البشير والسلطان كوى بن أم بن أك الشيخ ، والسبب المباشر لتأليف هذا الكتاب هو ظهور مدع للمهدية في الطوارق يدعى محمد الجيلانى البركوري) (٢)

هذه هي الكتب التي وقفت عليها مما صحت عندي نسبته له وقد ذكر له محمد محمود بن ودادي ٠ في الملحق الذي أعده لكتاب بول مارتى (كنته الشرقيون) سبعة وعشرين كتابا قال بأنها متداولة بين الناس (٣)

والواقع أنه يذكر في أثناء كتبه التي ذكرت سابقا أنه خص هذا الموضوع الفلاني بكتاب أو أنه إن أمد الله في عمره سيفرده بتأليف (٤) ٠

قال الزركلي : (وله كتب قد يكون بعضها لأبيه ، كلها في خزانة الرباط) (٥)

---

(١) جنة المريد ص ١ ـ ٢٥٠ ٠

(٢) الصوارم الهندية ص ١ ـ ٣ ٠

(٣) كنته الشرقيون ٢١٣ . ٢١٤ وبذل الوسع في تفسير الآيات التسع ص ١٠٣ . ١٠٤ ٠

(٤) مثلا في الطرائف ص ١٥٩ والغلاويه ص ١٨٤ ٠

(٥) الاعلام جـ ٧ ص ٩٢ ٠

وقد أعتبره محمد يوسف مقلد : شارحا لطريقة والده المختارية (١) وقد أصاب في ذلك إلا أنه يعتمد كثيرا فيما يكتب عنها على كتب والده ومما ذكره في شرحه لتاريخها وسلاسلها ولم تجده بالنص لوالده قوله : (ومن خصائص طريقتنا خلوها عما في غيرها من الطرق من الشطح والتماوت والثغاشي والرقص ورفع الصوت بأذكار المستغرقين كهو ويا هو هو وياه ياه والله الله ونحو ذلك من الانشادات والساع وليس فيها لبس الخرقة والدلق ٠٠) (٢) ٠

وذكر بول مارتي في ترجمته أنه كان نافعا لذريته ومفيد لمعاصريه فقد أنقذ بوساطته تينبكتو من التخريب المنظم من قبل (فلان) واستضاف بعض الرحالة الغربيين وحماهم وساعدهم على أبحاثهم (٣) ٠

وأنه كان له الشرف في أنه كان في عداد تلاميذته الشيخ سيديا الكبير الذي أصبح فيما بعد زعيم القادرية في موريتانيا السفلي (٤) وللشيخ سيدي محمد مصدرون كثيرون من أهمهم إخوانه (٥) وأولاده العشرة (٦) الذين واصلوا مسيرة الطريقة العلمية والصوفية (٧) ٠

---

(١) شعراء موريتانيا القدماء والمحدوفون ص ٢٣٩ ٠

(٢) الطرائف ١٥٩ . ١٦٠ وسيأتي هذا النص والكلام عليه في باب السلوكيات . والدلق : نوع من اللباس يجعل تحت العباءة الفوقانية ، وقد يكون كالمعطف واسعا بدون فتحة ، سوى فتحة الكتفين ، ويحاك من حرير الطرح الازرق اللون أو من الصوف الأسود ٠ أنظر : هامش : الموفي بمعرفة التصوف والصوفي . مصدر سابق ٠

(٣) كنته الشرقيون ص ٨١ ٠

(٤) نفسه ص ٨٢ ٠

(٥) نفسه ص ٧٧ . ٨٩ . ٩١ . ١٤٠ . ١٥٠

(٦) نفسه ص ٨٩ . ١٤٠ ٠

(٧) نفسه ص ١٤١ . ١٥٤ ٠

وفاته رحمه الله :

يظهر من تعدد الأقوال في تاريخ وفاة الشيخ سيدي محمد أن تاريخ وفاته غير مضبوط حيث يذكر الزركلي أنه توفي سنة ١٢٧٠هـ - ١٨٥٤م (١) بينما يذكر غيره أنه توفي سنة ١٢٤٤ هـ (٢) أو ١٢١٢ هـ وهو نفس التاريخ الذي تذكره رسالة المدرسة الكنتية (٣) .

ويظهـــر أن أدق هـــذه التواريـــخ ما ذكره بول مارتي وهو أنه توفي في ١٠ ميه ١٨٢٦م (٤) .

ثم قال : (انتشرت جائحة من حمى سارية في القبيلة مات على إثرها موتا مفاجئا ودفن إلى جانب والده في (بور الأنوار) المقبرة المفضلة لدى كنته (٥) .

---

(١) الاعلام جـ ٧ ص ٩٢ .

(٢) بلاد شنقيط ص ٥١٦ و ٥٢٦ .

(٣) نفسه ص ٨١ - ٨٣ .

(٤) المدرسه الكنتيه .

(٥) كنته الشرقيون ص ٨١ .

ترجمة الشيخ القاضي الاجيجي :

هو الشيخ القاضي بن الحاج بن اشفق أحمد بابا بن حبيب الله بن المختار بل بن أبي بكر الملقب (أويك) بن أحمد محمود (بياني) ابن اشفق البكاي الجد الجامع لقبيلة (اجيجة) وهي قبيلة من قبائل الزوايا الحاملين لواء العلم والدعوة إلى الله تعالى.

وكان فقيها ومدرسا للفقه مستقر الحال حتى رآى رؤيا بأنه سينتشر ذكره فأخذ يبحث عن مشايخ الصوفية ويصحبهم حتى وصل في ناحية المطاف إلى الشيخ سيدي المختار الكنتي فى أزواد مسيرة شهر من بلاده فصحبه وبالغ في خدمته واتباع طريقته حتى صدره في الطريقة القادرية (المختارية) .

وعاد إلى بلاده ومكث زعيما دينيا وسياسيا إلى أن توفي سنة ١٢٤٠ هـ (١) وترك فى بئته آثار احسنة في المجال العلمي حيث كانت مدرسة (الكحلاء) التى عاشت إلى مجيء المستعمر الفرنسي وكذلك أختها (الصفراء) تلك المدارس التي خرجت أجيالا من العلماء والمجاهدين والقضاة ، كما أنه كان لأبنائه السبعة أثر كبير في المنطقة إلى يومنا هذا حيث نقلت عن ثقات أنهم مازلوا محافظين على منهجهم المحضري الأصيل في الدراسة العلمية ، وأنهم كذلك مازالت حضرتهم الصوفية على ماكان عليه أجدادهم من الاستقامة والحذر من البدع الطارئة على السلوك التربوي ، وأن المختار بن بون الذي كان شديد الإنكار على أهل الطرق الصوفية أثنى عليهم قائلا : إنه لم يرمندوبامتروكا ولا مكروها مفعولا) (٢) .

---

(١) دراسة شخصية : الشيخ المصطفى بن الشيخ القاضي ، المعهد العالى للدراسات والبحوث ، محمد مصطفى بن أحمد ومبارك ١٤٠٥ هـ ص ٧٠ ـ ٧٧ .

(٢) نفسه ص ٧٧ .

الشيخ سيديا الكبير :

هو سيديا بن المختار بن الهيبة بن أحمد دولة بن أبابك بن انتشايت الابيرى وطنا (١) وكان ميلاده ١١٩٠ هـ (٢) .

اشتغل في شبابه بالعلوم وبرع فيها ثم رحل إلى الشيخ سيدي المختار الكنتي بأزواد مسيرة شهر فلازمه ستة أشهر ، ثم مات الشيخ المختار فلازم ابنه سيدى محمد الخليفه عشرين سنه . على أنه عاشها بعد أبيه (٣) .

وكان في هذه المدة يخدمه خدمة العبد لسيده أو أكثر كما كان معروفا عنه ذلك أيام طلبه للعلم عند حرم بن عبد الجليل (٤) .

قال صاحب الوسيط (فلما برع في معرفة الطريق وعلم الأسرار رجع إلى بلاده فاعترف الناس بفضله ولم تزل فضائله تبدو حتى أذعنت له الزوايا وحسان وصار مثل الملك بينهم فلا يعقب أمره وكان أهلا لذلك ، كرما وحلما وعلما) . إلى أن قال :

(وكان يبلغه أن الطريق منقطع في الجهة الفلانية لعدم عمارتها فيحفر فيها الآبار ويبعث المؤن الطائلة لقرى المارين ، وفضائله أكثر من أن تذكر) .

قال : (وماذا أقول في رجل أتفق على أنه لم يظهر مثله في تلك البلاد) (٥) . قلت : هذا مجمل ما ترجمه به صاحب الوسيط وهو أقرب إلى زمانه ممن كتبوا عنه فيما بعد(٦)

وما قاله عنه يكاد يكون متفقا عليه بين الناس يشهد له به العدو قبل الصديق وما ذكره عنه من إتقان للطريق وعلم الأسرار سيأتى إن شاء الله التعليق عليه في باب العقائد عند المقارنه بين المختارية والفاضلية .

---

(١) الوسيط ص ٢٤٠ .

(٢) بلاد شنقيط ص ٥١٦ .

(٣) الوسيط ص ٢٤١ .

(٤) نفسه ص ٢٤٠ . ٢٤١ .

(٥) نفسه ص ٢٤٠ . ٢٤١ .

(٦) نفسه ص ٢٤٠ . ٢٤٣ .

ولو استعمل هذا الشيخ ما عرف عنه من قوة النفوذ والسلطان على الأمراء والمتغلبين وشيوخ القبائل وعامة الناس حيث كانوا يجعلون منطقته حرما آمنا (١) أقول لو استعمل ذلك كله في الدعوة الجادة لنصب إمام عادل جامع لكان نافعا جدا لنفسه وأهل بلاده عموما وكان الاتفاق المحكي على أنه لم يظهر مثله في تلك البلاد صحيحا .

وقد نقل أنه دعا لنصب الامام إلا أن الأوضاع كانت فيما يروى قد وصلت إلى درجة من الفوضى والفرقة يستكثر من الرجل الحازم أن يعمل على التخفيف من آثارها .

وكان ابنه وخليفته سيدي محمد جاد في الدعوه إلى نصب إمام عام بما هيئه له أبوه ولما كان له من اطلاع كبير على سوء أوضاع مجتمعه وما يراه من مستقبل تسلط النصارى على البلاد حيث ظهر الاستعمار الفرنسي بعد مماته بمدة قليلة وهو لم يعش بعد والده الا عاما واحدا (١)

---

(١) الوسيط ص ٢٤٣ . ٢٧٦ وبلاد شنقيط ص ٣٢٠ وما بعدها .

آثاره :

مما تقدم يتضح أن الشيخ سيديا كان على جانب كبير من العلم والجد في تحصيله ويجزم بذلك من عرف ما كان عليه من الذكاء والفطنة والتواضع لشيوخه (١) يضاف إلى ذلك أنه وفق للدراسة على جلة من أئمه العلم كحرم بن عبد الجليل وهو من أجل تلاميذ الشيخ المختار بن بون (٢) .

ثم أتبعه بعد أن تضلع من علمه بصحبة المختار الكنتي الذي قال عنه إنه جاءه وقد انتهى من تحصيل العلوم فرده مبتديا (٤) وهذه الأمور من أهم أسباب العون على التحصيل والانتاج العلمي والأدبي .

وقد جمع الشيخ سيديا الكبير بنفسه مكتبة ضخمة حيث استنسخ مكتبة الشيخ سيدي المختار في أزواد (٤) وجمع ما في منطقته من الكتب سواء من تآليف شيوخه أو من المؤلفات الواردة إلى البلاد واشترى من المغرب كتبا كثيرة (٥) .

واستجلب العلماء والأدباء إلى حضرته فازدهرت بذلك في حياته (٦) واستمرت فى ذلك الاتجاه العلمي المقرون بالتصوف حتى نبلغ فيها حفيده الشيخ سيديا بابه الذي أخذ هو الآخر في نفس الاتجاه من جمع الكتب واستنساخها واستجلابها واستقدام العلماء والاحسان إليهم حتى غلب الاتجاه العلمي الوجهة الصوفية إذ كان هذا الشيخ شديد الانكار على المتصوفة وما ابتدعوه ، صريح الدعوة إلى الالتزام بالكتاب والسنة (٧) .

---

(١) الوسيط ص ٢٤٠ . ٢٤١ .

(٢) نفسه ص ٢٤ . ٢٥ و ٢٧٧ وجنة المريد ص ٢٥٠ .

(٣) الوسيط ص ٢٤١ و ٢٦١ وبول مارتى ص ٨٠ . ٨٢ و ١٥٤ .

(٤) يوضح ذلك ما بأيدى الناس وما فى مكتبة أهل الشيخ سيديا فى بتلميت ، من المخطوطات التي يوضح النساخ في نهايتها أنها عين نسخته التي قابلها بنفسه ونقلها بخطه في أزواد .

(٥) الوسيط ٢٤١ .

(٦) نفسه ص٢٤٣ .

(٧) رسالة في حياته بقلم تلميذه محمد بن أبى مدين . وما بعدها وسيأتي إن شاء الله مزيد عن حياته في فصل الصحوة السلفية في الطريقة القادرية .

تلاميذه ومولفاته :

لايمكن أن ندعى لأحد أنه حصر تلاميذ الشيخ سيديا نظرا لأنه رحل إلى أزواد ومكث في حضره الشيخ سيدي المختار الكنتي نحو عشرين عاما ، ومن عادة شيوخ هذه الحضرات أن يسندوا المسائل العلمية من تدريس واستنساخ الكتب وحتى الفتيا والقضاء إلى من يرونه من مريديهم أهلا لذلك وقد رأينا أن الشيخ سيدي ما جاءهم إلا وقد تضلع من العلوم وبرع فيها فلا شك أنه كان له تلامذة في العلم في أزواد .

ثم إنه لما عاد إلى بلاده في القبلة اشتهر أمره في العلم والتصوف وقصده الناس ، وكل أخذ فيما هو ميسر له ، وقد ساعده على كثرة العطاء العلمي أنه أمتد به العمر بعد رجوعه من أزواد نحوا من أربعين عاما أو أكثر.

وقد عد خليل النحوي ستة من أعيان تلاميذه وهم

١) ابنه سيدي محمد المتوفى سنة ١٢٨٦ هـ (١) .

٢) الشيخ أحمد بن سليمان الديماني المتوفى سنه ١٢٩٩ هـ .

٣) الشيخ أحمد بن الفاضل الديماني المتوفى سنة ١٣١٩ هـ .

٤) الشيخ محسن الحسني .

٥) الشيخ حمدي مولود .

٦) محمد مبارك اللمتوني (٢) .

ويذكر صاحب الوسيط من الروايات ما يدل على كثرة ما اجتمع عنده من التلاميذ ذاكرا من كان منهم على شرطه في الأدب والشعر (٣) كما يزيد ذلك بيانا انتشار القادرية في غرب إفريقيا في وسط أئمتها وأمرائها (٤) .

---

(١) بلاد شنقيط ص ٤٩٥ وأظن أن تاريخ الوفاة غير صحيح حيث إنه من المعروف أن الشيخ سيدي محمد لم يعش بعد والده سنه كاملة حيث يقول الناس :
(إنه الشيخ الذي لم يُزَكِ) وذلك أنه ما ملك النصاب في حياة والده ولم يَحُلْ عليه الحول بعده

(٢) نفسه ص ٤٩٥ .

(٣) الوسيط ص ٢٤١ . ٢٤٢ و ٢٤٣ و ٣١١ وما بعدها .

(٤) بلاد شنقيط ص ٢٦٧ .

مؤلفاته ووفاته رحمه الله :

لا نجد للشيخ سيديا مؤلفات كبيرة أو كثيرة بالنظر إلى علمه وعمره وما أتيح له من كتب وطلاب علم مطعيين ٠

ولعل السبب في ذلك راجع إلى اشتغاله بالتدريس والسياسة والوجاهة إذ كل هذه أمور شاغلة للداخل فيها عن التأليف الذي يحتاج إلى تفرغ كامل ، هذا مع ما عرف عن أهل تلك البلاد من حب الخمول والتواضع ، ولذا فلا يؤلفون إلا في أمر تبينت عندهم الحاجة الماسة إلى التأليف فيه ، فيؤلقون فيه أو يشتغلون به خوفا من المسؤلية أمام الله في ذلك (١) ٠

وهذا ما يظهر في مؤلفات الشيخ سسيديا الآتية حيث إن معظمها أجوبة ورسائل في مسائل واقعة ٠ وقد أبلغها الخليل النحوي ثلاثة وعشرين مؤلفا وهي :

١) أجوبة عامة ٠

٢) بغية الخائض في حكم المتمتع بالحائض ٠

٣) تحفة الاطفال بحل لامية الافعال ٠ ذكرها له صاحب الوسيط (٢) ٠

٤) جواب المختار حبيب الله الديماني ٠

٥) خلاص النفس من الحبس ٠

٦) ديوان شعر ٠ وقد قال صاحب الوسيط (بأنه كان مجيد في الشعر) (٣)

٧) رسالة في امتناع تمثل الشيطان بالنبي صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) بلاد شنقيط ص ٢٢٤ وما بعدها ٠

(٢) نفسه ص ٥٦٣ ـ ٥٦٤ ٠

(٣) نفسه ص ٢٤٢ و ٢٤٣ وسيأتي إن شاء الله في باب السلوكيات شيىء من شعره ٠

٨) رسالة إلى إجيجبه (القبيلة المعروفة) .

٨) رسالة في جواز التنفل بالخبث .

١٠) رسالة في حكم تعليم النساء ، وقد حققت في معهد ابن عباس في انواكشوط .

١١) رسالة في النكاح وفوائده .

١٢) رسالة في خواص البسمله والفاتحة .

١٣) رسالة في رقية السحر والسوام .

١٤) رسالة في القبض والبسط . يعنى وضع اليمنى على اليسرى فى الصلاة .

١٥) رسالة في المال المدفوع للأكابر والمداراة للظلمة .

١٦) شذور الأذكار الماحية للأوزار .

١٧) شرح باب الفرائض من مختصر خليل .

١٨) شرح الصغرى للسنوسي .

١٩) شرح مقصورة أبن دريد ، قال صاحب الوسيط إن بعض الثقاة أخبره بذلك(١)

٢٠) شرح المقصور والمدود لابن مالك ولعله أختصره من شرح شيخه المختار الكنتي الذى طبع بتحقيق المأمون كما تقدم .

٢١) الفرق السديد والتميم المفيد في التصوف .

٢٢) هداية الطلاب في الفقه وشرحها (اجزاء) ولعله غير ثابت النسبه له حيث إن هذا العنوان كما تقدم ثابت النسبة للمختار الكنتي شيخه .

---

(١) الوسيط ص٢٤٢ .

٢٣) يتيمة الليالي في إفحام علماء تتبالي • ويقال في هذا الكتاب ما قيل في سابقه •

٢٤) ونسب له : العلق النفيس في التصوف •

٢٥) وله عقيدة في ورقة صغيره وهي عبارة عن شرح حديث جبريل عليه السلام وهي في دار الثقافة في انواكشوط تحت رقم (٤٠٨) •

هذا هو العدد المنسوب إليه المتداول بين الناس وقد ذكر الخليل النحوى أنه من المؤلفين الذين وصلت مؤلفاتهم العشرات وذكر له بالرقم (٣٠) مؤلفا (١) •

ويكتفي صاحب الوسيط زيادة على ما تقدم بقوله :

(وقد رأيت من تأليفه) وذكر اثنين تقدمت الإشاره إليهما هذا علاوة على القصائد التي تكون ديوانا على ما تقدم وذكر منها نماذج (٢) •

وفاته رحمه الله :

الخلاف في تحديد تاريخ الوفاة لا يستغرب في تلك البلاد لعدم العناية في عهدهذا الشيخ بالكتابة •

ولذا فقد ذكر في تحديد وفاته ما يأتي •

يقول صاحب الوسيط:(وأخبرني بعض الثقاة : أنه مات سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف أو نحو ذلك رحمه الله رحمة واسعة) (٣) •

ويذكر الخليل النحوي أنه توفي في آخر يوم من عام ١٢٨٤ هـ (٤) •

ونصل ترجمته بترجمة الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل الذي قيل بأنه لم يأت بعده مثله في البلاد إلا هو •

---

(١) بلاد شنقيط ص ٢٤٦ •

(٢) الوسيط ص ٢٤٢ •

(٣) نفسه ص ٢٤٣ •

(٤) بلاد شنقيط ص ٥١٦ و ٥٦٣ ••

ترجمة الشيخ ماء العينين

إسمه ومولده ونشأته :

هو الشيخ ماء العينين وهذا علم اشتهر به (١) واسمه محمد المصطفى بن محمد فاضل بن مامين (٢) إلى آخر سلسلة النسب المتقدمة المعروفة .

مولده :

ولد في يوم الثلاثاء ٢٧شعبان من عام ١٢٤٦ هـ في الحوض الشرقي في منطقة (مدارة) بقبيلة (صنهيس) (٤) الموافق لعام ١٨٣٨ م .

نشأته :

يؤخذ من كلام صاحب الضياء المستبين وابن المترجم الشيخ أحمد الهيبة أن الشيخ ماء العينين نشأ في رعاية تامة من والده وكانت تلوح عليه أمارات النجابة والنبوغ (٥) من الصغر .

فقال صاحب الضياء فيه : إن والده قال فيه (لقدرفع الله صيت الشيخ سيدي المختار الكنتي يابنه الشيخ سيدي محمد الخليفه وجعل الله رفع صيتي في ابني ماء العينين) (٦) .

وينقل صاحب المعسول عن كتاب لأحد أبناء الشيخ ماء العينيين في ترجمته له : (أنه لازم والده ملازمة المريد لشيخه لا ملازمة الولد لأبيه ولا التلميذ لأستاذه) (٧) .

---

(١) الوسيط ص ٣٦٥ .
(٢) المعسول جـ ٤ ص ٨٣ .
(٣) نفسه ص ٩٦ .
(٤) الساقيه الحمراء ص ١٣٤ .
(٥) الضياء المستبين ص ٢٦٤ .
(٦) الضياء المستبين ص٢٦٤ .
(٧) المعسول جـ ٤ ص ٩٦ .

وبهذا نعرف أن نشأته كانت صوفيه علمية تحت إشراف والده ، ولا شك أنه منحه المزيد من العنايه لما لمس فيه من الرغبه فى العلم ٠

رحالاته ومكانته :

يقول محمد الغربى : (بينما كان محمد فاضل يميل إلى حياة الاستقرار ، فإن ابنه محمد المصطفى المعروف بماء العينيين كان على النقيض منه يهوى الأسفار) (١) ٠

وقد قادته هذه الهواية أن يفارق أباه وموطنه الأول ، وله من العمر ثمانية وعشرون عاما في رحلة طويلة إلى حج بيت الله الحرام مر خلالها بمناطق كثيره ومدن عديدة موريتانية ومغربيه وغيرها من المدن الشرقيه غير الحجاز حيث دون ذلك كله في رحلة الحج التي كتبها بدقة (٢) ٠

وقد استفاد من هذه الرحلات علما كثيرا وخبرة وصلات وطيدة مع السلاطين والقواد وشيوخ القبائل ، كانت من أهم الأسباب التي وجهته إلى أن يتخذ لنفسه مراكز معينة ومواقف معروفة أثمرت له شهرة واسعة (٣) وبعد سبعة أعوام من الرحلات والاتصالات عاد الشيخ ماء العينين إلى موطنه حيث صدره أبوه في الطريقة القادرية وفتح أمامه الباب لاستقبال الداخلين من أتباع الطرق الصوفية الأخرى وأذن له في الخروج إلى الوجهة التى يريدها ٠ (٤) قائلا له : (إن فحلين لا يهدان في دوله) والدولة هنا يراد بها قطيع يصل إلى مائه من الابل فما دون ذلك . والشيخ محمد فاضل يقول له هذا بعد أن كان ناويا ابقاءه معه ، فعاد إلى شمال البلاد حيث استقر في الساقية الحمراء وأخذ فيما بعد ينتشر صيته في المغرب بصفه عامة وبين قبائل الصحراء بصفة خاصة ٠

---

(١) الساقية الحمراء ص ٣٤٠ ٠

(٢) المعسول جـ ٤ ص ٩٦ ، ٩٧ ٠

(٣) المعسول جـ ٤ ص ٨٣ . ٩٧ ٠

(٤) نفسه ص ٩٦ . ٩٧ والساقيه الحمراء ص ٣٤٠ ٠

فبقي مدة يدرس ويؤلف ويدعو أهل تلك المنطقه المعروفة بيعد أهلها من العلم وآدابه فانكبوا عليه وأطاعوه حيث اجتمع عنده ما يقدر بعشرة آلاف ما بين ذكر وأنثى من التلاميذ والمريدين ٠

ويظل هذا العدد يزداد كلما ازدات شهرته وتيسرت وسائل النقل وأمنت الطرق ، وقد بلغ إقبال الناس عليه ذروته عندما هاجرت طوائف كبيرة من العلماء وغيرهم بعوائلهم وأتباعهم فرارا بدينهم من هجوم النصارى على البلاد ورغبه فى الجهاد الذى تواتر لديهم أنه هو حامل لوائه (١) ٠

قال فيه صاحب الوسيط (هو العلامه الوحيد ، له معرفة بعلوم الشرائع من الحديث والتفسير والفقه وغير ذلك ٠٠٠ وما جاء بعد الشيخ سيديا مثله في اقبال الناس عليه وانفاقه) (٢) ٠

وقال فيه المختار السوسي: (هذا الشيخ من الشيوخ العظام الذين تمت لهم شهرة فائقة عظيمة فقد أسعده الحظ فنال ما ربما إذا سمعه من لا يعرفه يستغرب به أو يعده من البهتان) (٣) ٠

وأوضح أن شهرته ترتكز على أمور هي : كما يقول المختار السوسي :

١) أن ذلك وراثة عن آبائه الشم الغطاريف الذين تسلسل فيهم العلم والصلاح أبا عن جد ، منذ أجيال متعددة) ٠

٢) (أنه أدرك من المشاركة في العلوم إدراكا عظيما تدل عليه تآليفه ٠٠)

٣) أنه شيخ من شيوخ الصوفية الذين لهم يد عليا في ذلك الفن علما وعملا ٠٠) (٤)

---

(١) أنظر الوسيط ص ٣٦٥ . ٣٦٦ ٠

(٢) نفسه ص ٣٦٥ . ٣٦٨ ٠

(٣) المعسول جـ ٤ ص ٨٣ ٠

(٤) نفسه ص ٨٣ . ٨٤ ٠

٤) (أنه أتصل من قديم بملوك المغرب فكان يفد إليهم بأصحابه من الصحراء) (١)

٥) (تطاول سنه وتعميره عقوداً كثيرة من السنين (٢) فكان من ثمار هذا كله أن اعتقدت فيه العامة بعد الخاصة وتنافس الجميع في الانتساب إليه والإهداء له فنال بذلك ثراء عظيما ، وأنشأ مدينة كاملة مجهزة ، هي مدينه الصمارة (٣) وبنت له الحكومة عدة زوايا في المدن المغربيه الرئيسية) (٤) .

قال المختار السوسي فيه : (أمضى رضي الله عنه حياته كلها في العلم وفي تدريسه والتأليف وعالم الفنون حتى نظم . المزهر . يريد المزهر فى اللغة للسيوطي . وحتى تعالى إلى جميع ما اتفق عليه الفقهاء فانتشرت به علوم جمة ، وتخرج به فطاحل عظام من الصحراويين . وتجمعت به أعظم خزانة صحراوية فكان مثواه المتنقل في الصحراء مدرسة حافلة ، وزاوية متنقلة بها دوي بالذكر يسمع من بعيد كما لعلمائهــا اشتغال بالمباحثــة في العلــوم تتعطربه السنــه المحدثين ، وتطير به الركبــان) (٤) .

ويقول صاحب الوسيط عن مشاهدته لأحواله عندما كان ضيفا عليه (.. ومتى بلغ الانسان قريبا منه يسمع دوي مريديه يذكرون الله وينشدون الأدعيه ، ورأيته في تلك الأيام التي أقمت عنده ، لا تفوته صلاة الجماعة ، مع كبر سنه ، وضعف جسمه ، وبعد صلاة العصر ، يسر دون له الحديث ، وهويسمع ، ثم يشرح لهم بعض المواضيع منه) (٥) . وهذه من المحاسن التي تركها في عقبه والصادرين من حضرته من العناية بالسنة والصلاة في أول الوقت .

---

(١) المعسول ص ٨٤ . ٩٦ .

(٢) نفسه ص ٨٤ .

(٣) الساقيه الحمراء ص ٢٥٣ . والمعسول ص ٩١ .

(٤) المعسول ص ٨٥ وبلاد شنقيط ص١٢٤ . ١٢٥ .

(٥) الوسيط ص٣٣٦ .

جهاده :

ومن مناقيه الحسنة التي لم يصل إليها كثير من شيوخ وقته العداوة الظاهرة للكفار والمنافقين وقيادة الجهاد ضدهم ومقاومتهم بجميع الأسلحة المتوفرة (١) .

وقد كتبت كتابات كثيرة عن موقفه من المستعمرين توضح أنه مات وهو قائم على ثغر من ثغور المسلمين لم يتسطع المتستعمر الدخول منه إلا بعد وفاته ووفاة خليفته من بعده .

قال المختار السوسي عنه في ذلك :

(وأعظم ما سيعرفه به المستقبل أنفته الإسلامية من الانضواء إلى الأجانب) (٢) .

ويقول الفرنسي فيليب : (وكاد يعني الشيخ ماء العينيين . يجدد بعد فترة ألف عام حركة المرابطين) (٣) . وللمرابطين رعب كبير في نفوس النصاري .

(وأنه أعلن نفسه سلطانا على المغرب عام ١٩١٠ م ودعا إلى الجهاد المقدس) (٤) .

(وأن أتباعه ظلوا بعده رجال دين ومحاربين حقيقين يلهبون بخطبهم قبائل الصحراء) (٥) .

وعندما كتب له أخوه سعد أبيه رسالة سماها : (النصيحة العامة والخاصة في التحذيرمن محاربة الافرانصه) (٦) رد عليه برساله سماها : (هداية من حارا في أمر النصاري) (٧) .

وقد أستوعب هذا الموضوع الأستاذ حامد بن محفوظ في رسالة تخرجه من معهد الاساتذة في أنواكشوط ١٩٨٤ م تحت عنوان القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه (٨) .

---

(١) الوسيط ص ٣٦٦ . ٣٦٨ وإبراز الادوار الفكريه والسياسية للشيخ ماء العينين ص٥٩ . ٨٦

(٢) المعسول جـ ٤ ص ٩٢ والساقيه الحمراء ص ١٣١ و ٣٤١ . وما بعدها .

(٣) دراسه عن الاسلام في إفريقيا السوداء الفرنسية ص ١٢١ . ١٢٢ .

(٤) نفسه ص ١٢١ .

(٥) نفسه ص ١٢١ . ١٢٢ .

(٦) حياة الشيخ سعد أبيه / محمد يصلح بن الامانة ص ٤٩ وما بعدها

(٧) الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٤٧٧ (مخطوط في ١٢ ورقة)

(٨) ص ٣٢ و ٥٣ وما بعدها .

من تلاميذه وانجازاته :

ومن مناقبه الحسنة أيضا أنه تخرج على يديه آلاف من الرجال والنساء فى العلم الشرعي (١) وتكونت تحت رعايته عناية شديدة وجادة بالتدريب على أساليب الجهاد وأنواع الأسلحة (٢) .

ومن مناقبه الحسنة كذلك أنه بنى مدينه الصمارة فأحيا بها بلدة كانت ميتة من العلم والحياة الأخرى ومن أهم ما كان في هذه المدينة :

١) مدرسة تحفيظ القرآن الكريم وعلومه .

٢) والحديث وعلومه إلى غير ذلك من العلوم الأخرى .

٣) وكذلك خزانة الكتب الكبيرة التي أحرق المستعمر ونهب كثيرا من جواهر الكتب فيها (٣)

أما مؤلفاته فهي تتراوح ما بين ١٤٠ إلى ٣١٤ عدد الرسل على ما ذكر (٤) ونكتفي بالاحالة على القوائم المذكورة في مقدمة كتابه دليل الرفاق على شمس الاتفاق ، المطبوع (٤) ويمكن أن يؤخذ على الشيخ ماء العينيين رحمه الله أنه لما حج لم يظهر أنه حاول الاستفادة من الدعوة السلفية القائمة في هذه البلاد المطهرة وما جاورها ، وبدلا من ذلك اتصل بأحد مشايخ الصوفية يدعى عبد الرحمن أفندي في مكة المكرمة وحكى عنه حكايات يستغرب صدورها من مثله في المكانة العلمية لما فيها من ادعاء علم سر الحروف وأن حرف الحاء منها له سر قامت به السموات والارض وأنه هو علمه لذلك الشيخ (٥) .

---

(١) مساهمه فابراز الادوار الفكرية للشيخ ماء العينين ص٢٨ وما بعدها .

(٢) الساقيه الحمراء ص ٣٦٠ وما بعدها .

(٣) نفسه ص٣٥٣ . ٣٦٣ .

(٤) المصدر المذكور ص هـ ح ومساهمة في إبراز الأدوار الفكرية ص ٤ . ٤٩ وبلاد شنقيط ص ٢٤٦ و ٥٦٤ - ٥٦٩

(٥) نعت البدايات ص١٩٨ . ٢٠٠ وما بعد ذلك . وسيأتى إن شاء الله نقد ذلك في مبحث التصرف في الكون .

ويستغرب كذلك أنه ظل يؤلف في هذا الفن ويخط في جداوله وأحرازه ويبين للعالم والجاهل والتقي والفاجر ما فيها من النفع والضر وهو مع ذلك يحذر من أستعمالها أو إطلاع غير التقي عليها ولا أظن أن هذا التحذير يكفي في إبراء ذمته مع الاستمرار في التأليف في هذا العلم الذي أقل ما يقال فيه أنه من باب الرقيا الغامضه التي حذر منها السلف (١) .

وقد أعتبر بعض الباحثين تمسك الشيخ ماء العينيين بهذا الفن واعتباره سلاحاً ما ناله من اعتقاد العامة فيه (وتصريفه فى الارواح) (٢) والوجاهة عند الخاصة بكتابته لها الاحراز والجداول (٣) .

وقد طبعت مؤلفاته في هذا الفن أكثر من غيرها من المؤلفات النافعة لما يجد فيها أهل الصوفية وكتاب التمائم من أنواع أسلحتهم التي يصطادون بها (٤) .

وعندي أنه لولا هذا الخلط عند هذا الشيخ لظل منتصرا على الأعداء ، ولتحقق له ما كانوا يخشونه من قيام دولة مرابطية ثانية بعد ألف عام على ما تقدم . ومع هذا كله فإن هذا الشيخ قد اعتبره البعض من المحسوبين في العلماء الذين جددوا دعوة السلف بالرجوع إلى الكتاب والسنه ونبذ ما خالفهما فى العقيدة والسلوك والسياسه (٥) .

وفاته : توفي الشيخ ماء العينيين رحمه الله في تيزنيت بالمغرب سنة ١٣٢٨ هـ (٦)

---

(١) نعت البدايات وفاتق الرتق على رائق الفتق المطبوع بحاشيته ص ٢٤٠ و ٢٦٤ .

(٢) المعسول ص ٩١٤ . ٩٢ والمساهمة فى إبراز الادوار الفكرية ص ٥٢ وما بعدها .

(٣) المعسول نفسه ص ٨٧ . وما بعدها .

(٤) مساهمة في إبراز الادوار الفكريه ص ٥٣ . ٥٤ والدعوة إلى الاسلام الأرنولدص ٣٦٥ .

(٥) الفكر السلفى عند الشيخ ماء العينيين وأثره في مواجهة المستعمر بحث ضمن كتاب ندوة الحركه السلفية في المغرب .

(٦) المعسول جـ ٤ ص ٩٨ . ٩٩ .

ترجمة الشيخ سعد أبيه :

هو : (سعد بوه) بن محمد فاضل بن مامين القلقمي إلى آخر النسب المتقدم ولد في الحوض الشرقي الموريتاني •

وأرسله والده بعد تصديره إلى منطقة القبلة وهي منطقة علم ، ولما لم يكن معروفا عن الشيخ سعد أبيه أنه صاحب علم كبير يرسل إلى بئة علمية ليعلمها قال :

والده ردا على هذه الملاحظة بقوله ليتعلم منهم (١)

ويقول عنه كاتب سيرته وحياته إنه هاجر من مسقط رأسه الحوض برسم التربيه للقلوب وهداية الناس •••) (٢)

وأنه لما ظهرت على يديه بعض الخوارق اعتبرها علماء المنطقة من باب الدجل والشعوذة وكلموا الأمير في إحضاره لمحاكمته أو قتله فاعتذر عن قتله لأنه ابن ولي مشهور ، ثم أحضره لهم وناظروه (٣) وأنه أظهرلهم أن ما عنده من العلوم لاصلة له بالسحر والدجل (٤) • والواقع أنه يفتخر بمعرفة علوم وأسرار الأسماء الحسنى وغيرها وأنها لو تليت على جبل لذاب أو على ظالم لمات من حينه أوزال عقله أو أبتلعته الارض••• والذي يمنعه من تسجيلها في مؤلف إنما هو حفاظا على السر وكتما له (٥) •

وهو في هذا أكثر امتثالا لتعاليم الصوفية من أخيه الشيخ ماء العينيين الذي نشركما تقدم عنه علوم الجداول والأسرار •

وقد أثنى (المسيوغا سطون دونه) (٦) الفرنسي في رحلته إلى جنوب الصحراء على الشيخ سعد أبيه فقال :

---

(١) بلاد شنقيط ص ١٢٢ •

(٢) حياة الشيخ سعد أبيه محمد يصلح بن الامانة ص ٣٨ ـ ٣٩ •

(٣) المحاضر الموريتانية الصوفى بن محمد ص ٨٧ •

(٤) حياة الشيخ سعد ابيه ص ٤٠ •

(٥) كشف اللبس عن المسائل الخمس مخطوط للشيخ سعد ابيه ص ١٢ ـ ١٣ •

(٦) حاضر العالم الاسلامى جـ ٢ ص ٥١ و ٥٣ ـ ٥٤ •

(والشيخ سعد أبيه أصله من الحوض ، لكنه من ثلاثين سنة مقيم في تاسيست وهو رجل محمود السيرة وكان قد أنقذ الفرنسي (بول سليلبه) من أولاد دليم ولذلك كسب اسما حسنا عند الافرنج • وهو يسكن في بيت من الحجر لا في مضارب وبركغيره ، ويجلس على كرسي لا على الأرض ويقرأ القرآن ويفسره) (١) •

وقد استغل المستعمر نفوذه وميله إلى المسالمة (٢) فاستدعوه إلى مركزهم وأروه أنهم لا محالة داخلون إلى يلاد موريتانيا وأقنعوه بتوقيع شروط الدخول وكانت في الظاهر شروطا منه عليهم لصالح أهل البلاد (٣)

وقد لقيت موافقته هذه معارضة كبيرة من الفقهاء فشنعوا عليه (٤) حتى اتهم بالميل إلى الكفار ، الامر الذي أغضبه كثيرا وتبرأ منه ودعا على من اتهمه بذلك بالوقوع في نفس ماظنه به (٥) •

وقد وصلت حصرته من بعده إلى نوع من العناية بجباية الأموال والزيارات لمراكز الأتباع في غرب إفريقيا مما جعل أحد المشاهدين الفرنسين لواقعها أن يقول فيها : (ولدى أهل سعد بوه نجد أن القدر المترعة قد حلت مكان كل روحية صوفية وكل سمو في القلب (٦) •

وقد ذكر له تلاميذ ومصدرون كثيرون في البلاد وخارجها (٧) قال عنه الخليل النحوي : (إنه من أعيان البلد وأحد مشايخ الطريقة القادرية البارزين) (٨) وتوفي سنة ١٣٣٥ هـ رحمه الله •

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ج ٣ ص ٥١ و ٥٣ . ٥٤ •

(٢) نفسه ج ١ ، ٢ ص ٣٢٠ •

(٣) حياة الشيخ سعد أبيه ص ٤٩ . ٥٤ •

(٤) بلاد شنقيط ص ٣٣١ •

(٥) حياة الشيخ سعد ابيه ص ٥١ •

(٦) دراسات عن الاسلام في غرب إفريقيا ص ١٢٠ . ١٢١ •

(٧) حياة الشيخ سعد أبيه ص ٤٥ . ٤٩ •

(٨) بلاد شنقيط ٥١٥ •

ترجمة الشيخ التراد بن العباس القلقمي :

هو الشيخ التراد (محمد فاضل) بن العباس بن الحضرامي بن الشيخ محمد فاضل ابن ما مين (١) إلى آخر سلسلة النسب المتقدمة .

ولد حوالى ١٣٠٦ هـ بموضع يسمى (أرى) في الحوض الشرقي قرب النعمة .

وأخذ كثيرا من العلم عن أخواله (أهل امبالة) حتى قرأ القرآن الكريم بالسبع .

يقول كاتب سيرته : (حفظ الشيخ التراد القرآن الكريم في سن مبكرة على خاله محمد المختار بن امباله ، كما درس عليه ما شاء الله من العلوم الأخرى كالفقه والعقائد والسنة والأصول والنحو والبيان والبديع والمعاني) (٢) فهو في واقع حاله ومن خلال إنتاجه الشعري والنثري يمكن أن يحكم له أنه شخصية موسوعية (٣) .

وكانت له رحلة في دول إفريقيا تعرف من خلالها على كثير من الشيوخ والمراكز الاستعمارية الفرنسية ، واعتقلته السلطات الفرنسية في ظروف أمنية في غنيا (٤) .

ثم عاد إلى بلاده وصحب عمه الشيخ سعد ابيه المترجم قبله وأكثر عليه من الأوراد والخدمة إلى أن صدره في الطريقة القادرية الفاضلية وأثنى عليه حتى رفعه فوق نفسه وفوق أخيه الشيخ ماء العينيين وكانت مدة صحبته له ثلاث سنوات (٥) .

وقد طاف الشيخ التراد في بلاد موريتانيا وتمركز في ثلاث مناطق منها وحصل له قبول كبير عند الناس وتبعه كثير من الزوايا (أهل العلم) وتاب على يديه كثير من أهل الحرابة والفجور (٦) وانتشرت طريقته واتباعه خارج حدود موريتانيا ونافست ما كان قبلها من الطرق .

---

(١) نيل المراد من كلام الشيخ التراد المقدمة بقلم الاساذ : محمدبن احمدناه ط٢ انواكشوط (ص ج) .

(٢) نفسه حرف (ص ج) .

(٣) نفسه (ص ج . د) .

(٤) نفسه (ص ج . د) .

(٥) نفسه (ص د . و) .

(٦) بلاد شنقيط ص ٢٦٧ ونيل المراد (ص ز . ح) .

فمن المناطق التي استقر فيها الشيخ التراد منطقة الرقيبة ومميل وآفوينيت وقد غلب على أصحابه في منطقة الرقيبة كثرة الذكر الجهري والشطح والذهول حتى إنه مات منهم في يوم واحد مأتان وسبعون شخصا في مكان يسمى (بالحراج) في الجنوب الموريتاني ٠

وغلب على أصحابه في مميل الانقطاع والزهد وكثرة العبادة حيث إنه لاصلة لهم بالناس ٠

أما أصحابه في آفوينيت فإنهم يوصفون بالاعتدال (١) ٠ ويرجع ذلك فيما يؤخذ من أحوال هذا الشيخ وهذه المناطق أن المنطقة الأولى لم تكن بيئة علم وكان الشيخ نفسه مصدرا حديثا فارهقهم بكثيرة الذكر والعبادة والأوراد حتى هلكوا فلم يقووا على تحمل مكابدة المجاهدات والرياضيات ٠

أما أصحابه في المنطقة التي استقر فيها أخيرا فإن غالبية من صحبه فيها كان من طلاب العلم كما يعرف من خلال أسماء المصدرين عنه في هذه الفترة (٢) يضاف إلى ذلك ازديادخبرة هذا الشيخ بالسياسة السلوكية وإقباله على مراجعة العلوم الشرعية وعرض ما يعن له عليها كما يؤخذ من رسائله وأوراده التي كتبها لأصحابه (٣) ٠

وينقل عنه بالتواترأنه مامات حتى أصبح ينكر كثيرا مما كانت عليه الصوفية في بلاده ويحث على اتباع السنة ويناقش مريديه في ذلك حتى يعقلوا عنه ، وله في ذلك قصيدة سماها تصفية الطريق (٤) منها :

(ولا تقل في شدة وكربه ياسيدي وشيخنا وحزبه) (٥) ٠

---

(١) نيل المراد (ص ز . ح) ٠

(٢) نفسه (ص ح) ٠

(٣) نفسه ص ١ . ٢ ٠

(٤) مقابلات أجريتها في انواكشوط يوم الاحد ٢٨ / ٨ / ١٤١٠ هـ ٠

(٥) نيل المراد ص ٤٩ وما بعدها ٠

ولذا وصفه احد الباحثين : (بأنه كان من المصلحين للطرق الصوفية والداعين إلى التمسك بالكتاب والسنه) (١) ٠

على أنه في بعض فترات جاءه جذب وشطح صدر منه أثناء ذلك بيتان من الشعر جلبا عليه ردا عنيفا وصل ببعضهم إلى أن حكم على طريقته بالكفر مساويا لها بالتيجانية ٠

والبيتان هما :

أحطت بعرش الله والكون مشهدا　　　وشاهدت ما قد كان من ذاك أبعدا
وإياك لا تنكــر مقالـة صــادق　　　تبدت له الأسماء لما تجــردا (٢)

وممن رد عليه في ذلك من الفقهاء سيدي بن عبد الجليل الملقب سيدي بن حين فقال :

(طائفة التراد والتجــاني　　　أكفر من فرعون والشيطان
وغيرهم من فــرق الأوراد　　　طوائف البلــع والازدراد) (٣)

وقد رد هو على هذا الفقيه بأبيات من الدعاء له بالهداية والصلاح والتعفف عن شتمه أو شتم غيره الأمر الذي جعل الفقيه يرجع ثانية ويثنى عليه خيرا ٠ قلت : ولا يفهم من هذا ان التشنيع على أهل البدع يعتبر شتما أو غيبة ٠ وكتب رسالة على سبيل التوضيح لما قصد فى البيتين سماها :

إزالة الرين عن معنى البيتين (٤) ٠

ويفهم من بعض النصوص أنه كان له صلة وثيقة بالمستعمر الفرنسي حيث كانوا يتلقون منه بعض النصح والارشاد في سياسة البلاد ، وردا على ذلك الجميل فقد نظموا له رحلة إلى الديار المقدسة للحج سنة ١٣٦٤ هـ (٥) ٠

---

(١) نفسه ص ٥٠ وسيأتي عنه فى فصل الصحوة السلفية في الطريقة القادرية ما يدل على المذكور عنه هنا ٠

(٢) المحاضر الموريتانية محمد الصوفى ص ٢٤٨ ٠

(٣) رسالة في الرد على محمد عبد الله بن آد مخطوطة ص٤ ونيل المراد (ص ح . ط) ٠

(٤) نيل المراد ص ٣٩ ٠

(٥) نيل المراد (ص ي) ٠

آثاره ووفاته رحمه الله

واقع أمر الشيخ التراد هو أنه ما مات حتى أصبح سنيا متبعا وكذا حال غالب المصدرين عنه في آخر عمره •

وهذه من أهم الآثار - يضاف إلى ذلك أنه ترك حضرة كبيرة قد وفر لها وسائل الاستمرار بتكوين الرجال وغرس النخيل واستصلاح الاراضي •

هذا بالاضافه إلى محضرة علمية متكاملة تدعمها مكتبة كبيرة •

وقد صدر عنه كثير من شيوخ العلم والصوفية وكان لمعظمهم محاضر علم أثرت

المسيرة العلمية في البلاد ، ذكر منهم كاتب سيرته أحد عشر شخصا كما ذكر من مؤلفاته ثلاثة عشر مؤلفا معظمها في التصوف والذى اعتبره الخليل النحوى من أبرز أئمة التأليف فيه وذكر له خمسة عشر مؤلفا •

وتـــوفي إثر عودته من الحج في دكار ودفن فيه يوم السبت ١٧ من محرم سنه ١٣٦٥ هـ عن ستين عاما وبضعة أشهر •

ترجمة الشيخ أحمد أبو المعالي

هو الشيخ أحمد أبو المعالي ابن الشيخ الحضرمي التقاطي (١) .

عرفه ضمن الصادرين عن الشيخ سعد أبيه محمد يصلح بن الامانة فقال : هو كوكب أهل بلدته عالم نحرير وولي كامل صدر عنه الكثير من المشايخ وهدى الله على يده الكثير من خلقه (٢) .

وقد درس شخصيته محمد يحيى بن الشيخ محمد الحابوس في رسالة تخرج بها من المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية في أنواكشوط عام ١٤٠٤ هـ (٣) .

ويعد بحثه مثل بحوث كثيرين كتبو عن شيوخهم في نفس المعهد وغيره من المراكز العلمية في انواكشوط ضمن كتب المناقب وكتابات المريدين عن شيوخهم إلا أنهم بجمعهم الكثير من المعلومات وترتيبها وتدوينها أفادوا الباحثين حيث إنه كانت في البلاد شخصيات مهمة لها أثر كبير في المجتمع كانوا منسبيين لولا كتاباتهم إذ قام طلاب المعهد بمهمة التعريف بهم في شكل بحوث تخرجوا بها من المعهد المذكور ومعهد ابن عباس ومدرسة الأساتذة وجامعة انواكشوط فيما بعد . ولعل الكثير منهم على مكانتهم العلمية العالية لم يدرس شيئا عن مناهج البحث والنقد والتقويم ، يضاف إلى ذلك غلبة البيئة والمجاملات عليهم .

ولعله يأتي بعدهم من له خبرة بالعرض والدراسة فيقوم ما جمعوه إذا تخلى عن بعض المجاملات الزايدة وطلب الحق بإنصاف .

ولا نقصد بهذا القدح في مكانة هذا الشيخ فإنه عالم جليل وقائد لمنطقته في السياسة والتوجيه ، وقد أحيا الله به تلك المنطقة التي كاد العلم أن ينحسر عنها وقد صدر عنه الكثير من الناس (٤) وله مؤلفات عديدة (ولم تزل حضرته قائمة بقيادة خليفته محمد المصطفى) (٥) وفاته رحمه الله :

---

(١) بلاد شنقيط ص ١٢٢ .

(٢) حياة الشيخ سعد أبيه ص ٤٥ .

(٣) شخصية الشيخ أحمد ابن المعالي رقم ٦٩ .

(٤) نفسه ص ١٩ -٢٢ .

(٥) نفسه ص ٢٣ - ٣٢

ترجمة الشيخ عبد الله بن داداه :

ولد الشيخ عبد الله بن داداه سنه ١٣٢٤ هـ (١) .

ونشأ في وسط علمي وكان موصوفا بالذكاء فأخذ عن أبيه علوما كثيرة (٢) وأخذ عن العلامة يحظيه بن عبد الودود علوم اللغة (٣) ثم جلس للتدريس فى محضرة أبيه (٤) ثم رحل إلى الشيخ التراد السالف الذكر وصحبه ثلاثة أشهر فصدره في الطريقة القادريــة آمرا له بالاكثار من ذكــر الله جهــــرا وسرا وخاصة الهيللة : (لا إله إلا اللـــه) (٥) .

ولعله في سفره وصحبته له لم يستشر أباه حيث إنه أرسل رسالة يطلب من الشيخ التراد أن يسمح له بالتوجه إليه فبادر باجابته لذلك (٦) .

وكانت صحبة الشيخ عبد الله للشيخ التراد في آخر زمنه الذي ذكرسابقا أنه تحول فيه إلى اعتماد الكتاب والسنة في الدعوة والسلوك وترك ما خالفهما وإن كان عليه الآباء والاشياخ فأخذ عنه عبد الله هذه الميزة ودعمها بالعلم وأخذ في محاربة البدع في محيطه ، وحصلت له بسبب ذلك عداوات ، لم تثنه فيمايبدوعن منهجه (٧) ولما حج جالس الشيخ محمد الامين الشنقطي صاحب أضواء البيان، ورجع راضيا عنه وعن منهجه في العقيدة (٨) .

---

(١) حياة الداعية إلى الله في موريتانيا ، الشيخ عبدالله بن داداه ، بحث أعده عبد الله سراج في المعهد العالي لاعداد الائمة والدعاة في مكة المكرمة عام ١٤٠٨ هـ

(٢) نفسه ص ١ .

(٣) نفسه ص ١ .

(٤) نفسه ص٢ .

(٥) نفسه ص ٣ . ٤ .

(٦) ملف الرحلة ص١٦ .

(٧) حياته ص ٤ ، ٦ ، ٨

(٨) نفسه ص ٦ والرحله ص ١٥ .

ويظهر لي مما سمعته وقرأته عن حياته أنه كان يسير في طريق الدعوة إلى الله على منهج السلف الصالح ولم يمنعه من التشدد في ذلك إلا ما ظهر له من بوادر الفتن التى يبعثها شيوخ الصوفية في جهتة ٠ (١)

وللشيخ عبد الله مؤلفات صغيرة أهمها نظم في الذكر يرجح فيه حواز الذكر بالجهر بشروط (٢) ٠ وفتاوى مخطوطة في مسائل متفرقة يجنح فيها غالبا إلى الدليل، وله اتباع يشهد الناس لهم بالتقيد بالسنة ٠

ومـــن قابلتـــه منهـــم لا أحسبه من الصوفية الحالية (٣) وتوفي سنــــة ١٣٩٤هـ

---

(١) الرحلة ص ١٥ . ١٧ ٠

(٢) نفسه وحياته ص ١٤ . ١٦ ٠

(٣) والرحلة ص ١٧ وحياته ص ٢٠ ٠

المبحث الثالث

أهم مؤلفات : القادرية في التصوف

تمهيد : جاء التأليف في بلاد موريتانيا متأخرا نسبيا بالمقارنة والنظر إلى البلاد المغربية المجاورة وبالنظر إلى انتشار العلم وكثرة العلماء في البلاد والعناية باستجلاب الكتب واستنساخها ٠

ولذلك التأخر أسباب عديدة منها كما يقول صاحب الوسيط : (عدم عجبهم بأنفسهم ، وعدم احتقارهم لمن قبلهم) (١) ومنها البعد عن الحواضر المنتجة للورق (٢) وكثرة الترحال والاعتماد على الحفظ واعتباره هو العلم الذي يسعف صاحبه أينما حل ولذا كان التأليف في بداية أمره لا يقدم عليه الافطاحلة العلماء ، وعندما تظهر حاجة ماسة له كالنوازل الكبيرة أو ظهور دعوات بدعية ظاهرة أوورود أسئلة على العالم من جهة مهمة فهذه من أهم مصوغات الشروع في التأليف عندهم ٠

وكان لشيوخ الطرق الصوفية السبق في مجال التأليف نشرا لما عندهم أو ردا على من اعترض عليهم ، فكتبوا في التصوف والاخلاق والآداب الاجتماعية ٠

وقد ذكر الخليل النحوى أن جل نتاجهم كان في القرن الرابع عشر الهجري وأن لهم في هذه الميادين بنحوا من ٣٠٠ مصنف (٣) ٠

ويتناول هذا المبحث كتابين لأهم مشايخ الطرق الصوفية في موريتانيا أحدهما للمختار الكنتي ، وقد اختير لما لصاحبه من مكانة لدى الصوفيه في إفريقيا عموما ٠ والثانى للشيخ ماء العينيين وقد اختير أيضا لما لصاحبه من مكانه كبيرة لدى الصوفية في موريتانيا والمغرب ، ولاعتباره أيضا أهم شارح للفاضلية (٤) ٠

---

(١) الوسيط ص ٥٧٨ ٠

(٢) بلاد شنقيط ص ٢٣٤ . وما بعدها ٠

(٣) نفسه ص ٢٤١ ٠

(٤) شعراء مورتنيا القدماء والمحدثون ص ٣٣٩ ٠

الكتاب الاول

الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وأصول الأوراد (١) أو الكوكب الوقاد في ذكر فضائل المشايخ وحقائق الأوراد (٢) ٠

ألف الشيخ المختار الكنتي هذا الكتاب جوابا لأسئلة وردت عليه من شخص يظهر من خلال أسئلته أنه على جانب من العلم ، ولكن لعله سأل مختبرا للشيخ وطالبا منه بيان موقفه في بعض المسائل المتعلقه بالبيعة للمشايخ والأوراد وأوقات أدائها وقضائها والتيمم لها وقصرها في حالة السفر وغيره من الاشغال الأخرى وتوجيه المراد من بعض الألفاظ في أدعية بعض المشايخ ٠ وتزيد الأسئلة على العشرة وهي :

١) ما هو أصل الورود ؟ وهل هو متلقى من تلقاء الإلهام الذي تلهمه الأولياء أوله مستند إلى الوحي الذي يختص به الأنبياء ؟ (٣) ٠

٢) ما الاصل في تسمية المشايخ أدعيتهم وتوجهاتهم بالاحزاب ؟ (٤) ٠

٣) وما الحكمة في الوقف على قوله سبحانه وتعالى ﴿ وكذلك زين ٠٠ ﴾ قبل تمام الآية ؟

٤) وهل للمسافر إذا جد به السير أن يقصر الأوراد المذكورة ٠ (٦) ؟

٥) وهل لمن عدم الماء وكان حاضرا صحيحا التيمم لركعات الورد كالفرائض ٠ (٧)

---

(١) هذا هو عنوان غلاف الكتاب الذى طبع به في دكار سنة ١٣٩٢ هـ ٠

(٢) وهذا هو العنوان الذي وضعه له مؤلفه المختار الكنتي . ص ١٧٠ من نفس الطبعة ويقول عنه ناشره إن من حقة أن يسمى بأسماء عديدة ص ١٧١ منه ٠

(٣) نفسه ص ١ ٠

(٤) نفسه ص ٣٠ ٠

(٥) ﴿ وكذلك زين ﴾ نفسه ص ١٢٧ وهذا جزء من الآية ١٢٢ من سورة الأنعام ٠ وسيأتي إن شاء الله مناقشة هذا الوقف في مبحث : دعاء سيف الحكماء في الورد القادري في باب السلوكيات والعبادات ٠

(٦) نفسه ٠

(٧) نفسه ٠

٦) وهل لمن خاف إن أخر تهجده إلى آخر الليل أن تغلبه عيناه أن يقدم تهجده فى أول الليل ؟ (١)

٧) وهل على من فاته وقت الورد إعادته أم لا ؟ (٢)

٨) وهل من زاد على العدد المعروف كقراءة سورة الكوثر مثلا سبعا أو نحوها أو نقص قراءتها خمسا ونحوها ناسيا الاعادة في الصلاة إن تذكر قبل الفراغ منها ؟ (٣) .

٩) وهل ما عمت به البلوى من صلاة الصلوات الخمس آخر يوم الجمعة من رمضان له أصل أم لا ؟ (٤)

١٠) وهل الاحاديث التي قد اعتاد الناس سردها على العام والخاص يذكرون فيها أنه صلى الله عليه وسلم قال : (من صلى في كل يوم من رمضان أو في كل ليلة منه إلى آخره كذا من الركعات كان له كذا وكذا من الأجر موضوعة أم لا ؟ (٥) .

هذه نصوص أسئلة السائل التي بنى المختار الكنتي عليها تأليفه لهذا الكتاب الذي شرح فيه البيعة ومأخذها والأوراد ومصادرها (٦) وخصائصها وأوقاتها (٧) وما يتصل بذلك من آداب مع المشايخ وذويهم . (٨)

ومحل عرض ذلك ونقده في الباب المخصص له إن شاء الله تعالى وسيتبين هناك إن شاء الله مدى صحة أجوبة الشيخ على هذه الأسئلة وغيرها مماله صلة بموضوع النقد من البحث ، ولم نعثر على تاريخ تأليف هذا الكتاب حتى نبحث هل رجع المؤلف عن بعض ما فيه من الأقوال والآداب الصوفية على أنه يكفي في عدم رجوعه عما فيه ماتقدم من عرض موجز لكتابه جذوة الأنوار الذي ألفه للدفاع عن الصوفية وآدابها وهو من آخر مؤلفاته .

(١-٢) نفسه .

(٣) نفسه ص ١٢٧ . ١٢٨ .

(٤-٥) نفسه ص١٣٩ - ١٤٠ .

(٦) نفسه ص٢٣ . ٢٥ .

(٧) نفسه ص ١ ، ١١ . ٢٨ .

(٨) نفسه ص ٣٠ . ١٢٧ و ١٥٠ . ١٢٦ .

الكتاب الثانى :

عنوأنه : نعت البدايات وتوصيف النهايات (١)

هذا هو العنوان العام للكتاب الذي وضعه له مؤلفه وطبع به ٠

وقد يبين المؤلف في خطته أنه يتألف من كتابين هما :

١) نعت البدايات وما يصلح لأهلها إلى النهايات (٢)

٢) توصيف النهايات وما يصلح لأهلها إلى الممات (٣) وفى كل كتاب أربعة أبواب

قال المؤلف : (فصارت كأبواب الجنه الثمانية ٠٠) (٤)

وقد أخذ الكتاب الاول بابوابه الأربعة ما يزيد على ستين صفحة (٥)

الباب الاول منه : آداب المريد مع شيخه وما يصلح له معه إلى تمام رسخه (٦)

الباب الثاني منه : في آدابه مع عبادة ربه (٧) ويلاحظ تقديم آدابه مع شيخه في الكتاب على آدابه مع عبادة ربه ٠

الباب الثالث : في آدابه مع إخوانه الذين هم على مراده من أعوانه (٨) ٠

الباب الرابع : فيما من الأقوال والافعال ينتفع به ٠ (٩)

---

(١) طبع الكتاب في المطبعة الجديدة بفاس سنة ١٣١٢ ونشرته دار الفكر بعد ذلك ٠

(٢) نفسه ص ٤ ٠

(٣) نفسه ص ٤ و ٦٩ وما بعدها ٠

(٤) نفسه ص ٤ ٠

(٥) نفسه ص ٤ . ٦٩ ٠

(٦) نفسه ص ٤ . ١٤ ٠

(٧) نفسه ص ١٤ . ٢٠ ٠

(٨) نفسه ص٢١ . ٣٨ ٠

(٩) نفسه ص ٣٨ . ٦٩ ٠

أما الكتاب الثاني : فقد أخذ جزء كبيرا من الكتاب يصل إلى مائة صفحة (١)

الباب الاول : في آداب المربي مع ربه (٢)

البا ب الثاني : في آدابه مع تلامذته (٣)

الباب الثالث : في آدابه مع غيرهم من الخلق (٤)

الباب الرابع : فيما من الأقوال والافعال ينتفع به (٥)

وقد استخدم المؤلف في كتابه هذا ما يزيد على أربعين مرجعا مما يؤكد ما سبــق أنه كان يملك خزانة كبيرة من الكتب • ومن هذه المراجع كتب العزالي والبوني (٦) وغيرهما من مؤلفات الصوفيه التس تتضمن كثيرا من غرائب العلوم والاسرار وشحن المؤلف كتابه بمثل هذه الأمور •

فأخذ عن البوني كلامه في أسماء الله الحسنى وخصائص كل اسم منها (٧) وضم إلى ذلك بعض التجارب والأدعية والصلوات للحفظ أو الرزق أو غير ذلك ما يزين به بعض الصوفية كتبهم لدى العامة من الناس وكأن الهدف من عبادة الله هو جلب الأرزاق والحفظ من العين والوجاهة عند الناس • (٨)

---

(١) نفسه ص ٦٩ . ١٧٥ •

(٢) نفسه ص ٦٩ . ٨٦ •

(٣) نفسه ص ٨٦ . ١٢٢ •

(٤) نفسه ص ١٢٢ . ١٤٥ •

(٥) نفسه ص ١٤٥ . ٢٨٦ •

(٦) البنوي نسبة إلى بونة بإفريقية ، على الساحل • وهو أحمد ين علي بن يوسف ، أبو العياس الوني المتوفي في القاهرة سنة ٦٢٢ هـ له مصنفات في الحروف واسرارها والتصوف وغايته • اعلام جـ ١ ص ١٤٧ •

(٧) نعت البدايات وتوصيف النهايات ص ١٧٥ . ١٨١ •

(٨) نفسه ص ١٢٨ . ٢٠٨ •

وكتب من الأحراز والرقى التي قال بأنها من وسائل خير الدنيا والآخرة ، وأن اعتماده فيها على حروف القرآن (١) واتبع ذلك بخصائص لسور القرآن الكريم (٢) .

ومع ما تضمنه الكتاب من أمور لا يليق بالعلماء ذكرها ونشرها مما ذكر فإن في الكتاب من الآيات والآحاديث والآداب النبوية والسلوك الشرعي السنيى الكثير الذي لو أخذه ناصح لهذا الشيخ وأفرده عما حذر الشيخ نفسه من تعليمه للسفهاء أو استخدامه فيما لا يجوز لجاء كتابا نافعا بإذن الله تعالى .

قال المؤلف : وكان الفراغ من تأليفه عند أذان العصر من يوم الثالث والعشرين من شهر الله ربيع الثاني الذي هو أحد شهور سنة ثلاثمائة من بعد الألف) (٣) .

قلت : وقد عاش المؤلف رحمه الله تعالى بعد هذا التاريخ بنحو ثمانية وعشرين عاما فيا ليته رجع فيها عما نشره في هذا الكتاب .

والله أعلم .

---

(١) نفسه ص٢٠٨ . ٢٨٨ .

(٢) نفسه ص ٢٧٧ . ٢٧٨

(٣) نفسه ص ٢٧٨ .

الباب الثاني

الباب الثاني

عقائدهم

ويشتمل على خمسة فصول بعد تمهيد

الفصل الأول : منهجهم الفكري

الفصل الثاني : موقفهم من الحلول ووحدة الوجود

الفصل الثالث : عقيدتهم في القضاء والقدر

الفصل الرابع : عقيدتهم في الملايكة والنبوة

الفصل الخامس : عقيدتهم في الولاية وختمها

الفصل الأول

منهجهم الفكري وفيه مباحث

المبحث الأول : موقفهم من التأويل

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : موقفهم من تأويل المتكلمين

المطلب الثاني : موقفهم من تأويل الباطنيين

المبحث الثاني : موقفهم من العقل والعلم

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : موقفهم من العقل

المطلب الثاني : موقفهم من العلم

المبحث الثالث : موقفهم من الجهاد في سبيل الله

وفيه مطلبان بعد تمهيد يبن الموقف العام للقادرية من الجهاد عموما ٠

المطلب الأول : موقف القادرية من الجهاد قبل الاستعمار الفرنسي سنة ١٩٠٠ م ٠

المطلب الثانى : موقف القادرية من جهاد المستعمرين النصارى ٠

تمهيد :

المستعرض لكلام القادرية في باب العقائد لا يجد لهم كلاما كثيرا ، ويجدهم في باب الاسماء والصفات إذا تكلموا فيها كانوا أقرب إلى منهج السلف من غالبية الأشاعرة الذين يفرقون بين صفات الله تعالى (١) ٠

وقد تقدم بيان شيخ الاسلام ابن تيمية لعقائد أئمة الصوفية كالشيخ عبد القادر في رده على القشيري وشيخه ابن فورك فوضح أنهم ليسوا بأشاعرة ولا كلابية كما ذهب إليه القشيري في رسالته (٢) ٠

ولكن هؤلاء ينتسبون للأشعرية ويدافعون عنها ويمجدون كلام المتأخرين منهم ، ويدرسون عقائد السنوسي ويثنون عليها ويدرسون نظم المقري لها ، وكل من المؤلف والناظم قسم صفات الباري جل وعلا إلى صفات نفسية وسلبية ، ومعاني ومعنوية وما بينا فيهما ، وتكلما عن التعلق ، وبحثا في الأمر والارادة والرضا والمحبة (٣) على ما تقدم ومذهب المتأخرين من الأشعرية في هذا التقسيم والقول بالتأويل أو التفويض في قسم دون قسم مخالف لمذهب السلف الصالح ٠ (٤)

---

* سيأتي إن شاء الله عرض ونقد ما جاء في هذا التمهيد في الفصول الآتية ٠

(١) الكوكب الوقاد ص ٥٠ . ٥٨ وما بعدها ، والطرائف ص ١٠٥ . ١٠٦ وما بعدها ، والشموس الاحمدية ص ٢ . ٣ وجنة المريدص٣٠ . ٣١ والضياء المستبين ص ٢٨١ وغيرها ٠ ومجموع الفتاوى جـ ٦ / ص ٥١ وما بعدها ٠

(٢) الاستقامة جـ ١ / ص ٨١ وما بعدها ٠

(٣) إضاءة الدجنة . مصدر سابق ص ٢٠ . ٤٥ وأم البراهين للسنوسي . بيروت ص ١٠ . ٢٠ وسبق بيان معانيها ٠ وجذوة الأنوارص ٢٠ وما بعدها ، وهداية الطلاب المقدمة ص ٢ ونيل المراد ص ٤٧ ٠

(٤) مجموع الفتاوى جـ ٤ / ص ٦ وما بعدها ٠

وقد نشأ شيوخ القادرية على مثل هذه الكتب وألف بعضهم على منوالها (١) مع تصريحهم بذم طريقة أهل الكلام وذم علومهم (٢) ٠

والمستعرض كذلك لكتبهم في باب علوم الصوفية ومعتقداتها يجد أنهم مسلمون بتراث الصوفية ويدعون إلى أن يسلم لهم حالهم ٠

ويعتذرون عن أئمة غلاة الصوفية كالحلاج وابن عربي ويلتمسون لهم المخارج (٣) مع أن صاحب الاضاءة حكى أقوال الناس في الحكم عليهم ومنها : أن أمثال المذكورين لايقرون على شطحاتهم ، وأنهم يحملون على ظاهر الشرع ، ولا يقتدى بهم في شيء من كلامهم ذلك ٠ (٤)

وقد غرسوا في أتباعهم ونشروا في مجتمعهم تقديس الأضرحة وأصحاب القبور بالمجاورة عندها والذبح والاهداء إلى أصحابها والاشعار والاخبار عن الاعتقاد فيها وطلب جلب النفع ودفع الضر من أصحابها (٥) ٠

وأدخلوا في علومهم وعلى بيئتهم علوم أسرار الحروف والاوفاق والاسماء الأعجمية والطلسمات الأخرى مع إدعاء التصرف في الكون وغير ذلك مما يقوى الاعتقاد في المخلوق دون الخالق (٦) ٠ والذي يريد حكما عاما جاز ما فلا شك أن الأدلة واضحة في الحكم بالكفر على معتقد هذه العقائد ولكن من رام التفصيل مثلي فله ذلك على ما سيأتي إن شاء الله ٠

---

(١) الشموس الاحمدية ص ٢ . ٣ ٠

(٢) جذوة الأنوار ص ٢٠ . ٢٧ والطرائف ص ٢٨٠ . ٢٨٢ وغيرها منه والضياء ص ٢١٠ وجنة المريد ص ٣١ ٠

(٣) جذوة الأنوار بكاملها فإنها ما ألفت إلا من أجل ذلك ٠
جذوة الانوار ص ٣٢ . وما بعدها والطرائف ص ٦٩ . ١٥٨ والضياء ص ١٣٣ . ١٣٧ وغيرها وجنة المريد ص ١٤٨ وغيرها ٠

(٤) إضاء الدجنة ص ٢٨ . ٢٩ ٠

(٥) الكوكب الوقاد ص٤١ وغيرها والمنة ص٢٩ . ٥٠ والضياء ص ٢٨١ . ٢٨٢ و ٣٣٢ وغيرها .

(٦) جنة المريد ص و ١٥٢ . ١٥٣ وغيرها والطرائف ص ٢٨٤ . ٣٠١ وكشف اللبس عن المسائل الخمس ص ١٢ . ١٣ وشرح رشد الغافل للشيخ سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم ط ١ مصر ١٣٥٥ هـ ص ٧ . ٣١ ٠

المبحث الأول

موقفهم من التأويل : ويتناول إن شاء الله موقفهم من التأويل في مطلبين أحدهما موقفهم من تأويل المتكلمين وثانيهما : موقفهم من تأويل الصوفية ٠

المطلب الأول : موقفهم من تأويل المتكلمين والمراد بالتأويل هنا هو ما اصطلح عليه أكثر المتأخرين من المتكلمين (١) الذي هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح ، لدليل يقترن به (٢) ٠

ونتج عن هذا المنهج في التأويل عند المتأخرين منهم التفريق بين نصوص الصفات فكان منهم من قال بتعين هذا النوع من التأويل في بعضها أو التفويض فيه وأن التفويض هو مذهب السلف ٠

ولكن معنى التفويض أيضا مختلف فيه ، فمنهم من يجزم بأن المعنى الظاهر من النص غير مراد ، وأن المقصود معنى آخر لانعلمه والواجب التفويض فيه ٠ ومنهم من قال تحمل على ظاهرها وهذا الظاهر لايعلمه إلا الله ٠

وقد اعتبر شيخ الاسلام ابن تيمية هذا منهم تناقضا ورد كون التفويض بهذا المعنى المتقدم منهج السلف واعتبره من باب التجهيل للسلف رضوان الله عليهم (٣) ٠
والسبب في هذا التناقض هو التفريق بين نصوص الوحي في أمر لايعرف إلا بالوحي ، وخلط المشكل والمتشابه بما ليس بمشكل ولا بمتشابه وبما أن القادرية يعتبرون كما تقدم من الاشاعرة ويدافعون عن متأخريهم وينقلون كلامهم مسلمين به في باب الاسماء والصفات (٤) فإنني سأستعرض هنا إن شاء الله ما وجدته من النصوص المعتمدة عندهم، وأصحابها يؤولون فيها أو يقولون بتعين التأويل ثم أتبعها بما وقفت عليه من نصوصهم التي جزموا فيها بتعين التأويل حتى يتبين موقفهم من التأويل ٠

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٣ / ص ٥٥ وما بعدها ٠

(٢) نفسه ص ٥٥ ٠

(٣) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية ط ١ دار الكتب التعلمية ٠ بيروت جـ ١/ ص ٣٥ ـ ٣٧ ٠

(٤) المنة في اعتقاد أهل السنة ص ٣٧ وما بعدها ٠ وجذوة الأنوارص ١٠ ـ ١١ ٠

عـــــرض

فمن النصوص المعتمدة عندهم نظم المقري وابن بون لعقائد السنوسي ، وإنما قلت المعتمدة عندهم لما ذكر المختار الكنتي من الاعجاب بها والتسليم لما فيها حتى قال بأنه روي له أن الموتى يسألون في قبورهم عنها (١) والذي يسأل عنه الموتى في قبورهم معروف بالنص (٢) فالمقري يقول :

(والنص إن أوهم غير اللائـــق ... بالله كالتشبية بالخلائـــق
فاصرفه عن ظاهره إجماعـــا ... واقطع عن الممتنع الأطماعا
وماله من ذاك تأويـــل فقـط ... تعين الحمل عليه وانضبـط
كمثل وهـو معكـــم فـــأول ... بالعلم والرعـــى ولا تطـــول
إذ لا تصح ههنـــا المصاحبـه ... بالذات فاعرف أوجه المناسبة
وماله محامـــل الرأي أختلف ... فيه وبالتقويض قد قال السلف
من بعـــد تنزيـــه وهذا أسلم ... واللـــه بالمـــراد منها أعلـــم
لذاك قال مالـــك إذ سئـــلا ... في الاستوا والكيف منه جهلا
وصار للتأويـل قـــوم عينـــوا ... مما يليق راجحـــا وبينـــوا
إذ فسروا الوجـــه بذات واليدا ... بقدرة وذا الإمـــــام أيـــدا

---

(١) جذوة الأنوار ص ١٠ . ١١ قلت : لعله أعتمد في هذا على ما ذكر صاحب نيل الابتهاج عند ترجمته للإمام السنوسي ص ٣٢٨ : (حدثني بعضهم أنه مات قريبه وكان صالحا فرآه في النوم فسأله عن حاله ، فقال : (دخلت الجنة فرأيت إبراهيم الخليل عليه السلام يقرىء صبيانا عقيدة السنوسي يدرسونها في الألواح يجهرون بقراءتها) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الميت يسمع خفق النعال الحديث رقم : (١٣٣٨) .

وقوله سبحانـــه من في السما … معناه بالأمر وسلطان سما

وقس على هذا جميع ما اشتبه … في الذكر والحديث وادر المرتبه) (١)

إلى أن قال :

(جل عن الجهات والاعراض … فيمـا يشـا والـوصـف بـالاعـراض (٢)

ويوافقه ابن بون فيما حكى من أقوال ، وما رجح عند البعض من تعين التأويل فيما ذكر من صفات خبرية (٣) .

فيقول :

(ليس له جهة أولـــون ولا … رائحـــة أو طعم أو لمـس عـــلا

وواجب تنزيهه عــن استـوى … يوجب أن له بخلقــــه استـــوى

وواجب إيماننا أن استـــوى … جل على العرش على الملك أحتوى

بل صرفه لما على الكمـــال … قـد دل واجـــب بلا إشكـــال

فالسلف الصالح معنى ما مضى … لعالم الغيـــب الخبيـــر فـــوض

وبعضهـــم مـــال إلى تأويـــل … مشتبـــه الحديـــث والتنزيـــل

فبالوجود الوجـــه أو بالذات … أيـــــدى وما لاق من الصفـات

واليـــد بالقدرة أو بنعمتـــه … والاستوى بالقهــــر أو غلبتـــه

وبحضور الامر أول المجـــيء … وقس على ذا ما ممـــاثلا يجـــى

---

(١) إضاءة الدجنة ص ٨٨ . ٩٠ .

(٢) نفسه ص ٢٥ .

(٣) وسيلة السعادة ص ٣٥ وما بعدها .

وكل تأويل بمعنى قد صدق فاقبل فما دل على حق فحق) (١)

فهذه نصوص واضحة في قول أهلها بمذهب الخلفية مع حكايتهم لمذهب السلف وأعتباره أسلم من غيره •

ولنستعرض نصوصا من كتب أئمة القادرية في نفس الموضوع •

قال المختار الكنتي في تأويل الجهة ما يأتي :

فقد نقل عن ابن سيد الناس (٢) على سبيل التسليم والرضى أخذه نفي الجهة والمكـــان من حديث النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تفضلوني على يونـس بن متـــى) (٣) قائلا : إن المراد من الحديث أن المكان الذي سمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم صريف الاقلام ليس بأقرب إلى الله من مكان يونـس بن متى وهو في بطن الحوت . وإن الفضل والتفضيل باقيان ولكن المنفي عن الله هو الجهة والمكان والقرب والبعد بسببهما • (٤) • ونفاها في عدد من كتبـه مؤلا لها أو قائلا بأن نسبتها إليه تعالي شرك أو كفر (٥) •

---

(١) الوسيلة ص ٢٧ . ٢٨ •

(٢) هو أبو العباس أحمد ين عبد الله اليعمرى الاشبيلى المعروف بابن سيد الناس المتوفى سنة ٦١٨ هـ ومولده سنة ٥٦١ هـ أنظر : شجرة النور الزكية ص ١٧٦ •

(٣) قلت : أورد ابن أبى العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية : القصة التي أوردها الشيخ المختار الكنتي في هذا الحديث : (لا تفضلوني على يونس بن متى) ثم قال . في التأويل المشار إليه : (وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وبكلام رسوله لفظا ومعنى ، فلمن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يعتمد عليها) وفي تحريج الألبانى لاحاديث الطحاوية : (لا أعرف له أصلا بهذا اللفظ أنظر المصدر المذكور ص ١١٢ •

(٤) الكوكب الوقاد ص ١٢ . ١٣ •

(٥) الشموس الاحمدية ص٣ . ٤ والمنة ص٢٧ والطرائف ص ١٠٥ وجنة المريد ص٣٠ . ٣١ •

وقد اتبعوا من سبقهم من المؤلين في تأويل اليد والقدم والوجه والأصابع والمجيء والنزول والاستواء (١) ٠

قال المختار الكنتي : (ومن الواجب اعتقاده أن الله تعالى فوق عرشه قهرا وغلبة وخلقا وإنما خص العرش بالذكر ولو كان كذلك على جميع خلقه لأنه أعظم المخلوقات فإذا كان تحت قهره وفي قبضة ملكه فغيره من مخلوقاته من باب أحرى) (٢) ٠
ونقل عن الامام البهيقي تضعيف الآثار الواردة في معنى الاستواء عن السلف (٣) ٠

ونقل عن الامام فخر الدين الرازي : أن للعلماء في هذا وما في معناه مذهبين :

الأول : القطع بكونه متعاليا عن المكان والجهة ولا نخوض فى تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها إلى الله عز وجل ٠

الثاني : الخوض فى تأويله على التفصيل ٠ ويكون ذلك بتأويل استوى على العرش كناية عن عظم ملكه ، أو استوى بمعنى استولى وقال بأن المراد بالحديث : (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على الايمان) (٤) ٠ أن المراد بالأصبعين القدرة والأرادة ، قال : وقال بعضهم (الأصابع يراد بها النعمة ٠ فالقلوب بين نعمتين وقيل الأصبع يكنى بها عن القوة أيضا كاليد يكنى بها عن النعم ٠٠) (٥) ٠

---

(١) الضياء المستبين ص ٢٨١ ٠
(٢) قلت : وقد بوب الإمام البهيقي في آخر كتبه وهو كتاب الاعتقاد : باب القول في الاستواء ٠ أورد فيه من الآيات والاحاديث وأقوال السلف ما يدل على إثباته لهذه الصفة ورفضه للتأويل الذى ذكره الكنتي أنظر المصدر المذكور ص ١٤ وما بعدها ، وقارن بما في كتاب البيهقي وموقفه من الإلهيات ، أحمد عطية الغامدي ط ٢ ص ٢٧٢ ٠
(٣) المنة في أعتقاد أهل السنة ص ٥٣ ، ٥٦ وانظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي جـ ١٤ / ص ١١٥ وما بعدها سنة ١٤٠٢ هـ ٠
(٤) روي هذا الحديث بألفاظ ، منها : يا مصرف القلوب ، ويا مثبت القلوب ، وفيه : على طاعتك وعلى دينك أنظر مستدرك الحاكم جـ ٤ ص ٣٢١ وعمل اليوم للنسائى ص٢٧١ ومسند أحمد مع الفتح الربانى جـ ١٤ ص ٢٨٨ . ٢٨٩ ٠
(٥) الكوكب الوقاد ص ٥١ . ٧٩ وقد رد ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث هذه التأويلات فأنظر: ص ١٩٥ . ١٩٦ ٠

نقد : يتناول هذا الموضوع بالنقد من وجهين

أولهما : توهم أن الله تعالى وصف نفسه الكريمة أو وصفه رسوله صلى الله عليه وسلم بما ظاهره المتبادر منه كفر حيث إن اعتقاد مشابهة الله للخلق كفر وضلال •

ثانيهما : التفريق بين نصوص الصفات بالعقل بناء على ذلك الوهم ثم البحث عن تأويل لها •

أما الوجه الأول : وهو توهم أن في ظاهر النصوص مشابهة للخالق بالمخلوق : إن المتتبع لنصوص الكتاب والسنة يجد أن الله وصف نفسه العليه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بصفات كريمة مقرونه بما يميزها عن صفات المخلوقين

إما بإضافتها إلى الذات الكريمة التى تخالف الذوات جميعا بالاتفاق •

وإما أن تكون مقرونة بنفي المماثلة أو المشابهة كقوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (١) والسمع والبصر مما يتصف بهما المخلوق وهكذا فى غير ذلك من الصفات التي وصف الله بها نفسه أو وصف بها المخلوق في كتابه الكريم (٢) ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله تعالى : وصف الله تعالى فى أحاديث صحاح بصفات يوصف المخلوق بها ، ولم يذكر عنه أنه فرق بين نصوص الصفات أو احتاج إلى نفي احتمال أو توهم إذ إنه من المستقر في عقول أهل الايمان أن الصفة تابعة للموصوف بها فصفات الخالق لا تشبه صفات المخلوق عند الاطلاق وصفات المخلوقين لا تلتبس بصفات الخالق حتى يحتاج إلى الخوض فى جلب براهين من العقل تخالف ظاهر النص للفصل بين هذه وهذه •

---

(١) الشورى (الآية ١١)

(٢) انظر : مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ١٢ . ١٥ •

ثم إن من فرق بين صفات الله بدعوى أن العقل يثبت بعضها ويعطل باقى الصفات أو يؤوله بما يخالف ظاهر معناه إلى معنى معينا أو متوقفا فيه فإنه يكون فرمن محذور متوهم توهما لا محل له إلى محاذير محققه ، منها :

طلب الدليل من العقل بناء على وهم لا دليل عليه • ومنها التأويل الذى لا يرتكبه فى هذا الباب إلا من جهل السلف أولا وتوهم التشبيه ثانيا وطلب الحق من غير الوحي في أمر لا يعرف الا بالوحى • (١)

وهذه بعض نصوص السلف فى بيان أنه لا فرق بين نصوص الصفات وأن المفوض فيها هو علم الكيفية إذ إن الموصوف بها لا يعلم كيفية ذاته إلا هو جل وعلا • فهذا الامام الدار قطنى يروي فى كتاب الصفات الأحاديث التي تتضمن وصف الباري تعالى بأن له قدما ، ويدين ، وأنه يغضب ، ويضحك ، وأنه يحمل الخلائق يوم القيامة على أصبع ، وأنه له وجها ، وغير ذلك من الاحاديث التى اشتغل المتأولون بصرفها عن ظاهرها بما يؤل إلى التعطيل بسبب هذا الوهم المنفي بمجرد أنها وصف لله تعالى .

ثم قال الحافظ الدار قطنى رحمه الله تعالى:(حدثنا محمد بن مخلد ، ثنا العباس بن محمد الدوري قال سمعت أبا عبيدة القاسم بن سلام ، وذكر الباب الذي يروي في الرؤية والكرسى وموضع القدمين ، وضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيثه ، وأين كان ربنا قبل أن يخلق السماء ، وأن جهنم لا تمتلىء حتى يضع ربك عز وجل قدمه فيها فتقول قط قط ، وأشباه هذه الاحاديث فقال : هذه الاحاديث صحاح حملها أصحاب الحديث والفقهاء بعضهم عن بعض ، وهي عندنا حق لا نشك فيها ، ولكن إذا قيل كيف وضع قدمه ؟ وكيف ضحك ؟ قلنا لا يفسر هذا ولا سمعنا أحدا يفسره) (٢) •

---

(١) نفسه جـ ٥ ص ٣٩ . ١٠٣ ونفسه جـ ٣ ص ٦٧ وأضواء البيان للشيخ محمد الامين الشنقطي ، عالم الكتب . بيروت جـ ٢ ص ٣١٨ . وما بعدها •

(٢) سلسة عقائد السلف كتاب النزول وكتاب الصفات وكلاهما للحافظ ابن الحسن على بن عمر الدار قطنى ٣٨٥ هـ تحقيق : على بن محمد بن ناصرالفقهي ط ١ ١٤٠٣ ص ٢٦ . ٦٩ •

وذكر بسنده إلى وكيع أنه قال : (من رأيتموه ينكر هذه الاحاديث فاحسبوه من الجهمية) (١) • ويسنده إلى سفيان بن عيينة أنه كان يقول : (كل شيء وصف الله به نفسه فى القرآن فقراءته تفسيره لا كيف ولا مثل) (٢) • وبمثل هذا قال الأشعري في مواضع من كتبه مثل مقالات الأسلاميين ، والإبانة عن أصول الديانه •

فمما قال في الإبانة (قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التى ندين بها : التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل ، وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته قائلون •••) (٣) •

وأثبت مع التنزيــه التام كل ما رواه الثقاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : (لانرد من ذلك شيئا) (٤) وسرد الآيات التى اعتبرها المتكملون من متشابه القرآن فبين رحمه الله وجه دلالتها على الصفات الظاهرة من نصها ، رادا على المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية ، والرافضية والمرجئية قائلا إن ما قاله هو قول : أهل الحق والسنة (٥) •

ذلك أن طريقة السلف تتضمن إثباتا مفصلا ونفيا مجملا تبعا للقرآن الكريم حيث جاء فيه من الأسماء والصفات ما يكفي ويشفي في تفصيل ما يسمى الله به أو يوصف وكذلك السنة المطهرة •

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في وصف اعتقاد السلف رحمهم الله تعالى : (فمن سبيلهم في الإعتقاد والإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بها نفسه ، وسمي بها نفسه في كتابه وتنزيله ، أو على لسان رسوله من غير زيادة عليها ولا نقص منها ، ولا تجاوز لهـا ولا تفسيرلها ، ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها ، ولا

---

(١) نفسه ص ٧٠ •

(٢) نفسه ص ٧٠ . ٧٦ •

(٣) الابانة عن أصول الديانة ، لأبى الحسن الاشعرى ٣٢٤ هـ تحقيق : قوفية حسن محمود ، مكتبة دار الانصار ص ٢٩٠ . ٢٩٧ •

(٤) الابانة ص ٢١ . ٣٣ وما بعد ذلك ومجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٥٢ . ٥٥ وما بعدها •

(٥) مجموع الفتاوى جـ ٣ ص ٥ . ٧ •

تشبيه لها بصفات المخلوقين ، ولا سمات المحدثين ، بل أمروها كما جاءت وردوا علمها إلى قائلها ، ومعناها إلى المتكلم بها) (١) وقد يفهم من هذه الألفاظ الأخيرة القول بالتفويض على الاطلاق ولكن يتبين مراد الشيخ بهذه الكلمات فى نصوص له أخرى حيث قال فى معرض رده على ظنون المتفلسفة من المتكلمين المفضلين لطريقة الخلف على طريقة السلف في باب الأسماء والصفات . (إنما أتوا من حيث ظنوا : أن طريقة السلف هي مجرد الايمان بالفاظ القرآن والحديث ، من غير فقه لذلك ...) (٢) ورد ذلك الظن الفاسد قائلا (إن هؤلاء يجهلون السلف وكذبوا عليهم ، وسبب ذلك أيضا أنهم أعتقدوا انتفاء الصفات فى نفس الأمر ، وكان مع ذلك لابد للنصوص من معنى ، فبقوا مترددين بين الايمان باللفظ وتفويض المعنى . وهي التى يسمونها طريقة السلف . وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع تكلف . وهي التى يسمونها طريقة الخلف ...) (٣) .

ومؤدى هذا القول تجهيل الملك الذى نزل بالوحي والرسول المنزل عليه والسلف الصالحين الذى جاءنا علم الوحي عن طريقهم ، ولذا فلا يجوز نسبة هذا التفويض إليهم بهذا المعنى (٤) . وفي تأويل مختلف الحديث لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة أن التفويض من سماة المرجئة (٥) .

بقي أن القول في الصفات كالقول في الذات فمن فرق بين ذلك بعقله وتأول بعضا وفوض في البعض الآخر كان يلزمه في المعنى المؤول إليه أو المفوض فيه ما يلزمه في المعنى المصروف عنه ، ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية : بأن مرتكب مثل هذا العمل لا يستقيم له قانون (٦) إلا أن من أراد بقوله بأن الظاهر المؤول عنه ما يختص

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٤ ص ٢ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٢٥ . ٢٧ .

(٣) نفسه ص ٩١ . وما بعدها .

(٤) موافقة صحيح المنقول لصريح المغفول جـ ١ ص ٣٥ . ٣٧ و جـ ٣ ص ٦٨ .

(٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة . دار الكتب العلمية . بيروت ط١١ ١٤٠٥هـ ١٣

(٦) مجموع الفتاوى جـ ٣ ص ٢٥ . ٢٧ .

بالخلـق كان مصيبا فيما قصـد وإن كـان ذلك الظاهـر منفيا في جانب صفات الله تعالي (١) ٠

قال صاحب أضواء البيان : (والجاهل المفترى الذي يزعم أن ظاهر آيات الصفات ، لايليق بالله ، لأنه كفر وتشبيه ، إنما جر إليه ذلك تنجيس قلبه ، بقذر التشبيه بين الخالق والمخلوق فأداه شؤم التشبيه إلى نفي صفات الله جل وعلا وعدم الايمان بها مع أنه جل وعلا ، هو الذى وصف بها نفسه فكان هذا الجاهل مشبها أولا ، ومعطلا ثانيا ، فارتكب ما لايليق بالله ابتداء وانتهاء ٠٠٠) (٢) ٠

إلى أن قال رحمه الله تعالى: (فتحصل من جميع هذا البحث أن الصفات من باب واحد ، وأن الحق فيها مركب من أمرين :

الأول : تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة الخلق ٠

والثانى : الإيمان بكل ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتا ، أو نفيا ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (ليس كمثله شيىء وهو السميع البصير) والسلف الصالح ، رضي الله عنهم ماكانوا يشكون في شيىء من ذلك ، ولا كان يشكل عليهم) (٣) ٠

ثم بين رحمه الله تعالى أن هؤلاء المتكلمين ومن تبعهم من الخلفيين ارتكبوا هذه الأمور التـى وضحها هذا البحث (من تلقاء أنفسهم من غير اعتماد على كتاب أو سنة) (٤) ٠

ومن قال من تلقاء نفسه وبلا دليل من كتاب أو سنة كان الواجب رد قوله عليه ، وتحذير الناس من معتقده وما ذهب إليه ٠

---

(١) نفسه . ص ٦٨ ٠

(٢) أضواء البيان جـ ٢ ص ٣٢٠ ٠

(٣) نفسه جـ ٢ ص ٣٢١ ٠

(٤) نفسه جـ ٢ ص ٣١٩

وكان المنتسب إليه أو المدافع عنه مخطئا ويعامــل معاملته فى رد قوله ونبذ معتقده • على أنه لا يجوز أن تنسب أقوال ابن فورك والرازي والآمدى وإمام الحرمين والغزالى (١) للإمام أبي الحسن الاشعري لما تقدم عنه من التمسك بمنهج السلف ونبذ ما سلف في سابق حياته من نهج مذاهب المتكلمين ، وكانت جهودة في الرد على أهل الاهــواء والبدع مما يحمد له ويتبع عليه وكذلك ما وضحه من أدلة أهل السنة والجماعة • (٢)

ولم ينتسب إليه من انتسب إليه من معاصريه ومن جاء بعدهم من العلماء إلا لهذه الخصال الحميدة دون ما ينسب إليه من أقوال لا توافق منهج السلف الصالح (٣) •

قال شيخ الاسلام ابـن تيمية فى بيانه لما يحمد عليه الاشعري ومن انتســب إليــه : (فحسناتهم نوعان :

إما موافقة أهل السنة • وإما الرد على من خالف السنة والحديث بيان تناقض حججهم) (٤) •

وعلى هذا فمن اتبع من أئمة القادرية ما كتبه هؤلاء المتأخرون من علماء علم الكلام المنتسبين لأبى الحسن الاشعري لا يمكن لباحث أن يعدهم من أتباع منهج السلف الصالح فى الايمان بالاسماء والصفات ، ولا من أتباع أبى الحسن الاشعري لما تقدم عنه ، ولا من أتباع الشيخ عبد القادر وأئمة مشايخ الصوفية الذين اعتذر شيخ الاسلام ابن تيمية عنهم فيما نسبه إليهم القشيري من اعتقاد الكلابيـــة والأشعرية ومتأخري المتكلمين • ولكن يحمد لهم إعلانهم ذم علم الكلام والتحذير من الفرق الضالة على العموم •

ونصل الحديث عن موقفهم من التأويل في باب الاسماء والصفات بموقفهم من التأويل في التصوف وعلوم الصوفية •

---

(١) مجموع الفتاوى و ج ٦ ص ٥٢ . ٥٥ •

(٢) نفسه ج ٤ ص ١٢ . ١٣ •

(٣) أنظر : مجموع الفتاوى ج ٤ ص ١٤ . ٢٨

(٤) نفسه ص ١٢ . ١٣ •

المطلب الثاني : موقفهم من التأويل الصوفي الباطني

عـــــرض

إن التأويل منهج يلجأ إليه كثير من الناس عندما يحس خللا في منطقة العقدي والفكري أو غير ذلك وهو نمط من المبررات والتمادي على الخطأ ، ونقصد التأويل الذي لا يسوغه الشرع والعقل واللغة أو كانت الحاجة إليه مفقودة لسلامة المنهج أو بيان الخطإ ، أو إنه يجوز أن ينسب الخطأ إلى المنهج والقائمين عليه حيث إن العصمة منتفية عن الطرفين ، ثم إن الخطأ لا يمنع إظهاره من التماس العذر لصاحبه فيكون ذلك كافيا من ارتكاب التعمية على الحق بالتأويل . ولم تكن الصوفية بمنئاعن استعمال هذا المنهج في علومها أو الدفاع عن مشايخها وشطحات مجاديبها ، وللعلماء في تأويل كلام غير المعصوم خلاف (١) .

ونورد هنا بعض النصوص المعتبرة في البيئة التي ينتاولها البحث ثم نتبعها بنصوص من كتب أئمة القادرية ونتبعها بما يناسب من دراسة نقدية إن شاء الله .

قال المقري :

(وموهم المجـذور من كلام	قوم من الصوفية الاعلام
جريا على عرفهم المخصوص	يرجع بالتأويل للمنصوص
وما يفوهـون به في الشطـح	فقيل غير مقتض للقدح
وهو إلى التأويـل ذو انتحال	وأنهم قد غلبوا بالحـــال
وقيل بل يناط حكم الظاهر	بهم صيانة لشرع طاهــر
فلا يقـــر ظاهر في الميــل	منهم وذا أمر طويل الذيل
وليس يقتدى بهم في ذلك	لكونه من أصعب المسالك) (٢) .

---

(١) انظر : البدعة تحديدها ، وموقف الاسلام منها ، تأليف الدكتور عزت على عيد عطية ، دار الكتب الحديثة (بدون) ص ٢٩١ وما بعدها .

(٢) إضاءة الدجنة ص ٢٨ . ٢٩ .

هذا بيان المقري لاختلاف العلماء فيما يصدر من كلام يوهم محذورا كالقول بالحلول أو الاتحاد أو غير ذلك مما يخالف الشريعة الاسلامية . وقد تبعه في سرد هذه الأقوال المختار بن بون في الوسيلة (١) .

ومن نصوصهم ما : تقدم أن القادرية يسلمون بما نسب إلى مشايخ الصوفية من عبارات ومذاهب تخالف نصوص الكتاب والسنة ويعتذرون عنهم بتوجيه عباراتهم بما يجعلها مقبولة المعنى بذلك التأويل ، أو يجعلون من نقدهم قاصرا عن فهم عباراتهم وهذا نوع من التأويل تضيع به الحقيقة وهذه بعض نصوصهم :

فهذا المختار الكنتي ينقل من شعر الصوفية مسلما بما فيه ومستدلا به على أن كلام الصوفية في حال خمرتهم وسكرهم معفو عنه وأنه ينبغي الستر عليهم لأنه غلب على عقولهم لكثافة الانوار عليها: (فيظهر تخليط في أفعاله فيظنه من لاذوق له مجنونا وما هو بمجنون ويتوهم من لاذوق له أنه زنديق وما هو إلا صديق ولكنه شرب فسكر ..) (٢) .

إلى أن قال : وقال بعضهم في وصف الحال :

(وقل للذي ينهى عن الوجد أهله ... إذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا

فإنا إذا طبنا وطابت عقولنا ... وخامرنا خمر الغرام تهتكنا

فلا تلم السكر ان في حال سكره ... فقد رفع التكليف في سكرنا عنا

إلى أن يقول :

وصن سرنا في سكرنا عن حسودنا ... وإن أبصرت عيناك شيئا فسامحنا) (٣)

وينقل من نظم الحلاج مسترضيا له في سر لفظ الجلالة (الله) كما يقول :

---

(١) الوسيلة ص ٣٨ .

(٢) الكوكب الوقاد ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) نفسه ص ٥٦ .

(ألف قد تألف الكون منه ثم لام إلى الحقيقة تسرى

ثم لام مخصوصة بالمعاني ثم هاءبها مدامي وسكرى (١)

ويعتذر عن قول بعضهم : (الرب عبد والعبد رب) أنه بسبب غلبة الشهود وأنه لا ينكره إلا من لا يعرف إشارات القوم ناقلا عن الشرازي وأبي تراب والغزالي والنووي وغيرهم : (لأنه يحرم على كل عاقل أن يسىء ظنه بأولياء الله بل يجب عليه تأويل أقوالهم وأفعالهم ما لم يلحق بهم ويشرب من مشاربهم) • (٢)

وقد تبع المختار الكنتي في القول بالتسليم للصوفية حالهم ومقالهم ابنه وخليفته محمد في كتابيه الطرائف والتلائد (٣) وجنة المريد (٤) • ومما قال في الطرئف فى الاعتذار عن ابن عربى والتنويه بكتبه :

(أجمع المحققون من أهل الله عز وجل على جلالته في سائر العلوم كما تشهد لذلك كتبه التي بأيدينا وإنما أنكر عليه من أنكر لدقة كلامه لا غير، فأنكروا على من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة ومتانة عقيدته وأستفحال عارضته خوفا من حصول شبهة في معتقده يموت عليها لم يهتد إلى تأويلها على مراد الشيخ) (٥) •

هذا ما كتبه بعض أئمة المختارية عن تعين تأويل كلام الصوفية والاعتذار عنهم والتسليم لما يصدر عنهم •

وتبعهم شيوخ الفاضليـة في ذلك فنقلوا عن كتب غلاة الصوفية من أمثال المذكورين من أصحاب وحدة الوجود والاتحاد ، فنجد في الضياء المستبين نصوصـا

---

(١) نفسه ص ١١٣ •

(٢) جذوة الانوار ص ٨٧ وما بعدها •

(٣) الطرائف ص ٨١ . ٨٧ •

(٤) جنة المريدص ٨٩ . ٩٠ •

(٥) الطرائف ص ١٤٤ •

من كتاب الفتوحات لابن عربى (١) ونصوصا من كتاب عبد الكريم الجيلي الانسان الكامل (٢) قال الشيخ ماء العينين • وهو من أكبر علماء القادرية في موريتانيا :

(وقول الحسين بن منصور الحلاج رحمه الله تعالى : أنا الحق إشارة إلى فنائه عن مشاهدته لا أنه أراد الاتحاد وهذا التأويل لأجل حسن الظن به) (٢) وقد عولت الفاضلية على شيوخ كثيرين لا يسلمون من الطعن بسبب علومهم أو ما أثر عنهم من شطحات لا يمكن تأويلها الا بتعسف ظاهر (٣) وقد نشرت القادرية في البيئة العامة ميلا كبيرا إلى الارجاء وعدم الرد على الناس والتماس الاعذار لهم بما ظهر أنه لا تحمد عقباه ، حيث استغله كثير من الجهال والمتصوفة ، والمتشبهون بهم والفساق في الأقوال والأفعال حتى أنتشر بين الناس أنه لا يمكن لك أن تعرف ما عليه فلان ، ويمطرك المجادلون منهم بأسئلة قد لا يكون هو يصدق نتائجها ، فمنها مثلا :

من قال لك أنه ليس قطبا في الباطن ؟ وهل أنت تعرف نفسك ؟ وهل اطلعت على ما في قلبه ؟ • إنه يمكن أن يكون هو قطب الزمان ؟ • وخصوصا إذا كان المدافع عنه من ذرية قوم صالحين ، فالنصالح له أو المظهر للناس بعض أخطائه يعتبر في نظر العامة بما نشرته القادرية من حماية لها وللمنتسبين لها . أدخل نفسه في محاذير كثيرة أقلها أنه أكل غيبة ولي لله ومن سلالة الأولياء وأعظمها أن يحكم عليه والعياذ بالله . بالحرمان والحجاب وسوء الخاتمة •

وهذه التأويلات والتبريرات أدت إلى خلط الأمور وحجب الحق الذي تشهد له الادلة بعبارات معممة دون نظر من الصادرة منه أنه يرتكب بها خطأ كبيرا ويساعد على نشر الفساديين العباد ، ويفتح لهم بابا من الارجاء المذموم شرعا وعقلا ، ويجرىء عوام الناس على التسليم بالخرافات والاخطاء في العقيدة والفكر (٤)

---

(١) الضياء المستبين ص ١٤ . ١٥ •
(٢) نعت البدايات ص ٧٣ . ٧٤ و ٩٨ . ٩٩ •
(٣) أنظر : مجموع الفتاوى ٤ / ٧٦ •
(٤) مصرع التصوف . أوتنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى ، تأليف / برهان الدين البقاعى ، المتوفي ٨٨٥ هـ تحقيق . عبد الرحمن الوكيل ط ١٤٠٠ هـ ص ٦٧ والرحلة العلمية : محاضرة الشيخ محمد بن محمد المصطفى بن سيدي يحي : سياسة الشيطان •

نقد :

إنه لا بأس من إقالة عثرة ذوي الهيئات لحديث أبي داود والنسائي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : (أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود) (١) .

ولكن لا يلزم من إقالة عثرة أحد عدم بيان خطئه ، أو القول بالتسليم له ، أو طلب التأويلات البعيدة له وتحسين الظن به أكثر من اللازم .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد) وفي رواية بلفظ : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) (٢) ومعلوم أن الأقوال من الأعمال فلا يسلم لمن أحدث فيها ولا يؤل له مع النص الواضح إذا خالفه قوله .

قال الإمام النووي : (قال أهل العربية الرد هنا بمعني المردود ومعناه فهو باطل غير معتد به . وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الاسلام وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات ، وفي الرواية الثانية زيادة وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها فإذا احتج عليه بالرواية الاولى يقول أنا ما أحدثت شئيا فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات سواء أحدثها الفاعل أو سبق باحداثه ..) (٣) .

وقد جاء في الأحاديث والآثار عن عمر رضي الله عنه قال : (تركتكم على الواضحة ليلها كنهارها ..) وعن علي رضي الله عنه قال : (تركتكم على الجادة ومنهج عليه أم الكتاب) ومن حديث أبي الدرداء رضي الله عنه يرفعه : (وأيم الله

---

(١) سنن أبى داود ، سليمان بن الأشعث السجتاني ، إعداد وتعليق . عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، ط ١ دار الحديث بيروت ١٣٩٣ هـ كتاب الحدود ، باب في الحد يشفع فيه جـ ٤ ص ٥٤٠ رقم ٤٣٧٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الصلح ، دار المعرفة بيروت الحديث رقم : (٢٦٩٧) .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الأقضية ، باب نقض الاحكام الباطلة ورد محدثات الأمور . ط دار الفكر ١٤٠١ هـ ص ١٦ .

لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء) (١) ٠

وروي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في التحذير من الكلام المشتبه الذي لا يعرف منه مراد صاحبه قوله : (حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله رسوله) ٠

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في ذلك قوله : (ما من رجل يحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم) (٢) ونقل عن الامام مالك رحمه الله تعالى قوله :

كل يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ٠ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عبد البر : (وقال أشهب سمعت مالكا يقول : ما الحق إلا واحد قولان مختلفان لا يكونان صوابا جميعا ما الحق والصواب إلا واحد) (٣) ٠

وقوله : (إنما أهلك الناس تأويل ما لا يعلمون) (٤) ٠

والذي يصدر عنه الكلام المشتمل على محذور لا يخلو حاله من أن يكون في وعي وعقل أو يكون في سكر وغياب ٠

فمن كان في وعيه وتمام عقله وقال كلاما فيه محذور في العقيدة أو مخالفة للشريعة المحمدية فقد خالف هذه النصوص والآثار وارتكب عن قصد من المحاذير التي ينزه الفساق عنها أنفسهم لما معهم من حياء الإيمان ، ولا يليق بمثل هذا أن يؤل له كلامه أو يسلم له انحرافه ٠

---

(١) جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد . محمد بن محمد بن سليمان ٠ المجلد الاول والثاني ط ١٣٤٥هـ الجزء الأول ص١٧ والاولان لرزين ، والاخير للقزويني مطولا ٠

(٢) صحيح مسلم ، المقدمة ، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء ج ١ ص ٧٦ وقارن بروايات ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ١٢٤ ٠

(٣) جامع بيان العلم وفضله ج٢ ص ٨٨ . ٨٩ ٠ قلت : اللفظة التي ذكرتها قبل هذا النص مشهورة عن الامام مالك ولكن لم نجدها بسند إليه ، وإنما هي مروية عن مجاهد : (ليس أحد من خلق الله إلا وهو يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم المرجع المذكور ص ٩١ ٠

(٤) المدارك ج ١ ص ١٨٥ ٠

بل نقل القاضي عياض وغيره من علماء المسلمين الاجماع على أن غلاة الصوفية وغيرهم إذا تكلم أحدهم بكلمة ردة أو كلام يدل على القول بوحدة الوجود أو الحلول فإنه كافر ولا يعتذر عنه ولا يؤل كلامه وإن قال أردت به كذا أو أضمرت كـذا (١) .

وقال : علاء الدين علي بن إسماعيل الفوتوى : (إنما تؤول كلام من ثبتت عصمته حتى نجمع بين كلاميه لعدم جواز الخطإ عليه وأما من لم تثبت عصمته ، فجائز عليه الخطأ والمعصية والكفر فيؤاخذ بظاهر كلامه ، ولا يقبل منه ما أول كلامه عليه مما لا يحتمله ، أو مما يخالف الظاهر ، وهذا هو الحق) (٢) .

وقد بين الإمام الغزالي والقاضي ابن العربي أن القول بالعصمة للأئمة هو الذي أدى بالشيعة ومن تبعها بالقول بالتسليم أو التأويل لما يصدر عن مشايخهم من الكلام المخالف لنصوص الكتاب والسنة (٣) .

أما من صدر عنه الكلام المحذور في حالة جذبه وغيابه فلا يعقل أن يقال بأنه يسلم له حاله أو يؤل له كلامه أو يتبع في مقاله ، ذلك أنه خارج عن مقام التكليف الشرعي ، وإنما يكون البحث في أسباب سكره وإذها به لمناط التكليف الذي هو عقله . (٤) فهل بأمر مشروع أو بغير ذلك ؟ على ما سيأتي بيانه إن شاء الله في مبحث الجذب من باب السلوكيات .

قال الشيخ محمد بن أحمد الملقب بالداه الشنقيطي في تعليقه على أبيات الإضاءة التي تقدمت : (يحكم بظاهر الشرع ولا يؤل كلامهم فمن تكلم منهم بما يوهم الاتحاد والحلول حكم عليه بالكفر والقتل ، ومن تكلم منهم بما لا يكفر به ولكنه ممنوع أدب) (٥) .

وبهذا يتضح خطأ القادرية في أعتبار الحلاج وابن عربي وأمثالهم من غلاة الصوفية من شيوخ المسلمين الذين يقتدى بهم أو يسلم لهم كلامهم أو يؤل لهم لما عرف عنهم من القول بالحلول ووحدة الوجود .

---

(١) مصرع التصوف ٢٦ . ٢٩ و ٦٦ . ٦٧ . ٦٨ قلت : ويأتي نص كلام القاضي عياض في الشفا.
(٢) نفسه ٦٦ . ٦٧ .
(٣) البدعة تحديدها وموقف الاسلام منها ، عزت علي عيد عطية ، دار الكتاب الحديثة القاهرة ص ٢٩١ . ٢٩٩ .
(٤) أنظر أضاءة الدجنه ص ٢٨ .
(٥) نفسه ٢٩ .

المبحث الثاني : موقفهم من العقل والعلم

المطلب الاول : موقفهم من العقل

لم يرد لفظ العقل في القرآن الكريم ولكن وردت الأفعال الدالة عليه والتي يفهم منها مكانة العقل والتعقل والتفكر • وتصرح بذم الذين لا يعقلون أو لا يتدبرون •

والذي ورد في السنه من الاحاديث التي ورد فيها لفظ العقل تتبعه أهل العلم وأثبتوا أنه لا يصح في العقل حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وعلى هذا فإن الاحاديث التي أوردها المختار الكنتي عن العقل في فتح الودود (٢) وغيره من كتبه وكتب غيره غيرصحيحة (٣) •

وقد تعرض مشايخ القادرية إلي دراسة العقل ومظاهره مما يدل على اعتبارهم له، وردوا كذلك على من أطلق له العنان وحكمه في كل ميدان (٤) •

فقد ألف المختار الكنتي كتابا سماه : كشف اللبس عن حقيقة الروح والنفس • ولم نتمكن من الحصول عليه ، وأحال عليه قائلا إنه استوفى فيه الكلام على العقل • (٥)

وقد عرف مشايخ القادرية العقل بتعريفات متعددة منها : (أنه مأخوذ من العقال لأنه يعقل صاحبه عن ارتكاب ما لا يليق في العاجل والآجل) (٦) •

---

(١) ابن الجوزى وتربية العقل . تأليف عبد الرحمن صالح عبد الله ط ١ ١٤٠٦ هـ مكة المكرمة ص ١٨ . ٢١ وتخريج الاربعين السلمية في التصوف . للسخاوي . تحقيق علي حسن علي عبد الحميد دار عمان ط ١٤٠٨ هـ ص ١٤٣ •

(٢) فتح الودود شرح المقصور والمدود • ص ١٣٣ وقددرس هذه الاحاديث المحقق للكتاب وتوصل إلى أنها ما بين موضوع وضعيف جدا • وكشف اللبس عن المسائل الخمس ص ٨٩

(٣) الكوكب الوقاد ص٩٥ . وما بعدها •

(٤) أنظر : المنة في أعتقاد أهل السنة ص ١٢٠ وما بعدها •

(٥) الكوكب الوقاد ص ٩٧ •

(٦) فتح الودود ص ١٣٣ •

وقال المختار الكنتي : (وحقيقة العقل نور إلهي على شكل لا يحيط به إلا الله تعالى) • (١) • وفي كتب القادرية الشيىء الكثير من تمجيد العقل ولزومه للعلم (٢) وأن قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام •••)

يراد فيه بالصدر : العقل لأنه محل الإدراك وإنما عبر عن الصدر بالعقل لأن ذلك من باب تسمية الشيىء باسم محله • (٣) •

وتنحصر مهمة العقل عندهم فيما يحدده المختار الكنتي قائلا :

(ومعلوم أن أحكام العقل ثلاثة واجب ومستحيل وجائز ومن القسم الجائز عقلا أن يبعث الله الرسل إلى الخلق ، وأنه تعالى قادر على ذلك وعلى تعريفه إياهم صدقهم بالمعجزات ثم يصل العبد بعقله إلى هذا الجائز المذكور فعند ذلك ينقطع الكلام وينتهى تصرف العقل ••) (٤) •

ويقول محمد الكنتي : (فإنه لا استقلال للعقل في الأحكام الشرعية) (٥) .

قلت : ويمكن اعتبار منهجهم في العقل منهجا صائبا إلى حد كبير لولا أن ذلك لا يتعدى الجانب النظري ، ويعطلونه عندما يدخلون في علوم الصوفية وآدابها فنجدهم يقولون للمريد أن يعطل عقله ويتبع شيخه ولو رآى الخطأ وعرفه • (٦) ويأمرونه بتقديم ذوقه على عقله لأن علوم الأسرار فوق العقل والذوق لا يدرك بالعقل • ونقلون في كتبهم من الحكايات والاخبار المستحيلة عقلا ويسلمون بها (٧) •

---

(١) الكوكب الوقاد ص ٩٧ وكشف اللبس عن المسائل الخمس ص ٨٩ •

(٢) الشموس الاحمدية ص ٣٣ ونعت البدايات ص ١٢٩ و ١٤٧ •

(٣) الكوكب الوقاد ص ٩٥. ٩٩ والآية من سورة الانعام (١٢٥) •

(٤) جذوة الانوار ص ٢٢ •

(٥) جنة المريد ص ٤٤ . ٤٥ •

(٦) نفسه ص ١٤٨ . ١٥٣ •

(٧) نفس المصدر السابق ونعت البدايات ص ٢١٧ وكشف اللبس عن المسائل الخمس ص ٣٧

المطلب الثاني : موقفهم من العلم

إنه يمكن أن يعرف مما تقدم من التعريف بالقادرية وشيوخها ومراكزها وانتشار مريديهم في إفريقيا اعتماد الكثير منهم العلم في منهجه الصوفي ٠

فقد تقدم أن تتبع البحث أئمة القادرية في موريتانيا في رحلتهم في طلب العلم وعرض ونقد ما نقل عنهم في ذلك من مبالغات ٠ كما تعرض البحث إلى مؤلفاتهم وقيمتها في المحيط العلمي وأثرها على البيئة الثقافية ٠

وقبل أن نعرض نصوصا من كتبهم توضح موقفهم من العلم ٠ وتبين منهجهم في تحصيل العلم المطلوب عندهم يجدر أن نذكر بعض النصوص المكتوبة من بعض المؤلفين خارج منطقتهم تكشف عن نشاطهم العلمي ٠

فهناك بعض المستشرقين الذين اعتنوا بالمنطقة فكتبوا عنها لأغراض مختلفه وكان من بينهم : السير توماس و أرنولد ولو ثروب استودار الامريكي ، فنأخذ عن كل واحد منهما معلومة في الموضوع ٠

يقول السرتوماس بعد ذكر مراكز القادرية في موريتانيا وانطلاقتهم في إفريقيا : (وفي مستهل القرن التاسع عشر نجد النهضة الروحية الكبيرة التي كانت تؤثر في العالم الاسلامي تأثيرا عميقا تدفع بالقادرية الذين كانوا يقيمون في الصحراء الكبري وفي السودان الغربي إلى حياة ونشاط جديـدين ، ولم يمض زمن حتى وجدنا فقهاء مثقفين، وجماعات صغيرة من المريدين قد انتشروا في أرجاء السودان الغربي من السينغال إلي مصب النيجر ٠٠ وسط شعب وثني رحب بالقادرية باعتبارهم كتابا وفقهاء وكتاب تمائم ومعلمين) (١) ثم أخذ يفصل رحلاتهم في طلب العلم في مراكزه الرئسية في العالم الاسلامي ويصف عودتهم وتأسيسهم المدارس وخططهم في ذلك وإنفاق الزوايا عليهم (٢) ٠

وتبعه صاحب حاضر العالم الإسلامي ، فبعد أن وصف مراكزهم وانطلاقاتهم منها في دعوتهم أو سياحتهم يقول :

---

(١) الدعوة إلى الاسلام ص ٣٦٥ ٠

(٢) نفسه ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ ٠

(ومن مريديهم من يخدمون في مهنة الكتابة والتعليم ويفتحون كتاتيب ليس في زوايا الطريقة فقط ، بل في كل القرى فيلقنون صغار الزنج الدين الإسلامي أثناء التعليم ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا إلى مدارس طرابلس والقيروان وجامع القرويين بفاس ، والجامع الازهر بمصر فيتخرجون من هناك طلبة مجازين أي أساتذة ، ويعودون إلى تلك البلاد) (١) •

والواقع أن أئمة القادرية الأولين كانوا على جانب كبير من التحصيل العلمي وأشتهر عنهم الجلوس للتدريس (٢) وكان بعضهم لا يعطى الورد القادري الا لمن تفقه ولو كانوا يكتفون منه بحفظ مختصرفي العبادات أو قريبا من ذلك • (٣)

وسجلوا في كتبهم انتقادات لاذعة لبعض العلماء الذين لم يشتغلوا بالتدريس معتبرين ذلك علامة على الحرمان (٤) •

عـــــــــرض :

وهذه نصوص من كتبهم توضح موقفهم ، من العلم ، يبين المختار الكنتي الفرق بين العلم ، والمعرفة قائلا : (فالعلم ما تضمن معنى إحاطة الإدراك ، والتعبيرعنه بالمعرفة يزيله عن درجته ، فالعلم أعم من المعرفة وقد استعملت المعرفة فيما سبق بجهل وأن العبد يعلم ربه ولا يحيط به وأن علم العبد مخالف لعلم المعبود ولو كان دالا عليه وأن من خواص علم الله تعالى عدم تناهي معلوماته، والكشف عن المعلوم بما لا غاية بعده، وأن علمه تعالى بالاشياء غير مستفاد منها بل خلقها بعلمه •(٥)

ثم يقول : (واعلم أن شرف العلم من حيث كونه من صفات الله ولكن العلم الأشرف ما كان معلومه أشرف المعلومات وهو الله تعالى فلذلك كانت معرفته أشرف المعارف) (٦) • فهذا بيان للفرق بين علم الله تعالى وعلم المخلوق ، وتوضيح للسبب الذي يشرف به العلم •

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ص ٣٩٥ . ٣٩٦ •
(٢) بلاد شنقيط ص ١٢٤ . ١٢٥ و ٢٦٥ . ٢٨٢ و ٢٨٧ . ٢٨٩ •
(٣) نفسه ص ١٢٢ وملف الرحلة •
(٤) الغلاوية ص ٥٠
(٥) الكوكب الوقاد ص ١٢١ . ١٢٣ •
(٦) الكوكب ص الوقاد ١٢٣

ويوضح من مكانة العلم عنده قوله : (بأن الجهل هو الموت الأكبر والعلم هو الإحياء الأشرف) (١) ويروي الأحاديث في فضله وفضل العمل بموجبه قائلا : وتشهد لذلك حديث النبي صلي الله عليه وسلم : (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) (٢) .

ويشرح ذلك بقوله : (وقد ذكر الله سبحانه العلم والجهل في كتابه فسماهما حياة وموتا فمن رفعه الله من هوة الجهل إلي رتبة العلم فقد أنشأه نشأة أخرى وأحياه حياة طيبة ...) (٣) .

وأخذ يوضح أن مرتبة الأنبياء إفادة الخلق ، ودعاؤهم إلى الحق وأن ذلك مرتبة من الإحياء وأن ذلك سبيل من يرث الأنبياء . (٤) ويؤكد أن العلم لا يؤخذ بالعقل ولامن الكتب ، ويحذر من الاشتغال بما لا عمل تحته ، والاشتغال بالجدل والمناظرات فيما لا يدرك من المغيبات (٥) ويخوف من طلب العلم لأجل الرئاسة (٦) وقد رتب سيدي محمد الكنتي العلوم حسب أهميتها مبينا حد العلم النافع والمطلوب قائلا : (وحسبك من العلم العلم بالوحدانية ومن العمل العمل بمحبة الله ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ومحبة الصحابة واعتقاد الحق للجماعة) (٧) .

ورتب العلوم هكذا : (علم العقائد وعلم الفروع وعلم التصوف وعلم ما يتوصل به إلى أخذ هذه من أصلها الكتاب والسنة) (٨) .

---

(١) نفسه ص ١٣٣ .

(٢) نفسه ص ١٣٤ قلت لم نجد هذا الحديث بهذا اللفظ في مظانه وتوجد آثار في جامع بيان العلم وفضله تؤيد معناه : جـ ١ ص ٤ . ١١ ومنها : (قال ابن مسعود : تعلموا تعلموا فاذا علمتم فاعملوا) وقال سفيان التورى : (يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل) وفيه عن عيسى عليه السلام بعض الآثار الدالة على أن الحديث المذكور من كلامه . أنظر ص ٥ . ووجدت الألباني حكم أنه موضوع وأنه خرجه أبو نعيم . أنظر السلسلة رقم (٤٢٢)

(٣) نفسه ص ١٣٣ .

(٤) انظر نفسه ص ١٣٣ .

(٥) جذوة الانوار ص ٢٤ . ٢٦ .

(٦) نفسه ص ٣٢ و ٤٣ و ٤٩ . ٥٠ .

(٧) جنة المريد ص ٢٦ .

(٨) نفسه ص ٢٩ .

نقـــــــــــــد

ومع ما ظهر من اشتغال القادرية بالعلم ونشره ، وما رووه في كتبهم من فضله من آثار وأشعار (١) فإنه بقي معظم أتباعهم في جهل كبير بأحكام دينهم مع اشتغالهم بأورادهم واكتفائهم بمدائح مشايخهم وأحزابهم واختياراتهم • ويمكن إرجاع أهم أسباب ذلك إلى المشايخ أنفسهم كما سيتضح إن شاء الله بعرض أهم تلك الأسباب في النقاط الآتيه مع مناقشتها بما يوضح وجه النقد فيها •

أولا : إظهار العداوة أمام المريدين لأهل العلم من غير المنتسبين للطريقة أولشيخ بعينــه • (٢)

وهذا يؤدي بلا شك إلى التنفير من الأخذ عنهم بل ويؤدى إلى الابتعاد عنهم •

ثانيا : التشنيع على الفقهاء وإن كانوا أعبد أهل زمانهم ، واتهامهم بتهم لا يمكن حسب علمي إثباتها وخصوصا في موريتانيا . وهي أنهم ما طلبوا العلم إلا من أجــل الرئاسة والرغبة في الدنيا ، وأن قلوبهم قاسية ، ووصفهم بعلماء السـوء (٣) إلى غير ذلك من الأوصاف التي تنفر المريد من طلب العلم لدى هؤلاء الفقهاء وإن كانوا أقرب إليه من ذلك الشيخ في النسب أو الدار • (٤)

ثالثا : نعتهم للفقهاء والعلماء من غير المنتسبين لهم بألقاب محدثة منها أنهم علماء الرسوم وعلماء الظاهر (٥) • ومعظم الداخلين في الطريقة القادرية وغيرهم من أهل البيئة العامة لا يـــدرك معـــنى هذه الألقاب إلا أنه يفهم منها استخفافـــا

---

(١) فتح الودود ص٢٤٧ . ٢٥٨ ونعت البدايات ص ١٩ و ١٢٧ . ١٣٥ و ٢١٥ و ٢٢٨ و ٢٣٦ •

(٢) جذوة الانوارص ١ . ٢ و ٧ و ٩ و ٢٥ و ٣٧ و ٤٣ و ٩٧ ونعت البدايات ص ٢١ . ٣٠ •

(٣) نفس المرجع السابق والضياء المستبين ص ١١٦ وجنة المريد ص ١٢ . ١٤ و ١٦٣ •

(٤) الغلاوية ص ٣٠ و ١٦٠ و ١٧١ والكوكب الوقاد ص ١٦٤ . ١٦٥ ونعت البدايات ص ١٩ وزاد المسلم جـ ٢ ص ٣٣٧ •

(٥) الطرائف ص٥١ . ٦٢ وجنة المريد ص١٢ ـ ١٧ ونعت البدايات ص٢٠ والضياء ص١١٦ . ١١٧

وخصوصا إذا أضيف إلى تلك الألقاب تحذير المريدين أن يجعلوا للمنكرين عليهم من علماء الظاهر . كما يسمونهم حجة أو سبيلا وأن عليهم أن يجعلوا ما يحتج به عليهم وينكر عليهم به حجة لهم (١)

رابعا : وفي مقابل ذلك أخذوا ينشرون الأدلة على صحة منهجهم ويذكرون من تاريخ الصحابة والسلف الصالح علاوة على نصوص الكتاب والسنة التي يرون أنها تشهد لهـم من قريـب أو بعيـد مع إظهـار ذم التقليـد والتنفيـر مـن أصحـاب البـدع والأهـواء (٢)

خامسا : وجعلوا أنفسهم في مقابل ما تقدم من وصفهم للعلماء والفقهاء والقراء هم أصحاب التربية والتزكية وعلم الباطن وعلم الحقيقة وعلماء السر وأهل العلم اللدني والكشف الالهي الذين يجب لهم التسليم في الظاهر والباطن إذ علمهم علم وهب من الله بلا واسطة (٣) .

إلى غير ذلك من الألقاب الحسنة التي تميل إليها نفوس العوام فتظل تطلبها وتتمنى الوصول إلى حقيقتها حتى ينتهي عمر المرء وهو لم يشتغل بطلب العلم ولم يكن ما يحصل منه من عبادة وأوراد وغير ذلك من قرب على بصيرة وفقه في الدين .

وهذا أمر زعج العلماء في البلاد فأخذوا يناقشونه فقها وشعرا ونثرا فأخذوا في الأسئلة عن المفاضلة بين طلب العلم والاشتغال بالعبادة ، وبين الفقيه وشيخ الصوفية والاشتغال بالتدريس للعالم أو التفرغ للعبادة (٤)

---

(١) انظر نعت البدايات ص ١١ و ٢٠ .

(٢) انظر جذوة الانوار ص ٥ و ٧ . ٩ و ١٥ . ١٨ والكوكب الوقاد ص ٢ . ١٨ وغيرها منه . ونعت البديات ص ٢٠ والضياء ص ١٠٥ . ١١٦ وجنة المريد ص ١٢ و ١١٦ . ١٢٦ .

(٣) انظر الضياء المستبين ص١١٣ و١٣٥ . ١٤٠ و٢١١ و٢٣٣ . ٢٥٠ .٢٥٢ والطرائف ص١١٣-١١٧ وجنـة المريد ص١١ . ٢٤ و١١٦ و١٣٧ و١٥١ . ١٦١ ونعت البدايات ص١٩ و ٨٦ و ٢٤٤ .

(٤) الطرائف ص ١٦٠ وزاد المسلم جـ ٣ ص ٣٢٥ . ٣٥٢ وجذوة الانوار ص ٤٩ . ٥٢ .

فمما قالوه في ذلك : قول محمد بن حنبل الحسني الشنقيطي :

ياخائضين بحور العلم مسـألة   عنها أجيبوا بأفهام ذكيـات

عن اشنعال شباب العصر قاطبة عن العلوم بأوراد سنيـات

أهذه نعمة في الدين نشكرها   أم هي في ديننا إحدى المصيبات) (٢) .

ثم قال محمد حبيب الله بعد نقله للأبيات السابقة (وقد أجابه بعض العلماء نظما وفضل الاشتغال بالعلم بعد أن أثنى على الأوراد فقال : ومما قال :

(لكن الأغلب في ذي الورد أزمننا   ترك التعلم مع تضييع الأوقات

يؤخر الفرض عمدا والتعلم لا يراه من مذهب الهادي للبريات) .

وأجابه الشيخ ماء العينيين والعلامة محمد العاقب وغيرهما وكل منهم رام التفصيل والفرق بين الناس في تعين طلب العلم ، مع أنهم يفضلون لمن لم يتضلع من العلم عدم الإكثار من الأوراد ، وأنه يتعين على من غلب على قلبه الفساد أن يشتغل بالأوراد .

وقد ناقش هذا الموضوع العلامة محمد حبيب الله وجلب فيه نصوص العلماء مبينا أنه لابد لطالب العلم من تصحيح النية والإخلاص فيه لله تعالى وأن علم التصوف داخل دخولا أوليا . عنده . في الفقه في الدين ، وأنه : (لادليل لمفضل علماء الظاهر على علماء التصوف) مع تشنيعه الشديد على متصوفة زمانه موضحا أن درجة العالم العامل لا درجة فوقها إلا النبوة (٣)

وموقف الصوفية من العلم معلوم من قديم الزمان وهو أنهم لا يرونه إلا مضعية للوقت وتعطيلا عن الوصول كما يقولون .

---

(١) انظر ترجمته في الوسيط ص ٣١١ . ٣٣٥ .

(٢) زاد المسلم جـ ٣ ص ٣٣٦ .

(٣) نفسه جـ ٣ ص ٣٢٥ . ٣٥٣ .

قال ابن الجوزي : ذكر تلبيس إبليس على الصوفية في ترك التشاغل بالعلم :
(اعلم أن أول تلبيس إبليس على الناس . يعنى الصوفية . صدهم عن العلم لأن العلم نور فإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظلم كيف شاء) (١) . قلت : وبقي من فروع هذا المطلب مناقشة بعض الألقاب التي يصرفون الناس بها عن طلب العلم المأخوذ من نصوص الكتاب والسنة وفقه الصحابة والائمة . من القول بالعلم الظاهر والباطن أو الحقيقة والشريعة ليتضح وجه النقد العقدي من إطلاقها وإطماع الناس في تحصيل علم من ورائها ، على أنه يتبين من قراءة كتب مشايخ القادرية أنهم أصحاب نقل وتسليم لا أصحاب نقد وتحقيق ، ولذا فإنهم ينقلون من القشيرى والغزالي وابن عربي وغيرهم ممن يحتاج كثير من كلامهم إلى توضيح أو تحقيق ، ولكن لا نجد منهم اشتغالا بذلك إثر ذلك النقل وإن كانوا يردونه في مواضع أخرى من كتبهم أو يبطلون ما يماثله من الكلام وهذا ما وقع لهم في مثل هذه الموضوعات ولكن لابد من عرض كلامهم فيها ونقده وتوضيح وجه الحق فيه إن شاء الله تعالى .

وسنبدأ بتعريف هذه الألفاظ أولا ، ثم نتبعها بما يوضح المراد منها عند العلماء المشتغلين بعلوم الصوفية وغيرهم ، ثم نعرض نصوصا من كتب القادرية توضح مذهبهم في القول بهذه الألفاظ مشفوعة بما يناسبها من نقد لتكون النتيجة واضحة بإذن الله تعالى .

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٨٩ وما بعدها .

التعريف والتوضيح : الظاهر والباطن والحقيقة والشريعة.

قال في القاموس المحيط : (والظاهر خلاف الباطن ومن أسماء الله تعالى وظهر ظهورا تبين) والظهر (لفظ القرآن والباطن تأويله والحديث والخبروما غاب عنك) (١)

قال : (وبطن خفي فهو باطن) والباطن (داخل كل شيىء) (٢) • وقد وردت في الكتاب والسنة هذه الالفاظ وبين النبى صلى الله عليه وسلم والعلماء من بعده المراد منها .

فمن الكتاب قوله تعالى : (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) الايه (٣) قال القرطبي : (للعلماء فيه أقوال كثيرة وحاصلها راجع إلى أن الظاهر ما كان عملا بالبدن مما نهى الله عنه ، وباطنه عقدما بالقلب من مخالفة أمر الله فيما أمر ونهى) (٤) وقوله تعالى : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) الآية (٥) وقوله تعالى : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) (٦) وقد بينت السنة معنى هذه الاسماء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في كتاب الأدعية حيث روى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عند النوم قوله صلى الله عليه وسلم : (•• اللهم أنت الأول فليس قبلك شيىء وأنت الآخر فليس بعدك شيىء وأنت الظاهرفليس فوقك شيىء وأنت الباطن فليس دونك شيىء أقض عنا الدين وأغننا من الفقر) (٧) •

---

(١) القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز أبادي دار المعرفه . بيروت جـ ٢ / ص ٨٢

(٢) نفسه جـ ٤ / ص ٢٠٢

(٣) سورة الانعام الآية ١٢٠ •

(٤) القرطبي . بيروت سنة ١٩٦٥ م جـ ٧ ص ٧٤ •

(٥) سورة الانعام ص ١٥١ • القرطبي نفسه ص ١٣٣ •

(٦) سورة الحديد الآية ٣ •

(٧) صحيح الإمام مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب الدعاء عند النوم •

قال النووي رحمه الله : (وأما معنى الظاهر من أسماء الله فقيل هو من الظهور بمعنى القهر والغلبة وكمال القدرة وفيه ظهر فلان على فلان وقيل الظاهر بالدلائل القطعيه والباطن المحتجب عن خلقه وقيل العالم بالخفيات) (١) • قلت : وفي نقل النووي هذا مايدل على مذهب أهل التأويـل ، وقد قال القرطبي إن حديث النبي صلى الله عليه وسلـم هذا شرح المراد من الظاهر والباطن في الآيه بما يغني عن قول كل قائل) • (٢)

وقد أكثر الغزالى من الحديث عن علم الباطن والظاهر والفرق بينهما ومن ذلك قوله (•• ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر ، أعني العلم بأعمال الجوارح • وإلى علم باطن أعني العلم بأعمال القلوب) (٣) •

ويوضح ابن تيمية المراد بعلم الظاهر والباطن أيضا قائلا : (إن علم الباطن الذى هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأصولها هو علم بحقائق الايمان الباطنة ، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الاسلام الظاهرة) (٤) •

وأما الحقيقة والشريعة فهما من الالفاظ التي وضعتها الصوفية من القديم وشرحوا مرادهم من هاتين العبارتين بما لا يفهم منه حقيقة شرعية واضحة ولكن شيخ الاسلام إبن تيمية وضح في كتاب الاستقامة وغيره أنهم يطلقون العلم ويريدون به الشريعة (٥) وقال : (وسبب تعبيرهم عن الشريعة بالعلم أن القوم أصحاب إرادة وقصد وعمل وحال •••) (٦) •

ويعرف القشيري الشريعة والحقيقه فيقول :

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ ص ٣٦ •

(٢) القرطبي جـ ١٧ ص ٢٣٦ والكوكب الوقاد ص ٩٥ ـ ٦٠ •

(٣) إحياء علوم الدين دار العلم ـ بيروت ط ٣ ـ جـ ١ ص ١١ •

(٤) مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٢٢٥ •

(٥) الاستقامة جـ ١ ص ٩٤ وما بعدها •

(٦) نفسه جـ ١ ص ٩٩ •

(الشريعة : أمر بالتزام العبودية ٠

والحقيقة : مشاهدة الربوبية) ٠ (١)

ويعرفها الجرجاني قائلا : (الحقيقة : كل لفظ يبقى على موضوعه أو الشيء الثابت قطعا ويقينا ، وحقيقة الشيء : ما به الشيء هو هو) ٠

(**والشريعة**: هى الائتمار بالتزام العبوديه ، وقيل الشريعة هى الطريق في الدين) (٢)

ويعرفها شيخ الاسلام ابن تيمية قائلا :

(**والحقيقة** : حقيقة الدين : دين رب العالمين هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون ، وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج ٠ فالشرعة هي الشريعة قال الله تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) (٣) وقال تعالى : (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ٠٠) (٤) إلى أن قال : والغاية المقصودة هي حقيقة الدين ، وهي عبادة الله وحده لاشريك له ، وهي حقيقة دين الاسلام ، وهو أن يستسلم العبد لله رب العالمين ، لايستسلم لغيره ، فمن استسلم له ولغيره كان مشـــركا ، والله : (لايغفر أن يشرك به) (٥) ٠

عرض : نصوص تبين موقف القادرية من القول بالظاهر والباطن والشريعة والحقيقة في كتبهم ٠ قال المختار الكنتي : (في وصف الرجل الذي يوصف بالحكمة :

(إنه هو الذي قد اتخذ الشريعة دثارا ، والحقيقة شعارا ، ويستحيل أن يوصف الرجل بالحكمة وهو لم يجمع بين الحقيقة والشريعة إذ الشريعة قشر والحقيقة لبها فلا يتوصل للب الابعدمجاوزة القشر) (٦) ٠ وقال في رده على ابن بون وابن حبيب الله :

---

(١) الرسالة جـ ١١ ص ٢٦١ ٠

(٢) كتاب التعريفات للشريف على بن محمد الرجاجاني ، دار الكتب العلمية - بيروت ط ١١ سنة ١٤٠٣ هـ ص ٩٠ و ١٢٧ ٠

(٣) سورة المائدة الآية ٤٨ ٠

(٤) سورة الجاثية الآية ١٨ ٠

(٥) مجمـــوع الفتاوى جـ ١١ ص ٢١٨ - ٢١٩ ، اقتباس من قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ الآية ١١٦ النساء ٠

(٦) جذوة الأنوار ص ١٧ ٠

(إنه . يعنى ابن بون . أراد الطعن على علم الحقيقة وأهله ، وعلى علم الباطن وأهله وإن ابن حب الله كأنه يريد الطعن على ظاهر الشرع وأهله ، إذ لاشريعة بدون حقيقة ولا حقيقة بدون شريعة إذ كل حقيقة ظاهرها شريعة وكل شريعة باطنها حقيقة فالحقيقة ثمرة الشريعة والشريعة عنوان الحقيقة ٠٠) (١) ٠

وقال في الكوكب الوقاد : (واعلم أن علوم الحقيقة نتائج علوم الشريعة فمتى عمل العبد بموجبات أوامر الشرع واجتناب المنهيات وخلاف الأولي مخلصا صادقا فتح الله له روزنة (٢) في قلبه فشاهد بها علوم الحقيقة ٠٠٠) (٣) ٠

ويتا بعه ابنه على مثل هذا الكلام فيقول :

(إن مبنى هذه الطريقة على مسايرة الشريعة فكل حقيقة لاتشهد لها شريعة فليست بحقيقة وكل باطن لاتظهر له صورة في الظاهر لاعبرة به لأن الحق واحد والحق لاينافي الحق . وما ضل كثير من الناس إلا من اعتقاد الفرق بين المذهبين والتباين بين الطريقتين حتى خالف الحق في ذلك المعتقد والمنتقد ، فتمسك بظاهر الشريعة وافهم به باطن الحقيقة ٠٠) (٤) ٠

وقال بأن من مبادىء الزندقة اعتقاد أن الشريعه خلاف الحقيقة) (٥) ووافقهما على هذه النصوص أئمة الفاضلية كالشيخ ماء العينيين والشيخ سعدأبيه ومحمد فاضل بن الحبيب ٠

فقال الشيخ ماء العينين في معرض رده على الفقهاء المنكرين لطريقة الصوفيــــة

---

(١) نفسه ص ٢٥ ٠
(٢) الروزنة : الكوة : القاموس المحيط جـ ٤ ص ٢٢٧ ٠
(٣) الكوكب الوقاد ص ١٢٣ ٠
(٤) الطرائف ص ٦٠ . ٦١ ٠
(٥) الغلاوية ص ١٧٠ وما بعدها ٠

(إن الفقيه يدعى العلم الظاهر ولو كان يعلمه على الحقيقة ما انكر على أهل الطريقة) (١) ٠

وقال مخاطبا المريدين : (ولا تجعلوا لأحد من أهل الظاهر حجة علي أهل الباطن ٠٠٠) (٢) ٠

وقد نظم الشيخ محمد فاضل القول في الحقيقة والشريعة فقال

حقيقة ليست لها شريعـــة　　　باطلة قد أفلـــت سريعـــة

وإن خلا التشريع عن تحقيق　　　صاحبه زاغ عن التصديق) (٣)

وقد نقل كل من الشيخ سعد أبيه ومحمد فاضل بن الحبيب وغيرهما من تعريفات وبيان الحقيقة والشريعة والباطن والظاهر والتلازم بينهما أشياء كثيرة تؤكد ما ذكر (٤) ٠

نقد : ويتلخص من هذه النصوص الأمور الآتية :

(١) أن القادريه في موريتانيا يقولون بما تقول به الصوفية من الالفاظ المحدثة المشتبهة٠

(٢) ويفهم من شرحهم لهذه الألفاظ أنهم يريدون بالعلم أو الظاهر الشريعة بنصوصها ويريدون بالباطن أو الحقيقة أعمال القلوب أو ما يفهم من دقائق المعـانى من النصوص أو ما يترتب من ثمار على العمل بمقتضى الشرع الحنيف ٠

---

(١) نعت البدايات ص ١١ ٠

(٢) نفسه ص ٢٠ ٠

(٣) نقلا عن الكشف عن المسائل الخمس ص ٤٩ والضياء ص ١٣٢ ٠

(٤) نفس المصدرين ص٤٨ ـ ٤٩ والضياء ص١٣٠ ـ ١٣٣ وجذوة الأنوار ص١٧ ـ ١٨ و٢٥ و٤٨ ٠

(٣) ويفهم أيضا من نصوصهم أن المعول عليه عندهم في العلم هو العلم اللدني أو الكشف • (١)وأنه لابد في تحصيل هذه المكانة التي بها ينال العلم اللدني من اجتهاد في تحصيل العلوم الشرعية ، والمجاهدة على العمل بموجبها حتى ترتاض النفس على ذلك •

ثم إذا حصل شيء من الكشف أو العلوم التي تقع في النفس لابد من عرضها على نصوص الكتاب والسنة إذ إن كل حقيقة كما يقولون . تخالف الشريعة كفر• (٢)

(٤) ويمكن أن نقول بأن كبار شيوخهم الذين تقدمت ترجمتهم حصلوا مثل هذه الشروط ، ولكن غالبية أتباعهم الذين تروى كشوفاتهم وإشاراتهم و تنشر بين الناس لم يحصلوا علوم الكتاب والسنة حتى يعرضوها عليهما ، وهم يعملون بما يقع في نفوسهم ، ويصدقون بما يحكى لهم عن غيرهم مما يحتمل أن يكون مخالفا للكتاب والسنة والاجماع وهم غير عالمين بذلك•

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية في وصف حالهم المذكور وأمثالهم : (لكن قد يعمل أحدهم تارة بغير العلم الشرعي، بل بما يدركه ، ويجد إرادته في قلبه وإن لم يكن ذلك مشروعا مأمورا به • وهكذا كثيرا ما يبتلى به كثير منهم من تقديم علمهم بالذوق والوجد على موجب العلم المشروع ومن العمل بذوق ليس معه فيه علم مشروع)• (٣)

(٥) ثم ما فائدة إطلاق هذه العبارات ، وهي لاتعطي علما بذاتها ، ولا يعمل بالعلم اللدني أو الكشف أو الفيض إلا بعد موافقته للكتاب والسنة، حيث يكون العمل في هذه الحالة أو التصديق للكتاب والسنة أومدلولهما أو ما يشهدان له وفي هذه

---

(١) أنظر:جذوة الأنوار ص١٢ و٢٠ و٤١ ، الضياء المستبين ص١١٣ . ١١٦ و٣٤٨ •

(٢) أنظر : جذوة الأنوار ص ٥٥ . ٥٦ •

(٣) الاستقامة ، مرجع سابق جـ ١ ص ٩٩ •

الحالة لايجوز أن يقول مسلم إنه عمل بما وقع في نفسه فقط.(١) لذا قال سيدي المختار الكنتي : (كل علم لايصدقه الكتاب والسنة فاضرب به وجه صاحبه) (٢) .

(٦) إن العلم اللدني إنما احتاج إلى العرض على نصوص الكتاب والسنة ليتميز الفرق بين اللدني الرباني واللدني الشيطاني ..

وهم معترفون بذلك . فمن لم يعرف الشريعة بنصوصها ودلالتها لا يعرف هل علمه لدني رباني أو لدني شيطاني ، فكيف يقال بأن عنده علم حقيقة الشريعة أو باطنها (٣)

(٧) قال شيخ الاسلام إبن تيميه : (ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من له طريق إلى الله لايحتاج فيه إلى محمد فهذا كافر ملحد ، وإذا قال أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن ، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة ، فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا: إن محمدا رسول إلي الأميين دون أهل الكتاب . فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض فكانوا كفارا بذلك ، وكذلك هذا الذي يقول إ ن محمدا بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر..) (٤)

ومع أن القادرية قائلة بعلم الظاهر والباطن وأن الشريعة قشر والباطن لبها إلا أنه يبعد عندي أنهم أرادوا بهذه الألفاظ موافقة الباطنية وغلاة الشيعة الآخرين في القول بمثل ما تضمنه هذا النص .

---

(١) انظر : نشر البنود على مراقي السعود ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط ١ سنة ١٤٠٩ ج ٢ ص ٢٦١ . ٢٦٣ وقارن بما في نعت البدايات ص ٧٣ .

(٢) جذوة الأنوار ص ١١٥ .

(٣) نفسه ص ٢٠ وما بعدها ، وقارن بما في الصفدية ج ١ ص ٢٥٣ . ٢٥٤ .

(٤) مجموع الفتاوى ج ١١ ص ٢٢٥ .

والسبب في ذلك أنهم أهل بادية لاتعمق لهم في الفكر والفلسفات الغامضة ٠

ثم إنه لم تكن بالمغرب بصفة عامة وصحراء موريتانيا بصفة خاصة مراكز لمثل هؤلاء الملاحدة وإن كانت كتبهم لا شك في وصول بعضها إليهم ٠ ويشهد لذلك أنهم ليسوا بأصحاب تحقيق كما تقدم ولذا يجد الباحث في كتبهم تكرارا لمثل هذه العبارات وكأن معناها ليس واضحا عندهم وهم نقلة في الغالب ، ويمكن أن يشهد النص التالي لمثل هذا كما يوضح مرادهم الحقيقي بها :

(وأما من أدرك الشريعة غير مبال بإدراك الحقيقة وليست عنده بذلك المحل يزعم أنه مستغنن عنها وعن أربابها بما أداه فذلك فاسق في ظلمات الحيرة ، ليس له نصيب من أنوار الغيرة ، لكنه يبقى في سواد الاسلام لتمسكه بظاهر الشرع العزيز ، وأما من لا شريعة معه ولا حقيقة فهو من جملة الهمج ورعاء الغوغاء تقلبه رياح الأهواء) (١) ٠

إلي أن قال صاحب النص : (فمن صدق بالشريعة دون الحقيقة فهو منافق ، ومن صدق بالحقيقة دون الشريعة فهو كافر محضا) (٢) ٠

قلت : فهذا النص موافق لما ذكر قبله من حيث إن التصديق بظاهر الشرع دون الايمان والعمل بموجبه أو فهم دلائله التي لها ارتباط بأعمال القلوب فإنه يكون حاله دائر بين الفسق أو الكفر أو الايمان ببعض دون بعض وهو كفر ، أو أنه باق في سواد الاسلام بجهله (٣) ٠

على أن الباحث لايمكن أن يستبعد تأثر القادرية بكتب الشيعة أو غلاة الصوفية ذلك أنه يوجد في كتبهم ما يدل على حيازتهم لكتبهم وترديد لأفكارهم من

---

(١) جذوة الأنوار ص ١٨ ٠

(٢) نفسه ص ١٨ ٠

(٣) أنظرجذوة الأنوار ص ١١٢ . ١١٣ وأنظر جنة المريدص ١٧١ . ١٨٥ والضياء ص ١٢ . ١٣ و ١١٣ و ١٣٩ ٠

القـــول بوراثـة الخلافة الباطنـــة وأن النبوة وراثة (١) وأن للقرآن الكريم معاني باطنـــة (٢) ٠

قال الشيخ سيدي محمد الكنتي : (وبقيت الخلافة الباطنة التي هي عين إرث النبوة على حالها عند أهل بيت النبوة المطهرين ٠٠٠ فظهر منه أن إرث النبوة باق فيهم إلى آخر الأبد يرثه عنهم من حقق الولادة النبوية بمقتضى قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم (أنا أبو كل تقي ولو كان عبدا حبشيا وبرىء من كل شقي ولو كان حرا قرشيا) (٣) وقال صاحب الضياء في أماكن عديدة منها : (ومما أوجب الشرع تخصيص أحد الأولياء بالغوثية الباطنية) (٤) ٠

وقال المختار الكنتي نقلا عن غيره : (قال بعض العلماء ما من آية من القرآن إلاولها سبع معاني ظاهرة وباطنية) (٥) ٠

فهذه الألفاظ وأمثالها مما يشابه كلام الشيعة الباطنة في كتب القادرية كاف في إثبات نوع من الصلة بينهما علاوة علي ما تقدم عند ترجمة الشيخ عبد القادر ٠ وهذه الالفاظ وما يترتب عليها من اعتقادات فاسدة قد حذر منها العلماء قديما وحديثا وإعتبروها من دسائس الباطنية والزنادقة لهدم قواعد الشريعة ٠

---

(١) جذوة الأنوار ص ٤٨ ـ ٤٩ والضياء ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ ٠

(٢) جذوة الأنوار ص ١١٢ ـ ١١٣ ٠

(٣) جنة المريد : قلت : هذا اللفظ لم أجده وإنما وجدت الشيخ الألباني ذكر لفظ : (أناجد كل تقي) ثم قال : (لا أصل له ٠ سئل عنه الحافظ السيوطي فقال : (لا أعرفه) ذكره في كتابه (الحاوى للفتاوى) (جـ ٢ ص ٨٩ السلسة رقم (٩) ولم أجده في المكان المذكور وراجع المقاصد الحسنة ص ٥-٦ ٠

(٤) الضياء ص ١٢ ـ ١٣ و ١٢٩ ٠

(٥) جذوة الأنوار ص ١١٢ ـ ١١٣ ٠

قال الغزالي : (وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه في الشطح ، وأمر آخر يخصها وهو صرف الفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الافهام فائـــدة كدأب الباطنية في التأويلات ، فهذا حرام وضرره عظيم ··· وبهذا الطريق توصل الباطنة إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم··) (١)

ووافقه على ذلك ابن عقيل كما نقله عنه ابن الجوزي فقال : (ولم يتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة حتى جاءت المتصوفة فجاؤا بوضع أهل الخلاعة · فأول ما وضعوا أسماء وقالوا : حقيقة وشريعة ·وهذا قبيح لأن الشريعة ما وضعه الحق لمصالح الخلق ·فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع في النفوس من القاء الشياطين · وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع) (٢) · وقد تابعه على مثل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية (٣) وابن خلدون (٤) ·

ويذهب المستشرق الفردبل إلى أنه قد شاع في المغرب بين صفوف الصوفية القول (بتأويل القرآن وأسماء الله والأحاديث تأويلا باطنيا وتفسيرات أهل الطريق·) (٥) ·

وما دامت هذه الالفاظ مبتدعة من قبل الزنادقة والباطنية فإنه يحرم استعمالها ونشرها بين الناس أو اعتقاد مدلولها وإلا كان صاحب ذلك معرضا للحكم عليه بالزندقة والكفر ، ولذا ورد عن الامام مالك بن أنس رحمه الله قولة : (شر العلم الغريب وخير العلم الظاهر الذي قد رواه الناس) (٦) ·

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٤٠ ·

(٢) تلبيس إبليس ص ٤٥٠

(٣) الصفدية جـ ١ ص ٢٣٦ وما بعدها وص ٢٦٧ -٢٦٩ ·

(٤) مقدمة بن خلدون ص ٨٧٥ وما بعدها ·

(٥) الفرق الاسلامية في شمال إفريقيا ص ٣٨٥ ·

(٦) ترتيب المدارك جـ ١ ص ١٨٤ ·

وروي عنه أنه سأله رجل عن الشيء من علم الباطن ، فغضب وقال : (علم الباطن لا يعرفه الا من عرف علم الظاهر فمتى عرف علم الظاهر وعمل به فتح عليه علم الباطن) (١) ومما تستدل به القادرية على علم الباطن بالمعنى الدي تقصده الباطنية • حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : (حفظت من رسول الله صلي الله عليه وسلم وعائين : فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم) (٢)•

قال الحافظ بن حجر : (وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي تبين أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم) وقد كان أبو هريره يكني عن بعضه ولا يصرح به خوفا على نفسه منهم) •

وقال ابن المنير: (جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهرا و باطنا ، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين ••) (٣) والعياذ بالله •

---

(١) نفسه جـ ١ ص ١٢٧ •

(٢) صحيح مسلم ، كتاب العلم ، باب حفظ العلم ، الحديث رقم : (١٢٠) وأنظر : جذوة الأنوار ص ١٠١ وبذل الوسع ص ٧١ والضياء المستبين ص ١٩٢ . ١٩٣ •

(٣) فتح الباري جـ ١ ص ٢١٦ . ٢١٧ •

المبحث الثالث : موقفهم من الجهاد

تقديم :

الجهاد في سبيل الله تعالى ثابت في الكتاب والسنة والاجماع ، ومن ينكره أو يفسر المراد منه بما يخالف النصوص الواردة فيه يكون حكمه حكم المرتد على الغالب كما هو حال الدعوات الهدامة التي أنشأها الاستعمار في البلاد الاسلامية (١) ولكن لسعه دائرة الجهاد وتعدد جوانبه وميادينه تفاوت الناس بعد العصور المفضلة في العناية به فمن مقتصر على الجهاد بالسنان ، ومن قائم على الجهاد بالقلم والبيان ، والقليل من جمع بين الميادين الجهادية كلها (٢) .

مدخل عام :

وإذا أخذنا كمدخل لهذا المبحث في الحديث عن الجهاد عند القادرية ابتداء من الشيخ عبد القادر نجد أن المترجمين له يجمعون على أنه كان طالب علم ثم شيخ رباط لا يخرج من رباطه إلا يوم الجمعة ، فعلى هذا لا يمكن اعتباره في المجاهدين بالسلاح ، ولكن يعد من المجاهدين بالدعوة إلى الله والوعظ والارشاد والبلاغ حتى قالوا عنه إنه أسلم على يديه أكثر من خمسمائة ، وتاب على يديه أكثر من مائة ألف (٣) ولكن لم يجعل هو في الغنية ولا السهروردي في العوارف ولا الغزالي في الاحياء كتابا أو بابا للحديث عن الجهاد في سبيل الله ، ويفهم من ذلك أنهم يقدمون عليه المرابطة الصوفية في الاربطه (٤) . وهكذا لم نعثر على من له جهود بارزة في ميدان

---

(١) عقدية ختم النبوة بالنبوة المحمدية . عثمان عبد المنعم عيش ط ١ سنة ١٣٩٦ هـ مكتبة الأزهر ص ٨١ ـ ١٨٦ والبريلوية عقائد وتاريخ ، إحسان إلهي ظهير ، ط ٦ سنة ١٤١٠هـ الناشر : إدارة ترجمان السنة لا هور باكستان ص ٣٦ ـ ٤٤ .

(٢) من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية .

(٣) اعلام النبلاء ج ٢٠ ص ٤٤٧ و ٤٤٩ .

(٤) الغنية ج ٢ ص ١٥٨ وما بعدها . عوارف المعارف ط ٢ لنبان سنة ١٤٠٣ هـ ص ١٠٣ وما بعدها وإحياء علوم الدين ، المقدمة ج ١ ص ١٠ ـ ١١ وأبو حامد الغزالي والتصوف عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية دار طيبة الرياض ط ٢ ١٤٠٩ هـ ص ٣٣٩ وما بعدها .

الجهاد بالسيف للكفار في عامة شيوخ القادرية الذين تقدمت ترجمتهم في السلسلة القادرية الموريتانية وحتى القرن التاسع الهجري حيث كان الشيخ المبـــاشر للقادرية الموريتانية الامام عبد الكريم المغيلي الذي أجمع الكتاب عن المنطقة على أمامته وجهاده في جميع ميادين الجهاد حتى قارنه النشار في ذلك بشيخ الاسلام إبن تيمية (١) قال عنه أحمد بابا التنكي : (متمكن المحبة في السنه وبعض أعداء الدين وقع له بسبب ذلك أمور مع فقهاء وقته حين قام على يهود (توات) والزمهم الذل بل قتلهم وهدم كنائسهم) (٢) ، وتازعه في ذلك بعض الفقهاء وانتصر له معظمهم ، وقد جمع صاحب المعيار المغرب ما حصل في تلك الوقائع من الفتاوى والمنازعات (٣) وقد جال هذا الامام في بلاد إفريقية ونشر العلم ودعى إلى الله وألف الكتب العلمية ودون الأحكام السلطانية وجاهد في الله حق جهاده حتى مات في (توات) منطقتة بعد أن قتل اليهود ابنه فيها .(٤)

ولكن المغيلي يعد بجهاده بالسيف لليهود وغيرهم خارجا عن منهج القادرية الذي يصفه كتاب غربيون بأنه منهج متسامح يقوم على الدعوة والارشاد فقط.

يقول بول مارتي عن المغيلي (إنه أبرز وجه ديني في ذلك العصر ... وكان داعية كبيرا للاسلام ، وجاء ليحمل الهداية للبلاد السوداء وحتى في بلاط آسكيا في فاوو ، وقد أدت محاولاته في الاصلاح ونشر الاسلام إلى انتفاضات في (توات) ، ولا سيما من جانب اليهود ، هلك أحد أبنائه خلالها .

وذلك (عندما شرع في مطاردة اليهود ، وهم كثير للغاية في الواحات الصحراوية وخرب قراهم وشرد سكانها سواء في إفريقيا الشمالية أو في الصحراء السودانية) .

---

(١) مقدمة تحقيق كتاب السياسة ص ٢٧ .

(٢) نيل الابتهاج ص ٣٣٠ .

(٣) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقيه والاندلس والمغرب . تأليف ابى العباس أحمد بن يحيى الونشريس . نشر وزارة الاوقاف المغربية ١٤٠١ هـ ج ٢ ص ٢١٤ . ٢٦٦

(٤) العلاقات بين المغرب الاقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتيين الإسلاميتين مالي وسنغي الشيخ الأمين عوض الله . دار المجتمع العلمي بجدة سنة ١٣٣٩ هـ ص ١٨٥ . وما بعدها . والملحق (١٠) ص ٢٤٣ وما بعدها .

(وكان المغيلي هذا ، الرئيس الأعلى للطريقة القادرية في الغرب الإفريقي) (١)٠

قلت : هذا تصوير هذا الغربي لجهاد هذا الامام القادري الذي وصفه أيضا بأنه : (داعية إسلامي لا يقهر) (٢) ٠

ولكن يخالفه بعض الكتاب الآخرين الذين يرغبون أن تظل الساحة الاسلامية مسالمة ومهادنة لينعموا هم بنشر ما يريدون ، ويمتدحون من عاصرهم من القادرية بالتسامح الديني إذ إن الجهاد بالسيف يرعبهم كثيرا فيقول السيرتوماسى في كتاب الدعوة إلي الاسلام عن القادرية ونظامها في نشر الاسلام : (وكان نشاط هذه الجماعة في الدعوة ذا طابع سلمي للغاية يعتمد كل الاعتماد على الإرشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم منهم في تلاميذه كما كان يعتمد على انتشار التعليم ٠

وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية في السودان على أنهم أوفياء لمبادىء مؤسس الجماعة ولتقاليدها العامة ٠ ذلك لأن أهم المبادىء التي كانت تسيطر على حياة عبد القادر هي حب الجار والتسامح ولا نجد في كتبه ولا في مواعظه ما يدل على سوء نية أو عداوة نحو المسيحين وكان كلما تكلم عن أهل الكتاب ، لم يزد على أن يعبر عن أسفه على ما هم فيه من باطل ويدعو الله أن ينير لهم السبيل وقد أوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح الذي كان صفة بارزة في أتباعه في جميع العصور) (٣)

ويتابعه في نظرته لهم من خلال تعرفه على واقعهم (لوثروب الامريكي) : فيقول بعد تعريفه للشيخ عبد القادر : (وكان له حرمة حقيقية للسيد المسيح وكان يقول : (يلزم أن ندعو لا لأنفسنا فقط ، بل لكل من خلقه الله مثلنا ٠ فلذلك امتاز أتباعه بروح التسامح مع النصارى واليهود)٠

ويأتي بمعلومات عن نظامهم في التعليم والدعوة ويقول إنهم يصنعون ذلك : (لأجل مقاومة التبشير المسيحي في السودان) ثـم يقول : (وبالاجمال فالقادرية هم

---

(١) بول مارتي كنتة الشرقيون ص ٣٣ ٠

(٢) نفسه ص ١٤٢ ٠

(٣) الدعوة في الاسلام ص ٣٦٦ ٠

أحمس مبشرى الدين الاسلامي في غرب إفريقية من السنيغال إلى بنين التي تقرب من مصب النيجر ، وهم ينشرون الاسلام بطريقة سلمية أي الإستعمار والتجارة والتعليم ..) (١) . ولا شك أن نشر الاسلام بأي طريقة كانت من أعظم القربات ، والتسامح بصفة عامة من خلق المسلم ما لم يؤدي إلي فساد ، ولكن لو قام هؤلاء الموفصـــون عند هؤلاء الكتاب بالتسامح الديني بواجب الجهاد في إفريقيا لكان الاسلام عمها كلها ، ولكانت روحه عالية تصد هجمات الغرب الاستعمارية والصليبية البائرة وما امتدحوهم إلا لما رأوا فيهم من الليونة معهم في باطلهم وتغاضيهم عنهم في تدخلاتهم .

والحاصل أن الجهاد بالسيف لم ينتظم في تلك البلاد بصفة عامة بعد الدولة المرابطية وإن ظل الإسلام في انتشار وازدياد إلى اليوم بحمد الله .

على أن كثيرا من الكتاب المسلمين يظهرون أثر الطرق الصوفية في ذلك بمزيد من المبالغة وإن سلم من نسبة كل ذلك الفضل للطرق الصوفية فإن الواقع يؤيده إلى حد كبير وقد شهد بذلك الكفار على ما مرفي النصوص السابقة .

ويبقي أن يقال بأن الاسلام الذي نشرته الطرق الصوفية لم يكن في نفوس الشعوب بذلك المستوى الذي يعطي ثمارا إيمانية تميز الحق من الباطل وترفض الخلط بين الايمان والشرك ومظاهره هذا علاوة على ما عرف عن الطرق الصوفية من بثت روح الإرجاء وإهمال أسباب القوة والاقتصار على السلوكيات والأوراد التي قد لاتكون ذات أثر كبير لبعدها من نور الوحي واعتمادها صياغات الشيوخ الذين تقدم أن معظم أتباعهم والصادرين عنهم يعيشون في جهل مطبق (٢)

ولا شك أن القادرية في إفريقيا في مجال الدعوة والتعليم ونشر الاسلام كان لها أثر كبير جدا غير أنه كان معها غيرها من تجار المسلمين ودعاتهم وعدم ذكرهم وإعطاء فضلهم لغيرهم لايليق بالبحث العلمي الذي يتحتم فيه الإنصاف ، على أنه من

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٣٩٦ .

(٢) أنظر : واقعنا المعاصر محمد قطب ط ٢ سنة ١٤٠٨هـ مؤسسة المدنية ص١٣٩ - ١٦٤ و ١٦٥ . ١٧٩ .

الاتصاف أيضا أن يقال بأن شيوخ القادرية والصادرين عنهم كانوا أكثر تركيزا على نشر الاسلام لطلب المزيد من الأتباع ، ولذا كانو أكثر استقرارامن غيرهم في بعض المناطق النائية الوثنية والتي لم يعد يوجد فيها الآن إلا المسلمون (١)

قال الخليل النحوي في وصفه لخطط الطرق الصوفية في نشر الاسلام :

(لم تكن الخطة التي حقق بها الزوايا ما عجزوا عن تحقيقيه بالسلاح خطة إقليمية ، قاصرة على مضارب خيامهم ومنتجعات مواشيهم · بل كانت خطة عامة ذات بعد إنساني · لقد توقفت الفتوحات التي تعضدها قوة السلاح) (٢) ·

ويعلل الخليل ذلك التوقف بقوله : (أصبحت دار الإسلام ديارا متصدعة الجذر، وكان في الوهن الذى أصاب المسلمين ما ينذر باحتمال توقف انتشار الإسلام خارج دياره) (٣) · إلى أن يقول : (ومن ذلك الحين لم تتوفر للعرب ولا للمسلمين القوة التي تمكنهم من أن يفتحوا البلاد الأخرى ويصدعوا فيها بما أمروا ويبرزوا في حياتهم وسلوكهم نموذج الإنسان المسلم ليقتدى بهم الناس عن بينة أو يعرضوا وقد قامت عليهم الحجة) (٤) ·

وفي هذا النص تصوير كامل لواقع المسلمين الجهادي وهو في نظري يوافق الواقع في البلاد المذكورة تماما إلا أن النص التالي وإن كان صوابا في مجمله ففيه من نسبة الفضل الكامل للطرق الصوفية ما لا يخفى ، قال الخليل النحوي : (هنا كان تدخل الطرق الصوفية رائعا . لقد حملت لواء الفتوحات الذي وضعه المجاهدون واستمرت في نشر الإسـلام في أنحـاء المعمورة ، فحققت بالسبحة والكتاب واللوح ما لم يتحقـق في

(١) أنظر : بلاد شنقيط ص ١٢٥ . ١٢٦ ·
(٢) بلاد شنقيط ص ١٢٦ ·
(٣) نفسه ص ١٢٦ ·
(٤) نفسه ص ١٢٦ ·

عهدها بالسيف والترس والرماح وفي إفريقيا بالذات أبلت هذه الطرق بلاء حسنا • إن الطرق الصوفية على الخصوص ومنذ القرن الثامن عشر هي التي حملت رسالة الإسلام للشعوب السوداء) (١) •

على أن صاحب النص لم يقصد بكلامه حيازة كل الفضل لهذه الطرق الصوفية بدليل أنه سجل لشيوخ المحضرة الموريتانية أثرهم الكبير في نشر الإسلام والتحرك في البلاد للدعوة إلى الله ، وليس كلهم شيوخ طرق أو أتباعا لها (٢) •

وبما تقدم من الحديث عن موقف القادرية من العلم ونشره وتحصيله وإقامة المراكز والمدن وتوفير وسائل الاستقرار مع كثرة الحركة التجارية والرحلات والسياحات والزيارات المتبادلة بينهم وبين أتباعهم يمكن أن يقال بأنهم في هذه الجوانب كانوا مجاهدين في سبيل الله وكل على نيته في ذلك والله يضاعف لمن يشاء (٣) •

وإذا أردنا أن نخرج بنتيجة واضحة عن موقف القادرية من الجهاد بالسيف فإنه يمكن تناول ذلك الموقف في هذين المطلبين الآتيين :

المطلب الأول : موقف شيوخ القادرية من الجهاد قبل الإستعمار الفرنسي •

المطلب الثاني : موقف شيوخ القادرية من الجهاد إبان ظهور المستعمر •

---

(١) نفسه ص ١٢٦ •

(٢) أنظره ص ١٢٥ •

(٣) أنظر : كتنة الشرقيون ٣٩ وما بعدها • والدعوة الإسلامية في غرب افريقيا وقيام دولة الفولاني . حسن عيسي عبد الظاهر ، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية المجلس العلمي سنة ١٤٠١ هـ ص ١٦ وبلادشنقيط ص ١٢٤ . ١٢٥ . ١٢٦ •

المطلب الأول :

موقف القادرية من الجهاد قبل الاستعمار

قال ابن خلدون بعد ذكره لنشر المرابطين للإسلام بالجهاد في أفريقيا (وبقي من أقام بالصحراء منهم على حالهم الأول من إفتراق الكلمة واختلاف البين وهم الآن يعطون طاعة لملوك السودان ويجبون إليهم خراجهم وينفرون في معسكرهم وأتصل بنيانهم على بلاد السودان ..) (١)

وقد أنتشر الاسلام في مالي وغانه وما جاورهما في عهد المرابطين ودخله أمراء البلاد وفتحوا المجال للدعاة والتجار فانساخوا في البلاد ينشرون الدين بالدعوة والقدوة الحسنة ، وكان منهم ملوك عملوا على نشر الاسلام بالقوة وإدخال مساحات كبيرة من البلاد الوثنية في ممالكهم (٢) إلا أنه بعد دخول القادرية على يد المغيلي في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر لم نجد بعده من يذكر عنه الجهاد بالسيف للكفار الباقين في البلاد المجاورة بل إن المذكور عن اصحابه من بعده الاقتصار على الدعوة ونشر الاسلام بالقدوة على ما تقدم في النصوص الماضية من خطتهم في ذلك .

وإذا أخذنا في الحديث عن جهاد المختارية والفاضلية بعد أن عرفنا بهما في القرن الثاني عشر الهجرى نجد أن المؤلفين منهم في المجال الفقهي بوبوا للجهاد في مؤلفاتهم ودرسوا نظريا في كتبهم وفتاواهم جهاد الكفار والبغاة والمحاربين ، والقتال للعصبية والحكم فيه ، وردوا على دعوات المهدوية وساعدوا من حارب مدعيها ، وشاركوا مشاركة ظاهرة فى توطيد سلطة بعض الأمراء التابعين لهم في الطريقة ولو أدى ذلك إلى تشجيعهم لقتال قوم آخرين ، وسفك دمائهم وأخذ أموالهم ، بالاضافة إلى أن بعض شيوخهم عاش في بيئة قبلية متناحرة لا يسلم المرء وإن احترس من شرها من الاشتراك أو المشاركة فيها بقصد أو بدون قصد . (٣)

---

(١) ابن خلدون . التاريخ جـ ٦ / ص ١٩٨ .

(٢) أنظر نفسه ص ٦ . ١٩٨ . ٢٠٢ .

(٣) الطرائف ص ١٦٩ و ٥١٨ والغلاوية ص ٩٧ . ١١٨ و ١٥١ وكفاية الطلاب كتاب الجهاد (خ) والصوارم الهندية في حسم دعاوى المهدية (خ) والوسيط ص ٤٩٢ ٥١١ وبلاد شنقيط ص ٢٦٧ ودليل الرفاق على شمس الاتفاق جـ ١ / ص ٣٥١ .

بهذا يعرف أن القادرية كانت مشاركة فعلا في كثير من الصراعات التي تشهدها البلاد بغض النظر عن كون ذلك جهاد أو تدخلا لحفظ المكانة والمصلحة أو للدفاع عن الحمية والمنفعة .

على أن بعض الكتاب يرفع من مكانة القادرية وأثرها في البلاد حتى يوصل شيوخها إلى مكانة تقارب مكانة الخلفاء والسلاطين ، وهذا ما يزيد من مسؤليتها ويبعث على نقدها نقدا يوازى ذلك المستوى الذى أعطي لها .

فالشيخ سيدي محمد الكنتي يرى أن والده : (تهيأت له سائر الولايات) (١) وأنه (كان يصلح بين الناس ويولي ويعزل) .(٢)

أما الشيخ سيدي (فإن العرب في أرض شنقيط تجعله حرما آمنا ..) (٣) وكان الشيخ محمد فاضل له جانب كبير من السلطة والتوقير (٤) وكان للشيخ القاضي وأبنائه من بعده الكلمة النافذة في محيطهم (٥) ويلخص هذه المكانة الخليل النحوى من وجهة نظره فيقول : (فقد تحقق للزوايا بالطرق الصوفية من السلطة ما لم يكن ليتحقق لهم بقوة السلاح . وقد استطاعت الطرق أن تقيم (دولا) وأشباه دول غير معلنه أساسها شعبية عارمة تدعمها دبلوماسية حصيفة وروح سلمية تتحلل في مواجهتها قوة الرجال المسلحين) (٦) .

وإذا سلم الباحث ببعض ما ذكر في هذه النصوص فإنه لابد من القول بأن أصحابها لم يستثمروها إلا في حدود ضيقة تعود على زواياهم بالنفع العاجل .

---

(١) الطرائف ص ١٦٦ . ١٦٩ .

(٢) نفسه ص ٣٨٣ . ٣٩٢ وما بعد ذلك وكنتة الشرقيون ص ٦٦ وما بعدها . وكنتة الشرقيون ص ٧٩ . ٨٢ .

(٣) الوسيط ص ٢٤١ .

(٤) الضياء المستبين ص ٢٧١ و ٢٨٢ وجنة المريد ص ٢٤ .

(٥) دراسة شخصية الشيخ المصطفى بن الشيخ القاضي ص ٨٠٠ . ٨٩ .

(٦) بلاد شنقيط ص ١٢٥ .

بدليل أنه لم تصدر منهم دعوة منظمة لإقامة خلافة إسلامية أو سلطة مركزية عامة تنظر في أحوال الناس ومصالحهم وهم ينظرون إلى الدماء تسفك في غيرحق ، والأموال تنهب وتتلف في غير وجه شرعي ، والاعراض تغتصب ، والاحكام معطلة ٠ (١)

والا فما فائدة المكانة والسلطة والاحترام ، إذا لم يسخر للجهاد في سبيل الله وتحكيم شرعه ، وإقامة الأمن في ربوع البلاد ٠ ومع ذلك فإنه لا ينكر أنه قامت دعوات متفرقة لإقامة خلافة راشدة أو سلطة معتبرة (٢) ولكن لم تلق من الاطراف جميعا ذلك التعاون الذي يساعد على إخراجها في واقع الناس ٠

ثم إذا نظرنا إلى ما ذكر عن إتخاذ حضرات الطرق الصوفية حرما آمنا نجد فيه من المبالغة ما يكفى للحد من إطلاقه أن يقال بأنه ثبت في التاريخ ومن كتب القادرية أنفسهم تسلط اللصوص على أموالهم وتجارتهم ، وغزوهم في عقر دارهم ٠

فهذا الشيخ على بن النجيب شيخ القادرية في عهده يسوق السراق إبله فينبعث تلميذه المختار الكنتي معه لاستردادها منهم (٣) كما تعرض المختار الكنتي نفسه فيما بعد لغزو وسطو من هؤلاء اللصوص والظلمة الذين لا تقف في وجههم سلطة ولا يعرفون دينا يرتدعون به من أنفسهم (٤) ٠

وحصلت نفس المعاناة من الظلم والتسلط لكل من الشيخ سيدي محمد (٥) والشيخ سيديا (٦) وولده الشيخ سيدي محمد (٧) ، والشيخ محمد فاضل وأبنائه (٨) ٠

---

(١) أنظر: الموسوعة الموريتانية المختار بن حامد جزء القلاقمة نقلا عن :

دور المحاضر الموريتانية في الجهاد محمد المصطفى الندى ص ٨٠ ـ ٨١ ٠

(٢) بلاد شنقيط ص ٣١١ وما بعدها ٠ وكتاب طرد الضوال والهمل عن الكروع في حياض مسائل العمل ٠ ط ١ سنة ١٩٨٥ هـ نواكشوط ٤ وما بعدها ٠

(٣) الطرائف ص ١٠٥ ـ ١٠٦

(٤) نفسه ص ٣٨٣ ـ ٣٢٤ ٠

(٥) الغلاوية والصوار الهندية فأن فيهما بيان لما كان يتعرض له من أذى جبرانه ومعاصريه ٠

(٦) موسوعة المختار بن حامد ـ حياة موريتانيا ـ محمد المصطفى بن الندى ص ٨٠

(٧) الوسيط ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ ٠

(٨) الضياء المستبين ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ و ٢٤٣ و ٢٨٢ ٠

فالحق أن يقال إنهم كانوا من بين المستضعفين في تلك البلاد السائبه (١) التي لم يتفقوا على إنقاذها مما هي فيه ، وكل منهم أكتفى بتعلم بعض الأسرار والعزائم والرقي والتمائم التي قد تصل بصاحبها إلى حد الشرك والكفر كما صرح بذلك أئمة المشايخ في الطريقة القادرية نفسها فضلا عن غيرهم من الفقهاء الآخرين (٢) .

عـــــرض :

وهذه نصوصهم التي تبين حالهم ، وتركهم لمظاهرالقوة ودخولهم في سلك المستضعفين في تلك البلاد .

يقول الشيخ سيدي محمد بن المختار الكنتي معتذرا عن قومه الذين هم حملة لواء القادرية البكائة : (إن كنته قبيلة من قبائل الزوايا المتقادمة التي لا نسبة لها في التلصص ولا في البغي ولا في الحرابة وإذا ثبت أنه لا أصل لها في الحرابة والبغي وليسوا ممن عرف بذلك وأتسم به متقدما دخلوا لا محالة في غمار الزوايا الذين هم على أنحاء منهم الذين لا يحملون السلاح ولا يتخذون الاتباع ولا يواسون لصا وهم زوايا القبلة ، ومنهم الذين يحملون السلاح وتأوي إليهم الأتباع ويواسون اللصوص وهم مع ذلك متسيرون بسيرة الزوايا متدينون يتعلمون العلم ويعلمونه وفيهم العلماء والأولياء ثم من تعدى إليهم مدفوع المواساه من لص ومحارب دفعوه عن أنفسهم وأموالهم وحرمهم بما بأيديهم حاليا ذلك عليهم ما هو جالبا وهؤلاء زوايا تكانت والحوض ، ومن خلفهم من الزوايا إلى منتهى المعمورة فإن وقع بين القبيلتين منهم نزاع وتشاجر في نائرة ردوها إلى الله ورسوله ثم رجعوا إلى ما حكم به الشرع العزيز في النائرة فإن اعتدى معتد منهم لم يجـــد مساعدا من حزبه بل تناصروا فيه فردوه إلى الحق ولم يجد ناصراً ولا مظاهــرا) (٣)

---

(١) بلاد شنقيط ص ١٠١ وما بعدها

(٢) الشموس الاحمدية ٢٠ . ٢١ وجنة المريد ص ٢٤ . ٢٥ والضياء المستبين ص٢٤٣ وغيرها . ورشد الغافل ، وكتاب مذهب المخوف على دعوات الرحروف ص ١١ وغيرها .

(٣) الغلاوية ص ٨٥ . ٨٦ .

وأما الفاضلية فإن الشيخ سعد أبيه ينقل موقف والده من حمل السلاح ويوضح ما كان عليه من الابتعاد والفرار من مواطن القتال التي يبدو أنه يصورها كلها بأنها فتن لاجهاد • وعندي أنه مصيب في كثير من ذلك دون تعميم ، ويتلخص ذلك الموقف فيما يأتي :

(١) التحذير من الفتن وأن الصبر زمن الفتن أجمل •

(٢) وحث الزوايا على عدم حمل السلاح ، وأن حمله مفسدة للدين •

(٣) وأن السلف كانوا يختارون درجات الصبر على ما عسى ينال من شهادة القتل • (١)

هذا موقفهم من السلاح وأسباب القوة والله تعالى بقول ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم •• ﴾ (٢) •

ويقول تعالي ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله •• ﴾ (٣)

وهم يقولون بأن التعرض للأمور العامة كالجهاد عاقبته سيئة (٤) ويقولون بأن (أول واجب في طريق السير عند أرباب السلوك دفن النفس في أرض الخمول وإيثار الأدنى من كل شيىء ••) (٥) بل إنهم يجمعون على أن الجهاد الاكبر هو جهاد النفس

---

(١) نقلا عن دور المحاضر الموريتانية في الجهاد محمد المصطفى الندى ص ٨١ •

(٢) الانفال الآية (٦٠) •

(٣) التوبة الآية (١١١) •

(٤) الغلاوية ص ١٥١ •

(٥) نفسه ص ٥١ • وإبراز الأدوار الفكرية للشيخ ماء العينين ص ١٥ •

على رسم الصوفية وينقلون في ذلك حديثا يبدو أنه لا أصل له بهذا اللفظ من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وهو : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الاكبر) فقالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله قال : (جهاد النفس) (١) قال الشيخ ماء العينين في تعريف الجهاد : (ويطلق أيضا على جهاد النفس والشيطان وهو من أعظم الجهاد قال شيخنا رضي الله عنه وأرضاه في نظمه (مطية المجد) مرجعا للضمير على النفـس :

جهادها هو الجهاد الاكبر　　　　سلاحها هيلله تكرر (٢)

وهكذا أرادوا أن تكون غير ذات الشوكة لهم (٣) حتى جاءهم المستعمر وغزتهم النصارى في عقر دارهم كما غزى التتار أهل بغداد وهم في أربطتهم يذكرون والذكر مأمور به في الكتاب والسنة على كل حال ويتأكد في حال القتال والمسايفة جهاداً في سبيل الله • علما أنه لا أحد يعترض على جهاد النفس ولا يقلل من قدره ، ولكن من جهادها حملها على الجهاد في سبيل الله تعالى وإقامة شرعه والذود عن حياضه حتى لا يطمع في أهله ودياره الطامعون كما حصل لكثير من بلاد المسلمين كما يتضح إن شاء الله في المطلب الاتي :

---

(١) انظر : فتح الودود ص ١٦٩ والصوارم الهندية في حسم دعاوي المهدية ص ٨٩ . ٩٠ والطرائف ص ٢٥٩ و٣٥٥ . ٣٥٦ • وهو في عوارف المعارف ، مرجع سابق ص ١٠٥ قلت : وذلك لحديث أحمد وغيره عن فضالة بن عبيد قال : (•• سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المجاهد من جاهد نفسه لله أو قال في الله عز وجل) وهو حديث حسن • المسند ج ١٣ / ص ١٠ . ١١ والترمذى باب ما جاء في فضل من مات مرابطا ، ج ٥ ص ٢٠٦ وقد بين ابن العربي أن الصوفية أخذت من هذا الحديث أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر أنظر : عارضة الاحوذى دار الفكر ج ٤ / ص١٢٢ •

(٢) دليل الرفاق ج ١ / ص ٣٥٢ والضياء المتسبين ص ٣٦٧ . ٣٦٨ •

(٣) الطرائف ص ٣٨٥ . ٣٨٦ • والضياء المستبين ص ١٧١ . ١٧٦ •

المطلب الثاني : موقفهم من جهاد النصارى أو (الأستعمار الفرنسي)

لقد وجد المستعمر في البلاد الاسلامية بصفة عامة من يقاومه ، ووجد أيضا من يناصره ويتعاون معه ، وكان للقاديانية والبهائة من خدمة الاستعمار الانجليزي وغيره الاثر الكبير في تحطيم جدار المناعة الاسلامية ضد الغزوات الخارجية وذلك بنشر دعاوى فتح باب النبوة وتعطيل الجهاد ، والحج ووجوب طاعة المستعمر ٠

وقد كان من غلام أحمد بن غلام مرتضى القادياني المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ ٠(١)

والميرزا علي محمد الملقب بالباب المتوفى سنة ١٢٦٥ هـ (٢) ٠

والميرزا حسين علي الملقب بالبهاء المتوفى سنة ١٣٠٩ هـ (٣) ٠

من أتباع الطرق الصوفية الذين لهم سطلة روحية على عوام الناس وأتباعهم ، وزر ذلك وقد استغل المستعمر فيهم ميزات المكانة وحب الجاه والمال والغلو مع الغباوة والتغفيل وعدم الورع فأغدق عليهم من الاموال وهيأ لهم من الأسباب ما مكنهم من الاستمرار في مساعدته على تطويق البلاد الاسلامية ٠ (٤) وقد أشتهر في المغرب الإسلامي أن الاستعمار الفرنسي وجد من يساعده من بعض الطرق الصوفية (٥) ٠

وإذا أقتصرنا على المحيط الذى يتناوله البحث فإننا نجد أن المستعمر بث عيونه وخبراءه ورحالاته ليتعرف على طبيعة البلاد وحال أهلها (٦) ٠

---

(١) انظر : عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص ١٥٧ وما بعدها ٠

(٢) نفسه ص ٩٨ وما بعدها ٠

(٣) نفسه ص ١٢٠ وما بعدها ٠

(٤) نفسه ص ٩٨ . ١٢٠ . و ١٢٠ . ١٥٧ و ١٥٧ . وما بعدها ٠

(٥) مستنهى الخارف الجانى ص ٦١٦ وما بعدها ٠

(٦) حاضر العالم الإسلامي ج ٢ / ص ٥١ ٠

(وقال : غاسطون دونه الفرنسي الذي كلفته وزارة المستعمرات سنة ١٨٩٣ م أن يجوب البلاد التالية ويقدم لها عنها تقريرا) قال في وصفه لمهمته المشار إليها :

(كلفت اختراق البلاد المسماه (الترازه) و (أولاد أبو سبع) و (أولاد دليم) و (بلادالآدرار) والاقامة مدة من الزمن في مستعمرة (ريودو اورو) الاسبانية ثم التقدم من جهة الشمال الشرقي إلى حد (تنيدوف ثم رأس (جوبي) أي وادي درعة) (١). وقد قدم هذا الخبير لوزارة المستعمرات معلومات وافية عن حال البلاد وتقسيماتها التنظيمية والاجتماعية ، وأوضح ما تعيشه البلاد من فوضى وكسل • وهذه أمور مغرية للمستعمر ، كما قال صاحب الوسيط : (وكان هذا من الاسباب الداعية لتوجه فرانسه إلى أرض شنقيط لكثرة القلق والنهب فيها) (٢) ونجد أن هؤلاء الكتاب ركزوا أهتمامهم على أصحاب النفوذ بصفة عامة •

وعلى مشايخ الطرق بصفة خاصة ، وقد نال شيوخ القادرية المعاصرين لهؤلاء الجواسيس مكانة خاصة •

فهذا السيواندرى راسين يقول عن القادرية (وأما القاردية فهي أعظم من الجميع . يعنى الطرق الصوفية الاخرى . وقد اشتهرت بالتسامح والتساهل) (٣) ويصف (غاسطون دونه الشيخ سعد ابيه بأنه : (رجل محمود السيرة) (٤) ونوه بانقاذه لبول سليله الفرنسي من أيدى أولاد دليم (٥) كما نوه باخيه الشيخ ماء العينين قائلا وله أخ اسمه ماء العينين له اسم كبير) (٦) ويقول مارتى : (ويحتفظ الشيخ سيدي محمد في التاريخ بشرف منحه الضيافه للميجر فوردن وليف ، وبذلك

---

(١) نفسه ص ٥١ وما بعدها •

(٢) حاضر العالم الإسلامي ج ٢ / ص ٥٢ . ٥٤ والوسيط ص ٤٨٢ . ٥١١ •

(٣) نفسه ص ٤٥ •

(٤) نفسه ص ٥٤ •

(٥) نفسه ص ٥٤ •

(٦) نفسه ص ٥٤ •

دشن عادة التسامح الدينى الذي احتفظ به شيوخ كنته خلال القرن التاسع عشر) (١) وأستمـر خليفته الشيخ سيدي أحمد البكابي كما يقول بول مارتى معهم في ذلك التسامح • (٢)

ويجمع بينه وبين الشيخ سيديا بابا في الثناء قائلا :

(واستنادا إلى تقارير بارث الذي أتيحت له فرصة ملازمة الشيخ في العديد من المرات ، والتحدث معه ، يتمثل لنا الشيخ بكل وضوح في مظهر صاحب الذهن المتفتح اللطيف المحب للمعرفة تماما كالشيخ سيديا • فقد كان متسامحا قدر المستطاع، لدرجة لا نجدها في كثير من الحالات لدى كبار شيوخ الاسلام) (٣) هذا بوضوح هو موقف القادرية من طلائع الاستعمار ، وجواسسه وهو يتلخص في التسامح والتساهل ، بل والمساعدة على انجاز الاعمال والحماية لفترات زمنية واعطاء جوزات تأمين (٤) •

وقد قدر المستعمر هذه المواقف وأثنى على أصحابها ووضع لهم مكانة كبيرة وعلق عليهم المهام وأمدهم بالهدايا ولكي يكون الأمر أوضح مما سبق نستعرض إن شاء الله الموقف العام من دخول المستعمر إلى البلاد ، ثم نعرض الموقف العلمى لشيوخ القادرية ودوافعهم وأدلتهم في أتخاذ تلك المواقف ، ويكون ذلك بشيء من الإيجاز لأن هذه الفقرة من هذا المطلب بحثت في موريتانيا حديثا ، وتباينت فيها وجهات النظر حتى وصل الأمر إلى حد التكفير أو الاتهام بحب النصارى والعمالة للمستعمر • (٥)

ظهرت دعوات صادقة من بعض العلمـاء الغيارى على الدين والبلاد تنادي بنصب الإمام والجهاد ضـد الكفر والفساد حيث إنهم رأوا فوضى منتشـرة وأرضـا

---

(١) كنتة الشرقيون ص ٨١ . ٨٢ •

(٢) نفسه ص ٨١ و ٩٩ وما بعدها •

(٣) نفسه ص ١٠٠ •

(٤) نفسه ص ١٨ و ١٠٠ . ١٠٤ •

(٥) القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٢٤ •

سائبة وأعداء متربصين قد أظهروا طمعهم في البلاد وبدؤا يطوقونها من الشرق والغرب، ويحاولون إيجاد من يعتمد عليه في البلاد ليكون ذلك سببا وغطاء لدخولهم أو حتى يكون سبب لزيادة تفريق الكلمة وشتات الرأي الواقع في القطر آنذاك .

وكان من بين هؤلاء العلماء الشيخ محمد المامى حيث يقول من قصيدة له في ذلك من أبياتها :

(ويقرأ كلكم كيما تكونوا | سواء للجهاد معطلينا
وقلتم لا جهاد بلا إمام | نبايعه فهلا تنصبونا
إلى كم قولكم مستضعفونا | وأنتم للمعاصي فارغونا
لتمتثلن أولاً كفرنكم | كحسان الألاء تكفرونا) (١)

ويقول الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا من قصيدة يحرض الناس على الاستعداد للنصارى ، ويأمرهم بمحاربة أهل البغي من قبائل حسان :

(ولو في المسلمين اليوم حر | يفك الأسر أو يحمي الذمارا
لفكوا دينهم وحموه لما | أراد الكافرون به الصغارا
حماة الدين إن صارا | أسيراً للصوص وللنصارا
فإن بادرتموه تداركوه | وإلا يسبق السيف البدارا) (٢)

وظهرت محاولات لإخراج هذه الأفكار في حيز الواقع ولكن فشلت لكثرة الاختلاف ، وعدم ظهور بوادر الإئتلاف (٣) وكان الخوف من استمرارها أو نموها

---

(١) ديوان الشيخ محمد المامى ص ١٩٩ . ٢٠٧ .
(٢) الوسيط ص ٢٤٦ وما بعدها . وبلاد شنقيط ص ٢٨٠ وما بعدها .
(٣) أنظر : بلاد شنقيط ص ٣٠٣ وما بعدها . ودور المحاضر الموريتانية في الجهاد ٨٤

من أهم الأسباب التي عجلت نفرسنا إلى احتلال البلاد فوجهت أسئلة لبعض الفقهاء مثل : هل ينبغي للمسلمين أن يجاهدوا النصارى في أرض هم بها غير متعرضين لهم في شيىء من دينهم بل يساعدونهم على اتباع الدين بنصب القضاة وما أشبه ذلك ، وهذا مع أن المسلمين لا قوة لهم على الجهاد .. ؟

وكان الجواب : أن على المسلمين والحالة هذه أن يهادنوا النصاري ومن خلال هذه الفتاوى ظهر خلاف بين العلماء ازدادت به الشقه بينهم (١) ثم عمل المستعمر على تكوين مرتزقة من اللصوص مقاتلين وأدلاء ومخابر بين (٢) واستدعت إلى مركزها بسينغال بعض الشيوخ والوجهاء وأظهرت لهم مالديها من قوة غلبت بها الجزائر وسينغال ومالي وغيرهم من دول افريقيا ، وأفهمتهم أنها داخلة إلى موريتانيا لا محالة فان شاؤا بالمعاهدات وان شاؤا فبالسلاح ، وما كان من هؤلاء المخاطبين إلا أن اختاروا أخف الضررين على حسب تقديرهم هم للأمور داخل البلاد وانبهارهم بما رأوه من امكانيات المستعمر العسكرية والمالية التى لم يسبق لهم وهم أهل صحراء وبادية أن رأوا مثلها ، هذا بالاضافة إلى التزام المستعمر لهم بشروط معينة رأوا أنها إذا نفذت تصون البلاد وتفيد ولا تضر فقرروا معاهدتهم على ذلك (٣) وعندما شاعت هذه المعاهدة ثارت ثائرة معظم الفقهاء وأعلنوا رفضهم وحذروا مما يترتب عليها في رسائلهم وفتاواهم ودخلوا في صراع مع أصحاب هذا الرأي وكانت عامة الأمراء وشيوخ القبائل والشعب بصفة عامة مع رفض هذه المعاهدة ووجوب الجهاد وتعينه بما يستطاع أو الهجرة عن بلاد يحكمها الكفار عند العجز عن الجهاد .

قال الاستاذ محمد مصطفى الندى: (لقد قال بالهجرة والجهاد معظم علماء موريتانيا والساحة .. وأقل العلماء تشددا من قال بوجوب الهجرة بعد العجز عن الجهاد) (٤)

---

(١) دور المحاضر الموريتانية ص ٨٦ و ٨٠ .

(٢) المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني ص ٢٦٢ وما بعدها.

(٣) حياة الشيخ سعد ابيه ص ٥٣ وما بعدها . ودور المحاضر الموريتانية في الجهاد ص ٢ ـ ٨٥ والمحاضر الموريتانية وآثارها الربوية ص ٢٦٧ نص المعاهدة .

(٤) نفسه .

ويؤيد ذلك محمد الصوفي قائلا : (إن الجهاد اشترك فيه كافة أفراد الشعب) (١) وان العلماء وعمداء بعض المحاضر خاضوا المعارك ضد المستعمر (٢) •

وبهذا تبين أن البلاد انقسمت حيال مقاومة المستعمر وجهاده إلى معسكرين غير متكافئين عددا كما يقول محمد مصطفى الندى • (٣) ونظرا لأن كلا من المعسكرين أو القطبين كما سماهما الأستاذ حامد بن محفوظ : يقوده جله من العلماء ذوى المكانة أخذ كل واحد يفتي ويراسل ويستدل لما ذهب إليه بنصوص الكتاب والسنة والنقول الفقهية (٤) التي نستخلص فحواها في الأرقام الآتية ونعلق عليها بنقد يناسب المقام •

ونبدأ بمسوغات القسم الأول :

قطب قبول الاستعمار ومعاهدته والانطواء تحت رعايته ويمثل هذا القطب كل من :

الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل المتوفي سنة ١٣٣٥ هـ •

والشيخ سيدي بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا الكبير المتوفي سنة ١٣٢٤ هـ • ويذكر معهما من المشايخ الشيخ التراد فيما بعد (٥) •

يذهب هؤلاء المشايخ في قبولهم دخول البلاد تحت الحماية الفرنسية انطلاقا من نظرة سياسية واجتماعية ونظرة شرعية تدعمهما •

فمن الناحية السياسية والاجتماعية :

---

(١) المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية ١٣٦ص •

(٢) نفسه ص ١٢٩ •

(٣) دور المحاضر الموريتانية في الجهاد ص ٨٠ •

(٤) القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٢١ . ٢٤ •

(٥) نفسه ص ٢٥ •

قالوا :

١) إن البلاد تعيش في ذلك الوقت ألوانا من الفرقة والنزاع والحروب الداخلية مما يجعلها ضعيفة عن الجهاد والمقاومة •

٢) وأن فرنسا دولة قوية وغنية وقد أحاطت بالقطر من كل جانب •

٣) وأن فرنسا من الدول التي توفي بالعهود والمواثيق وقد أخذوا عليها العهد بالأمور الآتية :

أ) عدم أخذ مغرم من الزوايا •

ب) وعدم إفساد عبيدهم عليهم •

جـ) وعدم التعرض للناس في دينهم •

د) وعدم اتخاذ جنود من الزوايا •

٤) وأن الجهاد الشرعي قد تعذر منذ أزمان (١)

٥) التحذير من عواقب حمل السلاح •

٦) وخوف الشيخ سعد أبيه على أخيه ماء العينين ومن معه وذويه من خطر محاربة فرنسا حيث إنه ليس من قوم يحملون السلاح ولا يعرفونه وليس في عشرته وفي بلاد كالصحراء نائية فإذا تمكن منه العدوفإنه قد يغر به أو يسفك دمه ويسبى حريمه ويصادر أمواله (٢) ويستخلص من حججهم التي أوردوها في رسائلهم المؤلفة تدعيما لما ذهبوا إليه وردا على المخالف والمنتقد لهم ما يأتى :

---

(١) حياة الشيخ سعد ابيه ص ٤٩ وما بعدها • والقادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ٢٥ وما بعدها •

(٢) دور المحاضر الموريتانية في الجهاد ص ٨١ . ٨٧ •

١) إنه إذا لم يمكن العدل إلا بالسلطان المخالف في الدين فالدخول في طاعته أولى ٠

٢) وأن ما ورد في موالات المخالف وموادته إنما هو في الدين ٠

٣) وأن فرنسا نشرت العدل وأصلحت الأحوال في الدول التي استعمرتها ، (فوجب شكر الله على هذه النعمة العظيمة ثم شكر هذه الدولة المصلحة) (١) ومن هذا الموقف الذي نجد له أوجه شبه كبيرة مع موقف البهائة والقاديانية مع المستعمر سار هذا القطب مع المستعمر الفرنسي فألف الشيخ سعد أبيه رسالة سماها : (النصيحة العامة والخاصة في التحذير من محاربة افرائصه) (٢) وألف الشيخ سيدي بابه أجوبة منها ما هو أجوبة لبعض العلماء الموريتانين ومنها ما هو أجوبة وتوجيهات لبعض القواد الفرنسين ٠ (٣)

وهكذا نجد أن هذا القطب أعطى المستعمر حججا وأعذارا لاحتلال البلاد وفرض سيطرته عليها ومحاربة من ناوأه من أهلها ، وساعدوه في مهامه في ذلك حيث تعاملوا معه سياسيا واداريا وأمنيا واقتصاديا وعسكريا وثقافيا حتى صار المستعمر يعد الخارج ضده للجهاد من قطاع الطرق واللصوص ٠(٤)

قلت : واضح أن هذا المعسكر كان مصابا مع ما ذكرمن مسوعات . بداء الانبهار بالغرب وقوة المستعمر بالمقارنة مع ما يعرفه شيوخه من قوة ٠

وواضح كذلك أن فرنسا خيبت آمالهم وثقتهم التي طرحوها فيها ، فنكثت العهود ولم تقم العدل ولم تبن المدارس ولا المدن ٠٠٠ فحسبنا الله ونعم الوكيل ٠

---

(١) دور المحاضر في الجهاد ص ٨٤ . ٨٦ والقادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٢٥ . ٣٠ ٠

(٢) توجد منها نسخ خطية في موريتانيا وسينغال ٠

(٣) القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٢٣ وما بعدها ٠

(٤) نفسه ص ٤٠ . ٥٢ وبلاد شنقيط ٣٢٩ وما بعدها ٠

القسم الثاني الذين رفضوا الاحتلال وأعلنوا الجهاد والمقاطعة

وتتكون هذه الطائفة من جمهور الفقهاء وعامة الناس ويبدو أن معظم هؤلاء الفقهاء من القادرية أيضا أو من المتعاطفين معها ، وكان من أبرز هؤلاء الشيخ ماء العينين الذي تمت بيعته على الجهاد بعد رحلاته وجولاته في البلاد داعيا إلى القيام بواجب الجهاد في سبيل الله ، ووطد علاقات وثيقة مع الأمراء داخل موريتانيا كما وطد علاقته بملك الغرب الذي أخذ منه عهدا بمده بالسلاح والعتاد (١) .

ويمكن حصر مجهود هؤلاء في الجهاد في النقاط الآتية :

١) اصدار الفتاوى المدعمة بالأدلة على وجوب الجهاد وتعينه ، كرسالة الشيخ ماء العينين التى يظهر أنها إجابة لأخيه الشيخ سعد أبيه وهي :

(هداية من حارا في أمر النصارى) (٢)

وفتوى العلامة الفقيه سيدى المختار بن محمد عينين بن أحمد بن الهادي وعنوانها : (إرشاد الضال عن وجوب جهاد كيلانى وحرمة مساكنته الموجبة للفسق والعصيان) (٣) وغير هذه من الفتاوى والقصائد المتضمنه لمثلها كثير جدا (٤) .

(٢) حرب العصابات وإرسال الفرق الفدائية ، مثل الفرقة التى قتلت القائد الأول للمستعمر في موريتانيا سنة ١٩٠٥م بقيادة سيدي بن مولاي الزين . (٥)

---

(١) الوسيط ص ٣٦٦ . ٣٦٨ .

(٢) الخزانة العامة في الرباط . في أثني عشرة ورقة تحت رقم (١٤٧٧ د) .

(٣) دور المحاضر الموريتانية في الجهاد ص ٨٨ . ٨٩ وكيلانى هو القائد الفرنسي الاول في موريتانيا ولد عام ١٨٦٦ م وقتل في تجكجه سنة ١٩٠٥ م .

(٤) بلاد شنقيط ص ٣٢٩ وما بعدها والقادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٢٣ . ٢٥ والملحق منه رقم (٢) ص ٩٣ . ١١٥ .

(٥) الوسيط ص ٣٦٦ والمساهمة في إبراز الادوار الفكرية والسياسية للشيخ ماء العينين ص . ٧٠

(٣) خوض المعارك المسلحة فى مواجهات عديدة (١)

وظلت هذه الطائفة مجاهدة ويهاجر الناس إليها من نواحى القطرحتى استولى المستعمر على المغرب وتوفي الشيخ ماء العينين فتمكن المستعمر من خنقها بقطع الامدادات عنها • واجتاح الجفاف البلاد لسنوات عديده أضعفت من قدرة الناس على الاستمرار فى حمل السلاح فهاجر الكثير من أصحاب الشيخ ماء العنين إلى الحرمين الشريفين ، مع بقاء أبنائة من بعده في ميدان الجهاد في الصحراء والمغرب ، ودخل كثير من القبائل في الجبال والوديان فرارا بدينهم ومقاطعة للمستعمر حتى لا تكون بينهم وبينه صلة رغم تتبعه لهم • (٢)

---

(١) المصادر نفسها ص ٣٦٦ والمساهمة نفسه ص ٣٦٦ - ٣٦٨ ووالدن بعده ص ٦٧ وما بعدها • وبلاد شنقيط ص ٣٣٤ وما بعدها •

(٢) الوسيط ٣٦٧ وكنتة الشرقيون ص ١١٣ - ١٢٥ وبلاد شنقيط ص ٣٣٢ - ٣٣٦ والاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١٢١ - ١٢٢ •

الفصل الثاني

الفصل الثاني

موقفهم من الحلول ووحدة الوجود ٠

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الاول : موقفهم من الحلول ٠

المبحث الثاني : موقفهم من وحدة الوجود ٠

المبحث الاول : موقفهم من الحلول :

التعريف : (الحلول : اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر ٠

ومذهب الحلول : القول بأن الله حال في كل شيىء ٠

(والحلولية : فرقة من المتصوفة تعتقد مذهب الحلول) (١)

ويضيف الجرجاني بأن الحلول نوعان :

١) الحلول السرياني : كحلول ماء الورد في الورد ، ، فيسمى الساري حالا والمسري فيه محلا ٠

٢) والحلول الجواري : وهو عبارة عن كون أحد الجمسين ظرفا للآخر ، كحلول الماء في الكوز ٠ (٢) ويوضح ابن تيمية معاني الحلول ناسبا كل قول إلى أصحابه فيقول بأنه يمكن تقسيمه حسب إيمان القائلين به إلى أربعة أقسام هي :

١) الحلول الخاص : وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقول : إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء ٠

٢) الاتحاد الخاص : وهو قول يعقوبية النصارى الذين يقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا ، وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء ٠

٣) الحلول العام وهو المنسوب إلى طائفة من الجهمية المتقدمين ٠

---

(١) المعجم الوسيط جـ ١ ص ١٩٤ ٠

(٢) التعريفات للجرجانى ص ٩٢ ٠

٤) الاتحاد العام وهو قول الملاحدة الذين يزعمون أن الله هو عين الوجود (١) وقد اتبعت كل طائفة من هؤلاء طائفة من المنتسبين للإسلام .

والذي نريد الكلام عنه الحلول بالمعنى الأول الذي قال شيخ الإسلام إنه :

(قول من وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة ، كغالية الرافضة الذين يقولون : إنه حل بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأئمة أهل بيته ، وغالية النساك الذين يقولون بالحلول في الأولياء ومن يعتقدون فيه الولاية ، أو في بعضهم كالحلاج ويونس والحاكم ونحو هؤلاء) (٢) . وقبل أن نورد نصوصا من كتب القادرية توضح موقفهم من عقيدة الحلول نجد أن النصوص المتداولة بين الناس في البيئه القادرية تحذر دائما متنا وشرحا من عقيدة الحلول :

ومن هذه النصوص نص الإضاءة التي من نصها قول المقري فيها :

(ولا تصخ لمذهب النصارى　　　أو من إلى دعوى حلول صار

فذاك كالقـــول بالاتحـاد　　　نحلة أهل الزيـغ والإلحاد) (٣)

إلى أن يقول في معرض بيانه لمذاهب العلماء في المتشابه في باب الاسماء والصفات:

(وماله من ذاك تأويل فقـط　　　تعين الحمل عليه وانضبـط

كمشـل وهو معكم فـأول　　　بالعلم والرعي ولا تطـول

إذ لا تصح ها هنا المصحابه　　　بالذات فاعرف أوجه المناسبه) (٤)

وتبعه على ذلك الشيخ ابن بون في الوسيلة مبينا استحالة هذه العقيدة . أعني

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ج ٢ / ص ١٧١ . ١٧٢ .

(٢) نفسه : ص ١٧١ . ١٧٢ .

(٣) اضاءة الدجنة ص ٢٧ .

(٤) نفسه ص ٨٨ . ٨٩ .

الحلول عقلا وشرعا فيقول :

(ومستحيل أن يكـون ذا ولـد   أو والد أو زوجة أو اتحـد
بغيره حكما عـلى اللاهـوت   بأنه اتحد بالناسـوت
أي قولهـم أن الإله بجسـد   عيسى نبيه وعبده اتحـد
وباطـل قولهم اذ متـى بقي   كل على وجوده يحقـق
كونهمـا اثنيـن إذا وإلا   بل عدما فلا اتحاد أصـلا
لأن ذا الموجـود ثالـث وإن   واحدا الموجود منهما يكـن
فإن ما وجـد بالمعـدوم   لم يتحدو ذا من المعلـوم
وجعلوه مع ذا ليـس بـذات   بل من أقانيم الوجود والحياة
والعلـم وهو عندهم بكلمـه   يدعي فبالناسوت تلك الكلمه
إتحـدت بالامتزاج أو محـل   كان لها أو انطباع في المحـل
ويقتضـى وجود أوصاف بـلا   متصـف وكون معنى جعـلا
منطبعـا بجسد وهو أثـر   لا نفسـه ولا اتحاد بالاثر
أو مزجه بجسـد أو جعـلا   بالغير جزء الشيء قائما فلا
يعقل ذا وبعض أهل الباطـن   من أهل سوءظاهر وباطن
يزعم أن قد حل بالأجسـاد   منهم تعالى باريء العبـاد
عما ادعوا من المحال الباطـل   من كل ما يأباه عقل العاقل
فافتضحت مذاهب النصـارى   وما ادعوا للانتقاض صارا) (١)

---

(١) الوسيلة ص ٣٥ . ٣٦ .

كثير من عقائدهم وغيرها ، وقد تصدى الغزالي لعقيدة الحلول منزها الباري جل وعلا عنها ورادا على القائلين بها مبينا أنها من الإلحاد والزندقة والدعاوي التي يتشبه أصحابها بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ويستشهدون بقوله أنا الحق ...) (١)

ولو أن الغزالي ظل على نقده وتكفيره لأهل الحلول والاتحاد ولم يأخذ في التماس الأعذار لهم والتأويلات البعيدة لأشعارهم وكلماتهم لكان قدوة حسنة لمن جاء بعده من الصوفية ، ولكنه صدرت منه في كتب له عديدة تأويلات واعتذارات لهؤلاء الملاحدة وأمثالهم فهدم بذلك ماقرره وخلط فخلط من جاء بعده (٢)

وقد أنتشرت كتب الغزالي في الصحراء الموريتانية (٣) وإن كانت الكتب التي تضمنتها رسالة الشيخ : محمد بن محمد بن علي اللمتوني إلى السيوطي لم يرد فيها ذكر لشيىء من كتب الغزالي وقد تضمنت كتبا عديدة يسأل صاحب الرسالة عن قيمتها وضرر الأخذ بالحديث الشريف الوارد في مثل هذه الكتب لمن لا يعرف صحته (٤) . ويمكن أن يفسر ذلك بأن كتب الغزالي مثل إحياء علوم الدين لم تصل إلى البلاد إلا في القرن الثاني عشر أو نحو ذلك ، يؤيده أن البرنامج الذي ذكره الشيخ أحمد بابا التنبكتي أنه أخذه على شيخه العلامة محمد بن أبي بكر الونكري التنبكتي المعروف ببغيغ المتوفي سنة ١٠٠٢ هـ لم يرد فيه ذكر للغزالي ولا لكتبه مع أنه ذكر أنهم كانوا يدرسون في التصوف حكم ابن عطاء الله مع شرحها لزروق (٥) ولكن يرد كثيرا ذكر كتب القاضي عياض مثل المدارك والشفا حيث ذكرت إجازاته والعناية به ، (٦)

---

(١) الإحياء جـ ١ ص ٣٩ و ٨٥ .

(٢) انظر : الصوفية في نظر الإسلام دارسة وتحليل سميح عاطف الزين ، دار الكتاب البناني ط ٣٥ سنة ١٤٠٥ هـ ص ٤١٠ . ٤١٣ وكتاب . أبوحامد الغزالي والتصوف ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٣) انظر : الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا ص ٣٨٠ وما بعدها .

(٤) الحاوي للفتاوي / السيوطي جـ ٢ ص ٢٨٤ وما بعدها .

(٥) نيل الابتهاج بهامش الديباج المذهب ص ٣٤١ . ٣٤٢ مرجع سابق .

(٦) فتح الشكور ص ١٧١ و ١٩٣ وغيرهما .

وقد عقد القاضي عياض في كتابه الشفا فصلا يوضح فيه عقيدة أهل السنة ويحذر من التشبيه والحلول أو ما يخالف قول الله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيىء وهو السميع البصير ﴾ (١) وتتمثل أهمية هذا الفصل في أنه نقل فيه من كلام أئمة الصوفية في التوحيد والتنزيه والفرار من التشبيه وما يؤدي إليه (٢) علاوة على كلامه هو في هذا الموضوع • ومن بين من نقل كلامهم شيوخ دافع شيخ الإسلام ابن تيمية عن سلفية عقيدتهم وبعدهم من عقائد الإلحاد والزندقة (٣) •

والمقصود أنه وحتى القرن الثاني عشر الهجري أو أواخر القرن الحادى عشرالهجري لم تكن في البلاد أرضية صالحة لمثل هذه العقائد الالحادية فلا نجد في البيئة القديمة أديانا كالنصرانية أو الإشراقية التي قد ترجع إليها هذه العقائد وكذلك لم تصل الكتب التي تنشر هذه العقائد إلا نحو القرنين المذكورين حيث راجت الكتب وانتشرت الوراقة ، ونزل بعض العلماء إلى بلاد المغرب فاشتروا الكتب واستنسخوها ، وحج فريق آخر ومر بالقاهرة أوغيرها من الحواضر فأدخل إلى البلاد كتب الغزالي وابن عربي والشاذلي والجيلي . عبد الكريم الجيلي وغيرهم فتلقاها الناس على أنها من كتب الأولياء والصالحين وأهل العلم والعرفان فقرؤها بدون تمحيص وسلموا بما فيها (٤) إلا ما رحم ربي • وعندما ألفوا نقلوا منها في مؤلفاتهم مستحسنين لها ثانين على أصحابها (٥) • ولنعرض بعضامن نصوصهم ليتضح موقفهم عمليا من عقيدة الحلول •

---

(١) الشورى (الآية ١١) شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا صلى الله عليه وسلم لنور الدين ملا على القارى ط ١ المدني . القاهرة بتحقيق حسنين محمد مخلوف الجزء الثاني . ص ٦٩٩ وما بعدها •

(٢) نفسه جـ ٢ ص ٧٠٢ وما بعدها • والفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ٥٥ وما بعدها • والاثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين ص ٣٧٣ •

(٣) الاستقامة جـ ١ / ص ١٠٣ وما بعدها •

(٤) انظر الوسيط ص ٣٨ و ٢٤١ وغيرها •

(٥) الضياء المستبين ص ١٤ . ١٨ والطرائف ص ١١٣ . ١٥٣ • وكشف اللبس ص ١٤ . ١٥

عـــــــرض :

قال المختار الكنتي :

(فمن آمن بصفات الله وأسمائة كلها مجملة ومفصلة إيمانا اطمأن إليه قلبه فهو من المؤمنين أصحاب اليمين ، فلئن أثبته على الايمان مولاه إلى أن يتوفاه أنجاه وأعطاه من فضله أضعاف ما رجاه ثم أعلم أن العوالم بأسرها ممسكة بإمساك الواحد الأحد لها بلا مماسة كما أنها مقدوراته ومعلوماته يحيط بها من غير مماسة فمن حرج صدره عن عقـــد مـــن هذه العقود فهـو ذو شبهة وجمود متقاصر عن التوحيد معتقد للحـــدود) (١) ٠

وقال :(وفي حديث قدسي يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه قال : لا تسعني أرضي ولا سمائى ولا عرشي ولا كرسي ولكن يسعنى قلب عبد المؤمن) (٢) ولذلك يقال له بيت الله ، والذي يسع قلب عبده المؤمن إنماهو معرفته وكملاته وأسرار غيبه وحقائق حكمته وأما ذاته فمنزهة عن الحلول والاتصال والانفصال فهو أقرب من حبل الوريد وأبعد بالنسبة إلى المماسة من العرش المجيد) (٣) ٠

وقال : (تنزه عن الاتصال وتعالى عن الاتصال إلى أن قال : (ومنزه عن الحلول والمثل ٠٠) (٤) (فالوصول إلى الله تعالي الذي يشير إليه أهل هذه الطريقة هو العلم الحقيقي وهو غاية السالكين) وقال فى معرض ذكر درجات السالكين ومنتهى سير السائرين وأما الوصول إلى الذات فيتعالى عنه إذ متى يتصل من لاشبيه له ولا

---

(١) الكوكب الوقاد ص ٥٣ ـ ٥٤ ٠

(٢) لم نجد هذا الحديث مسندا وقد ذكره شيخ الإسلام بن تيمية في كتابه علم الحديث وقال : (هذا مذكور في الإسرائليات ليس له إسناد معروف عن النبى صلى الله عليه وسلم) المرجع المذكور ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥ ٠ وقد نقل المحقق عن العراقي والزركشي والسخاوي والسيوطى : (أنه لا أصل له) انظره ٠

(٣) الكوكب الوقاد ص ١٠٠ ٠

(٤) الشموس الاحمدية ص ٢ ـ ٣ وغيرها منه ٠٠

بمن أدرك الحقائق والتحقيق) (١) ويضيف ابنه الشيخ سيدي محمد موضحا عقيدته وعقيدة والده قائلا بأنها هي محصل عقيدة السلف فيقول :

(فالعقد الأهم هو ما درج عليه السلف من الصحابة وأعيان التابعين مما أخذوه من نصوص الكتاب والسنة كسورة الإخلاص وآية الكرسي وآية ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وغير ذلك ... ومحصل عيقدتهم أنه تعالى الموجود خالق الوجود المنزه عن مماثلة العالم في نسبة التكيف والتحديد والاتصال والجهة والحلول وسائرمحامل التقيد) (٢). وقد تقدم الكلام على إطلاق الجهة وتبين بالأدلة من الكتاب والسنة أنه تعلى مباين لحلقه .

نقد :

فهذا من نصوصهم المصرحة بنفي عقيدة الحلول عنهم ، وتنفيرهم منها وما يؤدى إليها ، وعلى العموم فإن المستقرى لكتبهم لا يجد إلا رد هذه العقيدة إماتصريحا أو تلويحا . (٣)

قال الشيخ سعد أبيه : (.. وكذلك الرب سبحانه إذا تجلى على عبده بعد صفائه من الأكدار شاهده بعين قلبه وبصر بصيرته من غير حلول ولا اتصال .) (٤)

وقال الشيخ التراد في الرسالة المسماة بالتخلص والنجاة : قال محذرا من سوء الاعتقاد وأنه أقسام كثيرة : (وما من قسم إلا وهلكت به طائفة كثيرة فمنهم من سوء اعتقاده في ذات الله تبارك وتعالى فينسب إليه الحدوث والتجسيم والتعدد والحلول والمماثلة وغير ذلك إلى غير ذلك من سوء الاعتقادات في ذاته فتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ..) (٥) .

---

(١) جذوة الانوار ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) جنة المريد ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) الضياء ص ١٩١ و ٢٨١ وتنبية المريدين على ما نحن عليه من أمور الدين للشيخ التراد ص٤ وما بعدها ونيل المراد ص ٤٠ .

(٤) كشف اللبس ص ٩٠ .

(٥) التخلص والنجاه للشيخ التراد مخطوط خاص ص ٢ .

وقال الشيخ أحمد أبو المعالي (الحمد لله المتفرد بالعظمة والجلال المتوحد باستحقاق نعوت الكمال والجمال المتقدس عن الشركاء والاشباه والامثال المتعالى عن الاتحاد والحلول ...) (١) .

ويوجد في نصوصهم التصريح بتكفير معتقدها أو ما ماثلها من العقائد كالتجسيم والتحيز في مكان معين . (٢) قال المختار الكنتي مبينا ما يعذر به في باب العقائد وما لا يعذر قائله أو معتقده :

(وإنما لا يعذر من أدعى الحلول أو التجسيم وأكون الذات الشريفة معنى أو صفة لأن هذا يشمل جميع الصفات ويوجب النقص والمماثلة المناقضين لقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيىء وهو السميع البصير ﴾ وقوله ﴿ والله هو الغني الحميد ﴾ وقوله ﴿ الله لا إله الا هو الحي القيوم ﴾ (٣) .

وقد حكم بكفر أصحاب الحضرات والرقص والدعاوى الباطلة وطالب بالتنكيل بهم واستتابتهم فإن تابوا تركوا والا قتلوا . (٤) .

وما دامت القادرية في موريتانيا لا تؤمن بالحلول فما معنى اعتذارهم عن الحلاج الذي هو إمام أهل هذا المعتقد الالحادي ، ونقل كلامه والثناء عليه (٥) وهو إنما قتل على تصريحه بهذه العقيدة شعرا ونثرا واستقرأمر أكثر الفقهاء من الصوفية وغيرهم على زندقته : (وأبوا أن يكون له قدم في التصوف) (٦) .

---

(١) الادلة الشافية الكافية في ابطال حجج مدع المعية الذاتية للشيخ أحمد ابى المعالى مخطوط بدار الثقافة بانواكشوط رقم (١٨٠٩) ص ١ .

(٢) الطرائف ص ١٠٥ .

(٣) جذوة الانوار ص ٢٢ .

(٤) نفسه ص٩٧ .

(٥) كشف اللبس ص١٩ وجنة المريد ص ٨٩ ونعت البدايات ص ٧٤ والكوكب الوقاد ص ١١٣ .

(٦) طبقات الصوفية ص ٣٠٧ .

وبعض من اعتقد فيه الخيـر رجع عن ذلك وتاب منه ورجع كابن عقيل الحنبلي (١) وما ذكره عنه القشيري في الرسالة من نصوص تدل على أنه لا يقول بالحلول والاتحاد (٢) طعن شيخ الإسلام ابن تيمية في سنده إليه بعد أن بين أنه لا شك وضع عليه كثير من الزنادقة ما يريدون وضعه (٣) وقال : (وليس أحد من مشايخ الطريقة لا أولهم ولا آخرهم . يصوب الحلاج في جميع ما قاله • بل اتفقت الأمة على أنه إما مخطىء ، وإما عاص ، وإما فاسق ، وإما كافر • ومن قال : إنه مصيب في جميع هذه الأقوال المأثورة عنه ، فهو ضال ، بل كافر بإجماع المسلمين •••) (٤) •

وهم لم يصوبوه في جميع ما قال لما تقدم من النصوص الصريحة في تكفيرهم لمعتقد الحلول في ذات الله تعالى ولكن بتأويلهم له وتحسينهم للظن فيه كانوا كالمصوبين لبعض ما أثر عنه وفي ذلك من الخطوره ما تقدم بيانه في مبحث التأويل وبناء على الخلاف المشهور في أعتبار أن لازم المذهب مذهبا نقول بأن العلامة الشيخ محمد يحي الولاتي قال بعد نقل الخلاف وأن جمهور السلف يعتبرونه مذهبا ولذا كفروا أهل الأهواء (٥) قال : (قلت : ففي هذه النقول تصريح بأن من قال قولا ليس صريحا في الكفر ولكنه يلزم منه الكفر لزوما خفيا لا يشعر به القائل لذلك القول أن قائل ذلك القول مختلف فيه بين الكفر والفسق وأن جمهور السلف كفروه بناء على أن لازم القول يعد قولا ، وكثير من الفقهاء قالوا بأنه فاسق لا كافر) (٦) •

والله أعلم •

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ / ص ١٤٤ . ١٤٥ •

(٢) الرسالة جـ ١ / ص ٣٢ . ٣٣ •

(٣) الاستقامة جـ ١ / ص ١١٩ •

(٤) نفسه جـ ١ / ص ١١٦ . ١١٧ •

(٥) الرد على الحسن القظفى للشيخ محمد يحي الولاتي مخطوط خاص ص ٢١ وما بعدها •

(٦) نفسه ص ٢٥ •

المبحث الثاني : موقفهم من وحدة الوجود

التعريف: يعرف هذا المذهب بأنه الاتحاد العام ، والوجود المطلق والاتحاد المطلق (١)

ومعنى ذلك : أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق (٢)

يقول ابن خلدون في المقدمة في سرده لكلام أهل العقائد في ذات الله تعالى : (ويقع للمتأخرين من المتصوفة أنه متحد بالمخلوقات ، إما بمعنى الحلول فيها ، أو بمعنى أنه هو عينها ، وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلا) (٣) ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن بين أن أصل قول هؤلاء قول الباطنية من الفلاسفة والقرامطة وأمثالهم : (وأما هؤلاء فإنهم عند أنفسهم مقرون بالصانع مثبتون له ، لكن لم يثبتوه مباينا للعالم ، بل جعلوا وجوده وجود العالم ، أو جعلوه حالا في العالم ، وقولهم مضطرب متناقض ، فإنهم متردد دون بين الاتحاد والحلول) (٤) ووصفهم بهذا الوصف هو ما يؤيده ابن خلدون (٥) وغيره من العلماء (٦) والباحثين الذين أثبتوا أنه مذهب ملفق من ديانات سماوية وأرضية ، وأنه يستحيل عقلا وشرعا وأن ابن عربي الطائي الحاتمي هو المؤسس الحقيقي له والداعي إليه بعد أن وجدت جذوره متفرقه الاركان الفلسفية والعقدية قبله في كتب الصوفية المتفلسفة والباطينة (٧) . ولمعرفة موقف القادرية من هذا المذهب يجدر أن ننظر أولا في النصوص العقدية المعتمدة في البلاد ، والتي قدمنا منها نصا من الاضاءة ، ونصا من الوسيلة ، وكلا النصيين المتقدمين يبطل بهمامؤلفه هذا المذهب وما يشابهه كما اتضح أيضا من نصوص القادرية التي أوردناها أنهم لا يؤمنون بعقيدة الحلول والاتحاد الذين تنطلق

---

(١) الفتاوى جـ ٢ / ص ١٧٢ و ١٧٥ .

(٢) نفسه جـ ١٠ / ص ٥٩ .

(٣) المقدمة ص ٨٦٨ .

(٤) الصفدية جـ ١ / ص ٢٦٢ . ٢٦٣ يريد ابن عربي ومن قال يقوله .

(٥) المقدمة ٨٧٠ .

(٦) إظهار الحق ، رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني الكيرانوي ط الدوحة سنة ١٤٠٠ هـ ص ٣٢٧ وما بعدها .

(٧) الصوفية في نظر الإسلام ص ٤٥٩ وما بعدها ، والصوفية معتقدا ومسلكاص ٢٠٥ . ٢٣٩

منهما عقيدة وحدة الوجود ولكن بما أن في كتبهم نصوصا منقولة من كتب القائلين بوجدة الوجود كان لابد من عرضها ونقدها حسب الامكان ليتضح ما يتوهم فيها من هذا المعتقد .

ومن الكتب المعتمدة في العقيدة والتصوف نظم ابن عاشر وشرحه لميارة (١) وصاحب النظم يقول في نظمه لما يجب لله تعالى من صفات الكمال :

(وخلفه لخلقه بلا مثال   ووحدة الذات ووصف والفعال)

قال الشارح : (الخامسة : مخالفته تعالى للحوادث أي لا يماثله تعالى شيىء منها مطلقا لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال ، قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شيىءوهو السميع البصير ﴾ فأول هذه الآية تنزيه ، وآخرها إثبات ، فصدرها يرد على المجسمة وأضرابهم ، وعجزها يرد على المعطلة النافين لجميع (٢) الصفات .

السادسة : الوحدانية : أي لا ثاني له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فأوجه الوحدانية ثلاثة وحدانية الذات ووحدانية الصفات ووحدانية الأفعال ، فوحدانية الذات تنفي التركيب في ذاته تعالى ووجود ذات أخرى تماثل الذات العلية فتنفي التعدد في حقيقتها متصلا كان أو منفصلا ، ووحدانية الصفات تنفي التعدد في حقيقة كل واحد منها متصلا كان أو منفصلا) (٣) إلى أن قال : (مسألة : سئل الامام العالم أبو عبد الله سيدي محمد بن جلال (٤) هل يقال المولى تبارك وتعالى لا داخل العالم ولا خارج العالم فأجاب السائل : هكذا نسمعه من بعض شيوخنا ، واعترضه بعضهم بأن هذا رفع للنقيضين وقال بعض فقهائنا في هذه المسألة : هو الكل أي الذي قام به كل شيء وزعم أنه للامام الغزالي (٥) ، ووجه كون هذا القول رفعا للنقيضين هو ما

---

(١) تقدم التعريف به .

(٢) هو بهذا يستثني بعض الأشاعرة وخصوصا المتأخرين منهم حيث يثبتون عشرين صفة لله تعالى ويؤولون أو يفوضون في الصفات الخبرية كما يقولون ، وتقدم بيان ما يلزم في هذا التفريق .

(٣) ابن عاشر بشرح ميارة ص ٢١ و ٢٣

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني مفتي فاس وشيخ الجماعة به ، مولده سنة ٩٠٨ وتوفي سنة ٩٨١ هـ انظر شجرة النور ٢٨٥ .

بينه شيخ الإسلام ابن تيمية حيث إن حقيقة قولهم (ليس بموجود ولا معدوم) (١) وهذا رفع للنقيضين ٠

قال ميارة بعد أن نقل جواب ابن مقلاس (٢) على هذا السؤال وورفضه كون هذا القول فيه رفع للنقيضين : (وقول من قال إنه الكل زاعما أنه للغزالي فقضية تنحو منحى الفلسفة أخذ بها بعض المتصوفة وذلك بعيد من اللفظ) (٣) وقلت : وعبارة الغزالي كما أوردها في الباب الثالث من آداب تلاوة القرآن الكريم هي : (فمن عرف الحق رآه في كل شيىء فهو منه وإليه وبه وله فهو الكل على التحقيق ٠٠٠) وشـرح مراده بهذا النص ٠ وقال : (وهذا مبدأ من مبادئى علم المكاشفة) (٤) وفي هذه النصوص نفي صريح للقول بوحدة الوجود وما شاكلها ، ونقل لعبارات موهمة وهذه العبارات الموهمة التي تقدم القول فيها . لا يخلو منها كتاب من كتب الصوفية تقريبا مع أن الغزالي نفسه حذر منها وسماها : (من باب الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله والوصول المغني عن الاعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجـــاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا وقلنا كـذا) ٠ (٥)

وعند استقراء كثير من كتب القادرية يجد الباحث كثيرا من العبارات الصوفية الموهمة مثل ما ذكره الغزالي منقولة من كتب العزالي نفسه أو ابن عربي أو غيرهما من الصوفية المعترض على كثير من كلامهم (٦) وسنقتصر إن شاء الله على ما يمكن توضيح المراد منه من نصوصهم الموهمة ٠

---

(١) الصفدية جـ ١ ص ٣٠٠ وما بعدها ٠

(٢) لم نتمكن من التعريف به ٠

(٣) شرح ميارة ص ٣٠

(٤) الاحياء جـ ١ ص ٢٥٢ ٠

(٥) الاحياء جـ ١ ص ٣٩ ٠

(٦) كشف اللبس ص ١٦ . ١٩ و ٩٠ دار الكوكب الوقاد ص ٥٤ و ١١٣ و ١٢٣ ونعت البدايات ص ٥٠ . ٥٥ والضياء المستبين ص ١٦ . ١٩ و ٢٩٩ ٠ وجنة المريد ص ٢١٧ . ٢٣٥ وجذوة الأنوار ص ٣٠ . ٣١ و ٥٥ والطرائف ص٢٨٣ ٠

عـــــــرض :

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي في بيان درجات السلوك :

(... فإذا ارتقى إلى درجة الشهادة اكتفى بقوله الله الله لغيبته عما سوى الله واستغراقه في ذات الله فلا يسمع إلايه ولا يبصرإلا به ولا ينطق الا به ولا يبطش إلا به ولا يمشي إلا إليه فصار عبدا محضا لرب محض قال الله تعالى ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو ﴾ (١) .

وقال في معرض بيانه لدرجات الوصول وأقسام الناس فيه ومراتب التجليات : (ومنهم من يرقى إلى مقام الفنا مشتملا على قلبه نور اليقين والمشاهدة مغمور في شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين وهذه رتبة في الوصول وفوق هذا رتبة حق اليقين ويكون ذلك في محوو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى تحظى بها روحه وقلبه ونفسه وقالبه وهذا من أعلى مراتب الوصول . إلى أن قال : وحقيقة القرب منه تعالى شهودك لقربه فالقرب منه إذ لا مسافة ثم ولا مكان ولا أين ولا زمان قال الله تعـالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ وقال : ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ وقال : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ وحظه ـ يعني السالك ـ من ذلك إنما هو مشاهدة قربه فقط فتثمر تلك المشاهدة شدة المراقبة والهيبة والتأدب بآداب الحضرة) (٢) .

قلت : ويوجد في مناقشة شيخ الإسلام ابن تيمية للقرب واختلاف الناس فيه كلام قريب مما ورد في هذا النص (٣) ويضيف المختار الكنتي في بيانه للذكر الذي يكاشف صاحبه بالحقائق . فيقول : (فيكاشف بما لا تستطيع الأقلام حكايته ولا البحار الإحاطة به لو كانت مداد الأقلام . إلى أن قال : فيفنى في الصفات ثم يفنى في

---

(١) الكوكب الوقاد ص ٥٤ .

(٢) جذوة الأنوار ص ٥٥ وما بعدها والآيات من : سورة البقرة الآية (١٨٦) وسورة ق (الآية ١٦) والواقعة الآية (٨٥) .

(٣) انظر : الفتاوى جـ ٦ ص ١٢ . ٢٢ .

الاسماء ثم يفنى في الذات فيغيب عما سوى الله تعالى ···) (١) ولعل المراد بهذا الفناء ما سماه شيخ الاسلام ابن تيمية بالفناء عن إرادة ما سوى الله) (٢) ·

ويقول الشيخ ماء العينين : (قال بعضهم معنى لا اله الاالله للعوام لا معبود إلا الله ومعناها للخواص لا محبوب ولا مقصود إلا الله ومعناها لأخص الخواص لا موجود إلا الله فإنه يكون في تلك الحالة مستهلكا في بحر الشهود فلا يشعر بشيىء سوى الله ولا يرى موجودا) (٣) ·

وعند ذكره لفوائد الذكر (بهو) (٤) ودرجات الذكر ، وأنه يكون باللسان والقلب والروح ··· قال : (وسابعها الذكر بـ (الله) ولا وراء ذلك لأنه الكمال لا للأنام وهو المطلوب عند المشايخ بالتمام ، وإذا وصل المرء لهذا المقام شاهد ما لا تنبغي عنه العبارة) إلى أن قال :

(ولا يزال يذكر حتى يتجلى له الحق من وراء أستار غيوبه فيتنور باطن العبد بحكم : (وأشرقت الأرض بنور ربها) (٥) وبعده إلى التجليات الصفاتية والأسمائية ثم الذاتية ، فيفنى العبد في الحق ، فيذكر الحق نفسه بما يليق بجلاله وجماله فيكون الحق ذاكرا ومذكورا) (٦) ·

قلت : وقد ذكراستدلالا على ذلك طرفا من الحديث القدسي : (إذا ذكرني عبدي

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٣٣ ·

(٢) الفتاوى جـ ١٠ ص ٢١٨ وما بعدها ·

(٣) نعت البدايات ص ٤٦ ·

(٤) سيأتي إن شاء الله مناقشة الذكر بالمفرد والضمير في فصل الأدعية والأذكار ·

(٥) سورة الزمر الآية ٦٩ ·

(٦) نعت البدايات ص ٥٤ ـ ٥٥ ·

في نفسه ذكرته في نفسي ، وإذا ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خيرمن ملإئه) (١) .

وقد يفهم من النص أن صاحبه متأثر بعقيدة وحدة الوجود التي عبر عنها ابن عربي الطائي في كتبه وأشعاره وخصوصا قوله :

(فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده) (٢)

وقوله (فأنت عبد وأنت رب لمن له فيه أنت عبد

وأنت رب ، وأنت عبد لمن له في الخطاب عهد) (٣)

قلت : بالنظر في هذه النصوص نجد أنها موهمة لثلاثة أمور ، وبعضها أكثر إيهاما من بعض ، وهذه الأمور هي : وحدة الوجود ، والاتحاد المقيد ، ومذهب أهل التجلي .

فإن قصد بها وحدة الوجود كان ذلك كفرا صريحا كما تقدم (٤) وظاهر أن هذه النصوص التي تدل على هذه العقيده الإلحادية ، منقولة من كتب ابن عربي وأمثاله الذين تعتبرهم القادرية من الأئمة الذين لا يجوز عندهم الاعتراض عليهم فكيف ينقدهم ورد كلامهم عليهم ، على أنه تقدم عنهم أنهم لا يؤمنون بهذه العقيدة .

---

(١) نفسه ص ٥٤ قلت : هذا طرف من حديث متفق عليه ولفظ مسلم الذى ذكر صاحب النص قريبا منه هو : (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإهم خيرمنهم ...) الحديث . صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب الحث على ذكر الله عز وجل) وصحيح البخارى ، كتاب الرقاق باب التواضع ، الحديث رقم (٦٥٠٢) .

(٢) نقلا عن : الصوفية معتقد ومسلكا ، مصدر سابق ص ٢٢٧ .

(٣) نقلا عن : مصرع التصوف ، مصدر سابق ص ٧٤ .

(٤) انظر : كتاب الصفدية جـ١ ص ٢٤٤ وما بعدها .

وحملة على الاتحاد المقيد يمنع منه ما تقدم من تكفيرهم لمعتقد الحلول والاتحاد بصفة عامة في المبحث السابق ٠ ويمنع منه كذلك ما يأتي عنهم من ردود على أصحاب عقيدة (المعية بالذات) التي هي داخلة في هذا المبحث وعلى هذا فالأقرب عندي حمل هذه النصوص على مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات كما سماه ابن خلدون في المقدمة (١) ٠

والتجلي كما عرفه الجرجاني هو : (ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب) قال وهو أنواع :

١) التجلي الذاتي وهو ما يكون مبدؤه الذات من غير اعتبار صفة من الصفات معه ٠

٢) والتجلي الصفاتي : وهو ما يكون مبدؤه صفة من الصفات من حيث تعينها وامتيازها عن الذات (٢) ٠

وفي بيان ابن خلدون لهذا المذهب ما يوضح أنه مذهب غامض وأن المعبرين عنه المحاولين للكشف عن حقيقته لا يأتون إلا بالأغمض فالأغمض (٣) ويوضح السبب في ذلك قائلا : (وهو كلام لا يقدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه ، وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل ، وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب . يعني ترتيبهم للتجليات والظهور . فإنه لا يعرف في شيىء من مناحيه) (٤) ٠

قلت : ولعل سبب هذا الغموض راجع إلى أنها أحوال نفسية عبر عنها بأساليب فلسفية ، فلم يزدها ذلك إلا غموضا ٠ (٥) ٠

---

(١) المقدمة ص ٨٧٢ ٠

(٢) التعريفات للجرجان ص ٥١ ـ ٢٥ ٠

(٣) المقدمة ص ٨٧١ ٠

(٤) نفسه ص ٨٧٢ ٠

(٥) وانظر نفس المصدر ص ٨٧١ ـ ٨٧٢ ٠

وإنما رجحت نسبتهم لهذا المذهب لكثرة ورود العبارات التي شرح بها في كتبهم (١) وقناعتي أن أكثرهم لا يعرفون ما ينقلون كما هو حال عامة القائلين بهذه المذاهب الالحادية لما تشتمل عليه من المتناقضات (٢) ٠

والقادرية بنقلها لهذه النصوص الموهمة بين أمور أخطرها أن توصف هذه الاقوال بالكفر لقربها من مذهب وحدة الوجود وخصوصا نصوص نعت البدايات حيث صرح أنه نقلها من شرح الفصوص لداود القيصرى (٣) وأدنى هذه الأمور أن يوصف هؤلاء الناقلون بعدم التمييز أو تعمد التضليل ونشر العقائد الالحادية بين الناس ، ويؤيد هذا الأخير . مع عدم استبعاد الاحتمال الأول . ما تقدم من وضعهم لمؤسس هذا المذهب الكفري . وهو ابن عربي بين سلسلة شيوخهم ، واعتبارهم له من الأولياء والصالحين ، وتأويل كلامه الصريح في الكفر والموهم على حد سواء ، والاعتذار عن كلام العلماء فيه وتحذيرهم من كتبه (٤) وتصريح الكثيرين منهم بكفره وزندقته (٥) يضاف إلى ذلك ما يوجد في فروع القادرية من الطرق القائلة بوحدة الوجود (٦) واعطاء بعض شيوخ القادرية لأوراد هذه الطرق (٧) ٠

على أن هذه الاحكام والاحتمالات قد تندفع عن بعض شيوخ القادرية إذا رأينا دفاعهم عن وحدانية الله تعالى ، وردهم على من ادعى معية الله بذاته مع خلقه

---

(١) انظر جنة المريد ص٢١٦.٢٢٢ وجذوة الأنوار ص٥٥ .٥٦ وكشف اللبس ص١٦. ١٧ و٤٠ .٤٧ ٠

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٨٦٣ وما بعدها ٠ والصفدية جـ ١ ص ٢٤٤ وما بعدها . والصوفية معتقد ومسلكا ص ٢٢٠ وما بعدها ٠

(٣) نعت البدايات ص ٥٦ قلت : والقيصري ، هو داود بن محمود بن محمد شرف الدين القيصري المتوفى سنة ٧٥١ هـ والكتاب المذكورهو : (خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم) ٠ انظر الاعلام للزركلي جـ ٢ / ص ٣٣٥ ٠

(٤) انظر : الطرائف ص ١٤٤ . ١٤٦ ٠

(٥) مصرع التصوف ص ٦٢ . ٧٠ ٠

(٦) انظر كتاب : التجانية على بن محمد الدخيل الله ص ٨٣ . ٩٤ ٠

(٧) انظر : نعت البدايات ص ٢٠٥ . ٢٠٦ ٠

ومعية الذات مسألة اشتهر بها بعض شيوخ التصوف في فترة من الزمن في موريتانيا ٠

وملخص هذه المسألة أنه ظهر في البلاد رجل يدعى : سيدي المختار بن عبد الجليل يقول بمعية الله تعالى بذاته مع كل ذرة من ذرات العالم ٠

وكتب رسالة في ذلك أوجب فيها اعتقاد ما ذهب إليه وأن من يعتقد غير ذلك فاسد الاعتقاد ٠ وكان له أتباع ومريدون قاموا بنشر رسالته المذكورة وأنظامه في ذلك بين الناس حتى عرفوا بين الناس بأسماء ، منها : (أهل عبد الجليل) و (أهل معية الدات وأهل الشمعة) ولم نقف على معنى لهذا الأخير ٠

وقد تصدى علماء البلاد شرقا وغربا للرد على هذا المعتقد الفاسد نثرا ونظما ، ومن أهم الردود التي وقفت عليها : رد للشيخ : محمد الخضر بن مايأبى ، ورد للشيخ : أحمد أبي المعالي ، ورد للشيخ : المحفوظ بن بيه ، وقطعة شعر للشيخ المختار السالم الحسني من مصدري الشيخ أحمد أبو المعالي وكل هؤلاء من القادرية ٠

وتصويرقول هؤلاء حسب ما ورد في نقول الرادين عليهم . إذ لم نجد نص كلامهم في كتاباتهم . هو ما يأتي :

قال الشيخ المحفوظ نقلا من ورقات مريد ابن عبد الجليل أن نصه فيها هو : (إن معية ذات الله تعالى لخلقه ثابته بالنص الصريح من الكتاب والسنة المعصومين من ظاهر الخطإ ومحتمله ٠ أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ والله معكم ﴾ (١) وما في معناه من القرآن ٠

وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم : (أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان) (٢) ومعلوم أن (مع) لا تحتمل معنى غير المصاحبة فهي صريحة فيها) (٣)

---

(١) سورة محمد الآية (٣٥) (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعملكم) ٠

(٢) رواه البهيقي في شعب الايمان ، باب في الخوف من الله تعالى جـ ١ ص ٤٧٠ بلفظ : (إن من أفضل إيمان ٠٠٠) إلى آخر اللفظ ٠

(٣) رد الشيخ المحفوظ بن بيه على القائلين بمعية الذات مخطوط خاص ص ١ ٠

ويسوق الشيخ أحمد أبو المعالى مضمون عقيدة هؤلاء وفحوى دعواهم في مقدمة رده عليهم وبيان سبب تأليفه فيقول : (أما بعد فإنه لما كثر السؤال عن رجل يقول إن الله تعالى عمايقول الظالمون علوا كبيرا مع كل ذرة من ذرات العالم بذاته جاعلا هذا عقيدة، ومن لم يقل به فهو فاسد الاعتقاد عنده ويدعى مع ذلك جواز رؤيته تعلى بالبصر في دار الدنيا لجميع آحـــاد المسلمين شرعا وربما أدعي وقوع ذلك لنفسه ٠٠) (١) إلى آخر مقدمته • وقال أحد القائلين بالمعيه الذاتية :

(هل ذات ربي مع الأكوان حاضرة أم هي غائبة حـــدث ولا تـــزد

إن قلت غائبة ووصفهـــا معنـــا قد رمت حصرا لذات الواحد الصمد

ورمت ابعاد من بالقرب متصفـــا هيهات ما رمته بالواحد الأحـد) (٢)

وكتب آل موسان في غرب البلاد إلى الشيخ محمد الخضر بن مايأبى في الحجاز يسألونه عن المعية الذاتية هل تمكن في حقه تعالى أو تستحيل ؟ (٣) فأجابهم في كتابه المذكور باستقصاء تام ، وأفاد فيه إفادة جيدة جدا في هذه المسألة وهي أنه أعطانا مصدر هذه الشبهة حيث ذكر أن أول من ذكر عنه هذا القول رجل يدعى الشيخ إبراهيم المواهبي الشاذلى (٤) نقله عنه الشيخ عليش في شرح إضاءة الدجنة (٥) وهو شرح معتبر في البلاد فلا غرابة أن يتلقى منه سيدي المختار بن عبد الجليل هذه العقيدة أو الشبهة ، ولعل هذا ماجعل الشيخ محمد الخضر ينبه إليه في رده الـذي كان يمكـن أن يصـــدر بـــدون إشارة إلى هذا الرجل المذكور ، القائل بهذه العقيدة (٦) فهـــذه

---

(١) الادلة الشافية الكافية في إبطال حجج مدع المعية الذاتية ص ٢ •

(٢) ملف الرحلة عن المختار السالم الحسني •

(٣) استحالة المعية بالذات وما يضاهيها من متشابه الصفات ط ١ المحمودية بالقاهرة ص ٢ •

(٤) هو ابراهيم بن محمود بن أحمد المواهبي ، أبو الطيب برهان الدين ، مولده ووفاته بالقاهرة ، أخذ التصوف عن الشيخ محمد أبي المواهب التونسي فنسب إليه . ولعله قال بهذا المعتقد في شرحه لعقيدة السنوسي ، انظر الاعلام جـ ١ ص ٧٣ •

(٥) شرح إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة ، مطبعة مصر ، القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ •

(٦) استحالة المعية بالذات ص ٩١ •

العقيدة حوصرت في البلاد ، وعلى وجه الخصوص حاصرها القادرية حيث ردوا على القائل بها بأنه خالف الاجماع سلفا عن خلف وأن ذلك ضلال عظيم وكفر من معتقده لنسبتــه لله ما يستحيل في حقه تعالى وبينوا أن إطلاقات المعية في اللغة تأتي على معـــان (١) وأنها جاءت في القرآن الكريم بمعنى عام ومعنى خاص ، وأن المعية بمعنى المصاحبة للأكوان محال في حقه تعالى ونقلوا إجماع أهل العلم بالتفسير على حمل الآيات التـي أشار إليها ابن عبد الجليل وحملها على المعية بالذات من قوله تعالى : ﴿والله معكم﴾ ﴿ وهو معكم ﴾ وغيرها إلى أن للعلماء فيها مذهبين :

التفويض ، أو التأويل بالعلم أو ما هو أخص منه كالنصر والحفظ . قال الشيخ محمد الخضر : (أما المعية بالذات فلم يقل بها أحد من أهل السنة بل ولا من المشبهة المجسمة ...) (٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (وأما قوله تعالى ﴿ وهو معكم ﴾ فلفظ (مع) لا تقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطا بالآخر ، كقوله تعالى : ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ إلى أن قال : (مع) جاءت في القرآ ن عامة وخاصة فالعامة قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا .. ﴾ (٣) فافتتح الكلام بالعلم وختمة بالعلم (٤) قال الإمام أحمد (يفتح الخبر بعلمه ويختم الخبر بعلمه) (٥) . وأمـــا المعية الخاصة ففي قوله تعالى ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (٦) فالله تعالى مع أوليائه دون أعدائه ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين والمعتدين .

---

(١) الأدلة الشافية الكافية ص ٣ وما بعدها . ورد الشيخ محمد المحفوظ ص ٢ ومابعدها .

(٢) نفس المراجع و استحالة المعية بالذات ص ٩٠ وما بعدها .

(٣) الآية الأولى من سورة التوبه (١١٩) والثانية من سورة المجادلة الآية (٧) .

(٤) الفتاوى ج ١١ ص ٢٤٩ .

(٥) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد بن حنبل ص ١٣٨ .

(٦) سورة النحل الآية (١٢٨) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (فلو كان معنى (المعية) أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والعام ، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك) (١)

قال الإمام أحمد رحمه الله : بيان ما ذكر الله في القرآن : ﴿ وهو معكم ﴾ قال : وهذا على وجوه ثم بين الأوجه على وفق ما تقدم من حكاية الإجماع والنقل (٢)
قال المختار السالم الحسني في رده على أبيات (أهل المعية بالذات) المتقدمة :

(إن المعية حق والمــراد بهـا ... ما قد يليق بذات الواحد الصمد
نزهه عن جهة حاشاه من جهة ... والكيـــف فانف فذا أداء للرشـد
فالله سبحانه معنـــا بنصرتــه ... وعلمـــه في جميع القرب والبعـد
من كان منا بنون البحر في لجج ... تحويه فهـــو له أدنى من العضـد
كذاك لو كان فوق السبع فهو له ... أدنى من الحبـــل واللجين والكتد
وإن ترد غير ذا للحق يأملي ... هيهات ما رمته بالواحد الصمد) (٣)

وقد يفهم من بعض النصوص التي أوردناها من كتب القادرية الاشارة إلى الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قال : (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصـــــره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينـه ، ولإن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت

(١) الفتاوى جـ ١١ ص ٢٥٠ .

(٢) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة ص١٤٠ وما بعدها ومجموع الفتاوى جـ ٦ / ص٢٢ . ٢٣

(٣) ملف الرحلة نقلا عن نفس الناظم . قلت : الحبل : يريدبه حبل الوريد (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد .) واللجين جاء مصغرا : الفضة ، ولم يفهم مراد الناظم به هنا ، ولعله يريد أن الفضة وهي في أعماق الأرض لا يخفـى على الله مكانها لقربه وعلمه المحيط بكل شيء . انظر : القاموس المحيط جـ ٤ ص ٢٦٦ . والكتد: محركة نجم وجبل بمكة ومجتمع الكتفين من الإنسان والفرس . القاموس المحيط جـ ١ ص ٣٣٢ والأولى عندي : أن الناظم أراد النجم للمقابلة . والله أعلم .

عن شيىء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) (١)

قال الحافظ بن حجر بعد أن ذكر توجيهات العلماء لألفاظ هذا الحديث قال : (وحمله بعض أهل الزيغ على ما يدعونه من أن العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى يصفى من الكدورات أنه يصير في معنى الحق ، تعالى الله عن ذلك وأنه يفنى عن نفسه جملة حتى يشهد أن الله هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدما صرفا في شهوده وإن لم تعدم في الخارج ، وعلى الأوجه كلها فلا متمسك فيه للأتحادية ولا القائلين بالوحدة المطلقة لقوله في بقية الحديث : (ولئن سألني ولئن استعاذني) فإنه كالصريح في الرد عليهم (٢) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (وأجمع سلف الأمة وأئمتها على أن الرب تعالى بائن من مخلوقاته) (٣) • فمن خالف هذا الاجماع كالطوائف الأربعة التي تقدم التعريف بها في بداية هذا الفصل فإن العلماء أجمعوا على أن عقائدها كفرية الحادية لا صلة لها بالإسلام •

قال القاضي عياض : (فصل في بيان ما هو من المقالات كفر وما يتوقف أو يختلف فيه وما ليس بكفر) (٤) وذكر من أقوال هؤلاء الطوائف ناصا على كفرهم (٥) وتبعه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية (٦) والحافظ السيوطي (٧) والشيخ محمد يحي الولاتي (٨) قال في الرحلة ، أي رحلة الحج له :(وأما السؤال عن ما قاله الفقهاء في الفاظهم المذكورة فجوابه والله أعلم : أنهم قالوا إنها كفر أعاذنا الله منه) (٩)

---

(١) صحيح البخار كتاب الرقاق ، باب التواضع الحديث رقم (٦٥٠٢) وقد تقدم أنه متفق عليه والآية ١٦ من سورة ق • انظر تفسيرها في القرطبي جـ ١٧ ص ٩ •

(٢) فتح البارى جـ ١١ / ص ٣٤٤ . ٣٤٥ •

(٣) الفتاوى جـ ١١ ص ٢٥٠ •

(٤) انظر ص ٣٤٠ من هذا البحث •

(٥) الشفا مع شرح على القارلى ملا جـ ٥ ص ٤٠١ •

(٦) نفسه جـ ٥ / ص ٤١٢ وما بعدها •

(٧) الفتاوى جـ ٢ / ص ١٧٥ وما بعدها • و ص ٤٣٥ •

(٨) الفتاوى جـ ٢ / ص ١٢٩ . ١٣٧ •

(٩) نصيحة أولاد الزوايا والطلبة عن الدخول في طريق زنادقة المتصوفة ص ٣٢ وما بعدها • وكتابه الرد على الحسن القظفى ص ٧ وما بعدها • وأجوبته في رحلته على أسئلة وردت عليه في الاسكندرية ، والرحلة غير مرقمة •

الفصل الثالث

الفصل الثالث

عقيدتهم في القضاء والقدر

الفصل الثالث : عقيدتهم في القضاء والقدر

التعريف اللغوي :

قال في الصحاح (القضاء الحكم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ (١) أي حكم ٠ ومنه قوله تعالى : ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين﴾ (٢) ومنه : القضاء والقدر (٣) وقال في القاموس : (والقدر محركة : القضاء والحكم ومبلغ الشيء . والجمع أقدار ، والقدرية جاحدوا القدر ٠٠) (٤)

وقال القرطبي : (وأصل كل قضاء أمر : الاحكام ، والفراغ منه ٠ قال الله تعالى : ﴿ وإذا قضي أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (٥) يعني جل ثناؤه : وإذا أحكم أمرا وحتمه) (٦) وقال ابن عطية : (وقضى) : معناه : قدر) (٧) ٠

وقال القرطبي : (قال علماؤنا : (قضى) لفظ مشترك . وساق المعاني المشتركة إلى أن قال في المعنى المراد هنا : (أي إذا أراد إحكامه واتقانه . كما سبق في علمه قال له كن ٠ قال ابن عرفة : قضاء الشيىء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه) (٨)

---

(١) سورة الإسراء (الآية ٢٣) ٠

(٢) سورة فصلت (الآية ١٢) ٠

(٣) الصحاح للجوهري ، تأليف : اسماعيل بن حماد الجوهري : تحقيق عبد الغفور عطار ط ٣ سنة ١٤٠٤ هـ جـ ٦ ص ٢٤٦٣ . ٢٤٦٤ ٠

(٤) القاموس المحيط ، مصدر سابق جـ ٢ / ص ١٤٤ ٠

(٥) سورة البقرة (الآية ١١٧) ٠

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبى جعفر محمدجرير بن الطبري ، تحقيق : محمود محمد شاكر وأحمد شاكر ، ط ٢ دار المعارف بمصر جـ ٢ ص ٥٤٢ ٠

(٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ، تحقيق الرحالى الفاروقي وعبد الله إبراهيم الأنصاري ط ١ سنة ١٣٩٨ هـ جـ ١ ص٤٦٢ ٠

(٨) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن الكريم المجلد الاول جـ ٢ ص ٨٧ . ٨٩ ٠

وقال البيهقي عند قول الله تعالى : ﴿ إنا كل شيىء خلقناه بقدر ﴾ (١) والقدر اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر ، يقال : قدرت الشيىء وقدرته بالتشديد والتخفيف فهو قدر أي مقدور ومقدر ...) (٢) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (والقدر ، هو قدرة الله ، كما قال الإمام أحمد ، وهو المقدر لكل ما هو كائن .) (٣)

قلت : والقضاء كوني وشرعي ، أما الكوني فمن أمثلته قوله تعالى : ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ الآية السابقة .

والقضاء الشرعي الديني من أمثلته قوله تعالى : ﴿ وقضي ربك أن لا تعبد إلا إياه ﴾ وقد يجتمعان وقد يتخلف الشرعي (٤) .

---

(١) سورة القمر الآية (٤٩) .

(٢) الاعتقاد للإمام البهيقي مصدر سابق ص ٥٣ .

(٣) مجموعة الرسائل جـ ٢ / ص ١٠٣ .

(٤) انظر شرح الطحاوية ص ٤٤٥ .

الفرق بين القضاء والقدر

قال الحافظ بن حجر في بيان المراد بالقدر : (والمراد أن الله تعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد ، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته ، هذا هو المعلوم من الدين بالبراهين القطعية ، وعليه كان السلف من الصحابة وخيار التابعين ، إلى أن حدثت بدعة القدر في أواخر زمن الصحابة) (١) .

وقال الخطابي في بيانه لمعنى القضاء : (وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد وقهره على ما قدره وقضاه وليس الأمر كما يتوهمونه وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من اكتساب العبد وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها) (٢) .

قلت : الذي يظهر أن كثيرا من العلماء يجعلون القضاء والقدر مترادفين كما هو واضح من التعريفات السابقة .

والقضاء هو الإمضاء والاتقان والفراغ من الشييء ولكن يكون ذلك على قدر أو تقدير معين لا يتجاوزه وكل ذلك عن علم محيط بكل شييء : (فالذي أوجد وأفنى ، وأفقر وأغنى وأمات وأحيا وأضل وهدى) (٣) لا شك أن كل شييء بقضائه وقدره سبحانه .

النزاع في القدر : قال النووي في بيانه :

(عند أهل السنة أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى ،

---

(١) فتح الباري جـ ١ / ص ١١٨ .

(٢) النووي على مسلم جـ ١ / ص ٢١٧ .

(٣) شرح الطحاوية ص ٢١٧ .

وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه سبحانه وتعالى يقدرها ولم يتقدم علمه سبحانه وتعالى بها وأنها مستأنفة العلم أي إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها ...) (١) .

وبمثل ما قالت القدرية قالت المعتزلة ، وقد رد العلماء على الطائفيتن بما أبطل ما معهم من شبه (٢) وكان من أول الرادين على منكري القدر عبد الله بن عمررضي الله عنهما كما في صحيح مسلم (٣) ودل رده وتبرؤه منهم على تكفيره لهم (٤) .

ولنستعــرض بعض النصوص المعتمدة في البئة العلمية عن القضاء والقدر لنرى مدى اقتفاء القادرية لهذه النصوص عندما نعرض بعضا من نصوصهم في هذه العقيدة .

قال أحمد المقري :

(وواجب إيماننا بالقــــدر ... خير وضده كما في الخيــر

وذو السعادة السعــيد في الأزل ... وضده الشقي حيثما نــزل

وكلهـــم ميسر لما خلـــق ... له فداج أمره ومؤتلـــق

والكل لايخرج عن حكم القضا ... وليس ما أظلم مثل ماأضـا) (٥)

ويقول ابن عاشر في نظمه لحديث جبريل المتقدم مبينا قواعد الإسلام وأركان الإيمان : (وقدر كذا صراط ميزان ... حوض النبي جنة ونيران) (٦)

---

(١) النووي على مسلم جـ ١ / ص ١٥٤ .

(٢) انظر الابانة عن أصول الديانة ص ٧٠ وما بعدها . وشرح الطحاوية ص ٢١٧ وما بعدها .

(٣) صحيح مسلم ، المقدمة . حديث جبريل عليه السلام ، باب إثبات القدر .

(٤) النووي على مسلم جـ ١ / ص ١٥٦ .

(٥) الاضاءة ص ٨٢ . ٨٣ .

(٦) ابن عاشر بشرح ميارة ص ٥٨ .

وقال الشارح : (والقضاء عند الأشعرية إرادته الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال ، والقدر إيجاده إياهاعلى قدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها أو أفعاله ، أو القضاء علمه أزلا بالأشياء على ما هي عليه ، والقدر إيجاده إياها على ما يطابق العلم) (١)

وتبعه على هذا البيان ابن بون في الوسيلة .

فقال : (ولا خلاف أن من قد أنكرا قدره في كل قول كفرا)

إلا أن ابن بون يؤكد على القول بالكسب وهومن أهم مسائل القدر لتعلقه بالمشيئة والقول بخلق أفعال العباد فيقول :

ويكسب العبد بقول وعمـل وباعتقاد القلب خير أو زلل

والكسب والمكسوب مخلوقاني كالعبد للمهيمن المنـان) (٢)

ويعد القول بالكسب ميلا إلى الجبر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية

وأقرب تعريف للكسب هو أنه : عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة .

وبما أن الكسب محاولة للتوسط بين نقيضين أو للرد على متعارضين هما مذهب الجبرية القائل بأن العبد مجبور لا اختيار له . ومذهب المعتزله القائل بأن العبد يخلق فعله لذا لم يكن واضحا لكثير من الناس ، ولأنه كذلك ينفي تأثير العبد في حدوث فعله مكتفيا بالقول بالمقارنة التي يخلقها الله عند إرادة العبد للفعل (٣) لهذا وغيره اعترض عليه حتى قيل بأنه لا يعقل ، وأن فعل العبد فعل له حقيقة (٤)

---

(١) نفسه ص ٦٩

(٢) نظم الوسيلة ص ٣٤ . ٣٥ .

(٣) مجموعة الرسائل الكبرى الرسالة الثامنة الارداة والامر ص ٣٥٧ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٧ و٤٤٢ .

على أن العبارات والردود الورادة عن أبي الحسن الاشعري وخصوصا في رده على الجبرية والقدرية في الإبانة ، وحكايته لجملة ما عليه أهل الحديث والسنة في كتاب المقالات والتي قال بأنه يقول بكل ما قالوه فيها ويذهب إلى ما ذهبوا إليه (١) لم نجد في نصوصه هذه ما يدل على هذا الكسب الموصوف بالغموض وعدم المعقولية ٠

قال في المقالات : (وأقروا أنه لا خالق إلا الله وأن سيئات العباد يخلقها الله ، وأن أعمال العباد يخلقها الله عز وجل وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئا ، وأن الله سبحانه وفق المؤمنين لطاعته وخذل الكافرين ٠٠٠ إلى أن قال . وأن الخير والشربقضاء الله وقدره ويؤمنون بقضاء الله وقدره خيره وشره حلوه ومره ، ويؤمنون أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله كما قال ٠٠٠) (٢)

قلت : وأولى عندي أن يفهم من كلامه في هذين الكتابين في هذا الموضوع القول بالجبل لا بالجبر أو الميل إليه ، والجبل يشهد له الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح (٣) ولكن قريب من القول بالكسب قول الطحاوي في عقيدته :

(وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد) (٤) على أن ابن أبى العز الحنفي بين مراد المؤلف من هذه العبارة ورد على الطوائف المخالفة في هذه المسألة (٥) وقال : (فالحاصل : أن فعل العبد فعل (له حقيقة) ، ولكنه مخلوق لله تعالى ، ومفعول لله تعالى ، ليس هو نفس فعل الله ففرق بين الفعل والمفعول ، والخلق والمخلوق ٠ وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله : وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد أثبت للعباد فعلا وكسبا ، وأضاف الخلق لله تعالى ٠ والكسب هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضركما قال تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (٦)

---

(١) الإبانه عن أصول الديانة ص ١٤ . ١٩ و ٢٣ . ٢٥ و ١٩٦ وما بعدها ٠ كتاب مقالات الإسلامين ص ٢٩٠ . ٢٩٧ ٠

(٢) مقالات الإسلامين ص ٢٩١ . ٢٩٢ ٠

(٣) انظر : مجموعة الرسائل الكبرى ص ٣٤٤ . ٣٤٦ ٠

(٤) نص العقيدة الطحاوية بتعليق عبد العزيز بن باز . مكتبة الطرفين ص٢٤ ٠

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٣ . ٤٤٢ ٠

(٦) نفسه ص ٤٤٢ والآية من سورة البقرة ٢٨٦ ٠

عـــــــــــرض

وعلى ضوء هذا العرض يمكن أن تفهم النصوص الآتية من كتب القادرية : قال المختار الكنتي : (ومن الأمور التي لا يتم الايمان إلا بها اعتقاد صحة قدرة الله تعالى والتسليم له في إمضاء قدره خيره وشره حلوه ومره) (١) .

وقال في شرحه لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) : (.. فهو كما وصف نفسه لا كما يقول الجاهلون (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) (٢) علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره لا كما يقول الملحدون ، خلق الخلائق وأفعالهم وقدر حركاتهم وآجالهم لا كما تقولته عليه القدرية الضالون وجعل لنا قدرة مجازية كسبية وإرادة مجازية وعلما مجاريا كسبيا ليركب على ذلك التكاليف الشرعية والثوا ب والعقاب فقدرته تعالى الحقيقة التأثيرية قاهرة لقدرتنا المجازية الكسبية وإرادته الحقيقة التاثيرية قاهرة لإرادتنا وعلمه القديم الذي لا يتناها محيط بعلمنا . قال الله تعالى :﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ وما تشأون إلا أن يشاء الله﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) (٥) ، (٦)

وقال صاحب الضياء في وصفة لمقام الولي وترقيه في الشهود . على طريقة الصوفية .:

(... فيرى الأفعال مخلوقة لله تعالى شاربا من تحقيق حقيقة : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ (٧) فينتج له هذا الشهود عدم التسخط على الأقدار كائنة ما كانت .. والتسليم لله فيما يريده والرضى بالقضاء إن نزل) (٨) .

---

(١) المنة ص ١٠٧ .
(٢) سورة الأنعام الآية (١٠٣) .
(٣) سورة الانعام (آية ٦١) .
(٤) التكوير آية ٢٩ .
(٥) البقرة آية ٢٥٥ .
(٦) الكوكب الوقاد ص ٧٩ . ٨٠ .
(٧) سورة فصلت (الآية ٩٦) .
(٨) الضياء المستبين ص ١٢٦ .

ويقول صاحب نعت البدايات في نفس الموضوع عند الكلام على الشهود (... فأوله شهود الأفعال وذلك أن تشهد أن الأفعال كلها صادرة من الله ..) (١) .

ويقول صاحب جنة المريد : (وهو المتصرف في خلقة بمقتضى حكمته وقدرته وارادته وجميع ما يصدر في العالم من حركات وسكنات وخواطر وهمات ولمات وأدق من ذلك وأجل خلقا من خلقه ، وتصرفات العباد فيها كسب لهم ، فالخلق له جل وعز من جهة الاختراع ، والكسب للعبيد من جهة الاقتران والاختيار ...) (٢) ويقول صاحب نعت البدايات عند الكلام على التوكل والتكسب :

(يعني أن صاحب التوكل وصاحب التكسب كلاهما مدفوع فيما هو فيه من حيث لا يعلم ، وذلك أن كلا منهما مجبورا على ما هو عليه لقولهم : العبد محبور في قالب الاختيار) (٣) .

نقد :

هذه بعض نصوصهم التي توضح إيمانهم بالقضاء والقدر والتسليم لله في ذلك وينصون فيها على أن قدرة الله تعالى هي الحقيقية وقدرة العبد مجازية وأنه ليس للعبد إلا الكسب الذي يترتب عليه الثواب والعقاب ، وقد تقدم الكلام على الكسب وكلام المحققين فيه (٤)

وبهذا يعرف أن القادرية لم تخرج عن مذهب الأشاعرة في مسألة القضاء والقدر حيث يميل أكثرهم إلى مذهب الجبرية كما تقدم على أنه في نصوصهم من الالفاظ المجملة كالكسب والتأثير والجبر مالا يعرف مرادهم به (٥) على أنه يفهم من ردودهم

---

(١) نعت البدايات ص ٧١ .

(٢) جنة المريد ص ٣٠

(٣) فاتق الرتق على راتق الفتق بهامش نعت البدايات ص ١٣

(٤) انظر الفتاوى جـ ٨ / ص ١٢٨ .

(٥) نفسه جـ ٨ / ص ١٢٩ . ١٣٧ .

على القدرية والجبرية والمرجئة والمعتزلة والخوارج وغيرهم من الفرق أنهم لا يوافقونهم في مذاهبهم وما استدلوا به في باب العقائد .

من ذلك ما قاله المختار الكنتي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى وأتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسني فنيسره للعسرى ..) (١) قال : (وفي الآية دليل واضح لأهل السنة على صحة قولهم في القدر وأن التوفيق والخذلان والسعادة بيد الله تعالى ووجوب العمل مع ما سبق له في الأزل) (٢) ورد عليهم في عدد من كتبه ناقلا كلام السلف في تكفيرهم واصفالهم بأهل البدع والزيغ والاهواء . (٣) وتبعه على ذلك ابنه الشيخ سيدي محمد (٤) والشيخ ماء العينين حيث عدهم في أصناف الهالكين (٥) على أنني لم نجد لهم نصا يمكن أن يفهم منه الاحتجاج بالقدر أو القول بالاباحة أو سقوط التكاليف والله أعلم

---

(١) سورة الليل (الآية ٧) .

(٢) الكوكب الوقاد ص ٩٦ .

(٣) فتح الودود ص ٦٧ وما بعدها . والمنه ص ١٠٧ وما بعدها وجذوة الانوار ص ٢٠ . ٢٥ و ٨٢ . ٨٣ والشموس الاحمدية ص ٣٧ . ٤٠ .

(٤) الغلاوية ص ١٢٠ و ٢٣٥ والصوارم الهندية في حسم الدعاوي المهدية ص ١٠ . ١٥ .

(٥) فاتق الرتق على راتق الفتق ص ٣٧ . ٣٨ .

الفصل الرابع

الفصل الرابع

عقيدتهم في الملائكة والنبوة

ويشتمل على مبحثين

المبحث الأول : عقيدتهم في الملائكة

المبحث الثاني : عقيدتهم في النبوة

المبحث الأول : عقيدتهم في الملائكة .

التعريف : الملائكة واحدها ملك أصله .. ملأك على وزن مفعل ، من لأك إذا أرسل ، وجمعه ملائكة على وزن مفاعلة) (١)

قال ابن جرير الطبري : (واصل الملأك : الرسالة ، كما قال عدي بن زيد العباد :

- أبلغ النعمان عنى ملأكا إنه قد طال حبسي وانتظاري

إلى أن قال : (فسمت الملائكة ملائكة بالرسالة لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه ومن أرسلت إليه من عباده) (٢) .

وقد ورد الكتاب والسنة بوجودهم ووجوب الايمان بهم كما جاء في حديث جبريل عليه السلام وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان وفيه : (فقال : ما الإيمان ؟ قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته) (٣)

قال الحافظ بن حجر : (قوله (وملائكته) الإيمان بالملائكة هو التصديق بوجودهم وأنهم كما وصفهم الله تعالى (عباد مكرمون) (٤)

وقال الألوسي في روح المعاني مبينا اختلاف الناس في حقيقة الملائكة : (واختلف الناس في حقيقتها بعد اتفاقهم على أنها موجودة سمعا وعقلا ، فذهب أكثر المسلمين إلى أنها أجسام نورانية ، وقيل هوائية قادرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة بإذن الله تعالى) (٥)

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ص ٤٤٤ـ ٤٤٧ .
والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ـ تفسير ابن عطية جـ ١ص ٢٢٦ .
والقاموس المحيط جـ ٣ص ٣١٧ و ٣٢١ .

(٢) تفسير الطبري جـ ١ ص ٤٤٥ ـ ٤٤٧ .

(٣) فتح الباري جـ ١١ ص ١١٤ .

(٤) نفسه ص ١١٧ والآية من سورة الأنبياء ٢٧ وأنظر أضواء البيان جـ ٤ ص ٥٦٠ ـ ٥٦١ .

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محمود الألوسي البغدادي إحياء التراث العربي ببيروت جـ ١ ص ٢١٨ .

عـــــــرض

أما عقيدة القادرية في الملائكة فإليك نصوصهم التي يعرف منها اعتقادهم فيهم عليهم السلام .

عند استعراض ماكتبه القادرية عن الملائكة يجد الباحث نقولا كثيرة من كتب التفسير والسنة وشراحها ، وآثار عن السلف الصالح في عظم خلقتهم وشدة خوفهم وعدم انقطاع عبادتهم ، وقوة إيمانهم ونصحهم للمؤمنين بالاستغفار (١) . وميزة ما كتبوه عن الملائكة أنهم ربطوه بنصوص الكتاب والسنة إذ لايمكن أن يعرف شيء عن الملائكة إلا عن طريق الوحي المعصوم (٢)

يقول المختار الكنتي : (ومن شرف الإيمان أن الله تعالى مدح به حملة عرشه ومع عظم أجسادهم وقوتهم يرجفون من مخافة الله عزوجل لاينطقون إلا بذكر الله وهم من أشرف الملائكة ، قال الله تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ﴾ الآية (٣) ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ (٤) . وهم من أشرف الملائكة وأفضلهم لقربهم من الله عزوجل وهم على صورة الأوعال) (٥) (وأن إيمان الملائكة لايزيد ولا ينقص (٦) وبعدما فسر قول الله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) (٧) .

---

(١) المنة ١٥٣ ـ ١٥٧ .

(٢) انظر : التمهيد لابن عبد البرج ٧ ص ٢٤٥ .

(٣) الآية من سورة غافر (آية ٧) .

(٤) الآية من سورة الحاقة (آية ١٧).

(٥) المنة ص ١٥٣ . وحديث الأوعال المشار إليه ضعفه بعض العلماء وهو حديث رواه أبو داود في كتاب السنة رقم (٤٧٢٣) ورواه الترمذي في التفسير عند سورة الحاقة ولكن قال بأنه حسن غريب طعن فيه بالاضطراب والانقطاع . راجع عارضة الاحوذي جـ ١٢ ص ٢١٨ وقارن بما في تهذيب ابن القيم لمعالم السنن للخطابي عن الحديث المذكور رقم (٤٥٥٨) انظر التمهيد لابن عبد البر جـ ٧ ص ١٤٠ وشرح الطحاوية بتعليق الألباني ص ٢٥٠ .

(٦) الكوكب الوقاد ص ١٠٨ .

(٧) البقرة (الآية ٢٨٥) .

إلى أن قال :(وأما الايمان بالملائكة فهو أن تؤمن بوجودهم وأنهم معصومون مطهرون وأنهم السفرة الكرام البررة وأنهم الوسائط بين الله تعالى وبين رسله) (١)

وأن أجسامهم لطيفة نورانية (٢) وأن جبريل وميكائيل أفضل الملائكة بدليل عطفهما بالذكر في قوله تعالى : ﴿ من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ (٣) .

إلى أن قال : (وأن الايمان بهم من الإيمان بالغيب الذي لا إيمان بدونه

عصمتهم : وقال في عصمتهم : (وأما عصمة الملائكة فقد جاء بها نص الكتاب والسنة قال الله تعالى :(لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) . (٤)

كما يدل على ذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عصمة الملائكة فقال : إن الله فطرهم على الطاعة وجبلهم عليها فهم يذكرون الله لا يفترون ويعبدونه لا يسأمون ، اقرؤا إن شئتم (إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته (٥) . ومع ثبوتها بالنص فإنها لا تجب لهم على الله وإنما هي مجرد فضل منه .

المفاضلة بين الملائكة والبشر :

ولا تقتضي عصمتهم تفضيلهم على البشر بل البشر أفضل من الملائكة كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ﴾ - إلى قوله : ﴿ على كثير ﴾ الآية (٦) قال جمهور أهل

---

(١) الشموس الأحمدية ص ٤ .

(٢) المنة ص ٥٦ والآية من سورة البقرة (آية ٩٨) .

(٣) المنة ص ١٤٥ .

(٤) الآية من سورة التحريم (آية ٦) .

(٥) سورة الأعراف (الآية ٢٠٦) جذوة الأنوارص ٨١ .

(٦) سورة الإسراء (آية ٧٠) .

السنة والجماعة خواص بني آدم وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل (يعني ملك الموت) وحملة العرش والكروبيون والحافون والروحانيون ، وخواص الملائكة أفضل من عوام بني آدم قال التفتزاني (١) وعليه الاجماع ، وعوام بني آدم أفضل من عوام الملائكة ، والمسجود له أفضل من الساجد فإذا ثبت تفضيل العوام لعوام الملائكة فإن عوام الملائكة خدم عمال الخير من بني آدم والمخدوم له فضل على الخادم ولأن المؤمنين ركب فيهم الهوى مع تسليط الشيطان عليهم بوسوسته ، والملائكة ركب فيهم العقل دون الهوى ولا سبيل للشيطان عليهم فالإنسان يحصل الفضائل والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق والموانع والشهوة والغضب ، وسنوح الحاجات الضرورية الشاغلة عن اكتساب الكمالات ولا شك أن العبادة وكسب المال مع الشواغل والطوارىء أشق وأدخل في الاخلال فيكون الإنسان بهذا الاعتبار أفضل) (٢) .

قلت : هذه حكاية صاحب هذا النص لمذهب جمهور أهل السنة في العقيدة في الملائكة وحكم المفاضلة بينهم وبين بني آدم ثم قال : (والمراد بعوام بني آدم هنا الصلحاء لا الفسقة كما نبه عليه العلامة ابن أبي شريف المقدس وكما نص عليه البيهقي في شعب الايمان) (٣) .

---

(١) هو السعد التفتازاني : مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني ، سعد الدين . وقال في الحديث رواه ابن ماجه ورجاله رجال الصحيح . قلت : لم أهتد لمكانه في ابن ماجه ، ولم نجده في كتب التفسير عند الآية المذكورة أو غيرها مما تذكر عند المفاضلة بين الأنبياء والملائكة ـ انظر القرطبي ج ٢ ص ٢٦١ وما بعدها ج ١١ ص ٢٧٧ وما بعدها . وذكر البيهقي آثارا عن ابن عباس في المفاضلة ليس فيها هذا اللفظ ـ انظر : شعب الإيمان ج ١ ص ١٧١ وما بعدها . له مقاصد الطالبين في علم الكلام وشرحه انظر الأعلام للزركلي ج ٧ ص ٢١٩ .

(٢) نفس المصدر من ص ٨١ ـ ٨٢ .

(٣) جذورة الانوار ص ٨٢ قارن بما في شعب الإيمان ج ١ ص ١٧١ .

ثم نقل نص عبارة الإمام البيهقي فقال :

(وعبارته : قد تكلم قديما وحديثا في الملائكة والبشر فذهب ذاهبون إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة (١) فإن احتج محتج لفضل الملائكة على البشر بثبوت عصمتهم بالنص دون البشر رد عليه بأن القاعدة بأنه قد يختص المفضول بخصائص وكرامات لم يحظ بها الفاضل ولا يقتضي رفعة رتبة عنه كمشي زيد أمام (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة ، لإدمانه على صلاة الركعتين ولا يقتضي ذلك أفضليته على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن عصمة الملائكة ولو ثبتت بالنص فإن ذلك لايخرجها عن كونها فضلا من الله عليهم ، وإلا لما استوجبوها لذواتهم ولما كانت واجبة على الله لهم لأنه لايجب عليه شيء لخلقه ، وإنما يوجب ماشاء على نفسه وجوب جزم لاوجوب تحتم قال الله تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (٣) .

وقال : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) (٤) وقال في حق البعث : (يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) (٥)

---

(١) إلى هنا موافق لعبارة البيهقي ، شعب الايمان جـ ١ ص ١٧١ .

(٢) قلت : هذا وهم والرواية ثابتة في الصحاح والسنن لبلال بن رباح رضي الله عنه وهذا لفظها في البخاري ، كتاب التهجد باب فضل الطهور بالليل والنهار ، وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار (رقم ١١٤٩) (عن أبي هريرة رضي الله عنه : (أن البني صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر : يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة . قال : ماعملت عملا أرجى عندي أني لم أتطهر طهورا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصليه) قال أبو عبدالله ـ البخارى : دف نعليك يعني تحريك .) قلت: وفي روايات الحديث ألفاظ وزيادات أخرى

(٣) الأنعام الآية ٥٤ .

(٤) المجادلة الآية ٢١ .

(٥) الأنبياء الآية ١٠٤.

ويتابع نقولاته ومناقشاته مبينا المذاهب الأخرى فيقول : (فذهب طائفة المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة إلى تفضيل الملائكة وهو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني وأبي عبد الله الحليمى ، أما المعتزلة والفلاسفة فقد تمسكوا بوجوه ، منها : أن الملائكة أرواح مجـردة كاملة بالفضل مبرأة عن الشرور والآفات كالشهوة والغضب ، وعن ظلمات الهيولى والصورة قادرة على الأفعال العجيبة عالمة بالكوائين ماضيها وآتيها من غير تخليط) .

ثم أخذ في رد أقوالهم هذه قائلا :

(ولا حجة فيما قالوه لأنهم إنما نطقوا بألفاظ تخمينية وزخارف أقوال شيطانية مبناها أحوال فلسفية لاحقائق إسلامية ، قال الله تعالى : ﴿ شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾ (١) ٠ فإنه لا يلتفت إليها ولا يعول عليها إلا جاهل مستدرج أو (قال) مبهرج ـ قلت : لم يعين القائل ثم قال : وأما القاضي أبي بكر الباقلاني وأبو عبد الله الحليمي ومن نحا منحاهما من الأشاعرة فقد استدلوا على فضل الملائكة على البشر بدلائل : منها : (أولا : أن الأنبياء مع كونهم أفضل البشر ، إنما يتعلمون ويستمدون من الملائكة بدليل قوله تعالى : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ (٢) وقوله : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ (٣) الثاني : أنه اطرد في الكتاب والسنة تقديم ذكرهم على ذكر الأنبياء ، وما ذلك إلا لتقدمهم في الشرف في الرتبة الثالث : قوله تعالى : ﴿ لن يستنكـف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكـة المقربون﴾ (٤) لأن أهل اللسان يفهمون من ذلك أفضلية الملائكة على عيسى إذ القياس

---

(١) سورة الأنعام (آية ١١٢) ٠

(٢) سورة النجم (الآية ٥) ٠

(٣) الشعراء (الآية ١٩٣ ـ ١٩٤)٠

(٤) النساء (الآية ١٧٢) قلت : هكذا بالنص (فكلما) والاملاء يقتضى فصل كل عن ما الموصولية ـ (فكل ما) ص ٤٢٦ ٠

في مثله الترقي من الأدنى إلى الأعلى يقال : لا يستنكف من هذا الأمر الوزير ولا السلطان ، ولا يقال : السلطان ولا الوزير .

ثم إن ماجاز على عيسى يجوز على سائر الأنبياء لأن منصب النبوة واحد (فكلما) جاز على البعض يجوز على الكل ، وإنما يتفاضلون بعد ذلك فى المزايا) ثم قال : قلت : (وليس فيما ذكره هؤلاء دليل صريح على أفضلية الملائكة على البشر . فإن الجواب عن الأول : أن التعليم من الله تعالى ، والملائكة إنما هم مبلغون وسفراء بين الله وبين رسله من البشر . وعن الثاني : إن تقديمهم في الكتاب والسنة لم يكن عن فضل ولا شرف وإنما ذلك لتقدمهم في الوجود أو لأن وجودهم أخفى فالإيمان بهم أقوى وبالتقديم أولى ونظيره قوله تعالى : ﴿ يامعشر الجن والإنس ﴾ (١) وقوله وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٢) .

ومعلوم ضرورة أن الإنس أفضل من الجن وإنما قدمهم لتقدم وجودهم أو لخفيتهم لا لفضل ثمه .

وعن الثالث : أن النصارى لما استعظموا المسيح بأن يرتفع عن أن يكون عبدا من عباد الله بل ينبغي أن يكون ابنا له لأنه مجرد لا أبا له وكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحي الموتى بخلاف سائر العباد من بني آدم ، فرد عليهم لأنه لا يستنكف من ذلك المسيح ولا من هو أعلى منه في المعنى وهم الملائكة الذين لا أب لهم ، ولا آم . ويقدرون بإذن الله على أفعال أعجب وأقوى من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، والترقي والعلو إنما هو في أمر التجرد وإظهار الآثار القوية لا مطلق الشرف والكمال ، فلا دلالة حينئذ على أفضلية الملائكة على البشر باعتبار ما يقتضيه ظاهر هذه الآية الشريفة إلا أن الملائكة بعضهم أفضل من بعض .) (٣) .

---

(١) الرحمن (الآية ٣٣).

(٢) سورة الذاريات (الآية ٥٦) .

(٣) جذوة الأنوار ص ٨١ ـ ٨٣ .

وقد توسع صاحب هذا النص في مسألة عصمة الملائكة بالنص والمفاضلة بينهم وبين بني آدم في غير ماكتاب له (١) وكلامه متفق ونقوله عن علماء أهل السنة في هذه العقيدة كثيرة وعندي أن كلامه في توضيح عقيدة القادرية في الملائكة موافق لعقيدة أهل السنة والجماعة بالمقارنة بما في شرح العقيدة الطحاوية (٢) وصيد الخاطر لابن الجوزي (٣)، ولا يوجد الكثير عن الملائكة في كتب القادرية غير ما ذكر إلا عبارات قليلة يقتصر أصحابها فيها على أنه يجب الإيمان بهم ، وأنهم عباد لله مكرمون، لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم فيما بينهم متفاضلون ، وأنهم بالوحي وكتابة أعمال العبد والحفظ وغير ذلك من أعمالهم المذكورة في القرآن الكريم والسنة على أكمل وجه قائمون ، وأنهم لايعلمون إلا ما علمهم الله ، وعن عبادته تعالى لا يفترون (٤) .

وعلى هذا فيمكن الجزم بأن عقيدتهم في الملائكة لا غلو فيها وأنها مستمدة من نصوص الكتاب والسنة وعقيدة أهل السنة والجماعة . والله اعلم .

---

(١) المنة ص ٨٤ و ١٥٢ ـ ١٥٧ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٤٩ ـ ٢٦٧ و ٢٧٢ ـ ٢٨٨ .

(٣) صيد الخاطر ، لعبد الرحمن بن الجوزي ، دار الكتب العلمية ببيروت ص ٧٣ ـ ٧٥ .

(٤) انظر : المنة ص ١٤٦ و ١٤٨ و ١٥١ ـ ١٥٤ وبذل الوسع في تفسير الآيات التسع ص ٧٢ ـ ٨٠ والضيـاء المستبين ص ٢٨٦ ، ونعت البدايات ص ١٠٢ وجنة المريد ص ٣١ .

المبحث الثاني : عقيدتهم في النبوة

التعريف : قال صاحب القاموس : (والنبي كغني الطريق ، والنباوة ما ارتفع من الأرض كالنبوة والنبي وبالكسر النبوة) (١) .

وقال في الصحاح : (والنبوة والنباوة : ما ارتفع من الأرض . فإن جعلت النبي مأخوذا منه ، أي أنه شرف على سائر الخلق فأصله غير الهمز ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وتصغيره نبي والجمع أنبياء) (٢) .

وقال في المعجم الوسيط : (النبوءة : سفارة بين الله عز وجل وبين ذوي العقول لإزاحة عللها) (٣) قلت : وفي هذا التعليل نقص ظاهر إذ مهمة الرسل أعم من ذلك فالنبوة في اللغة مأخوذة من الرفعة وعلو المكان وشرفه وهو (جبل النبوة) كما يسمية الندوي (٤) .

وفي الاصطلاح : سفارة والسفارة يصطفى لها ويختار (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير) (٥) قال ابن كثير : (يخبر تعالى أنـه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لابلاغ رسالاتـه (٦) .

وعمدة الدين الإيمان بالنبوة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولذا فلا ينكرها إلا البراهمة أو من له شبهة تقليد واتباع لآبائه ، وقد سجل القرآن الكريم تلك الشبه عموما ورد عليها الردود التي لا تقوم بعدها شبهة (٧) .

وعند استعراض ما كتبته القادرية عن النبوة نجده يدور حول المسائل الآتية : الايمان بالنبوة وأنها اصطفاء من الله تعالى ، وأنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء إجمالا ، وتفصيلا المذكورين في القرآن الكريم ، وأنه يجب في حقهم الأمانة والصدق والتبليغ .

---

(١) القاموس المحيط ج ٤ / ٣٩٣ .

(٢) الصحاح ج ٦ ص ٢٥٠٠ .

(٣) المعجم الوسيط ج ٢ ص ٨٩٦ .

(٤) النبوة والانبياء في ضوء القرآن ، أبوا الحسن علي الحسني الندوى ، دار القلم دمشق ط ٦ سنة ١٤٠٤ هـ ص ٢٥ .

(٥) سورة الحج الآية ٧٥ .

(٦) تفسير ابن كثير ج ٣ص ٢٣٥ والشفا ج ٢ ص ٧٢٦ وما بعدها .

(٧) العقيدة في ضوء القرآن الكريم ، صلاح عبد العليم ابراهيم ، مكتبة الازهر ط ١ سنة ١٤٠٢ هـ ص ٢٥٥ وما بعدها .

ويستحيل في حقهم ما يخالف ذلك ، ويجوز في حقهم من الأعراض البشرية ما لا يؤدي إلى التنفير منهم ، مع عصمتهم من الصغائر والكبائر وجميع الرذائل وأنهم ختموا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وبما أن نصوصهم في هذه العقيدة تأتي مشتتة وفي صور استطرادات ونقول من كتب أخرى فإن على الباحث أن يختار أكثرها صلة بالعقيدة الصحيحة سلبا أو إيجابا . وأقواها ضررا بها عند الانحراف عن الصواب مثل علم الغيب أو كتم شيىء من الوحي أو كون شيىء من أمور النبوة يورث ، وما المراد بالوراثه عند القادرية ؟ وستكون دارسة ونقد هذه النقاط بعد عرض النصوص الآتية إن شاء الله تعالى

عـــــرض :

قال المختار الكنتي : (واعلم أن صدق الرسل هو الأصل الذي يفتقر إليه جميع الأصول فبذلك ينبغي إفراغ الجهد في تعينه) (١) . وأخذ يعدد ويأتي بالبراهين العقلية والنقلية في وجوب صدقهم وأمانتهم وتبليغهم فقال : (والدليل على وجوب صدقهم قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيىء .. ﴾ إذ الرسل هم السفراء بين الله وبين خلقه ومظهر عظمته ويؤدي كذبهم إلى كذب ما أتوا به عن الله من جميع كتبه وذلك يؤدي إلى بطلان الأحكام ومحو الشرايع وذلك باطل وكل ما أدى إلى الباطل فهو باطل) ثم قال : (وأما الدليل العقلي فهو أن كذب الرسل يؤدي إلى كذب المرسل وكذب المرسل يؤدي إلى أحد أمرين كل منها باطـــل) ووجوب صدق الرسل يقتضي وجوب أمانتهم .

فبرهان وجوب أمانتهم من المنقول قوله تعالى : (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (٣) ووجوب الاقتداء بهم هو عين الائتمان ولا يأمن العليم الخبير إلا أمينا أي أمين ..

---

(١) الشموس الأحمدية ص ١٣ .

(٢) الانعام الآية ٩١ .

(٣) سورة الحشر الآية ٧ .

وأما برهان أمانتهم عقلا فهو أنهم لو خانوا في فعل من الأفعال لوجب أن يكون المنهي عنه مأمورا به ، والمأمور به منهيا عنه فيؤدي ذلك إلى أمر الله بمحرم أو مكروه وذلك باطل ...)

وأما دليل التبليغ نقلا فهو قوله تعالى : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته .. ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ عبس وتولي أن جاءه الأعمى .. ﴾ وقوله : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك وأتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس ﴾ (٣) وعقلا هو : أنهم لو جاز عليهم أن يكتموا البعض لجاز عليهم أن يكتموا الكل فيؤدي إلى قلب أعيان الحقائق ويكون ذلك قادحا في أصل رسالتهم الثابتة بالدليل . والبرهان وكل ذلك باطل وكل ما أدى إلى الباطل فهو باطل) (٤) . فهذه هي الأمور التي تجب للأنبياء جميعا ويستحيل عليهم ضدها : (وكما يحب للنبي عليه الصلاة والسلام الصدق والأمانة والتبليغ ويستحيل عليه ضد ذلك يجب لسائر الرسل لعلو منصبهم) (٥) . ثم يكمل مجمل أعتقادهم في الأنبياء فيقول :

(واعتقاد كون الإيمان فضلا لا كسبا كالنبوة وأن الأنبياء عليهم السلام أفضل من الأولياء وأن للأولياء كرامات فيما دون تجديد شرع محدث وأن للنبي صلى الله عليه وسلم خصائص وجوب وحلية (٦) دون سائر الأمة وأن الأنبياء عليهم السلام يشاركونه في كونهم ،

---

(١) المائدة الآية ٦٧ .

(٢) عبس الآيتان ١ . ٢ .

(٣) الأحزاب الآية ٣٧ .

(٤) الشموس الأحمدية ص ١٢ . ١٣ .

(٥) نفسه ١٢ .

(٦) كذا بالاصل : (وحلية) ولم تتبين المراد منها إلا أن حلية الرجل : صفته . فلعل صاحب النص أراد ما يتحلى به النبي صلى الله عليه وسلم من الشمائل والصفات الحميدة . والله أعلم .

لايورثون وفي حرمة نكاح أزواجهم من بعدهم وأن منهم أولي العزم يوحى إليهم يقظة ، وأن فضلهم على الجملة ، وأنه يجوز عليهم ما يجوز على سائر البشر مما لا يؤدي إلى نقص كالعمى والجذام والبرص ٠٠) (١) وكتب القادرية أيضا عن عصمة الأنبياء وتناولت آراء الناس فيها فقال المختار الكنتي في كتابه المنة (٢) (فصل في بيان عصمة الأنبياء وما قيل في ذلك ٠٠ قال الإمام فخر الدين الرازي : (اختلف الناس في عصمة الأنبياء وضبط القول فيها يرجع إلى أقسام أربعة :

أحدها : ما يقع في باب الاعتقاد وهو اعتقاد الكفر والضلال فإن ذلك غير جائز عليهم ٠

الثاني : ما يتعلق بالتبليغ فقد أجتمعت الأمة على كونهم معصومين من الكذب وتعمد المعاصي وإلا الارتفع الوثوق بالأداء ، واتفقوا على أن ذلك لا يجوز منهم عمدا ولا سهوا ومن الناس من يجوز ذلك عنده سهوا لأن الاحتراز منه غير ممكن ٠

الثالث : ما يتعلق بالفتيا وأجمعوا على أنه لا يجوز خطؤهم فيه على سبيل العمد وأجازه بعضهم على سبيل السهو ٠

الرابع : ما يقع في أفعالهم ٠٠٠) (٣) ٠

ونقل أقوال الناس في جواز الكبائر والصغائر في حقهم ، ومتى تكون عصمتهم ؟

وأن بعض الناس قال بأنها من يوم ولادتهم ، وبعضهم قال من يوم بلوغهم وبعضهم قال من حين جاءتهم النبوة (٤) ثم قال :

---

(١) الشموس الأحمدية ص ٤٦ ـ ٤٧ قلت : وإذا قورنت نصوصهم بما في إضاءة الدجنة وجد متطابقا ٠ انظرها ص ٥٥ ـ ٣٦ ٠

(٢) المنة في أعتقاد أهل السنة ص ٨٣ وما بعدها ٠

(٣) نفسه ص ٨٣ ٠

(٤) نفسه ص ٨٣ ـ ٨٤ ٠ قلت : لعله نقل كلام الرازي سن رسالته : (عصمة الأنبياء) وهي موجودة مخطوطة في أول مجموع في الخزانة العامة بالرباط (١١٨٠) وانظر الاعلام للزركلي جـ ٦ ص ٣١٣ ٠

(ومن الواجب اعتقاده والذي لايكمل الايمان إلا به أعتقاد براءة الرسل من تعمد الكبائر والاصرار على الصغائر ولو لم يرد ذلك بنص القرآن وإنما جاء في نصوص الأصوليين حتى كاد ينعقد عليه إجماعهم) (١) • وما أشار إليه هنا من إجماع الأصوليين وغيرهـم على عصمة الأنبياء قال فيه الإمام الشوكاني ما يأتي : (ذهب الأكثرمن أهل العلم إلى عصمة الأنبياء بعد النبوة من الكبائر وقد حكى القاضي أبو بكر إجماع المسلمين على ذلك وكذا حكاه ابن الحاجب وغيره من متاخري الأصوليين وكذا حكوا الاجماع على عصمتهم بعد النبوة مما يزري بمناصبهم كرذائل الأخلاق والدناءات وسائر ما ينفر عنهم •••) (٢)

ثم قال المختار الكنتي : (وعصمة الأنبياء إنما هي تفضل عليهم بعد نشأتهم في أصل فطرتهم فصار اعتقادنا كتبرئتهم من ذلك الجائز عليهم واجبة لتحصل الطمأنية للمتقتدي بهم ••) (٣) وأخذ المختار الكنتي في مناقشة وتفسير نصوص الآيات والأحاديث المصرحة بلفظ وقوع المعصية والذنب من بعض الأنبياء (٤) •

وقال : (فهذا مذهب الحق لموافقته لنصوص الكتاب والسنة وما عليه سواد الأمة بعيدا عن إفراط المعتزلة وغلاة أهل الكلام القائلين بأن عصمة الأنبياء واجبة ذاتا وأنها حق لازم لله تعالى فخرجوا بذلك عن الاسلام والاستلام حتى أفضى بهم إلى العناد وهو أن يستوجبوا على الله مالا يستوجبه لنفسه لأنه تعالى يقضي ولا يقضى عليه ويوجب ولا يوجب عليه (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) ، وعن تفريط جهلة القصاص والمؤرخين وبعض من لا علم له من المفسرين لأنهم ينسبون إلى أولياء الله وصفوته من خلقه من ارتكاب الكبائر والخوض فيما لايليق بآحاد المؤمنين فضلا عن أنبيائه وأوليائه الصالحين ، فشد على ما ذكرته لك يد الضنين وحافظ

---

(١) المنة ص ٨٤ •

(٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني دار المعرفة بيروت ص ٢٩ •

(٣) المنة ص ٨٤ •

(٤) جذوة الأنوار ص ٧٣ ـ ٨١ والمنة ص ٨٤ ـ ٨٥ •

عليه محافظة الخازن الأمين ، فإنه الحق القويم ، والصراط المستقيم) (١)

ويقول الشيخ سيدي محمد الكنتي في حق الأنبياء والرسل : (والإيمان بالرسل وأنهم أفضل خلق الله • وأفضلهم أولوا العزم وأفضل أولوا (٢) العزم نبينا ومولانا محمد الكريم (صلى الله عليه وسلم) عليه وعليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وأنه مما يجب لهم الصدق على كل حال والأمانة وتبليغ ما أمروا بتبليغه ويستحيل في حقهم ما نافى ذلك ، ويجوز في حقهم ما لا يؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية أو غض مناصبهم الرفيعة الجليلة) •

ويجمع مؤلفوهم على هذه العقيد في الأنبياء عموما (٣) ، وعلى ختم النبوة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتخلتف عباراتهـم في الحكم بختم النبوة به صلى الله عليه وسلم : (لايجوز أن يبعث الله بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بنبياً بشرع جديد يبين أحكاما مخالفة لما جاء به صلى الله عليه وسلم فإنه لا يقبل ولا يعول عليه ••) (٤) •

ويقول محمد الكنتي في معرض رده لقول غير المعصوم : (والخبر إما أن يكون من معصوم فما كان منه عن معصوم أفاد علما ملحقا بالمشاهدة ••• والرسول صلى الله عليه وسلم هو خاتمة الرسل وقد قال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (٥) ويروي محمد الكنتي حديثا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبين لا نبي بعدي) (٦) •

---

(١) جذوة الأنوار ص ٨١ يقان بما في أحكام القرآن لابن العربي عند قول الله تعالى : من سورة ص : (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة •) الآية جـ ٤ ص ١٦٣٣ وما بعدها •

(٢) جنة المريد ص ٣١ هكذا في النص (أولوا) والصواب : (أولي) هنا •

(٣) المنة ص ١٥٧ . ١٥٨ ودقائق الحقائق في حقائق الدقائق للشيخ التراد في ص ٣ •

(٤) جذوة الأنوار ص ٤ •

(٥) الصوارم الهندية ص ٢٣ والآية من سورة الحشر آية (٧) •

(٦) الغلاوية ص ٣٨ •

قلت : ومحل الشاهد من هذا الحديث قوله (وأنا خاتم النبين لا نبي بعدي) وقد وردت هذه اللفظة في أحاديث صحاح في البخاري ومسلم (١) إلا أنها لم ترد في حديث بهذا السياق الذي ساقه صاحب كتاب الغلاوية فلعله نقله من كتاب غير الذي وقفت عليه ، ولكن جاء في المسند وأبي داوود أحاديث فيها هذه الألفاظ عن أبي هريرة وغيره ، منها : (وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله) و (لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذابا دجالا كلهم يكذب على الله وعلى رسوله) (٢)

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة تبوك الحديث رقم (٤٤١٦) وصحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب ذكر أنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢٤ ص ٣١ ، ٤٢ . وسنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب في خبرابن صائد ج ٤ ص ٥٠٧ أرقام : (٤٣٣٣ و ٤٣٣٤) .

نقـــــد :

وعلى ضوء هذا العرض وبمقارنته مع عقيدة أهل السنة والجماعة يمكن أن يقال بأن القادرية التزمت منهجا صحيحا في العقيدة في النبوة من كونها اصطفاء من الله تعالى: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (١) وكذلك فيما يجب للرسل الكرام من الأمانة والصدق والتبليغ وما يستحيل عليهم مما يخالف هذه الواجبات ، وكذلك في تفضل الله تعالى عليهم بالعصمة في البلاغ والحفظ والصيانة على كل حال وأنهم لا ينطقون عن الهوى ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ وأنهم صلوات الله وسلامه عليهم ختموا بنوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك يوافق استدلالهم على إثبات هذه العقيدة بالعقل والنقل ما عليه أهل السنة والجماعة (٣) وهم معتمدون في غالب نقولهم واعتقادهم في هذه العقيدة بعدنصوص الكتاب والسنة على كتاب الشفا للقاضي عياض بدليل كثرة نقولهم عنه تصريحا (٤) وموافقة بعض نصوصهم لنصوصه (٥) .

قلت : ولا ينبغي لمسلم أن يخل بشيىء من هذه العقائد على أي وجه كان من تأويل أو شبهة إلا أن الباحث يجد بعض النصوص التي يؤخذ منها أن القادرية أخلت ببعض هذه العقائد التي صرحت بإيمانها بها ابتداء من وحدانية الله وانفراده بالتصرف في الكون والتدبير وإحاطته بالغيب وإخلاص العبادة له وحده وأنتهاء بأمانة أنبيائة ووجوب تبليغهم لرسالاته وعصمته لهم دون غيرهم من الإنس ، وكان هذا الإخلال تحت غطاء دعوى الولاية الذي أدخلت من بابه الشيعة ومن أخذ عنهم من الصوفية في أبواب العقائد الإسلامية ما لايستقيم معه إيمان ولا يصح معه إسلام . ولذا فقد كانت الولاية وختمها في خطة البحث تأخذ شكل المبحث الصغير ولكن نظرا لأهميتها وخطورة العقائد التي أدخلت في القادرية بسببها أقتضت مصلحة البحث أن يخصص لها فصل يشتمل على مباحث حتى يعرف مدى أثرها على عقائد القادرية وبثتها وهو الفصل الخامس .

---

(١) الآية من سورة الأنعام ١٢٤ .

(٢) الآية من سورة النجم آية ٤ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٩٧ . ١١٩ وعقيدة ختم بالنبوة المحمدية ص ٩ . ٢٩ .

(٤) الكوكب الوقاد ص ١٠٢ . ١٠٤ وبذل الوسع في تفسير الآيات التسع ص ٦١ . ٦٢ .

(٥) الشفا جـ ٣ ص ٩٠٠ وما بعدها والجزء الثالث جـ ٣ ص ٢٩٧ وبذل الوسع ص ٤٤ و ٥٦ .